

مكتبة

مكتبة

سوزان أورلين



سارق الأوركيدا

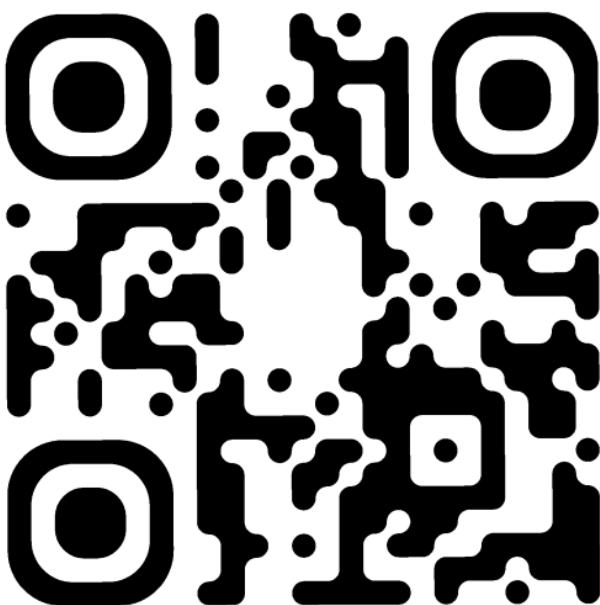
قصة حقيقة تحكي الجمال والهوس



ترجمة: وائل بحري

انضم لمكتبة .. اسعح الكور

انقر هنا .. اتبع الرابط



telegram @soramnqraa

سارق الأوركيدا

قصة حقيقة تحكي

الجمال والهوس



Author: Susan Orlean

Title: The Orchid Thief «A True Story of Beauty and Obsession»

Translated by: Wael Bahri

P.C.: Al-Mada

First Edition: 2024

اسم المؤلف: سوزان أورلين

عنوان الكتاب: سارق الأوركيدا (قصة

حقيقة تحكي العجمال والهوس)

ترجمة: وائل بحري

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2024

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Susan Orlean – 1998



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

+ 964 (0) 790 1919 290

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjeh Haddad Street - from 29 Ayar Street

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 963 11 232 2276

+ 963 11 232 2275

+ 961 175 2617

+ 961 706 15017

+ 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

+ 961 175 2616

11 4 2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

سوزان أورلين

مكتبة
t.me/soramnqraa

سارق الأوركيدا

قصة حقيقية تحكي الجمال والهوس

ترجمة: وائل بحري



«عمل مشوق... وحكاية فريدة وغريبة تنم عن إبداع صحافية في أبهى عطائها».

constitution - صحيفية أتلانتا

«تعتبر أورلين مرشداً سياحياً مميزاً، عبر سردها للثقافة الفرعية الجنونية لدى عشر الأوركيدا في فلوريدا، وكاتبة تناسب عباراتها كفتح أزهار نادرة؛ كما في قولها في وصف للهواء فوق بواليع مستنقع الأوركيدا «مفعم بثقل محملي رطب راكد ومتماوج»».

- تايم

«قراءة مترعة بالمعلومات ومسلية ومرحة. تنسجم رشاقة أورلين في السرد السلس مع حالات شغف عشاق كتابها الأوركيدا، في كتاب يفتح كزهرة على نحو إيجابي برفقة مشاهد أخاذة وشخصيات غريبة الأطوار».

- التايم سياتل.

«سواء كانت عبارتها هتافية النبرة أم مضافة، لا تفارق الابتسامة شفتي (أورلين) أثناء الكتابة. تلهو بأي شيء. لا بد لك من إبداء الإعجاب بمؤلفة أشد ما تمقته هو الاستهزاء وسط مياه معرفة بالطمي وموبوعة بالتماسيع، بوجود رفاق

مشبوهين لا يقلون شبهة عن حفل العمل من سجن محلّي، ومع ذلك فقد فعلت هذا بهدف استخلاص الحكاية. وبغية إيصال رسالة لا تقدر بثمن: «كم أكره السير وبيدي أعواد الثقب برفقة المدانين». في موقف أورلين، كان الكره شعوراً مفهوماً تماماً. حين كنت أجلس، آمنة وجافة على كرسي القراءة في غرفة معيشتي الخالية من الأوركيدا، عرفت شعوراً مختلفاً: الحب من القراءة الأولى».

- سان ديغوا يونيون - تريبيون

«تمثل موهبة أورلين في رهافة أذنها في الاستماع إلى حوارات المكاشفة الذاتية، وعينها في التقاط التفاصيل المتناقضة المقنعة، ورشاقة كرشاقة ديدون^(١) في الوصف. حرضت مناظر ولاية فلوريدا الطبيعية وجون لاروش شيئاً من أجمل كتاباتها. شبهت وقفه لاروش «بالمعكرونة الناضجة بشكل مثالى» و«قوامه وهيئته بعلاقة المعاطف». كتبت عن جمال فلوريدا: تبدو مروج العشب تحت أشعة الشمس أشبه بساحات من الحرير الخام... جميلة كجمال سجاده فارسية - وافرة ومتشعبه وخصبة، وتکاد تكون رتبة في غناها». تعتبر استحضارات طرية بهذه ميرراً كافياً لقراءة كتاب أورلين هذا؛ وفرة المعلومات تعتبر صلصة العمل».

- بوسطن صنداي غلوب

«كتاب ممتع وباهر وغريب، ساحرُ بقدر سحر العينات البشرية التي يتناولها».

- نيويورك دايلي نيوز.

«إن الجمال المرهف للأزهار المدهشة يلهم هواة الجمع الغربيي الأطوار والموردين ذوي الذكاء العميق على حد سواء في لغز التهريب في جنوب فلوريدا الحقيقي هذا».

(People) «Worth a Look» feature –

«إن كنت من محبي (منتصف الليل في حديقة الخير والشر)⁽¹⁾، فسوف يستحوذ عليك هذا العمل الواقعى بقلم سوزان أورلين ويهرك. شأنها شأن الكثير من الأوركيدا، هذا جنس صنف هجين ومبدع من القص: في جزء منه حكاية جريمية، وفي جزء آخر قراءة غريبة. تحت قيادة الشخصية الرئيسية، وهو مهرب نباتات ذو شخصية كارزمية، سوف نمضي مع أورلين في غياه布 ثقافة فرعية ساحرة بصورة غريبة، تكاد تكون باطنية».

– غلامور

«من بين ما قرأت، لم ينجح أحد في وصف فلوريدا لي بالأسلوب الذي فعلته سوزان أورلين في سارق الأوركيدا سوى كارل هياسين، حيث يجسد عملها وبراعة فائقة شخصية ولاية الشمس الساطعة العجيبة، تفاؤلها المحموم، عواصف شغفها الإعصارية، حرارة الأحلام المتقدة التي ليست مشروعة دائمًا الأمر الذي وسم سكانها بسمعتهم السيئة. قامت أورلين بصياغة حكاية كلاسيكية عن الرغبة المغيرة والعطرة والذكية والمسليّة المدارية».

– بوب شاكوشيس.

«لقد تولى ذكاء وظرافة أورلين أمر وصف ثقافة جنوب

فلوريدا الهجينة وصفاً أخاذًا حتى بدت كأنها خارجة من إحدى حكايات الكوميديا السوداء للروائي كارل هياسين - مع فرق جوهري: هياسين اختلف تلك القصص أما أورلين فلم تفعل».

- أورلاندو سيتينيل.

«ساحرة إلى أبعد حد... حية ودرامية... تعتبر (أورلين) مرشدًا استثنائيًّا من أجل القيام بجولة في رحاب موضوع غامض وجميل كهذا».

- ديفير بوسن

«هذا كتاب جديد ممتع وشيق في جلٌ صفحاته... لقد تفوقت أورلين في الوصف المادي والشخصيات. ما إن تقلب عدة صفحات من سارق الأوركيدا، حتى تشعر بنفسك وقد غمرتك رطوبة فلوريدا».

- ميمفس كوميرشال أبيل.

«سارق الأوركيدا من أجمل ما قرأت منذ سنوات في أدب الواقع: شخصياتها مثيرة للغاية وغريبة على نحو رائع لكونها تخرج من الرواية، إلا أن هؤلاء بشرٌ حقيقيون. تحمل سارق الأوركيدا في طياتها كل ما نتوقعه من عمل أدبي مثالى. تفتح أعيناً على عوالم جديدة غير عادية وتحرك مشاعرنا حيال بشير العالم مليء بهم. تعتبر سوزان أورلين كاتبة صاحبة موهبة عظيمة. سوف أتبعها حيثما كانت».

- جيمس دبليو هوول.

«قصة أورلين الحقيقة، عن مهربين وجوايس وتفاصيل المستنقعات، تناقض تلك المؤامرة الغامضة في منتصف الليل

في حديقة الخير والشر. ما من مؤلف يبحث عن بطلٍ قد يجد أفضل من سارق أوركيدا فلوريدا جون لاروش، الذي، عندما لم يكن يخرق القانون، عرّفها على العالم المحموم للهوس بالنباتات. كانت النتيجة تدوين ما يشبه وثيقة تاريخية غريبة تكفي لإمتناع حتى أولئك الذين يقتلون الصبار».

- ماري كلير.

«عملٌ غامض بشكل يدعو للعجب، وشهوانية على نحو غريب... تحوك أورلين قصة عن الجشع، والحماية الفيدرالية وشهوة مدقّة الزهرة. وهي قصة مقنعة بلا تكلف كما هي أعمال راي蒙د تشاندلير البوليسية».

- فيلاديلفيا سيتي بابر.

«رواية ساحرة... آسرة».

- سان بطرسبورغ تايمز.

«تعد أزهار الأوركيدا الملونة نقطة البدء في رواية سوزان أورلين عن النباتات والمهووسين بها في عالمٍ غريب هو عالم جنوب فلوريدا. تلتقي خلال مسيرتها بأفراد من قبيلة السيمينول، وبالتماسيع وطائفة متنوعة من الرجال البيض المجانين. توفر لنا سارق الأوركيدا المزيد، وتقدم لنا دليلاً مقنعاً بأن الحقيقة أغرب من الخيال. هنا تقدم لنا أقصى درجة من متعة القراءة».

- أندريو ويل.

«حرارة مشبعة بالرطوبة، حشرات، خنازير ببرية، سلاحف ملتهمة، أفاعٍ سامة - ونباتات الأوركيدا... ما كنت لأفوت كل هذا».

- نيويورك نيوزادي.

«حكاية مرعبة وغريبة، وغالباً مدهشة تحكي عن الإغراء الغريب للأوركيدا، عن الهرس والشيطان العجوز، جون لاروش... لا داعي أن تكون مفتوناً بالنباتات كي تخمن القوى الشديدة التي تلزم أحدهم بجمع هذه الأزهار الصغيرة الساحرة».

- نيو ليدر (سبرينغفيلد، MO).

«تنسم نثرية سوزان أورلين على الدوام ببلاغتها وشعريتها وأريحيتها الخادعة، إنما في سارق الأوركيدا، فقد عرضت نفسها للخطر إطلاق وباء على مستوى وطني بهوس الأوركيدا. إن الشغف معيدي وإدماني».

- كاثرين دون.

«استثنائية وأسرة...»

تظهر أورلين حنكةً كبيرةً في حياكة مثل هذا التاريخ المظلم جنباً إلى جنب مع تصوير لمتعصبي الأوركيدا الغربيي الأطوار، والشروط العلمية، والملاحظة الشخصية وتحويلها إلى سرد يلح عليك بمتابعته وتقليل الصفحات. كأفضل محقق صحفي، وجدت حكاية تفتح عينيك على موقع هو الأقل توقعاً بالنسبة لك. مع ذلك فإن أسلوبها التثري اختبر بحس واقعي من الطرافة والتبصر الشعري، أيًّا يكن صنف كتاب سارق الأوركيدا هذا، فهو كتابٌ نادر لن ترغب في تفویته خلال انتشاره».

"ـ صنداي تريبيون ريفيو
(غرينسبورغ، PA)

«تكتب أورلين بأسلوب ملاحظة قوية وفي غاية الحرص يذكرنا بجون ماكفي وديان أكرمان... في نمط نثري ثري

ومفعم بالدهشة كما هي سبخة فاكاها تشي نفسها، لقد ربطت أورلين المبالغات المتعلقة بالأوركيدا في الماضي مع استغلالها الراهن بأسلوب درامي لا تعود معه زهرة الأوركيدا هي نفسها زهرة أوركيدا أبداً.

booklist –

«إن المتعصبين للأوركيدا الذين تصفهم (أورلين) هم أناس منومون وسردها التثري حي يستحضر الأزهار المسكرة مباشرة إلى مستوى الأنف. مقابل ثمن أقل من تذكرة طائرة، سوف تحملكم سارق الأوركيدا في رحلة لا تنسى من عز الشتاء إلى دفيئة فلوريدا».

– فري لانس ستار.

"تغوص أورلين في عالم جامعي الأوركيدا بغية إخراج كتاب ورقي يبحث عنعالية فائقة في نثرية الكتب الممتعة والمتدفقة من أمثال العاصفة الكمالمة ومنتصف الليل في جنة الخير والشر ... كل من يهتم بالأوركيدا، أو فلوريدا أو ذهنية التجميع أو التثبت أو الأدب الواقعي فقط سوف يستمتع بسارق الأوركيدا. اقرأها على الشرفة، أو بالقرب من نبات الأوركيدا الذي تزرعه، لكن كن حذرًا ... فالهوس ربما يعدي".

. غولف شولايف.

"بين مشهد طبيعي غريب، ومزارعي الأوركيدا الغربيي الأطوار ومواضيع رغباتهم، صاحت أورنين مغامرة مثيرة مطعممة بشرح ملتوٍ عن عمق الحياة الأمريكية السائدة. إن حقيقة أن كتابها هذا عن النباتات (نباتات!) يشهد على الحقيقة الكبرى التي يقولها : الشغف يعمي البصر، مضلل

أغلب الأحيان، ومن المحال تبريره - لكنه على الدوام يستحق عناء الرحلة».

- ميترو (سان جوس، CA)

- أعمال أخرى لأورلين
- ليلة السبت.
- جوارب حمراء وسمكة زرقاء.
- مصارعة الشiran تفقد مكياجها.
- مكاني المفضل.

إلى والدي، أرثر ولaidith.

كلمة شكر

كل الشكر للعدد الهائل من عشاق الأوركيدا، لأصحاب المشاكل، وباحثي التاريخ في فلوريدا، لعمال الحدائق، والمحامين واللصوص والمتسلعين. لعاوري السبيل والمغامرين وعلماء النبات والطبيعة وأفراد مجتمع السيمينول، وعمال وموظفي لوكساهاتشي وبيغ سايريس وفاكاهاتشي، وجامعي النباتات الذين كان لهم مساهمة هامة في هذا الكتاب، ولم تظهر أسماؤهم في عدة مقاطع.

لدي عرفان خاص بالجميل للجمعية الأمريكية للأوركيدا لمساعدتها لي. كل الشكر لنيد ناش في AOS⁽¹⁾، الذي أعاد مراجعة معلوماتي في مجال النباتات بغية الدقة؛ وشكر خاص جداً لجيمس واتسون الذي كان خير معين ولم يبخّل بوقته على مدى سنوات العمل على هذا المشروع.

إنني مدينة لتبنا براون، التي كانت أول من أصر عليّ لمتابعة القصة لمصلحة النيو يوركر، ثم أتاحت لي إجازات طويلة من التغيب بقصد العمل على إنجاز الكتاب، وبعد كل ذلك، ظلت تحتفي بي حتى السطر الأخير.

لجون كارب، محرر الكتب الفذ ومصدر الدعم العظيم، صاحب النصيحة القيمة، والتشجيع الرائع، لا تكفي مليون كلمة شكر لك. و مليون أخرى سأرسلها إلى آن غودوف والكثير من الآخرين في راندوم هاوس الذين كانوا خير معين لرؤيه هذا العمل من خلال مساعدتهم.

إلى ريتشارد بابن، أمنياتي لك بالفوز في جميع رهاناتك. وفي الوقت نفسه،أشكرك جزيل الشكر، على كل هذه السنوات.

1 - الجمعية الأمريكية للأوركيدا - م

إنني مدينة لعائلتي وأصدقائي ومديري وزملائي على عمرة حماسهم وتحملهم وثباتهم وإيمانهم بي. وفي المقام الأول على لطفهم الدائم طيلة الوقت. أوه، وبالمناسبة، تلتقط ديرًا أورلين صوراً رائعة للضفدع.

مقدمة

سوزان أورلين عن فيلم «اقتباس»

وافقت المؤلفة سوزان أورلين مؤخراً على التحدث عن تجربتها حول استعمال كتابها سارق الأوركيدا كفكرة ملهمة لفيلم التكيف. يعالج الفيلم بروح الدعاية تفاصيل سجلات كاتب السيناريو الذي يعاني من تعويق الكاتب أثناء مساعدته للاقتباس من كتاب سارق الأوركيدا وتحويله إلى نص سينمائي. المقابلة أجرتها الكاتبة سوزان أورلين.

سوزان أورلين: مرحباً بك. أشكرك على قبول إجراء هذه المقابلة.

سوزان أورلين: الترحيب لك. أقصد، كل الشكر لك.

سو: قبل أن نبدأ، أود فقط أن أسألك إن كنا التقينا سابقاً - يبدو لي أنك مألوفة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

سو: لا أظن هذا، المعذرة.

سو: هل أنت واثقة؟.

سو: أجل أنا واثقة.

سو: حسناً، إن كنت تقولين هذا. بكل الأحوال، سؤالي الأول هو، هل خطر لك يوماً أن يتحول كتابك إلى فيلم سينمائي؟

سو: أبداً. بصراحة، لم أكن حتى واثقة من أنه سيتهي به المطاف إلى كتاب. حين سمعت لأول مرة بجون لاروش ومسألة صيد الأوركيدا، حسبته سيكون مقالاً صحفياً مثيراً، على الرغم من أن القصة غريبة للغاية لدرجة أنني لم أكن واثقة حتى كيف يمكن أن تكتب لمصلحة مجلة. لم أكن أتخيله

بالتأكيد آنذاك كتاباً، ولا فيلماً بلا شك. في الواقع، عندما كنت منكبة على كتابة الحكاية، قلماً ورد إلى ذهني إمكانية تحولها إلى سينما. كنت مشغولة للغاية في إنجازها كنص مكتوب.

سو: حقاً؟

سو: أجل بالفعل.

سو: هذا يدهشني، إذ إن كل من أعرفهم يفكرون بالكتابة من أجل الأفلام.

سو: من الواضح إذن أنك لا تعرفيتنـي.

سو: لست مضطـرة أن تكونـي نـظـة.

سو: لـست نـظـة! كل ما أقوله أـنـني لـست مجـبـرـة أن أـشـبـه بـقـيـة مـعـارـفـكـ، فـأـنـا لـأـشـغـلـ فـكـرـي دـائـمـاـ بـالـتـفـكـيرـ بـكـتـابـةـ سـيـنـارـيـوـهـاتـ لـلـسـيـنـمـاـ. أـحـبـ الـأـفـلـامـ وـأـهـوـىـ مـتـابـعـتـهاـ. لـأـرـغـبـ بـكـتـابـتـهاـ.

سو: أـعـتـرـفـ بـخـطـأـيـ! مـتـىـ خـطـرـتـ لـكـ فـكـرـةـ تـحـوـيـلـ سـارـقـ الـأـورـكـيـداـ إـلـىـ فـيلـمـ لـأـوـلـ مـرـةـ؟

سو: نـشـرـتـ النـيـوـ يـورـكـ القـصـةـ الـأـصـلـيـةـ التـيـ كـتـبـتـهاـ «ـحـمـىـ الـأـورـكـيـداـ»ـ فـيـ عـامـ 1995ـ. وـبـعـدـ ظـهـورـ القـصـةـ مـبـاـشـرـةـ، تـواـصـلـ مـعـيـ ثـلـاثـةـ أوـ أـرـبـعـةـ مـنـ الـمـتـجـيـنـ وـالـاسـتـودـيوـهـاتـ الـمـخـلـفـةـ مـمـنـ كـانـواـ مـهـتـمـيـنـ بـالـحـصـولـ عـلـىـ حـقـ حـصـرـيـ لـإـنـتـاجـهـاـ. فـيـ نـفـسـ الـوقـتـ، أـبـدـيـتـ لـدارـ رـانـدـومـ رـغـبـتـيـ فـيـ توـسيـعـ القـصـةـ لـتـغـدوـ كـتـابـاـ، هـذـاـ لـأـنـنـيـ كـنـتـ أـعـلـمـ أـنـ ثـمـةـ الـكـثـيرـ مـاـ أـوـدـ قـوـلـهـ. وـاقـفـ المـتـجـانـ جـونـاثـانـ دـيمـيـ وـإـيدـ سـاـكسـونـ، اللـذـانـ اـشـتـرـيـاـ القـصـةـ فـيـ النـهـاـيـةـ، عـلـىـ إـتـاحـةـ الفـرـصـةـ لـيـ لـتـأـلـيفـ الـكـتـابـ قـبـلـ الـبـدـءـ بـالـعـمـلـ عـلـىـ الـفـيلـمـ.

سو: وـمـتـىـ حـصـلـ هـذـاـ؟

سو: دـعـيـنـيـ أـتـذـكـرـ... سـلـمـتـ الـمـخـطـوـطـ فـيـ شـهـرـ أـيـلـولـ عـامـ 1988ـ إـنـ لـمـ تـخـنـيـ الـذـاـكـرـةـ. وـقـرـأـتـ سـيـنـارـيـوـ Adaptationـ لـأـوـلـ مـرـةـ فـيـ رـبـيعـ عـامـ 2000ـ.

سو: هـلـ طـلـبـ مـنـكـ كـتـابـةـ السـيـنـارـيـوـ؟

سو: لـاـ. إـنـ كـتـابـةـ السـيـنـارـيـوـهـاتـ لـيـسـتـ مـنـ ضـمـنـ اـهـتمـامـاتـيـ. إـضـافـةـ إـلـىـ أـنـنـيـ فـكـرـتـ أـنـ سـيـكـونـ مـنـ الـمـثـيرـ أـنـ أـرـىـ مـاـ سـيـفـعـلـهـ كـاتـبـ السـيـنـارـيـوـ.

بالكتاب. إنها ليست بفكرة هوليوودية نمطية: فيلم تدور أحداثه حول شاب يسرق الأوركيدا.

سو: هل كنت على اطلاع على أي تفصيل في السيناريو خلال مرحلة تقدمه؟

سو: كل ما كنت أعرفه أن المتجين وظفا كاتب سيناريو أنهى لتوه كتابة فيلم بعنوان قتل جون مالكوفيش *Killing John Malkovich*. هكذا فهمت عنوانه اسمه على الأقل. بدا لي غريباً للغاية، غير أن المتجين كانوا متخصصين جداً لذلك الشاب وأخبراني بضرورة تحمسي أنا أيضاً وهذا ما كان.

سو: تقصد़ين أن تكون جون مالكوفيش *being John Malkovich*.

سو: أجل، هذا هو عنوان الفيلم الصحيح، لكنه لم يكن قد أطلق بعد، وخطأً ظنت أن عنوانه هو قتل جون مالكوفيش.

سو: صفي لي شعورك حين قرأت السيناريو لأول مرة؟

سو: بالدهشة.

سو: تابعي.

سو: لقد حذروني مسبقاً من التباين الكبير بين السيناريو والكتاب، وأخبرتني مديرية أعماللي بأن الكثير من شخصيات السيناريو ليست موجودة في الكتاب - وأنهم أشخاص حقيقيون، وليسوا شخصيات خالية. ولمحت بأن إحداها هي أنا. ومع ذلك لم أكن مستعدة لما قرأته. سلمني المتج السيناريو على الغداء. عدت إلى المكتب بعد الغداء، أغلقت الباب، أطفأت هاتفني وشرعت بالقراءة. كان علي أن أبعده مرات عديدة بغية التقاط أنفاسي. أعتقد أنت في لحظة إطلاقي للنار في السيناريو - أقصد أنا شخصية سوزان أورلين في الفيلم - على أحد موظفي مصلحة الأسماك والحياة البرية في فاكاهاتشي، أخذت أثمن ما ستكون عليه تلك التجربة غير الاعتيادية. طلب مني المتج الاتصال به حالما أنهى قراءة السيناريو. تريشت يوماً حتى أصف ذهني ثم اتصلت به قائلة، «هذا لا يشبه ما توقعته لكنه مذهل، وأرجو منك أن تغير اسمي».

سو: لماذا؟

سو: لم أكن واثقة من رغبتي بحق أن أكون شخصية في فيلم، لا سيما شخصية تملك نوعاً من... العته.

سو: أجed صعوبة في التصديق.

سو: تجددين صعوبة في تصديق ماذا؟

سو: عدم رغبتك أن تصبحي شخصية في فيلم. أليس هذا حلم الجميع؟
أن يصبحوا شخصيات سينمائية شهيرة؟

سو: لا علم لي إن كان هذا حلم الجميع أم لا، لكنني على المستوى الشخصي لا أظني كنت أرغب بأن أتحول إلى جزء من فيلم. لا أعتقد أن هذا من الصعب تصدقه. هل تودين أن تصبحي شخصية في فيلم؟

سو: من الذي يطرح الأسئلة هنا؟

سو: من الواضح أنه أنت. لكنني كنت أسألك أن - لا عليك. ما هو سؤالك التالي؟

سو: ما الذي أقنعت بالمضي قدماً أن تصبحي شخصية سينمائية؟

سو: شيئاً ثنان. أدركت أنه إذا ما احتل الكتاب -كتابي - موقعاً بارزاً في فيلم وكان لمؤلفه في الفيلم اسم آخر غير سوزان أورلين، فإن هذا من شأنه أن يربك الناس ويزعجني في النهاية. لن يكون الأمر شبيهاً برواية تأليف سارق الأوركيداً منسوباً، يا للروعة، لماري سميث أو جون براون أو ما شابه من الأسماء المستعارة. ناهيك عن موافقة جميع الأشخاص المدرجين في السيناريو على السماح باستخدام أسمائهم الحقيقة. في آخر المطاف، قررت أن الطريقة الأمثل للنظر إلى الحالة ككل هو اعتبارها مغامرة، وخبرة ضخمة في الواقع الافتراضي.

سو: هل كسبت الكثير من المال مقابل هذا؟

سو: هذا ليس من شأن أحد، أليس كذلك؟

سو: إنه سؤال بريء. وعلى كل حال، الكل يتساءل عن ذلك.

سو: لا أظنه من اللائق التحدث عن المال.

سو: لا أظنه من اللائق عدم ردك على السؤال.

(صمت)

سو: هلا تابعنا؟

سو: لو سمحت.

سو: هل كان لديك اعتراضات معينة على السيناريو؟ هل طالبت بأية تغييرات؟

سو: أشياء قليلة طلبت منهم حذفها - بعض التفاصيل الشخصية جداً نوعاً ما. غير أنني لم أطالب بأية تغييرات جوهرية. سجلت ملاحظاتي حول ما يعجبني وما لا يعجبني، أما مطالبي المحددة فكانت فقط بخصوص تلك التفاصيل القليلة، وقد استبعدها كلها.

سو: من الذي كنت ترغبين أن يلعب دور سوزان أورلين؟

سو: أمضيت قرابة العام وأنا أتخيل الممثلين. فكرت بالجميع، من جوليما روبرتس إلى نيكول كيدمان إلى هولي هونتر إلى جودي فوستر إلى كيت بلانشيت. لكنني لم أستقر قط على من سيقع عليه اختيار حلمي. أصدقائي أيضاً قدموا لي مجموعة من المقترفات - عادةً ما اقتربوا ممثلة حمراء الشعر، بما أن شعري أحمر. ربما لا يعلم الناس أن صباح الشعر متوفر في هوليوود. اللافت في الأمر أن أحداً لم يقترح قط ميرل ستريپ، ربما لكونها تبدو أكبر من الحياة.

سو: بعد قبولها الدور، هل التقتك وأخذت تدرس وتحلل حركاتك ولكتك؟

سو: لا. لم ألتق بها قط. أمضيت عدة أيام في موقع التصوير، وكنت أتوقع مقابلتها هناك على الأقل، لكنها لم تكن تأتي. التقى بها مرة واحدة قبل عدة سنوات. لعبت دوراً ثانوياً في فيلم صائد الغزلان، الذي كان أول أدوارها السينمائية. أظنني ألقيت عليها التحية هناك.

سو: هل تعاملتـما ك أصحاب؟

سو: لا، بالطبع لا. كنت واحدة من بين مئات الكومبارس. كل ما فعلته

أني تمت بالتحية لها أثناء مرورها. في الواقع، لا يسعني القول إننا التقينا حتى. ما أقصده أنه صدف أن كنّا في نفس المكان والزمان فحسب.

سو: إذن فقد تعاملتما بعضكم مع بعض... بشكل أو آخر.

سو: لا. لقد أوضحت لك للتو أننا لم نفعل. في الحقيقة، طالما تذكرت هذا الآن، أظنني تمت بالتحية لروبرت دي نيرو وليس ميرل ستريپ. على كل حال، ما أريد قوله أني لا أعرف ميرل ستريپ، لم تتبادل الحديث يوماً، وأنا لست ميرل ستريپ.

سو: كيف وجدت الأمر في موقع تصوير فيلم اقتباس؟

سو: مسلياً وغريباً جداً في آنٍ معاً. أول ما لاحظته أن طاقم العمل كانوا ينظرون إلى نظرة ارتياش. وفي النهاية جاءني أحد التقنيين وسألني إن كنت بالفعل أنا، وإن كنت أنا فعلأً من كتب كل هذه الأحداث التي يجري تصويرها في الفيلم. كانت تجربة من اختلال الهوية. أخمن أن طاقم العمل كانوا قد بدأوا يعتقدون أن ميرل ستريپ هي سوزان أورلين الحقيقة، وأنا كنت... لست واثقة منمن كانوا يظلوني. في الفيلم، كنت أسير في جزء مني كمتسوقة مجهرولة الهوية. لعلها الشخصية التي ظنوا أنها أنا. لقد كان أيضاً من المثير جداً أن يتبع المرء كامل عملية الإنتاج، وأنا أعلم أنها كلها مستلهمة من كتابي. كان هذا رائعاً.

سو: ما هو دور «التقني» بالضبط؟

سو: ليس لدى أدنى فكرة.

سو: في أدابتشن، يعني كاتب السيناريو أثناء مساعدته لتطوير سارق الأوركيدا من العراقيل التي يضعها الكاتب. هل حدث أن وضع عراقب ذلك الكاتب؟ هل تعاطفت معه؟

سو: لست كاتبة سريعة، ولكن لحسن الحظ لم يكن لدى قط عقبات الكاتب حتى الآن. صحيح أني عالقة في الأمكنة، لكنني لم أعش يوماً العذابات التي عرفتها شخصية الفيلم. شعرت بالأسى عليه.

سو: هل يعتبر تشارلي كوفمان صديقاً لك؟

سو: لا ليس صديقي. التقىته مرة واحدة لم تتجاوز بضع دقائق في موقع تصوير أدابتشن. كلانا كان لسانه معقوداً.

سو: هل يشبه نيكولاس كيوج؟

سو: بل يشبه تشارلي كوفمان. هل وصلتكم الفكرة؟ السينما سينما، والحياة حياة. إنهم لا يسا هما الأمر ذاته.

سو: هل يفترض أن أشعر بالغباء بعد تلميحك هذا؟

سو: لا. أعتذر على فظاظتي. إنني أحاول فقط أن أوضح ماهية الفيلم
وMahia الواقع.

سو: ومتى إذن شاهدت الفيلم أخيراً؟ يمكنني أن أسألك هذا السؤال،
صحيح؟

سو: طبعاً. لقد شاهدت الفيلم -مشاهد متقطعة منه- على شاشة صغيرة في ربيع 2002. كنت متواترة لدرجة أتنى بالكاد استطعت متابعته. غمرتني السعادة حين أيقنت أن الفيلم نجح في تصوير فكرة الكتاب الأساسية، التي هي عن ملاحة الشغف وكيفية صياغته لحياتنا. ييد أنه كان من الغريب للغاية أن أتابعه لأول مرة. أظن أن مشاهدتي لنفسي شخصية في فيلم كانت مربكة نوعاً ما، وكذلك رؤيتي لكتابي وقد تحول إلى فيلم.

سو: إذن فالسينما قد تصبح واقعاً أحياناً، صحيح؟

سو: (بلا تعلقة).

سو: صحیح؟

سو: أجل، أظنك على حق، في هذه الحالة على الأقل.

سو: وهل في نيتك كتابة المزيد من الأفلام؟

سو: ألم تنتبه لأمر ذكره لك؟

سو: هناك أمر آخر قبل أن أتركك. أعلم أنه من غير المهني أن أطلبه منك، في المرة القادمة التي ستلتقين فيها مع نيكولاس كيج، هلا تحصلين على توقيعه؟

* * *

المحتويات

15	كلمة شكر.....
27	دفيئة المليونير.....
43	استنساخ الشبح.....
57	جحيم أخضر.....
65	حمى الأوركيدا.....
77	مهنة قاتلة.....
107.....	خلابة.....
123.....	حياة طيبة.....
153.....	يمكن لأي شخص تربية الأوركيدا.....
171.....	جرائم في عالم النبات.....
199.....	حمام مشوي.....
217.....	رأس أوسيولا.....
255.....	ثروات.....
271.....	شكل من أشكال الميلو.....
291.....	بيبلوغرافيا.....
293.....	دليل القارئ.....
304.....	حول المؤلفة.....

دفيئة المليونير

جون لاروش رجل طويل القامة، نحيف كعصا، عيناه لونهما فاتح، كتفاه متهدلتان ووسامته طاغية، على الرغم من غياب جميع أسنانه الأمامية. وقوفته تشبه المعكرونة المطهوة بشكل مثالٍ⁽¹⁾، حدة توتر شخص يداوم على ألعاب الفيديو. يبلغ لاروش ستة وثلاثين عاماً من العمر. في الآونة الأخيرة كانت قبيلة سيمينول فلوريدا قد وظفته للعمل لمصلحتها، بغية إقامة مشتل نباتات ومخبر لإثمار الأوركيدا في محمية القبيلة في هوليوود، فلوريدا.

صدم الكثيرون بغرابة طباع لاروش. فعلى سبيل المثال، يلقبه السيمينول بلقين: مثير المتاعب والرجل الأبيض المجنون. عندما كان لاروش يحكى لي عن طفولته ذات مرة، أشار قائلاً، «وأنا صبي، إبني على ثقة من أنني كنت ولدًا غريب الأطوار». لأنه وعلى ما يذكر فقد كان انفعالياً ومندفعاً بشكل استثنائي. حين كان في حوالي التاسعة أو العاشرة، أكد والده أنه كان قادرًا على اختيار حيوان أليف. قرر تربية سلحفاة صغيرة ثم طلب عشر سلاحف صغيرة أخرى. بعدها أكد أن رغبته تتجه إلى استيلاد السلاحف، وأخذ يبيع السلاحف لبقية الأطفال، وانقطع بعد ذلك عن التفكير بأي شيء سوى السلاحف. قرر أن حياته غير جديرة بالعيش ما لم يتمكن من جمع حيوان واحد من كافة أصناف السلاحف المعروفة للبشر، بما فيها ذلك النوع الضخم الذي يبلغ حجمه حجم الصوفا والذي يستوطن غالاباغوس⁽²⁾. بعد ذلك، ودون سابق إنذار، خبا شغفه بالسلاحف ووقع بهوس معجون

-1- أي ليست قاسية ولا مفرطة الطراوة - م

-2- مجموعة جزر في المحيط الهادئ - م

لمستحاثات عصر الجليد. قام بتجميعها، تاجر بها، وأعلن أنه يعيش من أجلها، ثم هجرها ليتعلق بشيء آخر - الأحجار الكريمة حسب ظني - أقلع عنها أيضاً ليصاب بهوس جمع المرايا العتيقة وإعادة تلميعها بالفضة. كان شغف لاروش يصل إلى مكان غير متوقع ليتهي بصورة انفجارية، كسيارة مفخخة. عندما التقى لأول مرة كانت شهوته الوحيدة منصبة على الأوركيدا، خاصة تلك البرية التي تنموا في مستنقع فاكاهاتشي في فلوريدا. أمضيت معظم السنين التاليتين وأنا أجول برفقته، وفي نهاية تلك الفترة كان قد تخلص من جميع شتلات الأوركيدا وأقسم بأغلوظ الأيمان أنه لن يربى ولو شتلة واحدة منها ما دام حياً. في العادة يكون أميناً لكلامه. قبل سنوات، بين مرحلتي هوسه بأحفوريات العصر الجليدي وجمع المرايا العتيقة، عرف مرحلة من الاهتمام بالأسماك المدارية. في ذروة تلك المرحلة، أصبح لديه أكثر من ستين حوض سمك في بيته وكان يغطس ببدلة الغطس بصورة منتظمة كي يجمع الأسماك. ثم جاءت النهاية، لم تفتر همته ويفقد اهتمامه تدريجياً: تخلى عن الأسماك وخلف أنه لن يقوم بجمعها أبداً، ولذا فهو لن يلمس مياه المحيط ثانية أبداً. حدث هذا قبل سبع سنوات. لقد عاش حياته على بعد خطوات من صفة الأطلسي الغربية، ولكنه لم يغمر أصابع قدميه فيه منذ ذلك الحين.

يبدو لاروش أشبه بالسيد موسوعة، مع فرق أنه لم يتلق أي تعليم رسمي صارم. كان يرتاد مدرسة عامة جنوب ميامي؛ ما خلا هذا، فقد علم نفسه بنفسه. من حين لآخر عندما يغدو حكيمًا بشؤون الحياة ويعتقد أنه كان سيغدو زعيماً لو أنه كرس نفسه على نحو أكثر تقليدية. لديه إيمان أنه كان ربما سيصبح جراح أدمغة وأنه كان سيحقق إنجازات كبيرة في مجال البحث الدماغية وسيصيب ثراء وشهرة. لكنه، بدلاً من ذلك، يقيم في بيت خشبي صغير متلهك برفقة والده، وكان مضطراً إلى الدوام للحفر في الصخر لكسب عيشه بأساليب قاسية. إحدى مزاياه التفاؤل - أي أنه يرى نتيجة مربحة في كل موقف من مواقف الحياة العملية، بما فيها الحالات المرضية. قبل سنوات، سكب على يده المجرورة ميداً حشرياً ساماً وعانياً بفعله من أذية دائمة في الكبد والقلب. بحسب وجهة نظره، كل هذا كان

لمصلحته، فمن خلاله تمكّن من بيع مقال يتحدث عن تجربته تلك ((هل تلقى حتفك في سبيل نباتاتك؟)) لمجلة مختصة بالحوادث. حين التقى لأول مرة، كان يعمل على كتابة دليل يعني بكيفية زراعة النباتات في المنزل. أخبرني بأنه سيقوم بالإعلان عنه في مجلة هاي تايمز، مجلة الماريجوانا. قال لي إن الإعلان لن يشير إلى أن الماريجوانا، التي ستزرع وفق تعليمات دليله، لن تنضج البذرة وبالتالي لن تكون ذات تأثير نفسى. كان ذلك الدليل أحد مشاريعه المحببة على الإطلاق. الطريقة التي ينظر بها إليه، سيكسبه مالاً كثيراً (الأمر الممتاز دائمًا) زائدًا أنه سيشجع الأطفال على زراعة النباتات (الأمر التزمه جداً) بالإضافة إلى أن المعلومات المفقودة في هذا الدليل ستقي هؤلاء الأطفال من التعاطي إذ إنها ستكتسب أهمية بالنسبة لهم (نبالة بالغة العمق). هذه النقطة الأخيرة كانت أكثر عناصر مشروعه مدعاه لاعتراضه، فقد كان يعتقد أن الأطفال بعد شرائهم الدليل سيدركون أنهم قد أنفقوا مالهم سدى على شيء مخالف للقانون - أي زراعة وتدخين الحشيش - فإنهم سيفهمون أيضاً، بفضل جون لاروش، أنها جريمة بلا عقاب. مشاريع بهذه، تغليف الربح بالفضيلة والإجرام، هي من اختصاص لاروش. في النهاية فقط، حين تستنتاج أنه مجرد محتال عادي، يكشف النقاب عن سبب مخفى ومبدئي إلى حد ما لأنحرافه، غير أنه على الدوام سبب مثير يغيره لمصلحته. يحلو له أن يصف نفسه بالنذل الدهاهية. يهوى عمل الأشياء بأصعب الأساليب، لا سيما إن كان هذا يعني أنه فعل ما يريد وفي نفس الوقت ترك الجميع في حالة حيرة عن الكيفية التي نجح فيها بالإفلات من العقاب على ما اقترفه. إنه شخص غير مألف بالمطلق، كما أنه أكثر شخص أخلاقي ولا أخلاقي عرفته يوماً.

التقيت بجون لاروش لأول مرة قبل عدة سنوات، في محكمة مقاطعة كولبيير في نابل، فلوريدا. كنت في فلوريدا آنذاك فقد قرأت مقالاً صحفياً يفيد بإيقاف رجل أبيض - لاروش - ومعه ثلاثة من السيمينول وبحوزتهم مجموعة من شتول الأوركيدا النادرة، سرقوها من مستنقعات فلوريدا وتدعى محمية الولاية لسبخة الفاكاهاتشي، وكان بي رغبة لمعرفة المزيد عن هذه الحادثة. كانت القصة الصحفية مقتضبة لكنها مغربية. تحوي وصفاً للفاكاهاتشي كمستنقع بري بالقرب من نابل يعُج بالنباتات والأشجار

النادرة، بعضها لا يعيش في أي موقع آخر من الولايات المتحدة وبعضها الآخر لا وجود له في أي موقع آخر من العالم. تعتبر نباتات الأوركيدا البرية كلّها مهددة بالانقراض حالياً، ويعود اقتلاعها من الغابات في أي موقع مخالفًا للقانون، تحديداً من أملاك الدولة كالفاكاهاشي. وفقاً للصحيفة، كان لاروش زعيم عصابة صيادي الأوركيدا هؤلاء. زُوّد ضباط اعتقاله بأسماء النباتات المتنوعة الأصلية لجميع الشتول المسروقة وشرح لهم أنها في طريقها إلى المختبر، حيث سيتم استنساخها بالملائين ثم بيعها لهواة جمع الأوركيدا في كل أصقاع العالم.

أتصفح الكثير من الصحف المحلية وتحديداً أقصر المقالات فيها، وبالخصوص تلك المقالات المليئة بعبارات عن مجموعات تم القبض عليها. في حالة قصة الأوركيدا، أثار اهتمامي وجود كلمات من قبيل «مستنقع» و«شتول أوركيدا» و«سيمينول» و«استنساخ» و«جناية» مجتمعة في مقال واحد قصير. يتحول هذا النوع من القصص أحياناً إلى أكثر من مجرد حكاية، لمحة عن الحياة توسع كالبالونات الورقية اليابانية التي تفتح وتتحول إلى أزهار بعد إلقائها في الماء، وتكون هذه الأزهار رائعة الجمال لدرجة أنك لا تصدق أن كل ما كنت تراه أمامك في لحظة ما هو عبارة عن كرة ورقية وكوب من المياه. كانت القاضية في قضية الأوركيدا قد حددت موعد جلسة الاستماع بعد عدة أسابيع من قراءتي للمقالة، لذا فقد أعددت العدة للمضي إلى نابل كي أتحقق من إزهار هذه الكرة الورقية.

حين غادرت نيويورك، كان الشتاء في عزّه؛ أما في نابل فقد كان الطقس دافئاً ودبقاً، ومن الطائرة شاهدت السحب الرعدية الكثيفة مبحرة على طول حافة السماء. حجزت في فندق كبير على الشاطئ، ووقفت في ذلك المساء على الشرفة أتابع العاصفة وهي تنفجر فوق الماء. كانت جلسة الاستماع عند التاسعة من صباح اليوم التالي. أثناء خروجي من مرآب الفندق، نبهني حارس المرآب بوجوب القيادة بحذر. «كما ترين، في نابل يتعين عليك توخي الحيطة والحذر»، قال وهو ينحني على نافذة سيارتي. كانت تفوح منه

رائحة شبيهة برأحة كوكيل الديكربز⁽¹⁾. لعلها رائحة واقي شمس. «عندما تمطر هنا»، أردف قائلاً. «تبدأ السيارات بالطيران». في نابل ملاعب غولف أكثر من أي مكان آخر في العالم، وبالرغم من الحر وهياج الطقس، كان جميع رواد الفندق يرتدون ملابس اللعب، أحذيتهم المطاطية كانت تصدر أصوات كليكتي - كليكتي مختلفة آثارها على الأرصفة.

يقع مبنى المحكمة على بعد عدة أميال من البلدة، ضمن مبني عصري المظهر ومشاد من حجارة بيضاء مطعمه بالأصداف البحرية المتحجرة. لدى وصولي، وجدت بضعة أشخاص في الداخل، لا أحد يتحدث مع الآخر، لا صوت سوى صوت صرير المقاعد الخشبية وصوت نحنحة أحدهم في الصف الأمامي. تعرفت على لاروش بعد لحظات من صورته التي رأيتها في الصحيفة. لم يكن يرتدي ملابس خاصة بالمحكمة. كان يضع نظارة شمسية منحنية ماركة مايلر، وقميصاً من خليط البوليستر طبع عليه نمط من التصوير الملون، وعلى رأسه قبعة كرة القاعدة لفريق ميامي هوريكانز، ويرتدى سروالاً رماديًا باليًا مهترئاً عند مؤخرته. بدا أنه يرغب بتدخين لفافة تتبع. كان يهم بالوقوف لحظة دخول القاضية فعاد ومحث في كرسيه؛ كان يجلس وبدأ متورتاً. نهضت المدعية العامة وتلت التهم الموجهة ضده من الولاية - في 21 كانون الأول من عام 1994، قام لاروش وثلاثة من مساعديه من السيمينول بنقل مخالف للقانون لما يزيد على مائتي نبتة من الأوركيدا والبروميلية النادرتين من الفاكاهاتشي وقبض عليهم أثناء مغادرتهم للمستنقع وبحوزتهم أربع وسائل قطنية مليئة بالأزهار. لقد وجهت إليهم تهمة حيازة جرمية لأصناف مهددة ونقل الحياة النباتية بشكل مخالف للقانون من أملاك الدولة، وكلا التهمتين يعاقب عليها بالسجن والغرامة.

استمعت القاضية بوجه خال من التعابير، وحين فرغت المدعية العامة، استدعت لاروش للإدلاء بأقواله. أحدث جلبة أثناء نهو ضمه من مقعده ثم تحرك صوب متصرف قاعة المحكمة فيما كان رأسه مصووباً نحو القاضية وقد علق إيهاميه في عروة حزامه. نظرت القاضية إليه بعينين شبه مغمضتين

- 1 - مشروب مزيج من الروم وعصير الليمون والسكر - م

وطلبت منه ذكر اسمه وعنوانه وبيان خبرته في مجال النباتات. حرك لاروش قدمه وقال مستهجنًا. «حسناً، سعادة القاضية. أنا استشاري في مجال البستنة. أعتبر بستانياً محترفاً منذ ما يقرب الثاني عشر عاماً وأملك مشتلاً للنباتات يحوي عدداً من النباتات ذات قيمة تجارية وإنانية - بيولوجية كبيرة. أملك خبرة واسعة جداً في مجال الأوركيدا وإثارة عن طريق الاستنبات الالاجنسي تحت شروط زراعة معقمة». توقف عن الكلام للحظة وابتسم. جاب بنظره القاعة وتابع كلامه، «بصراحة، سيدتي القاضية، ربما أكون أذكي شخص أعرف».

لم يحدث أن سمعت قط عن سبخة الفاكاهاتشي أو نباتات الأوركيدا الموجودة فيه إلى أن علمت بجون لاروش، رغم سفره إلى فلوريدا عشرات المرات. لقد ترعرعت في أوهايو، وظلت عائلتي على مدى سنوات تمضي عطلة الشتاء في ميامي بيتش، كنا نقيم في فندق تزين أروقتة شباك لصيد السمك وفواشات زجاجية شفافة وأشجار نخيل الكرنب الفزمي بدلاً من أشجار الميلاد. حتى في ذلك العين كانت أفكاري مشوشهة بشأن فلوريدا. طالما استهوانني السير بمحاذة فنادق أرت ديكو⁽¹⁾ وأوشين درايف⁽²⁾ ومسرح كولينز رود، أحببت المطاعم الضخمة، وأحببت احمرار بشرتي لأول مرة بفعل حرارة الشمس، لكنني كنت أخاف من قناديل البحر وأمقت كيف يستحيل شعري بفعل الرطوبة. الحرارة تزعزعني، وغرابة المشهد الطبيعي للاتساع الحار في فلوريدا كان بالنسبة لي بغرابة كوكب المريخ. لا أعتبر نفسي ابنة فلوريدا، ييد أن فيها ما هو أشد إغواء ولا مفر منه من أي مكان آخر زرته يوماً تقريباً. يمكنها أن تبدو حديثة ومن صنع الإنسان، لكنك حالما ترى موقعاً كإيفرغلادس⁽³⁾ أو مستنقع بieg سايرس⁽⁴⁾ أو لاخاهاتشي⁽⁵⁾، ستدرك

-1 سلسلة فنادق في ميامي بيتش - م

-2 مجمع في جنوب كارولينا - م

-3 منطقة ذات مناخ استوائي في فلوريدا - م

-4 محمية طبيعية في جنوب فلوريدا - م

-5 جيب شاطئي تسوده أشجار التخيل - م

أن فلوريدا هي أيضاً آخر الحدود الأمريكية. الجزء البري في فلوريدا بري بحق، الجزء المدجن مدجن بحق. ومع ذلك، كلاهما في حالة تغير دائم: ليست الموضع المطورة سوى فرجات صغيرة وسط الأدغال، لكن بما أن الأدغال خصبة إلى حد يستحيل لجسمه، فهي تحاول يومياً أن تستعيد قطعة من فلوريدا المطورة. في نفس الوقت تخفي هذه البرية أمام ناظريك: خمسون أكراً من إيفرغلادس تجف يومياً، منازل جديدة تبني فوق الكثبان الرملية، تظهر شبكة من الطرق السريعة سنوياً. لا شيء يبدو عسيراً أو دائماً؛ كل شيء يتغير على الدوام أو يزال. الانتقال والتحول يندمجان بعضهما في بعض، تداخل ما بين الرطوبة والجفاف، التمرد والانضباط، الطبيعة والصناعة. هذه الميزات القوية المتفرودة جذابة، لكن المناطق الهجينة كفلوريدا تعتبر أكثر جذباً لأنها استثنائية وغريبة. شاهدت ذات مرة، بالقرب من ميامي، رجالاً يصطاد الأسماك في بركة بجانب مرآب بورغر كينغ للسيارات بمحاذة الطريق السريع مباشرة. كانت البركة مستديرة استدارة مثالية وحوافها متقدنة، ولذا فقد عرفت أنها مصطنعة، ليست بركة طبيعية على الإطلاق وإنما مجرد «حفرة مستعارة» بقيت بعدما تمت «استعارة» التراب منها من أجل إنشاء مهاد الطريق السريع. بعد الانتهاء من الطريق وافتتاح البورغر كينغ، لا بد أن مياه الأمطار قد تجمعت أو تسربت إلى الحفرة المستعارة، وبطريقة ما وصلتها الأسماك -لعلها سقطت من الطيور أو دخلتها متلوية من خلال الصدوع الجوفية-. وسرعان ما تحولت هذه البركة المصطنعة إلى بركة شبه حقيقة. كانت البرية قد استعادتها تقريرياً. على هذا النحو تذهلني فلوريدا، دائمة التحرير على التغيير، لا تبعد مناظرها الطبيعية أكثر من دقائق عن انهيارها وعودتها إلى الشكل الحرافي. قبل عدة سنوات أعدت البصر عن انهيارها وعودتها إلى الشكل الحرافي. قبل غولف جمبل ومنمق ملحق بالعمارة، يكسوه عشبٌ أخضر ومسطح مثل بساط الحمام، يحوطه سياج مصقول ومشكل بدقة، كل ما فيه متحضر كأنه بدلة سهر رسمية. مع ذلك، كانت بعض التماسيع قد انتقلت مؤخراً

إلى المسطحات المائية في الملعب، وعلقت لافتات في المشالع تقول أيتها السيدات! كن على حذر من التماسيخ في المناطق الخضراء!

تحفز ولاية فلوريدا الناس، تقدم لهم أفكاراً كبيرة. لا ينجرفون إلى هنا بالمعنى التام: يأتون إليها عن قصد - لبدء حياة جديدة ربما، إذ تبدو فلوريدا أشبه ببداية نصرة، أو لمكافأة أنفسهم بعدما كابدوا حياةً مضئية في العمل، لأن فلوريدا تبدو فخمة وزاخرة، أو لأنهم يمتلكون خططاً أو مفاهيمَ معينة، وتبدو لهم فلوريدا مكاناً يمكنك أن تجرب فيه كل ما يحلو لك، نوعاً من الأمكنة التي ظلت على مدى قرون قادرة على إسالة لعاب أصحاب المشاريع الرائدة. إنها طيبة ومفتوحة لإعادة الاستثمار. أضف إليها، أنها مطروحة، ومستنزفة، ومنفصلة، وممهدة، ومحروفة، ومرورية، ومحروثة، ومتزرعة من البرية، ومعادة إلى البرية، ومغمورة بالمياه، ومقسمة، ومُضرّمة فيها النيران. لطالما كانت الأشياء تؤخذ عنوةً وتهرب من فلوريدا. تدفق الدخول والخروج ثابت لدرجة أن مكونات الولاية الحقة تختلف من يوم إلى آخر. إنه تصادم أشياء لا يمكنك البتة توقع وجودها في مكان واحد معاً - شقق خاصة وفهود وغابات عذراء ومتاجر ضخمة وقرود أدغال ومجمعات تجارية وطرق سريعة حارقة ومساحات من النباتات آكلات اللحوم ومدن للملاهي والتخيل الملكي وأشجار الهبيسكسوس وتلك المستنقعات الحارة بمساحات شاسعة لم تقع عين إنسان عليها قط - كلها تتحمّص معاً تحت السرداد المشمس لسماء فلوريدا. حتى نباتات أوركيدا فلوريدا موجودة فيها بوفرة كبيرة. تعج الغابات بأصناف محلية من الأوركيدا تفوق ما هو موجود في أي مكان آخر من البلاد، لكن هناك أيضاً العشرات من الغابات المصطنعة، دفيئات فلوريدا، مليئة بالأزهار المدهشة التي تم إنتاجها في المختبرات واستنبطت في أنايبٍ اختبار ثم تضاعفت بصورة صناعية إلى ما لا نهاية. يخيل إلي أحياناً أنني فهمت تماماً ما للعالم، لكنني بعدها أجد نفسي في فلوريدا، تغرقني التناقضات والمفارقات، فأضطر إلى معاودة الكرة.

مع انتهاء الجميع من الإدلاء بشهادتهم في جلسة استماع قضية الأوركيدا، بدت القاضية في حيرة من أمرها، أكدت أن هذه واحدة من أكثر

القضايا التي عرفتها إثارة، وأظنها كانت تقصد الأشد غرابة، ثم أعلنت عن رد طلب المدعى عليهم بإسقاط التهم عنهم، كان موعد انعقاد الجلسة في شباط. ثم أوعزت للمتهمين - لاروش وروسيل بويرز وفينسون أوسيولا وراندي أوسيولا - بعدم دخول محمية سبخة الفاكاهاتشي حتى البت في القضية. استسمحت جمهور الأوركيدا وحولت انتباها نحو رجلٍ تبدو عليه أمارات الحزن موقوف بتهمة حيازة المخدرات. التقى بلالوش أمام باب قاعة المحكمة مباشرةً. كان يدخن واقفاً مع ثلاثة رجال آخرين: محامي قبيلة السيمينول آلان ليبرنر، ونائب رئيس العمليات التجارية في القبيلة بوستر باكسلி، وأحد المدعى عليهم وفينسون أوسيولا. أما عضوا السيمينول الآخران فلم يحضران جلسة الاستماع: وفقاً لآلان ليبرنر، أحدهما كان يعاني من وعكة صحية والآخر لم يتعثر عليه.

بدا بوستر في مزاج سيئ. «سوف أذهب حالاً إلى ذلك المستنقع ومعي منشار، قسماً بالله»، نفث دخانه. «عنـه الله».

أطفأ لاروش اللفافة. «أتعلم، أشعر بالعجز التام»، قال. «كأنني مصلوب». بدل آلان ليبرنر حقيقته من يد إلى يد. «اسمع يا بوستر»، قال. «لقد حاولت إيضاح وجهة نظرنا. ذكرت القاضية بأن الفاكاهاتشي كان ملكاً للهنود على الدوام، لكن من الواضح أنها تضع أمراً آخر في اعتبارها. لا تقلق. سوف التعامل مع كل هذا في المحكمة». قطب بوستر جبينه وهو بالسير متقدماً. نظر وفينسون أوسيولا باستهجان إلى آلان ثم انصرف في إثر بوستر. تلفت آلان حوله ثم حيانى موعداً ولحق ببوستر وفينسون. تريث لاروش قبل انصرافه لحقيقة أخرى. نقر بأصابعه على ذقنه ثم قال، «يا لهم من نكتة حراس المستنقع هؤلاء، لا أحد منهم يعرف شيئاً عن النباتات الموجودة فيه. بعضهم أغبياء في الواقع - أقصد أغبياء بحق. من حسن حظهم أنهم أوقفوني حتى أعطيهم أسماء النباتات، وإلا فلا أظنهم سيعرفون حتى ما هي تلك النباتات. إنني فعلياً لا أكترث بما ستؤول إليه مجريات المحكمة هنا. لقد ذهبت إلى فاكاهاتشي آلاف المرات وسوف أفعل آلافاً أخرى».

ترعرع جون لاروش في نورث ميامي، وهي ضاحية فارهة يمر بها المرء في طريقه من ميامي إلى حصن لاودريل. عاش آل لاروش في حي شبه صناعي، لكنه كان ما يزال شديد الالتصاق بحياة المستنقعات والغابات. في طفولته المبكرة، كان لاروش والدته غالباً ما يركبان السيارة ويتجوّلان في بحير ساينيرس والفاكاهاشي لمجرد البحث عن أشياء غير عادية. لم يرافقهم والده قط إذ لم يكن فعلياً من محبي الأحراش كثيراً، وكان آنذاك قد تعرض لكسر في ظهره خلال عمله في البناء وبات معافاً بشكل أو باخر. ليس للاروش أشقاء، لكنه أخبرني أنه كان له اخت توفيت في عمر مبكر. ذات مرة في غمرة سرده لتاريخ آل لاروش، أعلن قائلاً، «تعلمين، طالما أني فكرت في هذا الآن، أعتقد أننا أسرة ابتليت بالمرض والآلام». خلال الأشهر التي أمضيتها في فلوريدا التقيت بوالد لاروش لقاء قصيراً. كم كنت سأسعد لو قيس لي لقاء والدته، ولكنها لم تعد على قيد الحياة. وصفها لاروش على أنها بدينة جداً ورثة، وادعى أنها كانت يهودية المولد لكنها أقامت في مراحل حياتها المختلفة صلات وطيدة بمعتقدات دينية مختلفة. كانت مفعمة بالحماس وشخصاً مفرطاً باندفاعه. ما كانت لتكون أبداً أول من يعلن نهاية التزهه أو التراجع خلال اضطرارها برفة لاروش إلى الخوض في البلايغ. عاشقة للأوركيدا، وإذا ما صادفاً شتلة أوركيدا مزهرة، كانت تصر على تعليمها والعودة بعد عدة أشهر للتحقق ما إذا كانت أنتجت أية بذور.

في مرافقته، عرف لاروش حالة من الهروس العابر بالتصوير. قرر أن يصور كل صنف من أصناف أوركيدا فلوريدا المزهرة، وهكذا كان في كل عطلة نهاية أسبوع يحمل والدته بالآلات التصوير ومساندها البعض الوقت ويمضيان كلاهما سيراً على مدى ساعات وسط الغابات. لم يتم رضاه طويلاً من مجرد تصوير شتلات الأوركيدا - سرعان ما قرر المضي في جمع الأوركيدا نفسها. توقف عن حمل آلات التصوير في رحلاته تلك وشرع يحضر معه الحقائب القماشية وأكياس القمامنة لنقل النباتات. وفي زمن قياسي استطاع تجميع مجموعة ضخمة. فكر بإنشاء مشتل. كان قد عمل قليلاً في مجال البناء بعد المدرسة الثانوية ليغسل نفسه، إنما، شأنه شأن والده، فقد سقط

وانكسر ظهره واضطر لأخذ إجازة عجز. اعتبر كسر ظهره فالأحسن إذ مهد له الطريق لتكريسه نفسه للنباتات. تزوج في عام 1983، وقام هو وزوجته، التي أصبحت سابقة حالياً، بافتتاح مشتل في نورث ميامي. أطلقوا عليه اسم شجرة البروميلية. تخصصا بزراعة البروميلية والأوركيدا، عائلة النباتات الجافة والهوائية الشوكية التي تعيش على الأشجار. ركز لاروش على الأشياء الأكثر ندرة وغرابة. في آخر المطاف أصبحت في دفيئته مجموعة تقدر بأربعة آلاف نبتة، بما فيها بعضها التي يدعي بأنها كانت العينات الوحيدة من نوعها في الزراعة. مثله مثل الكثير من ملاك المشاتل، أدار وزوجته العمل لمجرد العيش على عائداتها، غير أنه لم يقنع بمجرد العيش منها، وظلَّ ينشد العثور على نبات ممیز قد يجعله مليونيراً بشكل أو باخر.

بعد أيام من جلسة الاستماع، دعاني لاروش لمرافقته إلى أحد معارض الأوركيدا في ميامي. أقلني سيارة فان علاها الصدا. قاطعني وأنا أفتح الباب وألقي التحية عليه قائلاً «أريدك أن تعلمي أن هذه الفنان قطعة خردة. وبعد فوزي بجائزه الأوركيدا الكبرى سأشتري لنفسي سيارة فارهة. ما نوع سيارتكم؟»، سألني لاروش. «أظنني سأشتري مثيلتها». انحنىت وحشرت نفسي بين كم هائل من الأشياء كي أصل إلى المقعد المجاور للسائق، ثم جلست على بعض بوصات على طرفه، أرحت قدمي على كيس من تربة الأصص كان مشقوقاً وقد انتشر التراب على كامل أرضية السيارة. انطلق لاروش على الطريق بخفة عالية. اعتتقدت أنني ربما أصبحت في عنقي. كلما مررت الفنان فوق حفرة على الأرض كانت تصدر صوت صرير وتهتز، مع العشرات من المجارف، والمفكات، والأحواض الفخارية الزراعية، وعبوات الكوكا، وأشياء غامضة متناثرة على الأرضية أشبه بالكرات الغولاذية في آلة لعبة الكرة والدبابيس.

لم أسمح لعيني أن تعفلأ عن الطريق فقد شعرت أنه يستحسن بأحدنا أن يفعل هذا. «كما ترين، بقية طوال حياتي -نعم، كل حياتي في عالم المشتل - أبحث عن نبتة لعينة تدر علي ربحاً كبيراً»، قال. «لدي صديق في أميركا الجنوبية -لقد نفق في الحقيقة- بكل الأحوال، كان هذا الرجل

مزارعاً تجاريًّا كبيراً ويمتلك أموالاً طائلة، وكان يرحب في الحصول على هذه البروميلية العجيبة التي أربتها، وهكذا أخبرته أنني سوف أقايضه بها فقط مقابل بذرة أو عقلة من أكثر نبات قيم لديه. قلت له، «انظر يا هذا، لا يهمني إن كان النبات فاتق الجمال أو قبيحاً كمؤخرة». كنت أرغب فقط في أن أرى ذلك النبات الذي منحه حياة الترف التي يعيشها».
«وماذا كان؟ كيف يبدو شكل النبات المربع؟».

ضحك لاروش وأشعل لفافة. «أرسل لي هذا الصندوق الكبير. وبداخله كان هذا الصندوق الصغير، وصندوق أصغر في داخل هذا الصندوق الثاني، ثم صندوق أصغر، وكان في آخر صندوق بوصة مربعة من حشيش الحدائق. خطر لي، هذا الرجل مهرج حقيقي! اللعنة عليه! اتصلت به. وقلت، «أنت يا ابن العاهرة! ما هذا بحق الجحيم؟» حسناً، اتضحت لاحقاً أنه نوع خاص من عشب الحدائق، أخضر اللون يتميز بخطوط بيضاء دقيقة على أطرافه. هذا ما كان! أخبرني أي مغفل كنت وقال إنه يتبعني علي أن أدرك قيمة الكنز الذي بين يدي. أتدرين أنه كان محقاً. عندما تفكرين في هذا الأمر، إذا ما استطعت العثور على عشب حدائق ذي مظهر جميل حقاً، صنف من الأصناف الجديدة الرائعة، ونجحت أن تنتهي منه بذوراً تكفي لتسويقهها، سوف تحكمين العالم. سوف تضمنين حياتك كلها بالكامل».

أطفأ اللفافة وثبت المقوود بركتيه فيما كان يشعل لفافة أخرى. سأله عمما فعله بالبوصة المربعة من العشب. «أوه، لا شأن لي بعشب الحدائق». أجابني. «أظنني تخلصت منها».

في عام 1990، تغيرت حياة لاروش بوصفه رجل النبات. كان مؤتمر عالم البروميلية قد عقد في ذلك العام في مدينة ميامي. كانت مؤتمرات عالم النبات يؤمها جامعو النباتات والمزارعون والهواة من جميع المناطق. في معظم المعارض يقيم المزارعون عروضاً لنباتاتهم، ويتنافسون على الجوائز التي تثبت لهم جودة مزروعاتهم وعقيرية معرضاتهم. ربما لم تكن المعارض معقدة في فترة من الفترات، إنما في الوقت الراهن فلا بد لأجنحة العرض أن تعكس فكرة وموضوع المعرض وعادة ما تشتمل على كتلة إنشاء

رئيسية، وعدد كبير من النباتات، ودعامات حجمها بحجم دمى العرض، وجبار وزوارق كانت مصنوعة من الفلين، إضافة إلى قطع أثاث حقيقة. كان لاروش يشك في أنه يمتلك الموزهبة لتحضير جناح العرض، بيد أنه كان واثقاً من امتلاكه لأفضل نباتات البروميليه في العالم، وهذا ما دفعه لخوض المنافسة. صمم مساحة عرض اثنتي عشر قدماً بخمسة وعشرين وذلك باستخدام عوارات من الخشب ودعامات عرضية، وطلاء ماركة داي غلو، مع إضاءة فوق بنفسجية تجعل الطلاء يتوجه، قام بترتيب خطوط من مصابيح عيد الميلاد بشكل مناسب على شكل أبراج نجمية وعشرات الأصناف من البروميليه التي تبدو أشبه بالنجوم الصغيرة. لقد جذب عرضه ذاك اهتماماً كبيراً. كانت تلك نقطة التحول بالنسبة للاروش. كفصيلة للمؤتمر، بات شخصاً مشهوراً وسط مجتمع النباتيين وأكثر تصميماً على إنشاء مشتل مدهش. أخذ يجري الاتصالات حول العالم على مدار الساعة، متعمقاً في النباتات غير العادية، حتى بلغت فاتورة هاتهآلاف الدولارات شهرياً. خرج ودخل إلى جيئه الكثير من المال، لكنه أنفق معظمه على مشته. كان يميل إلى الإسراف، دفع ذات مرة خمسة آلاف دولار ثمناً لمكيف هواء من أجل سرخس صغير يعيش في بيئة باردة حصل عليه من أحد هم في جمهورية الدومينيكان. بكل الأحوال فقد مات السرخس، لكن لاروش حتى الآن يقول إنه غير قادر على الثمن الباهظ الذي دفعه. كان يرغب بالأفضل في كل شيء. لقد راكم ما يزعم أنها إحدى أكبر مجموعات الكريبيتانوس في البلاد، وهي فصيلة من البروميليه البرازيلي. اشتري شتول أنثوريوم مفيتشي^(١) بطول ستة أقدام ذات الأوراق المضلعة العجيبة. ما زال يطيب له تذكر تلك الأنثوريوم. يقول إنها كانت «ابنة عاهرة في غاية الجمال والبهاء».

على بعد حوالي عشرة أميال من ميامي، وصل لاروش إلى تلك المرحلة من حياته التي ميزتها الأوركيدا. كان لديه هو وزوجته المئات منها في مشتل شجرة البروميليه، وعلى الرغم من أنه كان ذات مرة مسحوراً

- نباتات منزلية أوراقها كبيرة خضراء - م

بالكامل بالبروميليه، فقد وجد نفسه وقد أغونته نباتات الأوركيدا إغواء تماماً. بات مهوساً بإثاثارها. كان مغرياً خاصةً بالتهجين - عمليات التلقيح المتصالب بين الأصناف المختلفة بغية الحصول على مهجنات جديدة من الأوركيدا. «في كل مرة كنت أنجح في إثاثار هجين جديد، يغمرني شعور عارم بالسعادة»، قال لي. «أشعر قليلاً بأنني أشبه الخالق». غالباً ما كان يأخذ البذور المنتشرة ثم ينقعها في مواد كيماوية منزلية أو يطبخها لمدة دقيقة في المايكرورويف بحيث تتحول أو ربما تتحول إلى شيءٍ مثير للاهتمام بحق، إلى شكلٍ جديدٍ وغريبٍ أو إلى لون لم يُرِ سابقاً في عالم الأوركيدا. أظنتني صدمت بعض الشيء أثناء وصفه لتلك العملية، وحين نظر إلى ولمح على وجهي ذلك التعبير رفع كلتا يديه عن المقدود ثم لوح بهما باتجاهي مستنكراً. «مهلاً، هيا»، قال. «إن الطفرة لأمرٌ عظيم! حالة الطفرة مثيرة بالفعل! إنها هواية صغيرة رائعة - كما تعلمين، إحداث الطفرة بقصد الاستمتاع والربح. وهي بروعة الجحيم⁽¹⁾. الحصيلة شيءٌ ما جميلٌ وشيءٌ ما قبيحٌ وشيءٌ لم تقع عين عليه من قبل وهو بكل بساطة شيءٌ عظيم».

استفسرت منه عن مغزى هذا. «ويحك، الطفرة هي الجواب على كل شيءٍ»، قال منفلاً. «انظري، لماذا يتحلى البعض بذكاء أكبر من الآخرين برأيك؟ من الواضح أن السبب هو تعرضهم لطفرة تحوير في طفولتهم الباكرة! إنني واثقٌ من أنني كنت أحد هؤلاء الأشخاص. عندما كنت طفلاً لا بد أنني تعرضت لشيء جعلني أتحور، وهو أنا الآن أتحلى بذكاء خارق. إن الطفرة لأمر عظيم، الطريقة التي يسير بها التطور قدمًا. وأظن أنه من الأفضل للعالم أن يعمل على تحفيز الطفرات بوصفها هواية. أتعلمين، هناك كمٌ هائل من الحيوانات المهدورة وبشرٌ لا عمل لهم. هذا نوع من الأشياء المثيرة التي يتعين عليهم القيام به».

كلما ازداد جمعه للأوركيدا، يفتح الباب أمام لاروش للتعرف على المزيد من جامعي الأوركيدا. أصبح في صميم عالم الأوركيدا، غير أنه في ذات الوقت لم يكن بحق جزءاً منه. تنتشر نباتات الأوركيدا في كل أطراف

- أيضاً عنوان أغنية لباكر بوبي - م

فلوريدا، البرية منها والمترهلة، الطبيعية منها والمهجنة، تزرع في الباحات الخلفية والدفيتات الخشبية، وتشحن من وإلى سائر بقاع الأرض. تتخذ الجمعية الأمريكية للأوركيدا، التي تأسست عام 1921، مقرًا لها في عقار سابق يعود لجامع أوركيدا نهم في ويست بالم بيتش، والعديد من أضخم وأفضل مشاتل الأوركيدا في البلاد - مثل R.F. أوركيد، موتييس أوركيد، فينيل أوركيد كومباني، كرول سميث أوركيد - موجودة في فلوريدا. بعض هذه المشاتل كان موجوداً منذ عقود، والبعض من مربي فلوريدا هم من الجيل الثالث أو الرابع من عائلاتهم التي ظلت تواظب على زراعتها. ظلت الأوركيدا تنمو في مستنقعات وهضاب فلوريدا الخصبة منذ أن وجدت تلك المستنقعات والهضاب، وزرعت في دفيتات فلوريدا منذ نهاية القرن التاسع عشر. بحلول أوائل القرن العشرين، كان للملكيات الضخمة في بالم بيتش وميامي مجتمعاتها الخاصة من الأوركيدا ومن القيمين عليها؛ اعتبرت الأوركيدا من كماليات الثراء والرومانسية، أسيرة صغيرة مهذبة، قطعة براري تحت الزجاج.

لم يكن لاروش ثرياً أو رومانسيًا أو لبقاً على الإطلاق، ولذا فهو لم يكن مؤهلاً البتة لدخول دنيا عشاق النباتات في بالم بيتش، غير أنه كان يملك ثروةً من الأوركيدا. كان الناس يزورون مشتلاته ليلاً ونهاراً لتبادل الحديث معه حول الأوركيدا والتعبير عن إعجابهم بمجموعته وعن تأثيرهم به. كانوا يأتونه لمجرد الزيارة وقضاء الوقت وسط النباتات، أو حاملين له أزهاراً مميزة مقابل اصطحابهم في نزهة عبر فاكاهاتشي، أو يدعونه لزيارتهم لمشاهدة مجتمعاتهم وتملقه للحصول على مشورته، أو يعطونه كمية كبيرة من المال لمساعدتهم على العثور على أكثر النباتات ندرةً في العالم. يعتقد لاروش أن بعضهم كان يتصل لمجرد إحساسهم بالوحدة والرغبة بتبادل الحديث مع أحدهم، تحديداً مع شخص يشاركونه أحد اهتماماتهم. يبدو أن صورة تلك الوحدة تثير سخطه. توقف عن الكلام عنها وشرع يشرح لي سبب غرامه بالنباتات. قال إنه معجب ب مدى قدرتها على التكيف والتحور، وكيف عرفت سبل نجاتها في هذا العالم. أخبرني بأن أحجام النباتات تتفاوت أكثر من أي صنف آخر من بقية الكائنات الحية، ثم سألني إن كنت

على دراية بالنبات الذي يعطي أضخم زهرة في العالم، حيث يعيش متطفلاً على جذور الشجرة. خلال نمو الزهرة الضخمة تقوم شيئاً فشيئاً بالتهام وقتل الشجرة المعيبة. «بعدما أصبح لدي مشتلي الخاص، كنت أشعر أحياناً بأن جميع الذين يدورون حولي سيلتهموني حياً»، قال لاروش. «شعرت بأنهم مثل ذلك النبات التفيلي الهائل وأنا تلك الشجرة المعيبة المحتضرة».

استنساخ الشبح

بالقرب من مدخل محمية سيمينول فلوريدا، في هوليود، تمثال خشبي ضخم لرجل من قبيلة السيمينول يتصارع مع قاطور حاد الأسنان وأطراف مقوسة. أخبرني لاروش ذات مرة أن والده كان موديلاً لمنحوته مصارع السيمينول هذه. وجدته أمراً مستبعداً، فالـ لاروش لا تجري في عروقهم أية دماء هندية على الإطلاق، لكن لاروش فسر لي أن النحات كان صديقاً لوالده وقد طلب منه أن يقف كنموذج، إذ كان يعتقد أن لاروش العجوز يملك قواماً سيميونيالياً مثالياً. مع ذلك لم تقنعني القضية، ولذا فقد أعددت سؤال لاروش عنها عدة مرات على فترات متباudeة، بما فيها حين كنا نتحدث على الهاتف وكنت أعلم أن والده معه في الغرفة. كنت أغول على والده ليلعب دور كاشف الكذب، إنما بدلاً من هذا، انطلق الاثنان في نقاش حول ما إذا كان السيمينول المنحوت يماثل الحجم الطبيعي أم أكبر، وإن كان له قضيب، وعن قياس قضيبه في تلميح إلى قضيب والد لاروش. لم يكن هذا ما كنت أتمنى حصوله، ولذا فقد نسيت الموضوع ولم أشر إليه تانية قط.

قبل عمله لمصلحة السيمينول، لم يكن لاروش يدخل المحمية إلا بين الحين والآخر، أثناء مروره بها صدفة أو شرائه للسجائر المعفاة من الضريبة من متاجر التبغ القبلية. كان حظاً عائزاً بمعنى من المعاني ذلك الذي أودى به للعمل في المحمية بدوام كامل. مررت السنوات الأخيرة التي سبقت التحاقه بالعمل مع القبيلة بصورة مزرية للغاية. تعرض لحادث سيارة مروع فقد على إثره أسنانه الأمامية، ودخلت زوجته في غيبوبة على مدى أسبوع، وقتلت فيه

والدته وخاله. بعد الحادث بفترة وجيزة انفصل عن زوجته. في السنة التالية، اجتاحت جنوب فلوريدا موجة صقيع كارثية وأدت على الكثير من محتويات المشاتل، ومن ضمنها مشتل لاروش. بعدها وفي عام 1991 وصلت دفعه فاسدة من مبيد الفطريات من شركة دو بونت ماركة بينالي اشتبه بأنها كانت مسؤولة عن القضاء على نباتات المشاتل في كل أنحاء البلاد. يبدو أن شتول الأوركيدا كان لها حساسية خاصة حيال البينالي الملوث هذا، وقدت العديد من مشاتل الأوركيدا التجارية في فلوريدا الكثير لدرجة أنها خسرت أعمالها. معظم شتول لاروش التي لم يقتلها الصقيع تسممت بالميدي. أخيراً، ضرب الإعصار أندريلو فلوريدا في آب من عام 1992. إحدى أقسى العواصف، مرت فوق قسم من داد كاوينتي جنوبي ميامي حيث مقر القاعدة العسكرية الكبيرة، وبيارات الحمضيات، والمشاتل التي تتبع ما يربو على ربع الأوركيدا التي تباع في الولايات المتحدة. أوشكت بلدات مثل هوم ستايد ونارانجا وفلوريدا سيتى على الانهاء عن وجه البسيطة. معظم المشاتل اختفت في لمع البصر: انطبقت الدفيئات، وأطاحت الرياح بأقمصة الظلال، سقطت أحواض الزهور وتهشممت. قبل الإعصار، كان لدى لاروش بعض من بقايا النباتات في منزله والباقي وضعه في ثلاثة دفيئات مختلفة استأجرها في ميامي وهو مستايد. اثنان منها سواها الإعصار بالأرض بصورة كاملة، أما الثالثة فقد نسفت بشكل أو باخر. بعد عدة أيام من مرور أندريلو، توجه لاروش لتفقد الدفيئة الثالثة. مرّ في طريقه بخلطة أعشاب حضراء مرمية على قارعة الطريق على بعد ثلاثة أربية من موقع الدفيئة. توقف ليتفحصها وأدرك أن كتلة الحشيش تلك هي إحدى شتول نباتاته. لقد خشي الذهب إلى الدفيئة، إذ كل ما فيها قد مات - غمرت المياه المالحة التي حملتها العاصفة إلى البر جميع النباتات التي كانت قد صمدت ولم تقتلع من جذورها. كان قد مضى على لاروش في العمل في مجال النباتات حوالي إحدى عشرة سنة، وبات شخصاً معروفاً باهتمامه بالنباتات. ها قد أمسى الآن مشرداً بلا منزل ولا نباتات، ووحيداً. أدرك لحظتها وهو هناك أنه سيلقى حتفه من انكسار قلبه إن هو أقدم على افتتاح مشتل خاص به ثانية.

يبلغ تعداد أفراد قبيلة سيمينول فلوريدا ألف وستمائة شخص؛ موزعين على خمس محميات تغطي مساحة تسعين ألف فدان؛ يملكون عشرة آلاف رأس من أبقار هيرفورد المهجنة؛ ستة وعشرين ألف فدان من أراضي الرعي؛ وأثنى عشر ألف فدان من أشجار الليمون القنفذى؛ ستة آلاف فدان من الغريب فروت الأحمر والأصفر؛ مزرعة لسمك السللور وأخرى للجمبى وثالثة للسلاحف. تمتلك القبيلة أيضاً كازينوهات ومؤسسات تبع خاصة بها. تحقق معظم هذه الأعمال التجارية أرباحاً طائلة؛ قبل بضع سنوات، ذكر تقريرهم عن بلوغ الأرباح السنوية عتبة 65 مليون دولار. الكازينو تحديداً يعد استثماراً مربحاً، لقد اقتصر نشاطه حتى الآن على البوكر وآلات المقامرة الإلكترونية وقاعة لألعاب البينس، لكن القبيلة تنوي إضافة أسلوب مقامرة من طراز لاس فيغاس، بما فيها آلات يانصيب سوبريك ويانصيب توتش 6. ما يزال حاكم فلوريدا يعارض هذا حتى الآن، بالرغم من عرض القبيلة دفع مبلغ 100 مليون دولار للولاية سنوياً لمجرد الإذن بهذا التغيير. عندما اكتشف الناس جني قبيلة السيمينول هذا القدر الهائل من المال، شعروا بالإلهام. في العادة، كانوا يتقربون من القبيلة وبجعبتهم عروض استثمارية - من قبيل العمل بإعادة تدوير الإطارات المتهمة أو مضمار سباق خيول الكوارتر^(١) أو إنشاء مجمع تجاري. دأب السيمينول على رفض تلك العروض ببلادة، لكنهم في إحدى المرات فعلوها وأقاموا شراكة مع أناس من الخارج. يوم زرت المحمية لأول مرة، على سبيل المثال، كان بوستر باكسيلي، الذي يشغل منصب نائب رئيس قسم التخطيط والتحديث في القبيلة، يعقد اجتماعاً مع مجموعة من رجال أعمال يابانيين لعقد صفقة مقترحة بين السيمينول واليابان حول مزرعة ليمون. في أغلب الأحيان تدير القبيلة أعمالها اعتماداً على إمكاناتها الخاصة، على الرغم من توظيفها في كثير من الأحيان لأشخاص من البيض من أصحاب الخبرة في مجال الأعمال في سبيل إطلاق هذه الأعمال وضمان ديمومتها. نسبة البطالة بين السيمينول 40 بالمائة تقريباً، وينتظر من مديرى أعمال القبيلة من البيض أن يوظفوا أفرادها كمساعدين وتدربيهم على أكبر قدر ممكن عن الأعمال.

- 1 - خيول أمريكية لسباق المسافات القصيرة - م

حالما يستتب إيقاع العمل، سوف ينتهي الأمر بالسيمينول وقد تدرّبوا ونالوا خبرة تمكّنهم في آخر المطاف من إزاحة المديرين البيض من مناصبهم.

كانت فكرة إطلاق السيدينول لمشروع عمل في مجال المشاتل تحوم في الجوar منذ بعض الوقت. خطة طبيعية، فالسيمينول يمتلكون آلاف الفدادين من الأرض المغطاة بنباتات فلوريدا الأصلية، نخيل السابو⁽¹⁾ وحسائش ذيل الثعلب والأصابع وأشجار مران الرماد الباسق⁽²⁾، تلك النباتات المحلية التي يطلب من المطورين العقاريين في فلوريدا زراعتها في جميع المشاريع التي تمولها الدولة والعديد من المشاريع الخاصة. هناك مشاتل ناجحة حيّثما وجد المرء طرفه، لا بل قد أنشئ بعضها على أراضٍ مستأجرة من القبيلة. تنتشر محميات السيدينول في هوليود وبريتون وإيموكالي وتامبا وبيرس. هوليود هي الأكثر حضريّة من بينها جميعاً، لكن بوستر كان يعرف قطعة أرض قرية من مقر رئاسة القبيلة واعتقد أنها ستكون موقعاً مثالياً - فدانان ونصف بمحاذة الشريط التجاري الكبير فارغان إلا من أبراج الكهرباء العائدة لشركة فلوريدا للكهرباء والطاقة. وافق المجلس القبلي على المقترن فاستدعي بوستر الصحيفة المحلية ووضع إعلاناً لتوظيف مدير للمشتل. حينقرأ الإعلان، كان مستقبل لاروش ما يزال مفتوحاً. كان بالكاف قد تعافي من ضربة الإعصار وشعر بالسعادة لإيجاده عملاً، مع أنه حالياً يطيب له القول إنه يستغرب السبب.

ربما يكون إطلاق مشتل عملاً بسيطاً في حال وجود النية لفعل ذلك، إلا أن لاروش نجح في جعله معقداً. ما كان ليحتمل فكرة إدارة مشتل عادي يحتوي على أصناف صبار وأحواض نخيل وأشجار عيد الميلاد. أراد أن يصبح مشتل السيدينول مبهراً، عاججاً بالأشياء العجيبة. أراد الحصول على نباتات غريبة من سائر أنحاء العالم - من شجيرات العرعر الحلواني، والجوري الآسيوي،

-1- نوع من أشجار الزينة يشبه النخيل الصغير - م
-2- أشجار نادرة تعيش في جنوب فلوريدا - م

وجنبات الكونفيتي^(١)، ونخلات الدب تيدي. كان يريد الحصول على مائة من التنوعات المختلفة مما دعا «حضروات في متها غرابة» - سبانغ ينمو على الدوالى، قرع إفريقي يمكن تدريبه على التعریش، جزر ينمو في الأحواض، قرع صيني غريب الشكل، فاصوليات حضراء يبلغ طولها ياردة وقرون فلفل حار زائيرى وردية اللون شكلها يشبه القضيب.

كانت مخططاته كبيرة بشأن الأوركيدا. أخبر القبيلة عن رغبته بتشييد مخبر حيث سيعمل من خلاله على إكثار خمسين أو ستين صنفاً مختلفاً منها. «مما لا شك فيه أن السيمينول يستطيعون بكل بساطة دخول فنائهم الخلفي واقتلاع الأعشاب وقطع العيدان ثم بيعها في المشتل»، قال لي ذات مرة. «حسناً، إنها صفقة حقيقة وكبيرة. من ناحية أخرى، المخبر هو فكرة حقيقة وعظيمة، فكرة سباقه. أوضح للقبيلة أنه بوجود المخبر يمكنك أن تأخذ نبتة أو نبتتين فحسب ومنها يمكنك أن تحصل على الملائين من الغراس. ما إن نبدأ بتشغيل المخبر سوف يتسعى لنا بمتنه البساطة استنساخ عدد هائل من الأوركيدا وبيعها. يمكنك تشغيل المئات من أفراد القبيلة فيه، وتعليمهم أصول الاستنساخ والإكثار. يمكننا إنتاج بعض الأصناف الهجينة الرائعة بحق! ويمكننا العمل على أوركيدا فلوريدا وإذهال بعض العقول بالفعل. كنت أرغب بإضفاء شيء من الذوق على المكان. آس شمعي لولبي! وعشب منشاري لولبي! المخبر وليس زراعة الأعشاب هو السبيل إلى جني أموال ذات قيمة». مكتبة سُرَّ من قرأ

كثير من الأوركيدا البرية لا يعجبها العيش خارج الغابات. في العادة، لا تزهر ولا تعطي بذوراً إلا إذا عاشت في بيئتها الصغيرة الخاصة بها متنعة بالتركيبة المفضلة لديها من المياه والضوء ودرجات الحرارة ونسيم الهواء، ولحاء الأشجار المثالى على الزاوية المثالى، ووجود نوع محدد من الحشرات ونوع بعينه من المخلفات النباتية التي تسقط على جذورها وفي أزهارها. كثير من أصناف الأوركيدا مستعصية على الإكثار كي تصبيع تجارية، إما لأنها لا تملك جمالاً كبيراً أو لأن أحداً لا يستطيع

أن يكتشف ويعلم بالضبط ما تحتاجه وما ينقصها كي تبقى على قيد الحياة. تحتوي الفاكاهاتشي على عدة أصناف من الأوركيدا التي إما أن تعيش دورة حياتها في البراري أو تقضي نحبها. أجملها على الإطلاق هي البوليرايزا إينديني، والمصنفة أيضاً نباتياً باسم بوليراديشون إينديني، وتشتهر باسم أوركيدا الشبح. لا تنمو أوركيدا الشبح في أية بقعة من هذه البلاد سوى في الفاكاهاتشي. إذا ما نجحت في الوجود على طريقة لاستئناس أية أوركيدا ببرية، لا سيما تلك الجميلة كأوركيدا الشبح، عندها قد تصبح شخصاً ثرياً. سوف يتسمى لك حينها أن تزرع الشتول في دفيئة وتستنسخها بالمئات في المخبر - المئات والمئات من مجموعة متنوعة من الأوركيدا لا أحد على وجه الكوكب تقريراً يمتلكها. كما لو أنك اهتديت إلى وصفة لزيادة عدد النمور السiberية أو الأحجار الكريمة. سوف يبحث عنك هواة الأوركيدا التواقون لرفد مجموعاتهم بأكبر عدد ممكن من أصنافها، وسوف يزورك أيضاً مربو الأوركيدا الباحثون عن مجموعات جينية جديدة. في النهاية، يمكن لمن يشترون غراسها منك أن يزرعواها بأنفسهم من خلال قص عقل من الشتول، لكنك ستبقى صاحب الفضل الأول بوصفك المحترف الذي قام بزراعتها من البذرة، وستحظى بسبعين سنوات من السبق والاحتكار، إذ لا تعطي شتلة الأوركيدا الجديدة أولى زهراتها قبل بلوغها سبع سنوات. أكبر العوائق أمام تحقيقك لكل هذا حالياً هو أن جمع شتول الأوركيدا البرية يعتبر مخالفًا للقانون. محمية بموجب قانون فلوريدا والقانون الفيدرالي أيضاً لحماية الأنواع المهددة بالانقراض، وحتى تلك التي تنمو في متنزهات فلوريدا ومحمياتها هي أيضاً محمية بموجب القواعد الإدارية الناظمة لأملاك الدولة. هناك قيود صارمة على التجارة الدولية في الأوركيدا البرية طبقاً لاتفاقية التجارة العالمية حول الأصناف البرية من النباتات والحيوانات المهددة بالانقراض. قلة حالفها الحظ على نطاق صغير في زراعة الأوركيدا البرية مما كانت قد جمعته قبل نفاذ تلك القوانين، أما حالياً، فكل من يود الحصول على شتلة أوركيدا ببرية يتبع عليه سرقتها من الغابة مباشرةً أو شراؤها من السوق السوداء من شخص فعلها.

كان لدى لاروش مخطط يشبهه في أسلوب تفكيره. كان يعلم باستثناء هنود فلوريدا من قوانين الدولة لحماية الأصناف المهددة. منذ بدء عمله لمصلحة القبيلة أصبحت لديه قناعة بأنه هو أيضاً مغفى. راح يجوب الفاكاهاتشي برفقة بعض السيمينول العاملين في المشتل، مشيراً إلى النباتات التي كان يريدها، وكان لديه طاقم لجمعها حتى إنه لم يلمس قط أي نبتة بيده. في سبيل الضمان: في حال لم يشمله الإعفاء المتعلق بالهنود، يمكنه حماية نفسه من خلال عدم لمس النباتات بيديه، وإذا ما حدث أن أوافقهم الحراس يمكنه الدفاع عن نفسه متوججاً بأنه دخل بقصد التزه فحسب، ولم يقم بأي جمع للنباتات بنفسه. بعد إحضار الشتول سوف يحملها إلى مخبر سيمينول للنباتات ليبدأ العمل على إكثارها. لسنوات عبث بأوركيدا الشبح، وادعى بأنه الوحيد في العالم الذي تمكن من حل لغز كيفية استنساخها وزراعتها. بمجرد انتشار خبر إتقانه زراعة البوليرايزا إينديني، سوف يتم الاحتفاء به في عالم النباتات. سوف يبيع المشتل ملايين الغراس ويكسب ملايين الدولارات، الأمر الذي سيجلب له السرور وسيجعله ذا نفوذ في القبيلة. نجاحه مع أوركيدا الشبح سي Sidd ضربة قاصمة لتجارة السوق السوداء فيها، إذ ما إن يصبح هذا الصنف متوفراً من الناحية التجارية فلن يعود من مبرر لشراء المسروق من البراري. تلك هي وثبة لاروش المعهودة في الإثمار. ستنتهي الخطة بتحقيق الأزدهار في آخر المطاف: سيعمل على توقيت كل ما سيحدث خلال جلسة فلوريدا التشريعية حتى يتسعى له، حال إخراج ما يريد من الغابات، مخاطبة المشرعين وتوييختهم بسبب عدم تنفيذ القوانين التي هي أرخي من أن تتمكنها من حماية النباتات المهددة من الماكرين من أمثاله. سيعمد المشرعون عندها، وقد جللهم العار، إلى تغيير القوانين وفقاً للاحظات لاروش، وعليه سوف تغلق الغابات إغلاقاً محكماً ولن يسمح بتهريب أية أوركيدا الشبح. سوف يجد أنصار حماية البيئة الذين احتقروه بسبب صيده غير المشروع أنفسهم مرغمين على الإعجاب به. سيبدو شيطاناً في البداية، لكنه سيكون أشبه بالقديس في آخر المطاف. أهم ما في الأمر، حسب اعتقاده، أنه وبعد استقرار كل شيء سينجو في النهاية وبحوزته نبتة تساوي مليون دولار.

منذ لحظة بدئه العمل لمصلحة القبيلة، كان شغف لاروش الجديد هو القانون الهندي. كان يقضى عدة ساعات يومياً يرتب معدات المخبر ويمهد الطريق للدفيئات، أما باقى اليوم فكان يقضيه في مكتبة القانون في جامعة ميامي، يبحث في تاريخ ولاية فلوريدا القانوني بشأن السكان الأصليين الأمريكيان. كان ثمة حالتان على وجه الخصوص أثلجتا صدره. لقد لاحقت الولاية هنود الميكوسوكى قضائياً ثلاث مرات بسبب سرقتهم لسعف النخيل. يستعمل أفراد الميكوسوكى والسيمينول السعف لصنع سقف أكواخهم التشيكي^(١). بالرغم من أن النخيل شجر محمى، فقد أسقطت الولاية الدعاوى، إذ حكم القضاة بأن استخدام أفراد الميكوسوكى لسعف يندرج تحت فعل ثقافي تقليدي وبالتالي فهو من حقهم. القضية الثانية التي شجعته هي دعوى ولاية فلوريدا ضد جيمس إي بيلي. تبأ الزعيم بيلي قيادة قبيلة السيمينول لفترة طويلة. في سنة 1983، تم إيقافه بتهمة قتل أحد فهود فلوريدا في محمية بيج سايريس. يعتبر فهد فلوريدا من الأنواع المحمية بموجب قانون فلوريدا والقانون الفيدرالي. ظلت قضايا حقوق الهنود بالصيد وحرية المعتقدات الدينية تربك سير القضية لسنوات، وفي الآخر فشلت الولاية وكذا الحكومة الفيدرالية في إدانة الزعيم.

شجعت قضيتا السعف وفهد الزعيم بيلي لاروش. كما صادف شيئاً من التناقض الأخرق في قانون الولاية، فقد بدا كأن قوانين تحريم نقل النباتات والحيوانات من أراضي ولاية فلوريدا تبطلها القوانين التي تبيح لهنود فلوريدا جمع الحيوانات والنباتات المهددة بالانقراض لغاياتهم الخاصة. بحسب رأي لاروش، هذه هي المطية التي كان يبحث عنها. كان على قناعة بأن هذه الضبابية القانونية ستتيح له الدخول برفقة طاقمه من السيمينول إلى حيث يشاء وأخذ كل ما يريد.

بعد أيام قليلة من زيارتنا أنا ولاروش إلى معرض الأوركيدا في ميامي، ركبت السيارة إلى هوليوود قاصدة زيارته في المستشفى. أدرت راديو السيارة

- 1 - أكواخ مرتفعة السقف ومفتوحة من الجوانب - م

وحاولت أن أعثر على محطة موسيقية تعجبني بي الأمر وأنا أستمع إلى برنامج حواري حول كيفية إسعاد الشعوب والسعالي الأليفة، ثم ولمدة ساعة كاملة إلى دعاية لتسجيلات صوتية عن إدارة الأموال. كان المعلن ذات صوت هادر وأجوف وكان كل بضع دقائق يزعق قائلًا، «أيها الأصدقاء، أنتم على وشك الدخول إلى أرض ميعاد الاستقلال المالي!» مررت أمام كاريبيت مارت وتوني مارت وكار مارت^(١) ثم على المنعطف باتجاه معبر التماسيح وجسر الطريق السريع المؤدي إلى الميدان الذي يلعب فيه أحياناً فريق سوبر بول، تجاوزت كل اللافتات التي تشير إلى جميع بلدات فلوريدا التي تبدو أسماؤها كالألحان من قبيل بلانتاشن وصن رايز وكاؤنت كريك وكورال سبرينغ. كان منتصف الطريق السريع عبارة عن سحابة منخفضة من أحجام الهيبسكسوس الوردية، أما جوانبه فكانت مزروعة بحشائش المكنسة والسماق وعشبة العطاس وسرّة الأرض، وبدا الطريق نفسه على وشك التصدع أو التشابك في أية لحظة ليزال في النهاية من هول النباتات النامية فيه وعلى جانبيه، مبعدةً مهاده. بناء على هذا، تعيش الكثير من الكائنات الحية المذهلة على الطريق السريع حالياً. لقد اكتشف لاروش ذات مرة صنفاً نادراً من الأوركيدا ينمو على طول الطريق آي - ٩٥ الفرعوني، ولم يكن قد عثر عليها تنمو في أي مكان آخر في العالم حتى ذلك الحين.

تقع المحمية في منتصف الطريق بين منزل لاروش ومقر الجمعية الأمريكية للأوركيدا، فوق كتلة مكعب من الأرض على بعد عدة أميال غربي آي - ٩٥. قد لا يتبه راكبو السيارات أنهم دخلوا حرم أرض القبيلة. العلامة الوحيدة هي بضعة من متاجر القبيلة لبيع التبغ المعفى من الجمارك ومحطات وقود وكازينو سيمينول الواطئ الرمادي، الذي يشغل عمارة كاملة. لا يمكنك من الطريق رؤية مقر قيادة القبيلة أو ساحة سباق رعاة البقر أو أبنية منازل المحمية البيضاء الأنique، حيث يقيم معظم أفراد القبيلة. لقد انتهى بي المطاف مراراً في المحمية خلال رحلاتي إلى فلوريدا، وكانت في كل مرة تقريباً أمر بها عن غير قصد.

أخذت مشاعر مختلطة حيال تمضية الوقت مع لاروش تتصاعد في داخلي. لم أكن أستمتع برفقته في السيارة بيد أنني أستمتع بالاستماع إلى النسخة التي يرويها عن حياته. لم نكن صديقين طبيعيين. لقد صدمني بأنه ينام حتى وقت متاخر، يدخن بشرابة ويتناول أطعمة غير صحية، نموذج شخص خارق للقانون، على نقىضي، غير أنني صفتُ من البشر يجد هذا النوع من الناس جذاباً. كثير من الأشياء التي تفوه بها لا تعقل أو مهولة أو مشروحة أو مستبعدة، لكنها لم تكن أشياء تدعوا للسأم. يتدفق تيار مخيلته وسلوكه بصورةٍ فيضان أكثر منه سيلاً سلساً. لم أكن معنية كثيراً بصححة ما يقوله؛ لقد وجدته تدفقاً غير قابل للمقاومة فحسب. كنت أرغب في ذلك اليوم أن يأخذني بجولة في المشتل وقد وعدني بأن هذا ما سوف يقدمه لي، لكنه لدى وصولي كان ينتظر عند الباب الرئيسي للمشتل، وأخبرني بضرورة مغادرتنا في الحال، إذ لديه أمرٌ حاسم يقوم به. ركنت السيارة وصعدت إلى سيارته الفان ثم سأله عن موقع اندلاع الحريق. تجاهل سؤالي وقال إنه مضطّر لزيارة أحد أصدقائه كان قد أعطاهم بعض الشتول قبل عدة سنوات وقرر للتو، دونما مستند واضح، أنه يرغب في استعادة النباتات.

خرجنا من المكان ومضينا في طريقنا، وشرع يحدثني عن خططه بشأن الأوركيدا، وعندها وعلى حين غره توقف على طرف الطريق تحت شجرة نخيل، نقل الفان على الوضعية الحيادية، ثم رفع ذراع المكبح اليدوي. انحني بحثاً عن لفافة ثم أخذ ينبعش تحت مقعده وفي النهاية رفع رأسه وعلى وجهه ابتسامة نصرٍ وبيده علبة مارلبورو مسحوبة. صدر صوت هسيس عن عود الثقب. كان سعف النخيل يصدر صوت خربشة على سقف السيارة. «انظري»، قال أخيراً، «لا أظنك مرغمة أن تكون تحت إمرتك ثلاثة من الهنود يركضون فحسب عبر الفاكاهاتشي ويقتلون النباتات. أقصد، شخصاً من أمثال بوستر - لا بأس، بوستر محارب رائع. ومع ذلك، في ذات الوقت، سوف يكتشف أحدهم كيفية استغلال القانون كما يحدث حالياً وأعتقد أنه ربما من الأفضل أن أكون أنا». تحرك في مقعده ثم اتكلأ إلى الخلف على النافذة. طوق بركتيه عجلة القيادة. كان بطنه أكثر بطن ضامر أظنني رأيته يوماً. «اعتقدت أننا سنحصل على مبتغاناً من المستنقع وبعدها سيقوم

المشرع بتغيير القوانين. هذا ما كنت أود قوله في المحكمة: من الضروري أن تحمي الولاية نفسها. صحيح أنني أعمل لمصلحة السيمينول بيد أنني فعلياً في صف النباتات. هل ما فعلته أخلاقي؟ لست أدرى. إنني نذلٌ داهية. أستطيع أن أغدو مجرماً خطيراً، أستطيع أن أغدو محتالاً كبيراً، لكن أن تعيشي حياتك ضمن حدود القانون أمرٌ أشد تشويقاً. يعتبر أكثر تحدياً أن تفعلي ما يحلو لك مع محاولتك القيام بهذا بصورة تتيح لك تبريره. ينظر الناس إلى ما أفعله متسائلين، هل هذا أخلاقي؟ هل هو صحيح؟ حسناً، ألم يكن هذا النوع من النضال محصلة لكل عمل عظيم؟ انظري إلى شيء وليكن الطاقة الذرية. قد تكون نعمة أو نعمة، شرًا أو خيراً. حسناً، هنا يكمن العطاء - على حافة الأخلاقيات، وعلى هذا النحو بالضبط أرغب بالعيش».

أدار محرك الفنان وقد مبتعداً عن العمارة ليدخل مرآب المشتل. قال لي لاروش إن مالك المشتل رجل التقاه حين كان ما يزال هو وزوجته يديران مشتل شجرة البروميليه. أشار إلى أن الرجل لوطي. «هل لديك مشاكل مع المثليين الجنسيين؟»، سألني.

«بالطبع لا»، أجبته. «ما الذي تتحدث عنه؟».

«أود أن أتأكد فقط»، قال. «فمهما تكن وجهات نظرك الشخصية، عندما تدخلين عملاً في مجال النباتات تدركين أن أولئك المثليين هم أصدقاؤك». بعد الإعصار، لم يعد لدى لاروش مكان لإيواء شتوله القليلة الباقية وهدمت طاقته لمحاولة العناية بها، ولذا فقد أعطاها لصاحب المشتل. لم يكن أي منها من الأوركيدا - فقد ماتت كلها؛ كانت أغلبها شتول نبات الشمعة⁽¹⁾، وهي صنف ذو أوراق قاسية مطاطية وفروع معرضة لتشابك طويلة. لم يكن لاروش مغرماً بنبتة الشمعة دون سواها آنذاك كما لم يعد مغرماً بها الآن، لكنه لسبِّ أو لآخر أراد استردادها. بدا كأنه لا يرى أي خطب في استرجاعها. نزلنا من الفنان ومشينا على ممرٍ مفروشٍ بحصى متحركة باتجاه الدفيئة. على طول الممر كان هناك عدد هائل من الأشجار الاستوائية بلحائها المليء بالتنوعات وأزهارها بلون علقة البالون، ذلك

- نبات منزلٍ معرض بأوراق سميكـة - م

النوع من الأشجار الذي قد ترسمه في رسوم متحركة استوائية. كانت نباتات الشمعة معرضاً ببعضها على بعض في دفيئة صغيرة عليها قفل على بابها، وللحظة تسأله إن كان صاحب المشتل قد خطر له يوماً أن لاروش قد يعود ذات يوم في طلبها. انتظرنا بجانب الدفيئة ونحن ننظر بداخلها ونصف البوعض. كانت النباتات في أحواض تتدلى من السقف وأطراف فروعها تلامس الأرض. «كانت شتولاً رائعة ومثالية للبدء بها»، قال لاروش. «يبدو أنه رعاها بعناية». كان الطقس قد أصبح حاراً ودبيقاً، ظهيرة متکاسلة بسرعتها، والنور داخل الدفيئة وحولها عجيب وثابت، كما لو أنه محتجز في بالون، وجميع الأصوات - صوت طقطقة الممرات الحصوية، وخفيف الأوراق في الريح، وصرير الأبواب، وأصوات الحيوانات الاستوائية من تغريد وتكتكة ونواح - كل هذه الأصوات كانت واضحة إنما فجة، أشبه بأصوات آتية من داخل طنجرة مغطاة. لست أدرى المدة التي بقينا فيها واقفين دون حراك قبل وصول مالك المشتل وهو يقود إحدى عربات الغolf الصغيرة تلك، التي يستعملها أصحاب المشاتل لحصر أملاكهم. لدى رؤيته للالروش بدا مسروراً نوعاً ما. «مرحباً جون»، قال. «يا إلهي، ومن يكون غير جون». أوقف العربية، فرقع مفاصل أطرافه وترجل. كان شاباً أصلع مفتول العضلات، لحيته مشذبة وسحتنته سمراء بلون الكاجو. حياه لاروش معبراً عن إعجابه بالمشتل وأخبره أنني أزور المنطقة بقصد تأليف كتاب عنه. ظهر على صاحب المشتل الجزع مبدياً عدم رغبته بذكر اسمه في أي كتاب عن لاروش. ضحك لاروش ثم أشار صوب النباتات وقال إنه يرغب في رؤيتها لدواعٍ عاطفية. راح الرجل يفتش عن مفتاح ثم فتح قفل الدفيئة. حدق فيما طائر طوقان كان جاثماً على حامل خاص بالطيور بعيون صفراء وبعدها، دون أن يفتح منقاره، زعق بصوت أشبه بصوت فرقعة متواصلة لآلية ثقب الصخور. دخل لاروش إلى الدفيئة وقام بلي أحد الفروع الطويلة للشمعة. «بالمناسبة»، قال. «لقد أتيت بغرض استعادة النباتات. حتى إنني مستعد لشرائها مجدداً أو بأي سبيل من السبل».

«لا يهمني عرضك»، قال المالك، وهو يمسد إحدى الأوراق.

«لقد عدت من أجلها»، كرر لاروش كلامه. «هيا يا صديقي».

قام الرجل بمداعبة ورقة أخرى ثم قال معتبرضاً، «لا يا جون، أصبحت مغروماً بها الآن وهي ملكي حالياً بكل معنى الكلمة، لم تعد لك».

تشاحنا البعض الوقت. في النهاية، أقنعه لاروش بإعطائه بعض العُقل كل شهرين، وبدأ هذا مرضياً لكتليهما. خرجنا من الدفيئة ودخلنا أخرى كانت تعبق فيها رائحة كرائحة الموز الناضج. كان صاحب المشتل يداعب كل نبتة فيها أثناء مرورنا. «جون!»، قال. «أتدرى، لم يعد لدى ولا شتلة أوركيدا واحدة حالياً. أتعلم، لقد تشكلت لدى قناعة بأن جماعة الأوركيدا في غاية الجنون. يأتون ويشترون شتلة منها ثم يقتلونها. يأتون، يشترون، يقتلون. لا أطيق هذا. ما بالك بجماعة السرخس الذين هم أسوأ منهم إلى حدّ ما، غير أن هواة الأوركيدا سيئون جداً - أوه، أتعلم. يظنون أنفسهم أعلى منزلة». كان ينظر إلى لاروش. «هل تقوم بجمع أي شيء حالياً يا جون؟».

«أبداً»، قال لاروش. «لم أعد أرغب بأن أجمع أي شيء لنفسي حالياً. يتبعني على مراقبة نفسي بشدة، لا سيما فيما يتعلق بالنباتات. حتى في هذه اللحظة، لمجرد وجودي هنا، ما زلتأشعر بشعور ذلك الجامع للنباتات. تفهم ما أرمي إليه، ما إن أرى شيئاً حتى يداهمني فجأة ذلك الشعور. كأن الحصول على النبات وحده لا يرضيني - تجتاحني رغبة ملحة بالحصول عليه والتعرف عليه وتربيته وبيعه وإتقان زراعته وjeni الملايين منه». هز رأسه وجرجر قدميه فوق الحصى. «أتدرى، أرى نباتاً ما، أي نبات لا على التعين، فلا أتمكن من كبح نفسي عن التفكير في دخيلىتي، رائع، يا يسوع، هذا مثير للاهتمام الآن! رباه، أراهن أنك تستطيع العثور على الكثير منها».

جحيم أخضر

لا بد أن تعيش رغبة سيئة للغاية في شيء ما كي تمضي بحثاً عنه في سبخة الفاكاهاتشي. تبلغ مساحة محمية فاكاهاتشي ثلاثة وستين ألف فدان من الأرض الشاطئية المنخفضة في الجنوب الغربي لفلوريدا، على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً عن نابل، في قطاع من كولير كاوونتي حيث تفسح مروج العشب الناعم وملاءع الغolf الطريق لمساحات شاسعة من نجيل القصب البري حادة النصل كحدة منجل الحصاد. أحد أقسام الفاكاهاتشي هو مستنقع عميق، وقسم آخر تكسوه غابات السرو، وثالث يتكون من غابات مطيرة، فيها قسم يشكل مسار مد وجزر جارف وقسم آخر مكون من مروج جافة. يبلغ عمر طبقة الحجارة الكلسية تحتها ستة ملايين سنة وتعلوها الصخور الصلبة والرمال، والطمي وسماد القوافع الكلسي إضافة إلى طين لونه رمادي مخضر. إجمالاً، منطقة الفاكاهاتشي مسطحة كبسوكوية. فيها قنوات وأغوار تمتلئ بسرعة بالمياه الجوفية السبخية. غاباتها كثيفة وكتيمة للضوء. في الامتدادات المفتوحة، تنبسط الأرض كبساط من العشب الناعم، لا بل يغدو من السهل حتى مشاهدة الانحناءات والتقوّمات الصغيرة. لا ترتفع معظم الأرض أكثر من خمسة أو عشرة أقدام، وتنحدر بميليمترات متتالية حتى تصل في النهاية إلى مستوى سطح البحر. تمتلك الفاكاهاتشي جمالاً أخذاً وغريباً له خصوصيته. تبدو مروج العشب تحت نور الشمس أشبه بيارات من الحرير الخام. تنبثق سوق النخيل المستقيمة الطويلة وسوق السرو الطويلة من الأرض المنبسطة كأعمدة مياه الينابيع الحارة. جمالها يضاهي جمال سجادة فارسية - سميكه ومعقدة ووافرة ورتيبة إلى حد الملل تقريباً في غناها.

يقيم البشر في فاكاهاتشي ومحيطها، غير أنها مكان يشاع عنه خطأ أنه غير مضياف. في عام 1872، كتب أحد المساحين هذا البند على دفتر ملاحظاته الميدانية: «هي بركة، يطوقها خليج ومستنقع أشجار السرو، لا يمكن العمل فيها. بركة متخصمة بالقواطير الفتاكه. أحصيت خمسين منها ثم توقفت». في الواقع، لعل الساعات التي أمضيتها في الفاكاهاتشي، خلف خطى لاروش، كانت أشد قسوة من كل ما عرفته في حياتي. الجزء المستنقعي من الفاكاهاتشي حار ورطب مليء بالحشرات ويعج بأفاغي الفم القطني^(١) والأفاغي المجلجلة والتماسيع والسلامف النهاشة والنباتات السامة والخنازير البرية ومجموعة من المخلوقات التي تلتتصق وتصطدم بك وتطير داخلةً في أنفك أو عينيك. يعتبر عبور المستنقع معركة، يمكنك المرور فيه بالسهولة التي تمر بها عبر مغسلة سيارات. البلاليع مليئة بما يزيد عن سبعة أقدام من المياه الرائدة، والجو المحيط بها أشبه بوزن محمل مبتل مسدل وخامل. تبدو أطراف الأشجار كأنها تتعرق. الأوراق مبقعة بفعل الرطوبة. يشفط الطمي قدميك ويحاول التثبت بهما؛ إذا ما فشل سوف يكتفي بالالتصاق بحذائك. مياه المستنقع ملطخة بسواد الراتنج الذي يفرزه لحاء أشجار السرو وهو مادة تسبب التآكل الشديد لدرجة أنه يستعمل في علاج جلد الحيوانات. كل ما هو غير رطب في الفاكاهاتشي معرض للبياس. تقصف أشعة الشمس المساحات الخالية من الأشجار. يجف العشب لدرجة أن مجرد احتكاكه بهيكل سيارة قد يجعله يشتعل، ويمكن لهذا العشب المشتعل أن يتطلع بأسنة نيرانه تلك السيارة. لطالما امتلأت الفاكاهاتشي بالسيارات المتفحمة التي هجرها المغامرون المقليلون بالمقلة – يستذكر عالم النبات الذي خاض مجاهله في أربعينيات القرن العشرين في إحدى المقابلات أن أشد ما أثاره هو كثرة أنواع السناجب في المنطقة والعدد الهائل من سيارات فورد طراز T المتفحمة. يمكن لسكن وظلمة وكثافة المستنقع أن تستفز أعصابك. في عام 1885 كتب أحد بحارة بعثة استكشافية لجمع الريش النادر في يومياته: «يبدو المكان موحشاً ومنعزلًا. في حوالي الساعة الثالثة، استقرت أعصاب هنري وشاهدناه

-1- عندما تفتح فمهما دفاعاً عن نفسها يكون لونه أبيض من الداخل - م

يجهش بالبكاء، كان عاجزاً عن إخبارنا عن مداعاة هذا البكاء، يشعر بذعرٍ واضح فحسب».

عادةً ما تكون الأماكن المخيفة بوحشتها مليئة بالموت، أما الفاكاهاتشي فيغلي بالمخلوقات الحية. لطالما قصدها عشاق الطيور من أماكن بعيدة ككوبا، يمضون وفي جعبتهم كمية كافية من الريش الذي يدخل في تزيين آلاف القبعات النسائية؛ في القرن التاسع عشر، نقلت مجموعة من هواة الطيور أيضاً ثمانية أطنان من بيوض الطيور إلى الديار. كتب أحد رحالة القرن العشرين أنه وجد خلال رحلته وفرة المستنقع مثيرة للدهشة - أمسك بمائتي باوند من الكرنند، الذي كان يتناوله على الإفطار، وعثر صدفةً على موقع ضخم لأعشاش الطيور، حيث جمع «مؤونة كبيرة من بيوض مالك الحزين الأزرق والغاق، التي كنت أنوي أن أصنع منها عجة البيض». تناول في تلك الأمسية عشاءً مكوناً من لحم مالك الحزين الأزرق المقللي مع لب نخيل الكرنب^(١). في الفاكاهاتشي، ثمة على الدوام بساط سميك جداً من الجنادب الكسوة لدرجة أنها تشكل خطراً كبيراً أثناء قيادة السيارة، والكثير من الأوركيدا التي وصف زوار المنطقة رائحتها النفاذة الطيبة بأنها مثيرة للغثيان. في أول مسير لي عبر المستنقع، شاهدت أشرطة الزنبق وصفاصاف الماء والنباتات اللاحمة والسماق، وسرخس القيامة ينمو خارجاً من جذع شجرة يابس ومقلوب؛ رأيت أشجار البلوط والصنوبر والسرور والدردار وتوت العليق الجميل والبيلسان وعشبة العين الصفراء وحشيشة الكافور. مع دخولي، حدجتني بومة بنظرة متكبرة، وفي طريق خروجي اعترض طريقي ثلاثة تماسيح صغيرة جداً، رحت أتجول في إحدى زوايا المستنقع وكانت محاطة بأشجار السرو السامقة. كان الحراس يطلقون على هذه البقعة اسم الكاتدرائية. أغمضت عيني ووقفت بلا حراك وللحظة كدت أختنق، وحين فتحتهما ورفعت نظري شاهدت العشرات من شتول البروميليه المعششة على أغصان جميع الأشجار التي رأيتها تقربياً. كانت البروميليه بألوان الأحمر الزاهي والأخضر وشكلها شبهاً بالشعر المستعار. بعضها كان

1 - يستخرج من نوع خاص من النخيل، لونه أبيض شبيه بالكرنب - م

بحجم العنكبوت وبعضها الآخر كان كبيراً بحجمي. الشمس التي تعصف بأشعتها عبر ظلال المستنقع تلقي على أوراقها الصقلية نوراً أحاطفأ. لم تكن البروميليه تبدو شبيهه تماماً بالنباتات في تدليها من الأغصان العلوية، بل أكثر شبهها بقطيع من الحيوانات، ترافق كل ما يمر من أمامها.

لقد اعترضت التوجه إلى فاكاهاتشي بعد جلسة الاستماع، إذ كنت أرغب في رؤية ما كان لاروش قد وصل إليه. طلبت منه مرافقتني، إنما وبناء على منع القاضي له من دخول المستنقع إلى حين البت في القضية، كان علي البحث عن بديل. أفترض أني كنت أستطيع فعل هذا وحدي، لكنني سمعت أن الفاكاهاتشي منطقة عسيرة، وحتى القلة من علماء النبات اللذين يبذلون عليهم الشجاعة ممن طلبت مشورتهم أخبروني أنهم لا يجدون الذهاب إلى هناك بمفردهم. في النهاية، تعرفت على حارس متنه يدعى توني قال إنه سيرافقني. وبعدها أمضيت عدة أيام تالية وأنا أتحدث مع نفسي لعدم الشعور بالخوف. قبل عدة أيام من الموعد المفترض لبدء الرحلة، هاتفي توني وسألني إن كنت فعلاً واثقة من رغبتي بالمضي في هذه الرحلة. أجبته بالإيجاب. في الواقع أنا عنيدة للغاية، لقد شاركت في سباق الماراثون وسافرت وحدي إلى أماكن غريبة وانهمكت في أحاديث مع الكثير من الغرباء، وحين ينفد عنادي، يمكنني الاتكال على نوع معين من التغافل المتعمد بغية دعمي للمضي قدمًا. بالمقابل، من أشد الأشياء التي لم ترقني في الحياة على الإطلاق هو ملامسة قدمي لقاع البحيرة اللزج خلال دروس السباحة في المعسكر الصيفي، والإحساس بملمس الأعشاب مع الطمي محشورةً بين أصابع قدمي المطبقة، ولذا فقد كانت فكرة المسير عبر المستنقع بالنسبة لي رهيبة نوعاً ما. في اليوم التالي، هاتفي توني مكرراً سؤاله إن كنت بحق مستعدة للذهاب إلى الفاكاهاتشي. في تلك اللحظة أحجمت عن محاولة أن أكون صارمة مع نفسي وسمحت لكل تفصيل من تفاصيل البحيرة أيام معسكر كاردينال أن ترتشح مني وتعود إلى ذاكرتي، وحين التقيت توني في آخر الأمر في مركز الحراسة، كادت دموعي تنهمر. لكن عزمي على رؤية الأوركيدا لم يضعف، وهكذا فقد توغلنا أنا وتوني عميقاً في الفاكاهاتشي، في محاولة للعثور عليها. سرنا من الصباح وحتى

وقت العصر دون أن نوفق كثيراً. دبَّ الألم في ساقي ورأسي ولم أنجح في تحمل إحساس الزوجة على بشرتي. بدأت تراودني هواجس الذعر الخفية التي يعايشها الشخص الهارب، ورحت أتساءل عن ردة فعل توني إذا ما جلست على حين غرة وأبيت متابعة السير. كان يتقدمني بمسافة طول سيارة؛ مسافةٌ يمكنني القول إنه يبدو شخصاً رائعاً. استجمعت قواي وتابعت السير خلفه. لم يكف توني طوال مسيرتنا عن إخباري عن حياته، وذكر أنه هو نفسه كان من هوا جمع الأوركيدا وأنه كان يمتلك مخبر أوركيدا متزلياً صغيراً، حيث كان يسعى فيه لإنتاج صنف هجين يتميز بشفته الملتفة كما في أوركيدا الإنسايكليا، مع فرق أنه سيمتاز بلون يشبه لون بعض أصناف الكاتيليا؛ كستانائي تتخلله بقع صغيرة بلون أخضر ليموني. أخبرني أنه سوف يتتأكد من نجاح تجربته بعد سبع أو ثمانية سنوات، عند إزهار الشتول الهجينة. لم أنطق بأية كلمة خلال الميل التالي أو نحوه. لدى تويقنا للراحة، حاول توني أن يتبيّن سبب الخلل الذي أصاب البوصلة، سأله برأيه ما الذي يغوي البشر في الأوركيدا هذا الإغراء الداهم، مما يجعلهم مضطرين لسرقتها وعبادتها والسعى لإكثار أنواع جديدة ومميزة منها ومن ثم يجعلهم مستعدين للصبر على مدى قرابة عقد انتظاراً لتفتح أزهار إحداها.

«أوه، الغموض والجمال والعجز عن المعرفة، حسب ظني»، قال وهو يرفع كتفيه استهجاناً. «إلى جانب، أعتقد أن السبب الحقيقي الكامن وراء هذا هو انعدام معنى الحياة. أقصد، لا معنى ملموساً لها. تستيقظين، تمضين إلى عملك، تقومين بأمور كثيرة. أعتقد أن الجميع وعلى الدوام ينشدون أمراً غريباً من نوع ما ليشغلهم ويستندهم لمقاومة مرور الزمن».

الأوركيدا التي كنت أود رؤيتها فعلاً هي البوليرايزا إينديني، أي أوركيدا الشبح. لقد اقتلع لاروش الكثير من أصناف الأوركيدا والبروميليه الأخرى أثناء جولاته، لكنه أخبرني بأن أوركيدا الشبح كانت أقصى ما يصبو إليه. تعتبر البوليرايزا إينديني في الواقع هي التي تملك جمالاً حقيقياً في الفاكاهاتشي. من الناحية التصنيفية، تتبع لشعبة الفاندانيا، وهي شعبة فرعية من السركانثينا؛ البوليرايزا هو جنسها (ويسمى أحياناً أيضاً البوليراديشون). أوركيدا الشبح أصناف غير مورقة، وسميت تكريماً للخبرة البلجيكية المختصة بزراعة

النبات جين - جولي ليندين، التي اكتشفتها لأول مرة في كوبا عام 1844. أول مرة شوهدت فيها في الولايات المتحدة كان في عام 1880 في كولومبيا كاونتي. تنمو أوركيدا الشبح عادة على جذوع أشجار دردار الرماد وأشجار تفاح القشطة وتفاح الكاسترد. تزهر مرة واحدة في السنة، وخالية من المجموع الخضري الورقي - لا شيء فيها سوى الجذور، تلتف على جذع الشجرة مجموعة متشعبة من الجذور الخضراء المستوية بشخانة المعكرونة تقريباً. تولى الجذور عملية التركيب الضوئي؛ أي أنها تلعب دور الجذور والأوراق معاً. زهورها جميلة ناصعة البياض. بتلاتها معقدة التركيب الأمر الذي يميزها عن جميع أنواع الأوركيدا، غير أن بتلتها بارزة واضحة بصورة خاصة، وكل زاوية منها مدبة وتنتهي بزائدة طويلة مرفقة. في الصور، تظهر الزهرة شبيهةً بوجه رجل ذي شارب كشارب فو مانشو⁽¹⁾. هذه الزواائد شديدة الحساسية لدرجة أنها ترتعش عند أوهام هبة نسيم. مذهل بياض زهرتها كأنه بقعة ضوء وسط كلحة وعتمة المستنقع. ولأن النبات بلا أوراق وجذوره بالكاد ترى على لحاء الشجرة، تبدو الأزهار كأنها معلقة بشكل سحري في الجو. يقال عن أوركيدا الشبح أنها في فترة إزهارها تبدو كضفدع أبيض طائر - ضفدع أبيض طائر جميل أثيري. كتب كارليل لوير، مؤلف كتاب أوركيدا فلوريدا المحلية، ذات مرة عن أوركيدا الشبح: «لا بد أن يكون المرء محظوظاً بما فيه الكفاية كي يرى الزهرة، كل شيء ينكشف أمامها».

عند إحدى البوالىع العملاقة، أشار لي توني صوب خيوط خضراء دقيقة على شجرة فتية وقال إنها لأوركيدا شبح أزهرت هذه السنة. مشينا لساعة أخرى، ثم أشار لي نحو المزيد من جذور أوركيدا الشبح الخضراء على المزيد من الأشجار. كان ضوء النهار قد بدأ يخبو وكانت معرفة بالوحل وتنشر الخدوش والحرائق على جلدي. أخيراً، عدنا سائرين لمسافة حوالي خمسة آلاف ميل⁽²⁾ إلى سيارة توني الجيب. مر على نهار مضي ولم أفلح في رؤية ما ذهبت لرؤيته. لم يتوقف عقلي عن التساؤل في طريق خروجنا ما إذا

1- شارب طويل مستقيم يمتد من زاوية الأنف حتى الذقن، تيماناً بفو مانشو إحدى الشخصيات الخيالية لساكس رومر - م
2- هكذا وردت في الأصل - م

كانت أوركيدا الشبح العصبية على العثور عليها، والجميلة جمالاً لا يقاوم، والمستحيلة الزراعة مجرد وهم وليس بزهرة حقيقة على الإطلاق. لعلها بالفعل شبح. هناك ولا شك أشباح في الفاكاهاتشي - أشباح الحراس الذين قتلوا قبل سنوات على يد صائدِي ريش الطيور غير الشرعيين، وأشباح الحطابين الذين قطعوا إرباً إرباً خلال المعارك وتركت جثثهم تبرد وتتحلل حتى تحولت إلى تراب، وعلى مدى سنوات كان هناك طيف شبح يتجلو في المستنقع، مسخ المستنقع، يقال إن طوله يبلغ سبعة أقدام وزنه سبعمائة باوند وهيئته تشبه البشر. له وقفة قرد، ورائحة كرائحة الظربان ونهم لبذور الترمس. هناك أيضاً كائن بشري شبحي مجهول يسميه حراس الفاكاهاتشي شبح الممهد، يجلب معدات إنسانية حقيقة - ليست خيالية - ويدخلها إلى المستنقع من حين لآخر ويزيل عيدان الدوالى التي تغطي الطرق.

ولو كانت أوركيدا الشبح مجرد سراب بالفعل، فهي ما تزال تملك من السحر ما يجعلها قادرة على إغواء البشر لتعقبها على مدى سنوات ميلاً بعد ميل بلا جدوى. إن كانت زهرة حقيقة، فلن أتوقف عن زيارة فلوريدا حتى يتسعى لي رؤية إحداها. ليس لأنني مغرمة بالأوركيدا، بل إنني لا أكن للأوركيدا إعجاباً خاصاً. أرغب في رؤية الشيء الذي يجذب البشر بتلك الصورة المتفيدة القوية. كانت حياة كل من التقى بهم ممن لهم علاقة بصيد الأوركيدا تتمحور حول رغبة عارمة من نوع ما - للاروش محفزاته الجنونية، ولعشاق الأوركيدا تفانيهم الشديد لأزهارهم، ولأفراد السيمينول إخلاصهم المتقد لتاريخهم وثقافتهم - رغبة تجيئهم عن أسئلة حول كيفية إمضاء وقتهم، وإنفاق نقودهم، ومن سيكونون أصدقاءهم، والأمكنة التي يسافرون إليها وعمما سيفعلون بعيد وصولهم. كانت ديانة. أردت أن أرغب بشيء ما على قدر رغبة هؤلاء بتلك النباتات، غير أن هذا ليس جزءاً من تركيبة شخصيتي. أعتقد أن من هم في سني يشعرون بالحرج من الحماس الشديد معتقدين أن الشغف الشديد بأي شيء يعتبر سذاجة. أفترض أنني أمتلك شغفاً لا يدعو للحرج - رغبتي في التعرف على ماهية شعور الاهتمام بشيء ما ورعايته بمحبة. اتصلت مساءً بالاروش وأخبرته أنني قد عدت للتو من رحلة البحث عن أوركيدا الشبح في الفاكاهاتشي، وأنني لم

أر شيئاً سوى الجذور العارية. قلت له إنني أتساءل ما إذا كان ميعاد إزهارها هذه السنة قد فاتني، أم لعل المكان الوحيد الذي تبرعم فيه أزهار أوركيدا الشبح هو مخيلة من ساروا طويلاً في المستنقع. مالم أقله له هو أن المشاعر الجياشة لطالما جعلتني في حالة ارتياح في البداية. الأمر الآخر الذي لم أصارحه به هو أن حياته كانت تبدو لي مليئة بالتفاصيل الشبيهة شبهًا كبيراً بأوركيدا الشبح - من الرائع تخيلها ومن السهل الوقوع في حبها، لكنها خيالية نوعاً ما وزائلة و بعيدة المنال.

سمعت صوت شفطه الخفيف لدخان سيجارته. ثم قال، «يا يسوع المسيح، بالطبع أوركيدا الشبح موجودة! لقد سرقت منها، حباً بالله! أعرف بالضبط مكان وجودها». ساد الصمت في المكالمة للحظات، تتحنّج وأردف، «كان يتبعين عليك الذهاب إلى هناك برفقتي».

مكتبة

t.me/soramnqraa

حمى الأوركيدا

تعتبر الأوركيدات عائلة قديمة وضخمة من النباتات المعمرة، تحتوي زهرتها على سداة خصوبة واحدة وثلاث بتلات، إحداهن مختلفة عن الباقيتين. في معظم أصناف الأوركيدا، تنمو هذه الببتلة وتتحول إلى ما يشبه الريشة أو الشفة وهي العضو الأبرز في الزهرة. هناك ما يربو على ثلاثة ألف صنف معروف من الأوركيدا، وربما هناكآلاف أخرى لم تكتشف حتى الآن وربما عاش الآلاف منها ذات يوم على هذه الأرض قبل أن تنقرض. أنتج البشر مائة ألف نوع هجين آخر من خلال تلقيح الأصناف بعضها مع بعض أو تهجين الأصناف الهجينة المختلفة بعضها مع بعض في مخابر التكاثر النباتي.

تعتبر الأوركيدا من أشد النباتات المزهرة تطوراً على وجه الأرض. غريبة في شكلها، جمال لوانها استثنائي، شذاها قوي غالباً، معقدة في تكوينها، ومختلفة عن أي عائلة أخرى من النباتات. كان سبب غرابتها على الدوام أمراً محيراً. خمن أحدهم أن السبب يكمن باحتمال أن تكون الأوركيدا قد نشأت في تربة تعرضت لإشعاع طبيعي بواسطة الرواسب النيزكية أو المعدنية، وهذا الإشعاع هو ما جعلها تحور إلى آلاف الأشكال المذهلة. للأوركيدا مظاهر متنوعة وأشكال لا تشبه الأزهار. أحد أصنافها يبدو شبيهاً تماماً بكلب الراعي الألماني بلسانه الممدود إلى الخارج. صنف آخر يبدو شبيهاً بالبصل. وآخر يشبه الأخطبوط. أحدها يبدو شبيهاً بالأنف البشري. وآخر يشبه نمط حذاء فاخر كالذي يتوله الملوك. صنف آخر يشبه ميككي ماوس. وآخر يبدو كوجه القرد. هناك صنف يبدو ذابلاً. أحد الأصناف التي وصفت في سجل النباتات عام 1845 يشبه «غطاء رأس قديم الطراز يلامس تلك اليافة المرتفعة المنشاة التي كانت النساء يضعنها

زمن الملكة إليزابيث؛ أو طوق حصان مزيّناً بأشرتة مبهجة الألوان». بعض أصنافها تشبه الفراشات، الخفافيش أو حقائب اليد النسائية، بعضها كالنحل، كأسراب النحل، أنثى الدبور، المحارات، الجذور، وحوافر الجمل والسناب، منها كراهيب يضعن الخمار، ومنها كرجال عجائز مخمورين. فصيلة الدراكولا لونها أحمر ضارب إلى السواد وتبدو شبيهةً بالخفافيش مصاص الدماء. تبدو البوليرايزا إينديني، أوركيدا شبح فاكاهاتشي، شبيهةً بشبح غير أنها أيضاً قد وصفت ب شبهاً براقصة باليه، صفدع أبيض وبجنية تحمل الكثير من نباتات الأوركيدا البرية أسماء شائعة تبعاً لمظاهرها: المهماز المعوج، البنية، الجامدة، الملتوية، ذات الأوراق الساطعة، قرن البقرة، ذات الشفة، الأفعى، منقارية بلا أوراق، ذيل الجرذ، أذن البغل، ظل الساحرة، عنكبوت الماء، عنكبوت الماء الكاذب، خصلات شعر البنات، وخصلات شعر البنات الكاذبة. في عام 1678، كتب عالم النبات جاكوب بريني: «إن الأشكال المتشعبة لهذه الأزهار تثير إعجابنا الشديد. يمكن أن تتتخذ شكل عصافير صغيرة، سحالي أو حشرات. تبدو شبيهة برجل أو امرأة، أحياناً تبدو كأنها عابسة ومحاربة خبيثة، وفي أحياناً أخرى كمهرج يدفعنا للضحك، قد تأتي على صورة سلحفاة كسلولة، أو علجمون كثيب، قرد رشيق لا يكف عن الهدر». لطالما كان ينظر إلى الأوركيدا كنبات فائق الجمال لكنه عجيب في نفس الوقت. سماها دليلاً للنباتات البرية، نشر في عام 1971 بـ «نزواتنا الشادة».

أصغر نباتات الأوركيدا مجهرية، وأكبر هاله مجموع زهرى بحجم كرة القدم. نقل علماء النبات مشاهدتهم لأوركيدا قرن البقرة في فاكاهاتشي تحمل أزهاراً بحجم طبيعي إضافةً إلى أربع وثلاثين بصلة كاذبة، وهي انتفاخ على شكل درنة ينمو عند قاعدة النبات، حيث يقوم بتخزين الغذاء فيها، يبلغ طول كل منها عشر بوصات. لبعض أصناف الأوركيدا بتلات ملمسها ناعم بنعومة البويرة، وبعضها الآخر ملمس أزهاره خشن ومطاطي كدوالib السباحة. كتب راي蒙د شاندلر أن بنية الأوركيدا شبيهة بقوام لحم البشر. ألوان الأوركيدا غزيرة جداً. قد تكون منمشة أو مرقطة أو معرفة أو بلون واحد ثابت، من لون قريب من النيون إلى الأبيض

السادة. معظمها متعدد الألوان - بتلات عاجية وشفة بلون زهري غامق، أو بتلات خضراء مخططة بالخمرى، أو بتلات صفراء منقطة بلون زيتوني وشفة أرجوانية مع مسحة من اللون الأحمر أسفلها. بعض نباتات الأوركيدا معقدة الألوان لن تتمكن من فهم ماهيتها حتى لو مت. بعضها يبدو شبيهاً بحصيلة حادثة فيها طلاء. ثمة أوركيدا بيضاء، غير أنه لا شيء يضاهي الأوركيدا السوداء، رغم أن رغبة البشر بالأوركيدا السوداء لم ولن تتوقف أبداً. كانت عصارة الأوركيدا السوداء هي التي احتاجها باسيل سان جون، إحدى شخصيات سلسلة مصورة وكان صديقاً لبريندا ستار⁽¹⁾، من أجل السيطرة على مرض الدم النادر والغامض الذي عانى منه. سألت بوب فتشز ذات مرة، وهو صاحب مشتل آر إف أوركيد في هومستايد، في فلوريدا، إن كان يعتقد أنّ الأوركيدا السوداء قد اكتشفت يوماً أو أنتجت بواسطة التهجين. «لا، ليست موجودة في الحياة الواقعية قطعاً»، أجابني. «في بريندا ستار فقط».

كثيرٌ من النباتات تلقي نفسها، مما يضمن لها أن تعيد إنتاج نفسها وتحافظ على بقاء النوع. إن العيب في هذا التلقيح الذاتي أنه يعيد تدوير نفس المادة الوراثية مرة بعد أخرى، ولذا فإن الأصناف ذات التلقيح الذاتي تحمل وتصمد لكنها لا تتطور ولا تحسن من كفاءتها. ظلت النباتات ذات التلقيح الذاتي على بساطتها وشكلها المعروف - على شكل أعشاب برية. النباتات المعقدة تعتمد على التخصيب البيني. لا بد لغبار الطلع أن يتشر من شتلة إلى أخرى، سواء عبر الهواء أو الطيور أو الفراشات أو التحل. عادة ما تكون النباتات ذات التلقيح البيني معقدة في شكلها. يجب أن يكون شكلها مناسباً لتخزين غبار الطلع في مكان يمكنه من ركوب النسيم العابر، أو يتعين عليها أن تكون جاذبة لحشرات التلقيح، أو يجب عليها أن تكون مناسبة أو مغربية جداً لحشرة معينة لدرجة أنه يصبح النبات الوحيد الذي لا تتغذى هذه الحشرة على سواء إطلاقاً. بحسب تشارلز داروين فإن الكائنات الناجمة عن تلاقع بيني تتفوق على الدوام على تلك ذات التلقيح الذاتي

-1- شخصية أوجدها الكاتبة دالي ميسيك في كتابها المصور الذي حمل اسم بريندا ستار - م

في صراع الوجود، هذا لأن ذريتها تحمل عادةً مزيجاً ورائياً جديداً وبالتالي ففرصة تكيفها أكبر، بما أن العالم من حولها دائم التغير. أغلب الأوركيدا لا تلقي نفسها أبداً، حتى عندما تسقط حبوب الطلع عرضاً على مدقتها. بعض أصنافها تتسم وتموت حرفيًّا إذا ما لامست حبوب طلعها مدقتها. هناك أنواع أخرى من النباتات لا تلقي نفسها أبداً، إلا أنه ما من زهرة في العالم أكثر حرضاً على عدم التلقيح الذاتي من الأوركيدا.

كان يمكن أن تفترض عائلة الأوركيدا مثل الديناصورات لو شاءت الحشرات أن تتغذى على نباتات أبسط منها. لما كانت الأوركيدا قد أقحمت، وبدون هذا الإلقاء لن تنج بذورها، بالمقابل كانت النباتات البسيطة ذات التلقيح الذاتي التي تنمو بجوارها ستتجه بذورها على نحوٍ مطرد وتنشر انتشاراً جنونياً مستغلةً المزيد والمزيد من المكان والضوء والهواء، وكانت الأوركيدا في آخر المطاف قد انزاحت إلى هوا مش عملية التطور واختفت. على النقيض، تضاعفت الأوركيدا وتنوعت وباتت أكبر عائلة من عائلات النباتات الزهرية على وجه الأرض، إذ إن كل صنف منها عرف كيف يجعل من نفسه صنفاً لا يقاوم. بعض أصنافها تشبه إلى حدٍ بعيد حشراتها المفضلة فيختلط الأمر على هذه الحشرات وتحسبها من أقاربها، وما إن تحط على الزهرة بقصد زيارتها، تعلق حبوب الطلع على أجسامها. حين تكرر هذه الحشرات الوقوع في الخطأ فوق أوركيدا أخرى، تهبط حبوب طلع الزهرة الأولى على مدققة الزهرة الثانية - بكلمات أخرى، تتكاثر الأوركيدا لأنها أكثر ذكاءً من الحشرة. هناك أصناف أخرى من الأوركيدا تقوم بمحاكاة شكل مخلوق يجذب الحشرة الملقة لقتله. لقد دعا علماء النبات هذه العملية بالتضاد الزائف. ترى الحشرة عدوها فتهاجمه - أي أنها تهاجم الأوركيدا - وفي غمار هذا القتال العقيم، تتلوث الحشرة بغار طلع الأوركيدا ثم تنشرها عندما تكرر هذا الخطأ. أصناف أخرى تبدو شبيهةً بقرين الحشرة الملقة، ولذا تحاول الحشرة التزاوج مع زهرة أوركيدا وتعيد الكرة مع أخرى - تزاوج كاذب - تنقل وتذر حبوب الطلع من زهرة إلى أخرى في كل محاولة من محاولاتها اليائسة. تمتلك أوركيدا شبشب السيدة شفة معلقة مميزة تطبق على النحلة وترغمها على المرور عبر أسدية دبة من غبار

الطلع أثناء كفاحها للهروب من الجزء الخلفي للنبات. هناك صنف يفرز رحيقاً يجذب الحشرات الصغيرة. أثناء لعق الحشرات للرحيق تستدرج إلى داخل أنبوب ضيق في داخل الزهرة إلى أن يصبح رأسها تحت عرف الغشاء الفاصل بين الأعضاء الذكرية والأنوثوية مباشرة. عندما ترفع الحشرة رأسها، يطلق العرف عليها رماحاً دقيقة محملة بحبوب الطلع تلتتصق على الفور بقوة عين الحشرة لكنها تسقط عنها في لحظة إدخال الحشرة رأسها في شتلة أوركيدا أخرى. بعض الأوركيدا منظرها جميل من النظرة الأولى لكنها تنشر عبيراً مغرياً ومخادعاً. هناك أوركيدا تفوح منها رائحة اللحم الفاسد، التي تجذب بعض الحشرات. أوركيدا أخرى تبعث منها رائحة شوكولا. وبعضها الآخر يفوح منها رائحة شبيهة برائحة الكاتو. العديد منها يقلد شذا أزهار أخرى مألفة أكثر منها لدى الحشرات. بعضها لا يطلق عطره إلا مساءً بقصد جذب فراشات الليل.

لا أحد يعلم ما إذا كانت الأوركيدا قد تطورت كي تستكمل الحشرات أم أنها سبقتها في التطور، أم هذان الشكلان من الأحياء قد تطورا بشكل متزامن بشكل أو باخر، الأمر الذي قد يفسر اعتماد هذين النوعين المختلفين كل الاختلاف كل منهما على الآخر. إن التناغم بين الأوركيدا وملقحها مثالي تماماً لدرجة تثير العجب. كان داروين مولعاً بدراسة الأوركيدا. لطالما وصفها في كتاباته قائلاً عنها «محبوبتي الأوركيدا» وكان على يقين لا ريب فيه أنها تمثل ذروة عملية التحول التطوري لدرجة أنه كتب ذات مرة «لمن الهمجية الرهيبة التعامل مع الأوركيدا التي كانت قد خلقت على الشكل الذي نراها فيه حالياً». نشر في عام 1877 كتاباً بعنوان *الألاعيب المتعددة* التي تتکاثر الأوركيدا من خلالها بواسطة الحشرات. يتحدث في أحد فصوله عن نوع غريب من الأوركيدا كان قد عشر عليه في مدغشقر - أنغريكوم سيسكوييدال⁽¹⁾ أزهارها نجمية ناصعة البياض و«فيها غدر رحيبة خضراء شبيهة بالسوط ذات طول مذهل». يبلغ طول الغدد الرحيبة حوالي 12 بوصة ويتجتمع كل الرحيق في البوصة القاعدية. افترض داروين أن ثمة

- 1 - تسمى أيضاً أوركيدا نجمة الميلاد - م

ولا بد حشرة قادرة على شفط الرحيق الذي لا يمكن الوصول إليه وتلقيح النبات في الوقت نفسه - وإنما كان لهذا الصنف أن يستمر في الوجود. لا بد لهذه الحشرة أن تتخذ هيئة غريبة مكملة. كتب: «هناك في مدغشقر بالتأكيد فراشات تمتلك خرطاً طيفياً قابلة للتمدد حتى تصل إلى طول من عشر إلى اثنين عشرة بوصة! سخر من قناعتي هذه البعض من علماء الحشرات، لكننا نعلم حالياً بفضل فريتز مولير أن فراشاً أبو الهول الموجودة في جنوب البرازيل تمتلك خرطاً طيفياً بهذا الطول المناسب تقريباً، إذ بلغ بعد تجفيفه بين عشر إلى اثنين عشرة بوصة. في وضعية الانكماس، يلتقي بشكل حلزوني بحلقات يبلغ عددها عشرين لفة على الأقل... بعض الفراشات الضخمة ذات الخرطاً الرائع بطولها يمكنها أن تشفط الرحيق حتى آخر قطرة منه. إذا ما انقرضت هذه الفراشات الكبيرة من مدغشقر، فسوف تنفرض الأنغربيكوم بالتأكيد». كان داروين مهتماً جداً بآلية إطلاق الأوركيدا لغبار التلقيح. أجرى التجارب عليها من خلال ثقبها بالإبر، وفراشي وبر الجمال، والريش الخشن، وأقلام الرصاص وبأصابعه. اكتشف بأن أعضاءها كانت من الحساسية لدرجة أنها تطلق غبار التلقيح عند أوهى لمسة، ولم يكن «الدرجات العنف المتوسطة» على الأعضاء الأقل حساسية أي تأثير، الأمر الذي جعله يستنتاج أن الأوركيدا لا تطلق غبار التلقيح بصورة اعتباطية - كانت تمتلك ذكاءً كافياً يؤهلها لصونه فقط من أجل ملاقات الحشرات وهو الأكثر ملائمة لها. كتب: «تبعد الأوركيدا كأنها تسير على نموذج نزوة في أعنف صورة لها، غير أن هذا لا شك يعزى إلى جهلنا بمتطلبات وظروف حياتها. ما السبب في امتلاك الأوركيدا لهذا العدد الكبير من الألاغيوب المثالية من أجل التكاثر؟ إنني واثق من أن الكثير من النباتات الأخرى لديها استكمالية عالية للتكييف مماثلة لها؛ لكن يبدو أنه عند الأوركيدا أكثر تعداداً وكما لا يمْمَا هو عند معظم النباتات الأخرى».

تعتبر الحيل التي تنتهجها الأوركيدا بغية جذب الملقط رائعة لكن نسبة نجاحها المئوية متداينة. أجرى علماء النبات مؤخراً دراسة على ألف شتلة من الأوركيدا البرية دامت خمسة عشر عاماً، ولم يتلقح خلال مرحلة

الدراسة سوى ثلث وعشرين منها. النسبة سائبة، لكن الأوركيدا تعوض. سوف تطرح عدداً هائلاً من البذور في حال إلقاءها. لا تتبع معظم الأصناف الأخرى من النباتات الزهرية أكثر من عشرين أو نحوها من البذور في كل موسم، بينما تمتلك كبسولات بذور الأوركيدا بملايين البذور الصغيرة التي لا يتعدى حجمها حجم ذرة الغبار. تحوي الكبسولة الواحدة على ما يكفي لتزويد حفلات التخرج بالزهور على مستوى العالم إلى الأبد.

ينمو بعض أصناف الأوركيدا في التربة وبعضها الآخر لا يعيش في التراب على الإطلاق. تدعى تلك التي لا تعيش في التراب بالنباتات الهوائية، وتمضي حياتها ملتصقة بجذع شجرة أو صخرة. تستقر بذور الأوركيدا الهوائية في بقعة مريحة، تتشتّر وتتموّن وتتدلي جذورها في الهواء، وتعيش حياة خاملة تمتص مياه الأمطار والأوراق المتحللة والضوء. ليست طفيليّة - لا تقدم شيئاً للشجرة ولا تطلب منها أي شيء، عدا الموقع الملائم للاستقرار. تعيش أغلب النباتات الهوائية في الغابة الاستوائية، حيث الكثير من المخلوقات الحية التي تتنافس على حجز موقع لها على أرض الغابة لدرجة أن معظمها يخسر المعركة ويندثر. ازدهرت الأوركيدا في الغابات لأنها طورت قدرتها على العيش في الهواء أكثر من التراب، واستقرت حيث كانت تشق بحصولها على ما تحتاجه من ضوء وماء - أعلى من بقية النباتات على جذوع الأشجار. عاشت لأنها نأت بنفسها عن المنافسة. كل هذا يجعل من الأوركيدا تبدو نباتاً ذكياً، ممتازاً، تبدو ذكية. ثمة ذكاء واختلاف عن النباتات في تصميمها على البقاء وبراعتها في توظيف الخداع وعقريتها في إغواء البشر على مدى مئات السنين.

تنمو الأوركيدا على مهلها، تصاب بالوهن. قد تطرح زهرة وكبسولة بذور واحدة، ثم ترتاح على مدى أشهر في كل دورة. تنضج بذرة الأوركيدا المخصبة في الشتلاء المزهرة لحوالي سبع سنوات. مع الأيام، يذبل ذيل الشتلاء بيد أنها تواصل مسار نموها في الأعلى. ليس لها أعداء طبيعيين عدا الطقس السيئ ونوع نادر من الفيروس. تعد الأوركيدا من المخلوقات القليلة على وجه الأرض القادرة على العيش إلى الأبد. يمكن لشتول الأوركيدا التي لا يقتلها ملاكها أن تعيش أكثر منهم، لا بل قد تعيش أكثر من أجيال من

الملّاك. يحدد العديد من جامعي الأوركيدا وريثاً لها في وصيتها، إذ يعلمون أن النباتات سوف تبقى بعدهم. في مشتل بوب فوتشز R.F.Orchids، هناك نباتات كان جده الراحل قد اكتشفها في أمريكا الجنوبية في مطلع القرن. لدى توماس فينيل الثالث، صاحب مشتل أوركيدا فينيل، شتول جمعها جده في شبابه عندما كان صياد أوركيدا من فينزويلا. بعض شتول الأوركيدا في نيويورك بوتانيكال غاردن^(١) تعيش في دفيئات موجودة فيه منذ عام 1898.

نشأت الأوركيدا أول ما نشأت في المناطق الاستوائية، غير أنها حالياً تنمو في شتى أنحاء العالم. معظمها انتشر من المناطق الاستوائية على شكل بذور ذرتها وحملتها التيارات الهوائية. يمكن للإعصار أن يحمل مليارات البذور لمسافة مئات الأميال. ستهبط بذور الأوركيدا، التي تحملها الرياح من أمريكا الجنوبية إلى فلوريدا، في المسابح ومناقل الشواء وعلى ملاعب الشوفلبورد ومحطات الوقود، على سطوح المباني الإدارية وعلى مداخل مطاعم الأطعمة الجاهزة، على رمل الشيطان الحار وعلى شعرك في يوم عاصف، وسوف تنجرف هذه البذور أو تداس أو تغرق دون أن يشعر بها أحد أو يراها. عدد قليل منها قد يقع في مكان هادئ ورطب ودافئ، وقد يسقط بعض هذه البذور صدفةً في ثلم شجرة مريخ أو شق في حجر. إذا ما التقت البذرة بفطر يمكنها أن تستخدمه كغذاء، عندها تتتعش وتنمو. كلما ضرب فلوريدا الإعصار، يتساءل علماء النبات عن أنواع الأوركيدا الجديدة التي حملها معه. حالياً يتظرون معرفة ما في جعبه الإعصار أندريليو. لن يتلقوا الإجابة إلا قربة الذكرى السنوية السابعة للعاصفة، عندما تبرعم وتكبر البذور التي حطت هنا.

ما من تفسير علمي لآلية شعور البشر حيال الأوركيدا. يبدو أنها تدفعهم للجنون. أولئك الذين يحبونها، يحبونها بجنون. تثير الأوركيدا الشغف أكثر مما تثير الرومانسية. إنها الأزهار الأكثر إثارة جنسياً على وجه الأرض. اشتقت اسم «أوركيدا» من الكلمة *orchis* اللاتينية، التي تعني الخصبة. لا يشير هذا

فقط إلى الشبه بين درنات النبات والخصية، وإنما إلى الاعتقاد الطويل الأمد بأن الأوركيدا انبثقت من السائل المنوي المراق أثناء تزاوج الحيوانات. ينصح دليل الأعشاب البريطاني لعام 1653 بوجوب الحذر في التعامل مع الأوركيدا. «إنها مثيرة ورطبة أثناء العمل بها، بسبب هيمنة فينوس، وتثير الشهوة بشكلٍ مفرط». في إنكلترا الفيكتورية، كانت هواية زراعة الأوركيدا مستهلكة للغاية لدرجة أنها كانت تدعى أحياناً «نهم الأوركيدا»؛ تحت تأثيرها، كثيرون من كون يبدو عليهم أنهم طبيعيون، بعد وقوعهم في حبائل غرام الأوركيدا، تحولوا وأصبحوا أقل شبهاً بالبشر الطبيعيين وأكثر شبهاً بجون لاروش. حتى حالياً، ثمة حالة هذيانية فيما يتعلق بجمع الأوركيدا. سمعت على لسان كل من التقى بهم من محبي الأوركيدا القصة نفسها - كيف أن شتلة واحدة في المطبخ قادتهم إلى عشر، ثم إلى دفيئة في الفنان الخلفي، وبعدها، في بعض الحالات، إلى دفيئات متعددة ورحلات جمع إلى آسيا وإفريقيا وميزانية الأوركيدا لا توقف عن الارتفاع، ورغبة بغرائب شديدة الشح في مكافأتها ولا يمكن سوى للجامع الجاد أن يقدر قيمتها - أوركيدا ستانهوبية مثلاً، التي لا تزهر سوى مرة واحدة في السنة ول يوم واحد كحد أقصى، «تصيك لو ثتها»، شرح لي أحد الجامعين من غواتيمالا قائلاً. «يمكنك الانضمام إلى مجموعة A.A. (١) لكي تقلع عن الشرب، لكن إذا ما تورط المرء في الأوركيدا عندها لا يمكنه فعل أي شيء للتخلص من هذه العادة». لم يحدث أن حصلت على أوركيدا قبل وصولي إلى فلوريدا، بيد أن لاروش كان على الدوام يمازحني قائلاً إنني لن أكمل السنة في احتكارك مع جماعة الأوركيدا دون أن أعلق بصناراتها. لا أرغب أن أعلق بصناراتها - ليس لدي المتسع ولا الصبر لتربية النباتات في شقتي، وأفترض أيضاً أنني لا أريد للاهوش أن يزهو بالغرور الشديد حيال قواه التنبؤية. في الحقيقة، كان جميع من التقى بهم من مربي الأوركيدا تقريباً يلحون لإعطائي شتلة، وكانت في منتهى الحذر لثلاً أتعلق بها فأعمد على الفور إلى وهبها والتخلص منها. تزيد القيمة السنوية للتجارة الدولية بالأوركيدا حالياً عن 10 مليارات

- ١ - مجموعة خاصة بالمدمرين على الكحول - م

دولار، وقد بيعت بعض الشتول النادرة بمبلغ يزيد على 25 ألف دولار لكل منها. أكبر مصدر لعقل الأوركيدا في العالم هي تايلاند، وترسل ما قيمته 30 مليون دولار من باقات وطاقات الورد إلى جميع أنحاء العالم. قد يكون شراء الأوركيدا وصونها مكلفاً. هناك جلسة أوركيدا وأطباء أوركيدا ودور إقامة للأوركيدا - دور حضانة ترعى نباتاتك عندما لا تكون في طور الإزهار وتختصر بظهور براعتها وجهوزيتها للذهاب إلى المنزل والتباهي بها. نقلت إحدى المجالس مؤخراً أنه بلغ عدد شتول أحد زبائن حاضنات الأوركيدا في سان فرانسيسكو عدداً جعله يدفع مبلغ ألفي دولار كإيجار شهري. هناك العشرات من مواقع الأوركيدا على الإنترنت. دخلت قبل مدة إلى «الصفحة الرئيسية للدكتور تاناكا»، يصف الدكتور تاناكا نفسه «أنا رفيق مغرم بالباف!»^(١) وأيضاً «مظيري سبع للغاية، ولا يمكنني عرض صورتي». بالمقابل، عرض على صفحته الرئيسية حكايات عن «بافيوبيدليوم مذلةة و/ أو عجيبة، ظهرت في آخر معرض للأوركيدا أقيم في اليابان «إضافة إلى صور لدفيته وعائلته، بما فيها صورة لحفيدته بافيوبيدليوم. «في الصف العاشر»، كتب تحت صورة الآنسة بافيوبيدليوم تاناكا المبتسمة. «إنها في سن المشاكسة واللهو. لكنني أطلقت اسمها على جميع مستنسخات الباف المنتقدة تقريباً. بادئ ذي بدء، أطلقت اسم «ماكي» ومن ثم «ماكي الحالمة»، «سعادة ماكي»... الخ» أما زوجته كايوكو، فقد كتب الدكتور تاناكا عنها، «عمرها يعتبر سراً. يقللها الوصول إلى منتصف العمر مثلـي. لا تبرم البتة من شتول أوركيدا بافيوبيدليوم خاصتي، وتركـتني أفعل ما يحلو لي... قبل أن نرزق بفتاة، كنت قد أطلقت اسم زوجتي على جميع المستنسخات المنتقدة من نوع الباف التي أربـيها. لكنـتني بعد ذلك، نسيـت الاسم نسيـاناً كاملاً».

سمعت عدداً لا يحصى عن حكايات الإخلاص المتين للأوركيدا أثناء تجوالي برفقة لاروش. سمعت عن جامع أوركيدا يملك دفيـتين على سطح منزله المستقل في مانهـان، حيث يحتفظ فيهما بثلاثة آلاف شـلة أوركـيدـا نادـرة؛ زـود الدـفيـتين بـفتحـات سـقف آلـية، وـسـخـانـات عـلـى الـوقـود، وـنـظـام

غيموم صنعي، ومراروح لتحريل الهواء. يقضي، شأنه شأن العديد من هواة الجمع، الإجازات هو وزوجته كل منها على حدة حتى يتسمى لأحدهما أن يكون في المنزل على الدوام مع الأوركيدا. سمعت عن ميشيهير وفوكاشيمما، مؤسس شركة طيران اليابان، الذي يؤكّد أنه وجد عالم الأعمال قاسياً جداً، فتقاعد باكرأ. نقل أصوله المالية إلى زوجته، وقطع كافة صلاته الأسرية، ثم انتقل إلى ماليزيا ومعه ألفا شتلة من شتول الأوركيدا التي كان يزرعها. لقد تزوج مرتين وأسرّ لأحد المراسلين بأنه شعر «بأنه كان مصدر حزن زوجتيه نتيجةً لولعه بالأوركيدا». تقاعد تشارلز دارو، مخترع لعبة المونوبولي، في سن السادسة والأربعين وفي جعبته كل المال الذي حصله من المونوبولي، مكرساً بقية حياته لجمع وإكتثار الأوركيدا البرية. يقول جامع أوركيدا صيني شاب، هجو تشي - هو، عن نفسه مؤخراً إنه مت指控، وبالرغم من مثوله أمام المحكمة أربع مرات لحياته شتول الأوركيدا البرية، فهو يعتبر الأمر يستحق العناء.

قد تصبح عملية الجمع شكلاً من أشكال الحب المرضي. إن كنت من هواة جمع الأشياء الحية، فأنت تتعقب شيئاً غير قابل للإكمال، حتى لو نجحت في العثور والاستحواذ على الأشياء الحية التي تتبعيها، فما من ضمانة أنها لن تفني أو تبدل. قبل عدة سنوات، يبست ثلاثون ألف شتلة أوركيدا تخص أحد قاطني بالم بيتش. ألقى باللامة على أبخرة الميثان المنبعثة من محطة مياه الصرف الصحي القرية. ادعى على المقاطعة وحظي بالتسوية، لكنه دخل فيما سنته عائلته «الانحدار إلى الحضيض». أوقف بسبب تهجمه على والده، ثم إطلاقه عيارات نارية على منزل جيرانه من بنديقية صيد عيار ستة عشر، وبعدها بسبب حمله لسكين قابلة للطهي، ومسدسًا وبنديقية حربية. «كل هذا بسبب موت شتول الأوركيدا خاصة»، قال ابنه للمراسل. «كل شيء بدأ بعد موتها». قد يتحول الجمال إلى إغراء مؤلم، ييد أن الأوركيدا ليست جميلة فحسب. كثير منها مظهره غريب أو عجيب، وجميعها قبيحة عندما لا تكون مزهرة. إنها نباتات قديمة، كائنات حية معقدة تكيفت مع مختلف البيئات الموجودة على الأرض. عاشت أكثر من الديناصورات؛ وربما تعيش أكثر من البشر. باستطاعتها أن تهجن، وتحور، وتتلقي مع

غيرها وتتناصح. إنها ملموسة ووهمية وقوية ولطيفة في آنٍ معاً، جوهرة زهرة فوق كومة قش نبات. لعل تعقيد الأوركيدا النباتي وقدرتها على إحداث الطفرات هو ما جعلها الأكثر جاذبية وجذوناً من بين جميع الكائنات الحية التي يمكن جمعها. ثمة الآلاف والآلاف من أصناف الأوركيدا. الجديد منها يتم إكتاره في المخابر أو اكتشافه يومياً، وأصناف أخرى لا يمكن العثور عليها تقريباً فهي توجد بأعداد ضئيلة وفي موقع بعيدة. بمعنى من المعاني، من المحال إحصاء أصناف الأوركيدا على الكوكب، إذ تغير باطراد. أن ترغب بالأوركيدا يعني أن تمتلك رغبة لن تشبع، ولا يمكن أن تشبع أبداً. يموت جامع الأوركيدا الذي يرغب بالحصول على كل أصنافها الموجودة على الأرض بلا ريب قبل أن يقترب من تحقيق مراده حتى.

مهنة قاتلة

لقي أعظم صائد أوركيدا في العصر الفيكتوري ويلIAM أرنولد حتفه غرقاً خلال إحدى رحلاته لجمع الأوركيدا في نهر أورينوكو. أما صائد الأوركيدا شرويدر، وكان معاصرأً لأرنولد، فقد لقي مصرعه أثناء الصيد في سيراليون. الصياد فالكينبيرغ أيضاً ضاع أثره خلال رحلة صيده في باناما. توفي ديفيد بومان نتيجة إصابة بالزحار في بوغوتا. قتل الصياد كلابوك في المكسيك. براون قتل في مدغشقر. قتل إيندرiss رميأً بالرصاص في الإكوادور. تعرض ديغانس لإطلاق نار من قبل السكان المحليين في البرازيل. اختفى أوزميرس دون أن يعثر له على أثر في آسيا. نجا عالم اللغويات وجامع النبات أوغوسنوس مارغيري من ألم الأسنان، والروماتيزم، وذات الجنب والزحار أثناء رحلته عبر نهر اليانغتس، ليقتل بعدها حين أتم بعثته وكان في طريقه خارجاً من بهامو. يعتبر صيد الأوركيدا مهنة قاتلة، لطالما كان هذا جزءاً من سحرها. لقد أغرم لاروش بالأوركيدا، لكنني أصبحت على قناعه أنه أحب مشقة الحصول عليها والوفيات المرتبطة بها تقريباً بقدر حبه لأزهارها نفسها. كلما ازدادت مشقة الوقت الذي يقضيه في المستنقع زاد حماسه حيال الشتول التي يخرج حاملها في جعبته.

كانت سعادة لاروش الوهمية بالبؤس شعوراً تقليدياً وسط صائدي الأوركيدا. يشرح مقال نشر في إحدى المجلات الصادرة في عام 1906 هذا بالقول: «يتجلّى جل الرومانسية المرتبطة بطائفة الأوركيدا في جمع العينات من موطنها الأصلي الذي تحيا فيه، إن كان من مستنقع الحمى أو ربما من بلد يعجّ بالسكان المحليين العدوانيين المستعددين والتواقين، على الأرجح، لاتهام الجامع الغر». في عام 1901، انطلق عشرة من صيادي الأوركيدا في

حملة جمع إلى الفلبين. خلال شهر واحد، أخذهم التهمه نمر، وأخر غرق في النفط ودفن حياً، خمسة منهم تبخرت واختفت في مهب الريح، واحد منهم فقط نجح في البقاء على قيد الحياة وخرج سيراً من الغابات ومعه سبعة وأربعون ألف شتلة من الفالانيوبيسيس^(١). كلف أحد الشباب في عام 1889 بالعثور على أوركيدا الكاتلية لمصلحة هاوي الجمع الإنكليزي السير تريفور لورنس، سار الشاب أربعين يوماً عبر الأدغال الطينية ولم تقع عليه عينٌ بعد ذلك. مات عشرات الصيادين بفعل الحمى أو الحوادث أو الملاريا أو الغدر. آخرون أصبحوا غنائم لقاطعي الرؤوس أو طرائد لمخلوقات مرعبة كالسحالي الصفراء الطائرة والأفاعي السامة الماسية الظهر والفهود والقراد والنمل اللاسع. قتل بعض صائدي الأوركيدا على يد زملاء المهنة. سافروا جميعاً وهم على استعداد للعنف. كتب ألبرت ميليكان، الذي جال في جنوب الأنديز عام 1891، في يومياته أن أكثر المعدات أهمية التي حملها معه كانت سكاكينه، وسيفه، ومسدساته الريفلفر، وخناجره، وبنادقه، ومسدساته العادية، ومؤونة سنة من التبغ. أن تكون صياد أوركيدا كان على الدوام يعني تعقب الأشياء الجميلة في الأماكن المرعبة. منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، عندما كان صيد الأوركيدا في أوجه، كانت الأماكن المرعبة مرعبة بحق، وكل من يعلن نفسه صياداً يجب عليه أن يكون جلفاً ونارياً ومستعداً للموت بعيداً عن دياره.

كان بعض صائدي الأوركيدا في العصر الفيكتوري يسافرون إلى المناطق الاستوائية بأنفسهم، إلا أن معظمهم كانوا لا يبارحون منازلهم ويدفعون المال لصيادين محترفين كي يسافروا حول العالم ويعجمعوا بالأوركيدا نيابةً عنهم. ولذا فقد كان حصولك على أوركيدا استوائية يعد مؤشراً على امتلاكه من الثراء ما يكفي لتوظيف شخص في مهمة قد تسبب بمقتله. ما إن أبدى الإنكليز اهتمامهم بالأوركيدا الاستوائية، حتى أطلق رجال إنكليز أعمال الأوركيدا الاستوائية. اعتمد أولئك المزارعون التجار كلياً على صائدي

الأوركيدا. ما من أحد في إنكلترا كان يبرع في زراعة أو تربية الأوركيدا الاستوائية آنذاك، ولذا فقد كان الصيادون هم السبيل الوحيد لرعاية المشتل، ناهيك عن إحضار الأصناف الجديدة. جميع أفراد طاقم عمال المشاتل الكبرى كانوا من الصيادين. في عام 1894، على سبيل المثال، وظف مربى الأوركيدا الأبرز في العصر الفيكتوري فريديريك ساندير، الذي كان يمتلك ستين دفيئة في مزرعته في سان ألبانس، ثلاثة وعشرين صياداً كي يجمعوا له الأوركيدا من كل بقاع العالم، ومن ضمنهم واحد في المكسيك، وأثنان في البرازيل، وأثنان في كولومبيا، وأثنان في البيرو، وواحد في مدغشقر، وواحد في غويانا الجديدة، وثلاثة في الهند، وواحد من مستعمرات سترايت⁽¹⁾. كان أحد أفضل صيادي ساندير هو التشيكي ذا المظهر الخشن بينديكت رويزل. لقد بترت يد رويزل اليسرى بحادث أثناء عرضه آلة اختراعها لاستخراج الألياف من القنب خلال وجوده في هافانا؛ لقد زاد الخطاف الحديدي الذي وضعه مكانها من شراسة مظهره. قام رويزل بتمشيط أميركا الجنوبية واكتشف ثمانمائة صنف جديد من الأوركيدا في رحلاته. في ذروة حمى الأوركيدا الفيكتورية، كان ثمة العشرات من صيادي الأوركيدا الذين يجوبون العالم لمصلحة مزارعين مختلفين. في عام 1863، كان جون وير من بين مسافري المركب الذي أبحر إلى الأنديز، وهو أحد أعضاء الجمعية الملكية للبساتنة؛ وجون بلونت، الذي عمل لمصلحة جون لوبي، الخصم اللدود لفريديريك ساندير؛ وصياد يدعى شاليم، عمل لمصلحة جان لويس ليندين، مالك المشتل البلجيكي المميز. كان هؤلاء الثلاثة جميعاً في طريقهم إلى نفس البقعة من الأنديز، بحثاً عن نفس صنف أوركيدا الأودونتوغلوسومس⁽²⁾ البيروفية، وتعهد كل منهم لرب عمله بأن يكون البادئ بإحضار الشتول له إلى الديار. كان العالم الواسع مزدحماً بالنسبة لصائد الأوركيدا. عندما كانت تتضارب طرق الصيادين الذين يعملون لمزارعين متضافين، كانوا أحياناً يقتلون بعضهم بعضاً، أو يوشكون على هذا على أقل تقدير. كان ويليام أرنولد - الصياد الذي غرق لاحقاً في نهر أورينوكو - شاباً ألمانياً

-1- مستعمرة بريطانية في جنوب شرق آسيا - م

-2- بتلاتها مستنة وتسمى أيضاً أوركيدا الدانتيل - م

غالباً ما كان يعمل لحساب فريديريك ساندير. كان صدامياً وسريعاً الانفعال، معروفاً باحتاجه الدائم حيال الأسلحة التي يحملها معه خلال أسفاره. لعله تبجح أمام بقية الصيادين قائلاً إنه أنهى مهمته لأن كفيله أعطاه كثيراً من المال إنما لم يسلم سوي بندقية خردة. أرسله ساندير ذات مرة إلى البرازيل بحثاً عن شتول الكاتلية. خلال الرحلة، دخل أرنولد في شجار مع صائد آخر على سطح القارب وكان هذا الأخير أيضاً في طريقه إلى البرازيل، بحثاً عن الكاتلية أيضاً، إنما لمصلحة غريم ساندير جون لوبي. كان كل منهما مدججاً بالسلاح إضافة إلى طبيعتهم العدوانية. بعد جولة الاستعراض والتهديد وعرض الأسلحة البيضاء، انتهى بهما الأمر إلى ما يشبه المبارزة. فور وصول أرنولد إلى البرازيل كتب ساندير عن الحادثة. وفقاً لكاتب سيرته الذاتية أرثر سوينسون، فقد رد ساندير على أرنولد: «هذا يجعلني في غاية الإثارة ويشعرني بمتعة هائلة فأنا أهوى كثيراً هذا النوع من المعارك». نصح أرنولد بالتوقف عن صيد الأوركيدا في الحال والبدء عوضاً عنها بتعقب صياد لويس للأوركيدا كي يعرف الأنواع التي كان يجمعها وإحضار كل ما تغفل عنه عينه. طلب ساندير من أرنولد بعدها أن يبول على شتول غريميه بعد تحضيرها للشحن، فالبول سوف يسبب ذبول النباتات ويباسها على القارب أثناء رحلة العودة إلى الديار.

كان الصيادون يعملون بشكل فردي، و يبدو أن مشاعر العصبة أو الأخوية كانت شبه معدومة لديهم. لم يسافروا قط برفقة أقرانهم، غير أنهم كانوا أحياناً يسافرون بصحبة طاقم ضخم - تألفت حاشية جوزيف هوكر من ستين رجلاً وضمت خادماً خاصاً، وعتالين، جامعي بذور، طباخين، متسلقي أشجار ومجفف نباتات واحتياطي تحنيط. كانوا يشعرون بالوحدة ولا شك. حين غلب الحنين إلى الوطن أوغستوس مارغاري، كان يقف أمام خيمته ويترنم بأغنية «*polly wolly doodle*»⁽¹⁾ و«*My Darling Clementine*⁽²⁾». علاوة على هذا، إذا ما واجه أحدهم صياداً آخر في الأدغال، لم يكونا يحتkan احتكاكاً اجتماعياً، ومن المؤكد أنهم لن ينبعسا

-1 أغنية للأطفال - م
-2 أغنية فلكلورية - م

بَيْنَ شَفَةِ عَلَى الإِطْلَاقِ بِشَأْنِ الْأُورْكِيدَا الَّتِي جَمِعُهَا كُلُّ مِنْهُمَا. وَرِبَّا يَعْطِي الصَّيَادُونَ مَعْلُومَاتٍ زَائِفَةً وَإِحْدَاثَيَاتٍ كَاذِبَةً عَنْ سَفْحِ هَضْبَةٍ مَا مَتَّخِيلَةً مَفْرُوشَ بِالْأَزْهَارِ، وَكَانُوا أَحْيَانًا يَنْشُرُونَ خَرَائِطَ مَزُورَةً رَسْمًا عَلَيْهَا مَوَاطِنَ الْأُورْكِيدَا حِيثُ يَتَسَنى لَهُمْ تَضْلِيلَ مَنَافِسِيهِمْ وَتَوجِيهِهِمْ فِي طَرِيقِ خَاطِئٍ. كَانُوا إِمَّا مَغْرُورِينَ أَوْ جَشْعِينَ أَوْ الْأَمْرِينَ مَعًا. مَعْظَمُهُمْ جَلَبُ جَمِيعِ عَيْنَاتِ الْأُورْكِيدَا الَّتِي عَثَرُ عَلَيْهَا. فِي إِحْدَى الشَّحَنَاتِ، أَرْسَلَ صَائِدُ الْأُورْكِيدَا التَّشِيكِيِّ رُوزِيلَ إِلَى سَانْدِيرَ مِنْ أَمْيَرِكَا الْلَّاتِينِيَّةِ حَمُولَةً تَزَنُ ثَمَانِيَّةَ أَطْنَانًا. لِأَنَّ صَائِدَ الْأُورْكِيدَا يَمْقُتُ فَكْرَةَ عَثُورِ صَيَادٍ آخَرَ عَلَى شَتْوِيلٍ رِبِّما يَكُونُ قَدْ غَفَلَ عَنْهَا، فَقَدْ كَانُوا «يَحْصُدُونَ» كُلَّ مَا يَقْعُدُ فِي طَرِيقِهِمْ، ثُمَّ يَضْرِمُونَ النَّارَ فِي الْمَوْقِعِ. حَتَّى أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ لِنَفْسِ الْمَزَارِعِ كَانُوا كَالْكَلَابِ الَّتِي تَنْهَشُ بَعْضَهَا بَعْضًا. كَانَتِ الْمُنَافِسَةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَامِيَّةً لِدَرْجَةٍ أَنَّهَا قَدْ تَنْسِيهِمْ أَمْرَ الْأُورْكِيدَا. كَلَمَا التَّقَى صَيَادُو سَانْدِيرَ صِدْفَةً، كَانُوا يَتَوَقَّفُونَ عَنِ الْبَحْثِ عَنِ الْأُورْكِيدَا وَيَقْضُونَ مَعْظَمَ الْأَيَّامِ أَوِ الْأَسْابِيعِ يَتَعَقَّبُ كُلُّ مِنْهُمْ الْآخَرَ عَبْرِ الْأَدْغَالِ دُونَ مَبْرُرٍ عَلَى الإِطْلَاقِ.

اضطَرَ الصَّيَادُونَ لِلِّسْفَرِ إِلَى أَمَاكِنِ نَائِيَّةٍ، مَفْزَعَةٍ وَخَطْرَةٍ، لَكِنَّ هَذَا قَلْمَانِيَّ يَرْدُعُهُمْ. يَقَالُ إِنَّ بَيْنَكُتْ رُوزِيلَ تَعْرَضَ لِلسُّرْقَةِ سَبْعَ عَشَرَةَ مَرَّةً خَلَالَ أَسْفَارِهِ. قَضَى صَائِدُ النَّبَاتِ الْإِنْكَلِيزِيِّ جُوزِيفُ هُوكِرُ سَتِينَ مَرْتَحِلَّاً عَبْرَ جَبَالِ الْهِيمَالِيَا، لَا شَيْءَ يَقِيهُ سَوْيَ نَظَارَةِ وَسْتَرَةِ تَارَتَانِ مَضَادَةً لِلرَّصَاصِ. لَمْ يَحْمِلْ مَعَهُ مِنْ تَجْهِيزَاتٍ تَسلُقَ الْجَبَالِ شَيْئًا عَلَى الإِطْلَاقِ، رَغْمَ أَنْ زَوْجَهُ أَحَدَ أَصْدِقَائِهِ كَانَتْ قَدْ أَعْطَتَهُ جَوَارِبَ صَوْفِيَّةً وَقَبْعَةً وَاقِيَّةً مِنْ وَهْجِ الشَّمْسِ اقْتَطَعَتُهَا مِنْ حِجَابِهَا. خَلَالِ رَحْلَاتِ تَسْلِقِهِ، كَانَ لَدِيْ هُوكِرُ بِسْكُوِّيَّتَ وَشَايِ وَبِرَانِديِّ مِنْ نَوْعِ جِيدٍ، حَامِلًا حَقِيقَةَ سَفَرٍ تَحْوِلُ إِلَى طَاولةَ مِنْ خَشْبِ الْبَلُوطِ الْقَاسِيِّ وَصَنَادِيقَ تَثْبِتُ خَشْبَهَا أَشْرَطَةً نَحَاسِيَّةً، وَكَانَ يَنْامُ وَتَحْتَ مَخْدُتِهِ نَسْخَةً مِنْ مَجَلَّةِ رَحْلَةِ النَّسَرِ لِدَارَوِينَ. مِنَ النَّادِرِ أَنْ يَنْعُمْ بِنُوْمٍ هَانِئًا لِيَلَّا، فَثِيرَانِ التَّبِيتِ الَّتِي كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا كَحِيوَانَاتِ كَانَتْ مَؤْرَقةً، وَفَضُولِيَّةً لِدَرْجَةِ أَنَّهَا تَدْسِ رَؤُوسَهَا فِي خَيْمَةِ هُوكِرِ وَتَنْخُرُ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَسْتِيقْظَ. فِي شَهْرِ السَّابِعِ فِي آسَامِ، وَجَدَ نَفْسَهُ غَارِقًا بِمِيَاهِ أَمْطَارٍ بَلْغَتْ غَزَارَتِهَا ثَلَاثَمَائَةَ بُوْصَةً تَقْرِيَّبًا. لَكِنَّ هُوكِرَ ثَابِرٌ فِي طَرِيقِهِ، وَجَمِيعُ فِي خَتَامِ مَلْحَمَتِهِ الْأَسْطُورِيَّةِ

الآلاف من الأصناف الجديدة بعدما بلغ كانغ تشنين جونغا، ثالث أعلى قمة في العالم، التي لم يصل أعلى وأبعد منها أي أوروبي قبله. في عام 1865، بعدما أنهى مغامرته، تولى هوكر إدارة حدائق النباتات الملكية في كيو.

لم يكن المزارعون التجار يتزدرون في إرسال صياديهم إلى أي مكان مؤذ. ربما كان المزارع يحسب حساباً لخسارة رجل بسبب مغامرة فاشلة إنما ليس بقدر عدم قبوله لضياع فرصة جمع الأوركيدا. كان كارل روبيلين صياداً آخر من صيادي أوركيدا العصر الفيكتوري العظيم. ألماني صعب المراس وشجاع جسدياً. نزولاًً عند طلب ساندير، توجه مرة في رحلة صيد إلى جزيرة صغيرة في الفلبين. بعد وصوله مباشرةً، ضرب الجزيرة زلزال وقلبتها رأساً على عقب وكاد روبيلين أن يكون أحد ضحاياه. حالما وصل إلى بر الأمان، أبرق لساندير يخبره بأنه في طريق عودته إلى إنكلترا فالجزيرة قد دمرت. في ختام البرقية، ذكر أنه شاهد أوركيدا فاندا ليلكية مذهلة بعطر القرفة في الغابة قبل أن يضر بها الزلزال. هل كان روبيلين حقاً يرغب في مغادرة الفلبين والعودة إلى الديار، من الخطأ تماماً التكهن بهذا. أبرق له ساندير على الفور طالباً منه الرجوع إلى الجزيرة وإيجاد تلك الأوركيدا الليلكية وإنما فعليه أن يجد كفياً آخر يتولى دفع نفقات عودته. رفض روبيلين وازدادت صرامة تهديدات ساندير. في النهاية رضخ روبيلين وتبع عمله. النبات الذي أفلح في انتشاره من بين الخراب كان صنفاً جديداً سمي لاحقاً بالفاندا سانديريانا. وضعت في جناح عرض حدائق كيو النباتية الملكية، وكانت في وقت الإزهار ويا لروعه منظرها الذي جذب حشداً يقدر بالآلاف. كثير من صنف الفاندا التي تزرع بقصد تجاري حالياً يعود إلى ستة روبيلين الناجية.

أعظم صيادي ساندير كان ألمانياً آخر يدعى ويليام ميكوليتز. كان رجلاً دؤوباً، خلاقاً وماكراً، ويعزى تفوق ساندير كمزارع تجاري إلى حدّ بعيد للكثير من اكتشافات ميكوليتز. ومع ذلك، لم يكن ساندير يبدو لطيفاً معه فقط. أثناء عودة ميكوليتز بحراً ذات مرة من الإيكوادور إلى إنكلترا، اندلعت النيران في المركب الذي كان على متنه. غرفت الباحرة واحترق شتول الأوركيدا التي كان قد جمعها لمصلحة ساندير، وكاد ميكوليتز نفسه أن يلقى حتفه. أبرق لساندير، «احترقت الباحرة! ما العمل؟». رد عليه ساندير: «عد

أدراجك!» فعاد ميكوليتز وأبرق له ثانيةً: «فات الأوان. إنه فصل الأمطار». فرد عليه ساندير: «عد أدراجك». في عام 1899، غاب ميكوليتز لعدة أشهر، الأمر الذي على ما يبدو أزعج ساندير أكثر مما أفلقه. أرسل إلى أحد أصدقائه رسالة يشتكي فيها: «ربما يكون ميكوليتز قد التهم - لقد انقطعت أخباره». لم يكن ميكوليتز قد التهم وظهر في آخر المطاف؛ رحب به ساندير وأمره بالعودة إلى الجمع في كولومبيا في الحال، على الرغم من أن البلد كان في عز ثورة. أرسل ساندير ميكوليتز ذات مرة إلى جزر تانيمبار، وهي أراضٍ نائية تقع في جنوب شرق غويانا الجديدة. بعد عدة أشهر كتب ساندير لميكوليتز طالباً منه إعلامه بأنواع الأوركيدا التي عثر عليها في تانيمبار. شرح ميكوليتز في رده بأنه نجح في تحديد موقع الأوركيدا كما نجح في تجنيد سكان محلين يساعدونه في جمعها، لكنه اصطدم بعرقيل: «اندلعت معركة كبيرة. استرد القرويون مسأة قتلهم وجرحهم. ثلاثة منهم ذبحهم الأعداء وجزوا رؤوسهم، وأحدهم أيضاً بتروا يديه وقدميه وأخيراً وليس آخرأ قضيه، حيث علق مع إحدى يديه على مدخل القرية. بعد القتال لم يعد لديهم أية رغبة بجمع النباتات».

يبدو أن ساندير وميكوليتز كانوا ثنائياً تعيساً، غير أن ما كان يجمعهما هو أنهما كلّيهما مغرمان بالأمر ذاته. بالنسبة لهما، لا قيمة لأي شيء ولا شيء يستحق الاهتمام أمام الأوركيدا - حتى الموت وال الحرب. على مشارف الحرب العالمية الأولى، كتب ميكوليتز لساندير معتبراً عن قلبه حيال اقتراب الصراع إنما لسبب واحد فقط، ذلك السبب الذي يفهمه ساندير بالتأكيد: «إذا تفاقمت الأمور وتحولت إلى حرب كونية، بتقديرى سوف يصبح الطلب على الأوركيدا ضعيفاً». كان ساندير على فراش الموت بعد عدة سنوات. قبل أن يدخل في غيبوته الأخيرة، أرسل مذكرة إلى أحد مديري حدائق فرانكفورت وذيلها ببضعة أسطر كان ميكوليتز سيقدرها تقديرأ عالياً: «نهايتي على يد هذا المرض. أخبرني، كيف حال الشتول التي أرسلتها لك؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟».

كان بعض الأسفار يطول بعض الصيادين لدرجة فيصبح ارتباطهم بالغاية

ويصبحون غرباء عن أوطانهم. كان كارل روبيلين يواعد نساء محليات وتعلم لغات الأمكنة التي كان يصطاد فيها، استقر بعد عدة سنوات في بورما مع امرأة بورمية، وبكل بساطة قام بشحن النباتات التي جمعها إلى إنكلترا لوحدها. أكد تشارلز واترتون، صاحب كتاب رحلات التيه في أمريكا الجنوبية، أنه خلال أسفاره «سيطر عليه نفور لا يقهر تجاه البيكاديلي»، ثم رحل وعاش مع هنود الأوريينو بشكل دائم. لا توجد وثائق تذكر عن مواقف سكان مناطق كتانيمبار وأسام وبيلزي تجاه الصيادين الأوروبيين الذين كانوا يصلون على غفلة ويحصدون أزهارهم المحلية. غالباً ما كان السكان المحليون يعملون لمصلحة الصيادين كمرشدين. إن القول بأن معظم الصيادين كانوا يكنون لهم أدنى احترام سوى قدرتهم على إيجاد الأزهار سيكون كلاماً مجافياً للحقيقة. على سبيل المثال، كان جوزيف هوكر يحترم السكان المحليين الذين يلتقيهم؛ لقد وصف البوتيين⁽¹⁾ بـ«اللوطين والوقحين»، وشعب الليبيشا⁽²⁾ «جبناه بكل ما في الكلمة من معنى»، وشعب الخاسي⁽³⁾ «مجموعة من العنيدين والمتوجهين». عادة ما كانت حمى الأوركيدا تطفى على الآداب العامة. في أسوأ مظاهرها، كانت بنفس غطرسة وحس الاستحقاق لدى الاستعمار الأوروبي، مع الفرق أنه نموذج مصغر. في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر، اكتشف رجل إنكليزي في غويانا الجديدة نوعاً جديداً من الأوركيدا ينمو في مقبرة، ودون أن يكلف نفسه عناء استخراج تصريح، نبش القبور وجمع الشتول. كفكرة متأخرة، أعطى لأحفاد من نبش قبورهم حفنة من الخرز الزجاجي مقابل القبور التي خربها وبغية إقناعهم بمساعدته على حمل النباتات إلى المرفأ. بعد وصول شحنة المقبرة هذه إلى لندن، بيعت في إحدى دور المزادات العلنية الفاخرة مقابل مبلغ قياسي من المال. عشر صياد آخر في غويانا الجديدة على نباتات أوركيدا مميزة تنمو على رفات البشر. قام بجمع النباتات وأرسلها إلى إنكلترا وهي ما تزال متصلة بالأضلاع وعظام الساق. في تلك السنة نفسها، بيعت شتلة ديندروبيوم من

- 1 سكان منطقة بوتان في جنوب التبت - م
- 2 في مناطق الهيمالايا - م
- 3 في شمال شرق الهند - م

بورما في مزاد بروثيرو اللندني وكانت ما تزال معلقة بجمجمة بشريّة كانت تنمو فيها حين عشر عليها.

كان هناك أحياناً أصناف من الأوركيدا تُكتشف وترسل إلى أوروبا ثم لا يعود لها من أثر في البراري. هذه كانت معروفة بالأوركيدا المفقودة، وكل مربي أوركيدا ومزارع تجاري طموح وصياد مغدور يتمنى لو يعثر على واحدة منها. إحدى تلك الأوركيدا الضائعة هي بافيو بيدليوم فاييريانوم^(١). اكتشفت في شمال الهند في أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر ويبدو أنها اختفت لاحقاً. مشط الصيادون الهنديون وبورما بحثاً عنها بلا نتيجة، لكن رعاتهم لم ينقطعوا عن إرسالهم مرة إثر أخرى. جمع صيادو فريدريك ساندير ذات مرة بضع شتول كانت تبدو شديدة الشبه بالبافيوبيدليوم لدرجة أنه كان واثقاً من فوزه بالجائزة الكبرى. أرسل العينات إلى عميد علماء النبات، ويليام ريتشينباخ، الذي بدوره قام بفحصها، مؤكداً أنها تتبع فصيلة الكاتلية أكثر منها البافيوبيدليوم المفقودة، ثم بعث لساندير بملحوظة مقرزة ومستهينة يقول فيها، «لا تحدثني عن كاتلياتك الغبية - إنها تافهة للغاية!». في النهاية اكتشفت البافيوبيدليوم فاييريانوم بعد أربعين عاماً على يد أحد الصيادين في الهيمالايا. دفعة واحدة، انتشرت الكاتلية لا بياتا فيرا، في الدفيئات الأوروبيّة، لكنها بعد ذلك بيسٍت تباعاً بصورة غامضة حتى لم يبق منها إلا شتلة واحدة في جميع أرجاء أوروبا الغربية. ما من صاحب مشتل أو صياد يمكنه أن يتذكر أين عثر بالأصل على الزهرة. تعرضت الدفيئة التي كانت تحوي تلك العينة الناجية الوحيدة لحريق، وبذلك فقد اختفت آخر نبتة كاتلية لا بياتا فيرا مستأنسة. أوهن الصيادون أنفسهم شوقاً لها دون أن يحالفهم الحظ على مدى سبعين عاماً، وفي آخر المطاف أوقفوا البحث عنها بشكلٍ أو بآخر. ذات مساء، بعد سبع سنوات من دفن آخر شتلة، رصد دبلوماسي بريطاني امرأة على عشاء السفاراة في باريس وبiederها باقة ورود ذكرته بالكاتلية لا بياتا فيرا. تبع أثر الزهرة حتى البرازيل وأثبتت أنها من صنف الكاتلية المأسوف عليها، وعلى الفور أصبح

بمقدور الصيادين إعادة تموين الدفيئات الأوروبية. ومع ذلك، لم تُر تلك الأوركيدا المفقودة قط منذ ذلك الحين.

قرابة أواسط القرن التاسع عشر، ازدادت شحنات الصيادين ضخامة. كان هذا يعود في جانب منه إلى الجشّع وقصر النظر، إنما أيضاً إلى أن طرق نقل النباتات أصبحت غير موثوقة بها لدرجة أن أغلبها كان يصل إلى أوروبا ميتاً - أنت مضطّر لجمع حمولة كبيرة كي تتمكن من إيصال كمية صغيرة من النباتات الحية إلى لندن في آخر الرحلة. في رسالة موجهة إلى الجمعية الملكية للبستنة عام 1819، كتب أحد أصحاب المشاكل أن عدد الشتول الحية من بين ما وصله في الشحنة لم يتجاوز بضعة آلاف. في عام 1827، وضع أحد جراحى وايتشارلز ويدلى ناتانىال باغشوا وارد بيرقة في وعاء زجاجي كي تصبح خادرة ولكنه نسي أمرها تماماً. ربما كان الوعاء يحتوى على شيء من التراب، إذ بعد عدة أشهر، حين تذكر وارد اليرقة، لاحظ بزوج سرخس صغير جداً وبضعة خيوط من العشب قد ارتفعت بداخله. خمن وارد احتمال إزهار هذه النباتات إن هي بقيت محفوظة في مستوّعب زجاجي مغلق مع القليل من الترطيب والحماية من هواء لندن الملوث، وعندما ر بما سيكون بالإمكان زراعة النباتات الغريبة بهذه الطريقة حتى في داخل شقة معتمة. بعد ذلك أحضر وعاء أكبر ثم وضع فيه المزيد من النباتات وصار لديه في النهاية حديقة صغيرة كانت فائقة الغرابة لدرجة أن مصممي المناظر الطبيعية ومحبي البستنة كانوا يزورون منزله لمجرد التعبير عن إعجابهم بها. ذاعت أخبار غابة الدكتور وارد الداخلية، وسرعان ما أصبح «الحوض الواري»^(١) المليء بالسرخس عنصراً ثابتاً في أثاث غرفة المعيشة الفيكتورية. وارد نفسه هو الذي صاغ أكثر الأحواض الواردية تشعباً بالتفاصيل، منها ما يحتوى على حوض أسماك، وحديقة سرخس، وحرباء وضفدع جيرسي.

بالغ الدكتور وارد في تقديراته وخيل له أن العبوات الزجاجية قد تتغلب على عراقيل نقل النباتات، في عام 1834، صمم نموذجاً أولياً وملاه بالسرخس الإنكليزي، ثم أرسله على متنه رحلة بحرية لمدة ستة أشهر إلى

نيو ساوث ويلز، نجا السرخس. بعد ذلك قام بشحن السرخس الأسترالي الحساس إلى إنكلترا ضمن صناديق زجاجية مغلقة، وهذه أيضاً قد نجت. في عام 1839، نشر وارد مقالاً يصف فيه مستوى عباته الزجاجية الواردية؛ وفي عام 1842، استفاض في المقال وحوله إلى كتاب عنونه ما يخص تربية النباتات في مستوى عبات زجاجية عن كثب. لقد تم تعديل الأحواض الواردية مباشرةً من قبل القيمين على الحدائق الأوروبية. وبدلاً من شتلة واحدة من كل ألف شتلة كانت تنجو خلال الرحلة، ارتفعت النسبة حتى بلغت التسعينية من كل ألف شتلة. فتح الحوض الواردي الباب لظهور اقتصاد جديد في عالم النبات. أصبح بالإمكان نقل النباتات الاقتصادية، كأشجار الشاي والتبغ وبلوط الفلين وأجمات القهوة، من قارتها الأصلية إلى أخرى، ومن منطقة إلى أخرى ضمن البلد نفسه. ذابت الحدود الطبيعية؛ تقلص العالم ويات بحجم وعاء يرقى زجاجي. داخل الحوض الواردي، تمكّن جوزيف باكستون من شحن الأمهيرستيا نوبيليس⁽¹⁾ من الهند إلى تشاتسوورث هول؛ ونجح جوزيف هوكر في إرسال شحنة من الأشجار الأرجنتينية مكتملة النمو من تيرا ديل فويغو إلى حدائق النبات الملكية في كيو.

حتى بعد مساهمة حوض وارديان في تحسين شروط نقل النباتات، تواصلت عمليات النقل الضخمة كيما اتفق، وبدأت المجلات التي تعنى بالحدائق في إنكلترا تنشر التحذيرات من عملية تفريغ الغابات. لقد فرّغت بعض المواقع التي كانت وجهة للسفر بالكامل ولم يعد بالإمكان العثور على أية أوركيداً وضاع الأمل بالعثور على أصناف جديدة، ابتعد الصيادون في رحلاتهم أكثر فأكثر ووصلوا إلى مناطق كسوراباجا⁽²⁾، وهضاب ناغا ومنطقة نهر إيراواادي⁽³⁾، إلى جزر ياب وفاكافاك⁽⁴⁾. مشطوا شرقى الإنديز جزيرة جزيرة. كتب أحد علماء النبات الماليزيين في إحدى الدوريات أن بلاده أصبحت شبه خالية من

- 1 شجرة استوائية تميز بأزهارها الجميلة الحمراء - م
- 2 أندونيسيا - م
- 3 ميانمار - م
- 4 بابوا الغربية في أندونيسيا - م

الأوركيدا. في عام 1878، كتب عالم نباتات سويسري: «لست راضياً عن اقتلاع 300 أو 500 عينة من الأوركيدا الجميلة، يجب على (الجامعيين) كنس البلد بأكمله وأن لا يتركوا شيئاً على مساحة أميال... هؤلاء الجامعون المعاصرون يفرغون الأرض من المدخرات الاحتياطية. لم تعد هذه هوادة جمع؛ بل سرقة غاشمة». نقل أحد الجامعين العائدين من كولومبيا أن الأمكنة التي عادةً ما كانت تزهـر فيها أوركيدا الميلتونيا قد بـاتت حالـياً «خالية وـكان حريق غـابـات التـهمـها». حتى تلك الأماكن الأشد وعورة لم تـسلـم من هجـومـ صـيـاديـ الأورـكـيدـاـ. تـسلـقـ جـوزـيفـ هوـكـرـ جـبـالـ خـاصـيـاـ فـيـ آـسـامـ؛ حيثـ تـعرـضـ لـلمـضاـيـقـاتـ عـنـدـ وـصـولـهـ. كـتـبـ إـلـىـ والـدـهـ قـائـلـاـ: «ماـذـاـ عـنـ جـامـعـيـ سـيمـونـ وجـينـكـيـزـ هـنـاـ، يـوجـدـ عـشـرونـ أوـ ثـلـاثـونـ مـنـ جـامـعـيـ فالـكونـيرـ ولوـبـ، صـدـيقـايـ رـابـانـ وكـافـيـ وأـصـدقـاءـ إـنـجـليـزـ، تـسـتـحـيلـ الدـرـوبـ هـنـاـ مـخـطـطـةـ مـثـلـ غـابـاتـ بـيـنـانـغـ، وـتـبـدوـ عـلـىـ مـدـىـ أمـيـالـ أحـيـاناـ كـأـنـ عـاـصـفـةـ مـلـأـتـ الطـرـيقـ بـالـأـغـصـانـ والأـورـكـيدـاـ الـيـابـسـةـ. قـبـلـ أـيـامـ، أـرـسـلـ رـجـالـ فالـكونـيرـ 1000 سـلـةـ». لمـ تـكـنـ أـولـىـ الشـحـنـاتـ الـبـحـرـيـةـ مـنـ الـمـنـاطـقـ الـاسـتوـاـئـيـةـ إـلـىـ إنـكـلـتـرـاـ تـعـدـيـ الخـمـسـيـنـ شـتـلـةـ رـيـماـ. نـتـيـجـةـ لـارـتـاعـ تـكـلـفـةـ الزـجاجـ كـانـتـ مـعـظـمـ الدـفـيـئـاتـ صـغـيرـةـ؛ توـضـعـ خـمـسـونـ شـتـلـةـ عـلـىـ حـامـلـ مـرـتفـعـ فـيـ دـفـيـئـةـ صـغـيرـةـ. آـنـذـاكـ، فـيـ عـامـ 1845ـ، أـلـغـتـ بـرـيطـانـياـ الضـرـيـبةـ الـمـرـفـعـةـ عـلـىـ الزـجاجـ فـدـشـنـتـ بـهـذـاـ عـصـرـ الـبـيـوتـ الـزـجاـجـيـةـ الـعـمـلـاـقـةـ، مـنـ أـمـثـالـ بـالـمـهـاوـسـ فـيـ حدـائقـ كـيـوـ، الـذـيـ بـلـغـتـ مـسـاحـتـهـ 45ـ أـلـفـ قـدـمـ مـرـبـعـةـ مـنـ الـأـلـوـاحـ الـزـجاـجـيـةـ الـخـضـرـاءـ الـفـاتـحةـ. فـتـحـتـ شـهـيـةـ هـوـاـ الجـمـعـ وـأـصـحـابـ الـمـشـاتـلـ لـلـمـزـيدـ مـنـ كـلـ شـيـءـ. دـشـنـتـ قـنـاةـ السـوـيـسـ فـيـ عـامـ 1869ـ، مـاـ جـعـلـ الرـحـلـةـ مـنـ إـفـرـيـقيـاـ وـمـدـغـشـقـرـ وـآـسـيـاـ أـقـصـرـ وـأـكـثـرـ كـفـاءـةـ. اـزـدـادـتـ خـبـرـةـ الصـيـادـيـنـ فـيـ الـعـمـلـ، وـبـحـلـولـ سـبـعينـاتـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ، ضـمـتـ الشـحـنـاتـ آـلـافـاـ لـاـ بـلـ عـشـراتـ الـأـلـافـ مـنـ الـأـرـهـارـ. خـلالـ بـعـثـةـ مـنـ بـعـثـاتـ الـبـحـثـ عـنـ جـنـسـ الـأـونـدـوـغـلـوـسـيـوـمـ⁽¹⁾ـ فـيـ كـوـلـومـبـياـ، تمـ قـطـعـ أـرـبـعـةـ آـلـافـ شـجـرـةـ وـانتـزـعـ عـنـهـاـ عـشـرـةـ آـلـافـ شـتـلـةـ أـورـكـيدـاـ. حـتـىـ هـذـاـ الرـقـمـ سـرـعـانـ مـاـ تـمـ تـجاـوزـهـ. فـيـ الـرـابـعـ مـنـ أـيـارـ عـامـ 1878ـ، أـعـلـنـ مـزارـعـ إـنـكـلـيـزـيـ يـدـعـيـ وـيـلـيـامـ بـولـ أـنـهـ عـلـىـ وـشـكـ اـسـتـقـبـالـ شـحـنـةـ قـيـاسـيـةـ يـصـلـ قـوـامـهـ إـلـىـ مـلـيـونـيـ شـتـلـةـ.

1 - وـتـضـمـ أـنـوـاعـاـ كـثـيرـةـ مـنـ الـأـورـكـيدـاـ - مـ

لا شيء تقريباً موثق بشأن حياة معظم صيادي الأوركيدا باستثناء من عملوا لحسابهم، ما هي الأصناف التي اكتشفوها، وما مصيرهم إن حدث أن ماتوا أثناء تأديتهم للعمل. كتب أحد الصيادين لكافيله أنه على الرغم من جميع مكتشفاته فهو يتوقع موته مجهول الهوية «باستثناء الخلود المشكوك فيه في فهرس البذور». كان معظم الصيادين من الألمان أو الهولنديين أو الإنكليز، في سن الشباب، قلة قليلة منهم كانت لها عائلات. ليس من يوميات تذكر بالضبط مكان ترعرعهم في ذلك الحين، وكيف وقعوا في مهنتهم تلك، ما هو مستوى تعليمهم، إن كانوا قد ارتدوا المدارس يوماً. ما من ذكر لكيفية اهتدائهم إلى طريقهم حول العالم، حين لم يكن إيجاد المرء لطريقه حول العالم بهذه البساطة، أو كيف علموا أنفسهم تحديد النباتات التي كانت مجهولة إلى حد ما. من الواضح أنهم كانوا جميراً مغامرين ويتمتعون بصحة جسدية ممتازة. يبدو أنهم كانوا يمتلكون حساً عالياً بإحداثيات الاتجاه وإنقاذ بعض اللغات الأجنبية وجلد كبير على تحمل الوحدة. من المؤكد أنهم كانوا رجالاً اختاروا العيش حياة لا توفر سوى النزر القليل من الراحة المعتادة، ربما لم يعرفوا حياةً أسرية على الإطلاق، وأغلب الظن القليل جداً من السخاء معهم. هناك احتمال أنهم كانوا هاربين من تقاليد الطبقة الوسطى. بالمقابل فقد اختاروا أن يعيشوا حياة شطحت بهم إلى جيوب العالم القصبة حيث سيرون أشياء قد لا يتمنى لأحد آخر أن يراها البنته، أشياء اعتقادوا أنها أشد غموضاً واختلافاً وجمالاً من الخيال. لقد بحث رحالة القرن التاسع عشر العظام عن أتعاب العالم المتحضر، تلك الإنجازات التي كانت من صنع الإنسان وشكلت في الواقع انتصاراً على الطبيعة. تغيرت طبيعة الفضول بحلول القرن العشرين. لعلها اللحظة التي ولد فيها التشاوُم. كانت الثورة الصناعية قد برهنت أن ليس كل ما صنعه الإنسان من تقدم يعُد مثالياً وأن الكثير من حالات التقدم تلك قد تقلب وتغدو مروعة. أشار ألفريد والاس، وهو أحد زملاء داروين، ذات مرة، إلى أن الطبقة العاملة الإنكليزية تعيش بؤسًا لم يعرفه «البدائيون» الذين كان يجري الدراسات عنهم في منطقة الأمازون. على النقيض كانت الطبيعة تبدو نقية وخلابة. لقد انقض الرحالة العظام عن الحضارة ومضوا لاكتشاف العالم البري. إن الافتتان بما استطاع

الإنسان أن يخلقه فتح الباب للسؤال عن الكيفية التي خلق فيها الإنسان وماذا لو كان ثمة ما يميز البشر عن بقية العالم الطبيعي.

كانت الجزر البريطانية تحوي عدداً محدوداً من أصناف النباتات والحيوانات المحلية، بينما كانت الأماكن التي اكتشفها صيادو الأوركيدا البريطانيون وفيرة إلى درجة تفوق الخيال بالأشكال الطبيعية. كان الفيكتوريون مانحى أسماء ومصنفين لا يكلون، وشرعوا بتصنيف التنوع الحي الذي كانوا يكتشفونه في باقي القارات. في صميم هذا المشروع كانت مسألة تحديد موقع الأوركيدا وتعريفها وتصنيفها، وهي الأعظم من بين جميع العائلات النباتية. عندما أصبحت الحياة العصرية فوضوية ومربكة، كان الفيكتوريون يبحثون عن التنظيم في الكون، خريطة تمكّنهم من تنظيم معرفتهم بكل ما هو حي ولعلها في نفس الوقت تعقلن معنى الوجود.

عاش صيادو الأوركيدا حياةً صاحبة ومنتجة لكنها في النهاية حياةً غير مرئية. لقد اكتشفوا مئات الأصناف النباتية، ييد أن أحداً لم يذكرهم على هذا إلا نادراً. هم أول من جاب الكثير من بقاع العالم، وما من موقع نسب لهم، ما من لوحٌ توثق الأماكن التي حطوا فيها رحالهم، لا أحد يذكر أنهم سافروا إلى الكثير من البقاع قبل زمن طويل من وصول مستكشفيبعثات التبشيرية الملكية، وأنهم هم أصحاب الفضل في اكتشافها. لم يكن ما جاؤوا به من الغابات الأشد ضراوة مدهشاً ورائعاً فحسب، بل كان جوهرياً في مجال العلوم. رأوا من العالم أكثر مما رأه معظم أبناء عصرهم، لكن العالم نسيهم في آخر المطاف. أفكروا دائمًا بأن جون لاروش يمتلك من الشراسة والاعتماد على الذات والإقدام ما يكفي ليجعله صائد أوركيدا فيكتوريًا مثاليًا، لكنني أظن أنه سيصاب بغيظ شديد أن يكون اسمه منسياً.

لم تكن أول أوركيدا استوائية أزهرت في إنكلترا قد جمعت من قبل صياد أوركيدا محترف. كانت من نوع بليتيا فيريكوندا، عشر عليها تاجر أقمصة كواكر يدعى بيتر كولينزون في الباهاما سنة 1731، قبل مائة عام من وصول صيد الأوركيدا إلى أوجهه. بعيد عودة كولينزون إلى إنكلترا، قدم هذه

البليتيا لأحد أصدقائه ويدعى السير تشارلز واغر، حيث وضعها في حديقته وجعل فوقها مهاداً من اللحاء استعداداً للشتاء. كانت الشتلة تبدو يابسة وجافة، لكنها طرحت في الصيف التالي أزهاراً جميلة. خلال العقود القليلة التالية، جيء بشتلات أخرى من الأوركيدا إلى إنكلترا وذلك على يد الإداريين الاستعماريين وأعضاءبعثات التبشيرية العائدين الذين جمعوا الأزهار كتذكارات. أحضر بليج، قبطان السفينة الشراعية البريطانية بونتي، بعضها في إحدى رحلاته إلى جامايكا. ووصلت الكاتلية لا بياتا إلى إنكلترا في عام 1818، عندما عثر عالم أعشاب يدعى ويليام كاتلي على نباتات غريبة الشكل وزرعها، حيث كانت قد استعملت في تحزيم شحنة طحالب وأشنیات. ظلت الأوركيدا هوادة الطبقة العليا في الصين على مدى ثلاثة آلاف عام. نشر أول كتاب عن الأوركيدا في العالم عام 1228، عندما ألف تشاو شيء-كين كتاباً بعنوان دليل الأوركيدا المصالحة كوي-مين وتشانغ-تشاو، وفي عام 1247، ألف وانغ كوي - هوشه كتب دليل وانغ للأوركيدا. في فترة حكم سلاة مينغ، كانت الأوركيدا تستعمل في علاج الأمراض التناسلية، والزحار، والدمامل والألم العصبي وأمراض الفيلة. دأب الهنود الغربيون قبل ذلك بزمن طويل على تناول أصناف معينة من الأوركيدا لعلاج التسمم الغذائي بالسمك الفاسد وصنعوا من أبصالها الكاذبة الغلايين؛ استعمل الماليزيون الديندروبيوم^(١) في علاج تششققات الجلد، والاستسقاء والصداع؛ استعمل الزولو الأوركيدا كعامل للإيقاء، أما شعب السواغي فقد كانوا يصفون الأوركيدا في حالات معينة لمرض الأطفال؛ في أمريكا الجنوبية، كان يعد من أوركيدا السيرتوبوديوم، المعروفة عموماً باسم أوركيدا السيجار، غراء الإسكافي وكمادة مزلقة على أوتار الكمان. مع ذلك، كانت الأوركيدا ما تزال تعتبر جديدة في إنكلترا أوائل القرن التاسع عشر. عندما ظهرت أولى الأوركيدات الاستوائية في إنكلترا، لم تكن أكثر من عجيبة مثيرة للفضول. حتى عام 1813، لم تكن مجموعة الأوركيدا في كيو تتعذر 46 صنفاً استوائياً. حدث التغير عندما رأى ويليام سبينسir في عام 1833 شتلة أونسيديوم في

- 1 - تسمى أيضاً أوركيدا الحمامـة - م

عرض صغير مقام في لندن، وقرر تربية مجموعته الخاصة. كان كافيندش، الدوق الثالث في ديفونشاير، أصمًّا ويعاني من نوبات اكتئاب دورية، وكان يشتبه بأنه مستبدل، إذ عاش والده مع زوجته وصديقة زوجته المقربة وقد حملتا كلتاهم منه. مع أن كافيندش حصل على لقب العائلة، ظل يعيش وحيداً على الدوام ويات يعرف باسم الدوق العازب. كان كافيندش هاوي جمع ممیزاً ومتھماً، وضمت مكتبه الضخمة أول أربعة صحائف لشكسبير وثمانی وثلاثین رباعية من رباعيات شکسپیر. كان عاشقاً للنباتات، وتولى في عشرينات القرن التاسع عشر رئاسة الجمعية الملكية للبساتنة. كان جنائي الدوق ولداً لمزارع يدعى جوزيف باكستون، الذي كان قد عين بمنصب كبير البساتنة في إقطاعية تشاتسوورث للدوق، ولم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين في ذلك الحين. كان باكستون يمتلك عقراً ممیزاً في تسيير الأمور. بعد توظيف كافيندش له مباشرةً، أقام مجموعة من الدفيتات في تشاتسوورث، بما فيها تلك التي سميت بالموقد العظيم، وهي الأكبر على مستوى العالم - بلغ طولها ثلاثة قدم وزاد عرضها عن مائة قدم، وكانت تُدفأ بواسطة سبعة أميال من الأنابيب. في وقت فراغه، اخترع باكستون أدلة شبكة صغيرة سميت بشبكة كرينولين للفراولة، على شكل تورة تحت شلبة الفراولة تمنع البزاق من الوصول إلى حبات الفراولة؛ تكريماً له، أطلق على الأصناف المعروفة من الفراولة اسم جوزيف باكستون وظل هذا الاسم رائجاً في الزراعة حتى نهاية خمسينيات القرن العشرين. أطلق اسم موسى كافينديشي على أصناف الموز القرمي. نجح صنف الكافيندش نجاحاً باهراً مما أهل باكستون لنيل ميدالية الجمعية الملكية للبساتنة على زراعته. يبدو أن باكستون استلهم فكرة تهجين الموز القرمي بعد ملاحظته لورق جدران صيني على جدران تشاتسوورث كان عليها قرون موز صغيرة كجزء من رسوماتها. ينحدر كل الموز البريطاني حالياً من ذرية موز جوزيف باكستون.

منح باكستون لقب الفروسية بعد واحد من أهم إنجازاته المشهورة، اشتمل على نبات زنبق الماء الضخم كان قد اكتشف في غويانا البريطانية في عام 1837. كان يعتقد أن هذا الزنبق أضخم نبات زهرى في العالم. وصفه أحد علماء النبات الفيكتوريين بأنه «عجبية الخضار». بعد اكتشافه، أصبحت

بساتين إنكلترا بكمالها تتنافس على زراعة أول فيكتوريا أمازونيكا⁽¹⁾ في الأرض البريطانية. فاز باكستون، طفت زبنقته على سطح بركة خاصة في تشاتسوورث. بلغ قطر أوراقها ستة أقدام وطرحت زهرة أكبر من الملفوف برائحة تشبه رائحة الأناناس. شُكّل تفتح الزهرة حدثاً بالغ الأهمية لدرجة أن الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت زارا تشاتسوورث لرؤيه النبتة وهي مزهرة. ذات مرة، وبقصد المرح فحسب، قام باكستون والدوق العازب بإلباس ابنة باكستون آني ذات السنوات السبع زي جنية، ثم أوقفاها على إحدى أوراق الزبنق العائمة في البركة ثم التقاطا لها صورة. أثارت صورة آني باكستون الواقفة على ورقة الزبنق الحس العام. نشر الشاعر دوغلاس جيرولد قصيدةً يقول في مطلعها، «على ورقه غير منتهية وهي ترتدي زي الجنية / منعكسة على سطح الماء / حسناء، تسلب العقول والقلوب / هناك تقف آني باكستون، ابنة باكستون». ظهرت رسومات زبنق الماء الزخرفية على ورق الجدران والصينيات والأقمشة والثريات، وأصبح وسم طفلة تقف على ورقة الزبنق كليسيه تصويرية. لم يقنع باكستون بتوازن ابنته على الورقة فقط، بل وجد أن بمقدوره تحمل الورقة ليس بآني فحسب وإنما بخمسةأطفال بحجمهم الكامل أو ما يعادل ثلاثة باوند كاملة. بعد معاينة الورقة، وجد أنها قادرة على تحمل وزن كبير جداً اعتماداً على عروقها، التي تشبه الدعامة المثلثية. في عام 1850، صمم باكستون مبني زجاجياً مذهلاً، الكريستال بالاس، وذلك من أجلاحتضان أول معرض عالمي، المعرض الدولي الكبير للمنتجات الصناعية. بني الكريستال بالاس على نمط ورقة زبنق الماء الهائلة، القادرة على حمل الأنقال. كان الكريستال بالاس عبارة عن صالة عرض بلغت مساحتها ثمانين فدانأ، شيدت من عوارض حديدية متقطعة ركب عليها ثلاثة آلاف لوح زجاجي تقربياً. لم يشهد التاريخ بناء على نمط الكريستال بالاس من قبل. كان أول استعمال رئيسي للحديد في الهندسة المعمارية، لدواع جمالية وأغراض بنائية على حد سواء، وشكلت قنطرته الزجاجية الهائلة أujeوبة هندسية. كانت المعروضات التي احتواها باهرة - أوركيدا الغراماتوفيلوم سبيسيوسوم صاحبة الرقم القياسي وتزن

- ثانٍ أضخم نوع من زبنق الماء - م

طين، ومامسة كوهينور الكبيرة المعروضة في قفص عصفور ذهبي، تماثيل لأشخاص عراة، أنواع غريبة من الفخار وساعات وأقمشة ومفروشات، إضافةً إلى مجموعة من الضفادع الألمانية التي كانت مرتبة ومحنطة بأوضاع بشرية، حيث نقل عن عشق الملكة فيكتوريا لها. كانت بعض المعارضات عملية - على سبيل المثال، كشف فرانسيس باركس النقاب عن شوكة الحدائق الفولاذية بالكامل التي اخترعها حديثاً، والتي سمحـت للمزارعين بقلب التربة بسهولة - لكن مصممي ذلك الزمن اعتبروا أن معظم معارضات كريستال بالاس أكبر عملية تجمـيع كبيرة للقـمامـة العـديـمة الذوق عـرفـهاـ التـاريـخـ. منـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ، كانـ كـريـستـالـ بالـاسـ باـكـسـتوـنـ بـحدـ ذاتـهـ قدـ اـحـتفـيـ بهـ بـوـصـفـهـ اـنـصـارـاـ لـلـتـصـمـيمـ. أـصـبـحـ موـديـلاـ مـنـ الطـراـزـ الرـفـيعـ بـالـنـسـبـةـ لـعـمـارـيـ العـصـرـ الـفيـكتـوريـ وـمـهـنـدـسـيـهـ، وـماـ زـالـ أـرـكـانـ هـيـكلـهـ مـسـتـخـدـمـةـ فـيـ الـأـبـنـيـةـ الـمـعـاـصـرـةـ. لـوـلاـ درـاسـةـ باـكـسـتوـنـ بـشـأنـ الدـعـامـاتـ الـمـثـلـيـةـ لـأـوـرـاقـ الزـنـبـقـ، لـمـ بـنـيـ عـلـىـ الإـطـلاقـ قـصـرـهـ الـمـكـونـ مـنـ مشـغـولاتـ الـحـدـيدـ وـالـزـجاجـ.

بعد افتتان الدوق الأعزب بشـتـلةـ الـأـوـنـسـيـدـيـوـمـ، كـرسـ نـفـسـهـ لـلـأـوـرـكـيـداـ وأـوصـىـ باـكـسـتوـنـ بـإـشـاءـ مـجـمـوعـةـ مـنـهـاـ لـهـ. جـمـعـ باـكـسـتوـنـ خـلـالـ سـنـوـاتـ قـلـيلـةـ أـكـبـرـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـأـوـرـكـيـداـ فـيـ إنـكـلـتـرـاـ، وـعـيـنـ جـنـائـيـاـ ضـمـنـ فـرـيقـهـ عـهـدـ إـلـيـهـ السـفـرـ وـاصـطـيـادـ الـأـوـرـكـيـداـ. فـيـ عـامـ 1837ـ، أـرـسـلـ هـذـاـ الـجـنـائـيـ الشـابـ لـباـكـسـتوـنـ مـنـ آـسـامـ ثـمـانـيـنـ أوـ تـسـعـيـنـ صـنـفـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ مـنـ النـبـاتـاتـ الـتـيـ لمـ تـكـنـ مـعـرـوفـةـ فـيـ أـورـوباـ، أـغـلـبـهـاـ مـنـ الـأـوـرـكـيـداـ، لـكـنـهاـ ضـمـتـ أـيـضاـ جـنـسـاـ نـادـرـاـ مـنـ شـجـرـةـ الـأـمـهـيرـسـتـيـاـ نـوـبـيلـيـسـ⁽¹⁾ـ الـهـنـدـيـةـ، مـنـ كـالـكـوـتاـ. أـبـدـىـ الدـوقـ حـمـاسـاـ شـدـيـداـ لـوـجـودـ الشـجـرـةـ لـدـرـجـةـ أـنـ باـكـسـتوـنـ كـتـبـ لـزـوـجـتـهـ: «ـهـنـاـ كـانـتـ الـبـداـيـةـ الرـسـمـيـةـ لـمـحـبةـ الدـوقـ الـتـيـ طـالـ اـنتـظـارـيـ لـهـاـ، مـنـ الـأـمـهـيرـسـتـيـاـ. لـاـ يـمـكـنـتـيـ نـقـلـ تـفـاصـيلـ حدـوثـ هـذـهـ الـبـداـيـةـ الـهـامـةـ؛ـ سـأـكـتـفـيـ بـالـقـوـلـ إـنـ الدـوقـ وـجـهـ بـإـحـضـارـ طـعامـ الـإـفـطـارـ إـلـىـ قـاعـةـ الـلـوـحـاتـ⁽²⁾ـ حـيـثـ وـضـعـتـ تـلـكـ الـنـبـتـةـ، وـأـبـدـىـ رـغـبـتـهـ فـيـ أـنـ أـجـلـسـ وـأـغـدـقـ حـبـيـ عـلـىـ الـجـوـهـرـةـ أـثـنـاءـ تـناـولـهـ لـلـإـفـطـارـ قـرـبـهـاـ». أـقـامـ

1- وـتـسـمـىـ أـيـضاـ فـخرـ بـوـرـماـ، تـعـرـفـ بـجـمـالـ أـزـهـارـهـاـ - مـ

2- فـيـ الـكـلـيـةـ الـبـحـرـيـةـ الـمـلـكـيـةـ، مـزـيـنةـ بـالـلـوـحـاتـ - مـ

باكتسون دفيئة خاصة بشجرة الأوركيدا، حيث أورقت لكنها لم تزهر قط. ومع هذا فقد زارتها الملكة فيكتوريا في عام 1843. لا بد أنها كانت واحدة من أروع الأمسيات في الحياة. قادت الملكة والأمير الجياد والعربة في أرجاء الفرن العظيم^(١) للدوّق الأعزب، حيث كان باكتسون قد أناره باثني عشر مصباحاً على شرفهما.

استمرت موضة الأوركيدا التي أشعلها ولع الدوّق الأعزب في أواسط الطبقة الإنجليزية الرفيعة على مدى عقود. كان ينظر إلى الأوركيدا بوصفها رمزاً للثروة والرفة والعقلانية؛ نباتات تحمل حالة من الهيمنة على البراري والأماكن الأجنبية؛ جعلتها نفاستها امتيازاً رائعاً للطبقة العليا. عدد هائل من الأنواع الجديدة كان يعثر عليه يومياً إلى حد جعل الجامعين لا يعرفون الراحة أبداً - كانت الأوركيدا انشغالاً لا نهاية له. مع هبوب صيحة الأوركيدا، المبالغ التي دفعت ثمناً لها، والتداير التي اتخذت للحصول عليها، والأهمية التي أوليت لها، كل هذا صبغ الجو بمسحة من الجنون. تحول هذا الهوس الفيكتوري «حمى الأوركيدا» إلى رغبة جشعة. كانت تشبه في حدتها هوس التوليب الهولندي في ثلاثينيات القرن السابع عشر، الذي بلغ أوجه في عام 1637، حين بيعت حقوق بصلة توليب تسمى فايسورى في مزاد علنى مقابل سلع ثمينة لإحدى المزارع. اشتغلت على ستة أحمال من الحبوب، أربعة ثيران، ثمانية خنازير، وأثنى عشرة غنم، نبيذ، وبيرة، وألف باوند من الجبنة. أكثر أزهار التوليب قيمةً كانت تلك المخططة والمرقطة بألوان زاهية، وكانت تعتبر آنذاك علامـة على التميز، أما اليوم فيعرف علماء النبات بأنها مؤشر على انتشار فيروس فتاك تنقله حشرة المن. نما سوق التوليب الهولندي وتحول إلى أمرٍ تعدى زراعة الحدائق ليصبح فقاعة مضاربة وعقود آجلة عالية المديونة، سرعان ما انفجرت.

لا يمكن لإنكليزي عادي تحمل تكاليف مجموعة أوركيدا أو دفيئة أو توظيف جنائي أو صياد محترف يجمعها له. كان امتلاك الأوركيدا حكراً على الأثرياء، ولكن الرغبة بزراعتها كانت عابرة للطبقات. تاق الإنكليزي

- 1 - كان يطلق على الدفيئة اسم الفرن - م

العادي بشدة أيضاً للحصول على الأوركيدا. في عام 1851، كتب أحدهم ويدعى بنيامين ويليامز سلسلة مقالات بعنوان «أوركيدا للملايين»، دافع فيها عن حق الجميع بامتلاك الأوركيدا. في الآخر نشرت في كتاب انتشر انتشاراً واسعاً لدرجة أنه طبع سبع مرات.

كان الإنكليز في البداية رهيبين في التعامل مع الأوركيدا، وعادةً ما كانوا يقتلون كل شتلة منها تمسها أيديهم. من شدة سخط مدير حدائق النبات الملكية في كيو، أُعلن في عام 1850 إنكلترا «مقبرة لجميع الأوركيدا الاستوائية». حتى لو كانت المشاكل الكبرى المخضرة بين القرنين، ك بلاك آند فلوري، ستيفوارت لاو آند كو، تشارلس وورث آند كو، ماكين، وساندير آند صون، عبارة عن مقابر، فقد كانت مقابر رائعة، تم تجهيزها بألواح من البلور المعالج وصفت بحوامل للنباتات من الحديد المطاوع. مع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر، تقدم علم الأوركيدا بما يكفي لجعل نجاح زراعتها مضموناً أكثر، وبدأت دفيئات إنكلترا تورق أخيراً. لم تعد الشتول تزرع في أصص معبأة بالخشب والأوراق المتعفنة، بل أصبحت توضع في وسط صحي أكثر للنمو. ربما يعود الفضل لجوزيف باكتون في جل هذا التقدم الملحوظ: كان الإنكليز سابقاً يعتقدون أن الأوركيدا لا تزدهر إلا في بيئه شبيهة بيئه الغابة، ولذا فقد خنقوا دفيئاتهم - ما كانوا يسمونها «أفرانهم» - بالرطوبة والحرارة. في الحقيقة، معظم أصناف الأوركيدا تفضل الأماكن المرتفعة المعتدلة فوق أرض الغابة، على الأشجار أو حجارة الجبال. ظلت الأوركيدا في إنكلترا تموت من الغليان حتى جرب باكتون زراعتها في دفيئات أكثر جفافاً وبرودة. في عام 1856، برعمت أول هجينه اصطناعية - شتلة تم إنتاجها من تلقيح متعمد بين أصناف مغایرة. أحدثت تلك الأوركيدا الأولى «البغال» صدمة في عالم النباتات. حين وقعت عينه على إحداها، يقال إن مزارع الأوركيدا جون ليندلي صاح قائلأ، «يا إلهي! سوف تقودين علماء النبات إلى الجنون!» كان مربو الأوركيدا وعلماؤها وزارعواها وصيادوها وجامعواها جميعهم من الرجال. لقد حظر على نساء العصر الفيكتوري امتلاكها، إذ اعتبر شكل أزهارها ذا إيحاء جنسي

كبير نتيجةً لأعرافهم المتحفظة، وبمطلق الأحوال، فإن تكلفة وخطورة واستقلالية عملية الجمع في المناطق الاستوائية كانت تتجاوز طاقة أية امرأة فيكتورية. ظلت العلاقة بين الإنكلiziات والأوركيadas مضطربة زمناً طويلاً؛ في عام 1912، أقدمت المناضلات في سبيل حق الاقتراع على إتلاف معظم نماذج العينات في حدائق كيو. ومع ذلك، كانت الملكة فيكتوريما هاوية أوركيida شغوفة. استحدثت مكتب المفوضية الملكية لمزارعي الأوركيidas وعينت المزارع الشهير فريديريك ساندير قياماً عليه. في يوبيلها الذهبي، قدم لها ساندير إكليلاً من الأوركيidas بلغ ارتفاعه سبعة أقدام وعرضه خمسة، وأطلق أحد الجامعين ويدعى لوهير على صنفي مكتشف حديثاً آنذاك اسم ديندروبيوم فيكتوريما - ريجينا تكريماً لها. شكل تعلق الملكة فيكتوريما بالأوركيidas نوعاً من الإضافة إلى سحر هذا النبات في إنكلترا وفي كل أرجاء العالم. في عام 1883، أرسى الفيكونت إتسوجين فوكوبا أول دفيئة في آسيا. يقال إنها كانت باتساعها تشبه القصر، ملأها الفيكونت بالأوركيidas التي أرسلها له المزارعون الإنكليز إلى اليابان، وعلى رأسهم فريديريك ساندير. في عام 1891، أطلق آل رومانوف على ساندير، الذين أنشأوا مجموعتهم الضخمة بفضل مساهماته، لقب بارون إمبراطورية روسيا المقدسة. بعد فترة وجيزة، كافأ ساندير نفسه وبدأ يشير إلى نفسه بلقب ملك الأوركيidas.

في عام 1838، أرسل جيمس بوت شتلة أوركيida استوائية من لندن إلى شقيقه جون رايت بوت في بوسطن. من شدة إعجاب جون بها طلب من أخيه إرسال المزيد منها. استجابة له أخوه، وخلال بضع سنوات، أصبح لدى بوت مجموعة كبيرة منها في منزله في بوسطن. لقد أوصى بالمجموعة بعد وفاته لجون أموري لوويل في روكتسوري، في ماساشوستس، الذي بدوره أضاف إليها المزيد من الشتول. في عام 1853، باع لوويل المجموعة بكاملها إلى المستأجر في بلد إقامته. لم يعتن المستأجر بها فيبست معظم شتول الأوركيidas. أما الشتول القليلة الناجية فقد قسمت بين السيدة برات في واتيرتاون، في ماساشوستس، ورجل من بوسطن يدعى إدوارد راند، الذي أعاد توسيع المجموعة من جديد، ويقال إنه زرع شتلة كاتلبا بلغ حجمها

حجم الطست، وفي عام 1865، باع أملاكه وتبرع بمجموعة الأوركيدا لجامعة هارفارد. هكذا وصلت الأوركيدا الاستوائية إلى أميركا. بلمح البصر أصبح لها معجبون لا يقلون حماساً عن نظرائهم الأوروبيين، وسرعان ما زاحم هواة الجمع الأميركيان الإنكليز. اشتري أحد سكان مدينة جيرسي في نيوجرسي، ويدعى كورييلون فان فوريست، أول أوركيدا في عام 1855، وبعد ستين، كان قد كدس ما يقارب الثلاثمائة صنف، بما فيها الأنسيليا أفريكانا التي لا يستطيع رجال رفعها إلا بشق النفس من شدة كبرها. استهل الجنرال جون راثبون، من سكان منطقة آلباني في نيويورك، مجموعته في عام 1866. كتب لأحد أصدقائه في عام 1868: «غمرتني الشتول والأزهار بسعادة فائقة حتى أصبحت محموماً بالأوركيدا، ومن دواعي سروري أن أقول إنها عمت هذه البلاد حالياً، وكلّي ثقة أنها ستتفشى كالوباء. حتى أضمن النجاح في زراعة هذه العائلة الساحرة من النبات، انشأت في عام 1867 بيتاً خاصاً بالأوركيدا».

في عام 1874، انتقلت الآنسة جين كينيورغ، من سكان كاريكتير غوس في إيرلندا، إلى تالاهاسي في فلوريدا. حملت معها كمية من مقتنياتها الأثيرة إلى قلبها، ومن بينها التاييو سغراند فوليوس، وهي أحد أصناف الأوركيدا الاستوائية التي يطلق عليها أحياناً اسم «زنقة الراهبة». قبل وفاتها، وهبت الآنسة كينيورغ مجموعتها من النباتات إلى صديقتها السيدة إس. جي. دوغلاس، ابنة المزارع الفلوريدي، حيث قامت السيدة دوغلاس فيما بعد بوهبها لابنتها السيدة جورج لويس. عاشت شتول الأوركيدا عند السيدة لويس حياة هانئة، حيث كانت تضعها في الدفيئة شتاءً وتجعلها تنعم بحمام الشمس تحت أشجار البلوط في فناء منزلها الخلقي صيفاً. لاءمها مناخ فلوريدا فازدهرت وتضاعفت. ما من معلومات حول ما آلّت إليه حال تلك النباتات، لكن شتول فايوس الآنسة كينيورغ اعتبرت أول أوركيدا الدفيئات في فلوريدا. تلاها المزيد من الأوركيدا. انتشر جامعو الأوركيدا في ميامي، في فورت لوديردайл، في نارانجا وهو مستайд؛ أقامت كبرى الملكيات من أمثال بالم بيتشر وميامي بيوت أوركيدا ووظفت عليها عمالةً مقيمين؛ في عام 1886، اشتري الدكتور تشارلز توري سيمبسون، عالم الطبيعتيات الذي

ألف لاحقاً أشهر الكتب الإرشادية عن حيوانات ونباتات فلوريدا، مساحة أرضي في الغابة ضمن خليج بيسكابين وزرع الأوركيدا على جميع الأشجار؛ ظهرت المشاتل التجارية للأوركيدا كمشتل جون سوار في ليتل ريفر في أنحاء الولاية. ظهرت مؤسسات الأعمال في بلدات كبالم بيتش التي كانت تستأجر شتول أوركيدا مزهرة ضمن الأحواض من أجل عرضها في المناسبات الخاصة، وتتولى العناية بالشتول في حال غياب أصحابها.

اشتهرت مهنة صيد الأوركيدا برومانسيتها وهولها. في عام 1939، قام تلميذ شاب يدعى نورمان ماكدونالد بتأليف كتاب بعنوان **صيادو الأوركيدا**، يسرد فيه كيف أنه وأحد زملاء دراسته، بعد تفكير عميق، استبعدا فكرة جمع القروود، وقرoron الديفي دي⁽¹⁾، وسمع الكارناوبا وجلود التماسيخ، وقرروا المضي بصيد الأوركيدا في أميركا الجنوبية. استهل كتابه بالعبارة التالية: «تحذير لأصحاب العقول المنغلقة. إياكم ومحاولة اتباع مسار صيادي الأوركيدا على خارطة (الكتاب). حفاظاً على تقاليد سرية المهنة، غيرنا الأسماء الحقيقة للبلدات والأنهار على نحو متعمد. هذا لا يعني أنكم سترغبون بالذهاب إليها، إنما عندها...» ثم يتبع في مقدمته هذه: «استلقى صائد أوركيدا العجوز على ظهره فوق الوسادة، جسده ذاوا... (ستلعن الحشرات)، قال في آخر الأمر، (وستلعن السكان المحليين... ستتشويك حرارة الشمس نهاراً والبرد سيوهنك ليلاً. ستعصف بك الحمى وتعذبك مئات الإزعاجات، لكنك لن تتراجع. فعندما يقع الرجل في عشق الأوركيدا، سيفعل كل شيء للحصول على الشتلة التي يبتغيها. الأمر أشبه بمطاردة امرأة خضراء العينين أو تعاطي الكوكايين... ضربٌ من الجنون...)»

هيمن أبناء فلوريدا على صيد الأوركيدا الأمريكي. قاموا بتمشيط أميركا الوسطى والجنوبية وعادوا بحمولات سفن. نبشووا الغابات والمستنقعات على بعد ميلين فقط من بيوتهم. كانت سبخة الفاكاهاتشي موقعاً زاخراً

-1- divi-divi: شجرة أمريكية استوائية تحمل قرونًا معقوفة و تعد مصدرًا لمادة الثاني - م

- ظلت زمناً طويلاً أشبه بسوبر ماركت للأوركيدا. أخرج الصيادون من الفاكاهاتشي الآلاف من شتول الأوركيدا، وكدسوها في عربات مسطحة تجرها الخيول، حزموها في صناديق وشحذوها، ثم عادوا ثانية إلى الفاكاهاتشي. في إحدى شحنات عام 1890، نقلت ألفا شتلة من أوركيدا الفراشة بالقطار من فاكاهاتشي إلى مدينة نيويورك، تلتها حمولة قطار من أوركيدا الدولار، وأوركيدا قرن الثور وضفائر الفتيات. وقعت في يدي صورة عتيقة باهتة لإحدى رحلات الشحن تلك - يظهر فيها حصانان وأربعة رجال يعتمرون قبعات واقية للشمس وأكمامهم قصيرة، عربتان بإطارات كبيرة تئن تحت وطأة حمولة تظهر كأنها مخلفات أغصان، إلا أنها لم تكن في الحقيقة سوى كومتين من شتول الأوركيدا. عشر صيادو فلوريدا على أصناف جديدة في أفنية منازلهم الخلفية فيما كانوا يتطلعون إلى إيجادها في منطقة الكاريبي. ربما انتقلت بعض تلك الأصناف عبر المحيط بفعل الرياح أو الطيور أو من خلال انتقال عرضي ما، وكان جنوب فلوريدا أبعد شمالاً من أن تنمو فيه. في عام 1844، اكتشف عالم النبات جان يوليس ليندين أوركيدا بياض الثلج الجميلة في كوبا. كانت الشتلة بلا أوراق ذات جمة متتشابكة من الجذور، ولذا فقد سماها بولير هايزا ليندين - ومعناها «النبتة الكثيرة الجذور التي عشر عليها ليندين». في عام 1880، عشر مستكشف نباتات يدعى أ. آش. كيورتيس على نفس الصنف الكوبي في كوليير كاووني، بالقرب من سبخة فاكاهاتشي. كانت هي البولير هايزا ليندين بلا شك. بعد فترة وجيزة، اكتسبت هذه الأصناف اسمها في فلوريدا - وأصبحت تعرف باسم الشبح.

ذات تنور مسائي من إحدى ليالي فترة وجودي في فلوريدا، أقامت الجمعية الأمريكية للأوركيدا حفل عشاء رسمياً احتفالاً بالذكرى السنوية الخامسة والسبعين لتأسيسها. أقيم الحفل في قصر فلاغlier في بالم بيتش، على بعد ميلين فقط عن مقر الجمعية في مزرعة فاوغن الواقع في ويست بالم بيتش، وعلى بعد ميل واحد فقط عن مكان إقامتي أغلب الوقت خلال فترة متابعتي للاوروش. توقعت حضور عدد كبير من الجامعيين في الحفل،

وهذا ما دعاني للتوجه إلى هناك. وكان هذا يعني أيضاً أن الفرصة ستتاح لارتداء ملابس أخرى غير تلك المخصصة للمستقيمات منذ وصولي إلى فلوريدا - تلك التي كان علي التخلص منها فور تأديتها لغرضها - أو ملابس المشاتل - الخاكي الفضفاض، وقميص التي شيرت التي كانت تتلطخ على الدوام بقع الغبار ونشرارة الخشب. لقد أحضرت معني سترة حريرية سوداء وفستان سهرة، ولم أكن قد أخرجتهما حتى من أكياسهما الشفافة النظيفة.

لست واثقة من تصوري المسبق عن طبيعة حياتي في فلوريدا، لكنني أتوقع أنني ولا بد سأحضر مناسبات تتضمن حفلات كوكيل. لم يكن الأمر على هذا النحو إطلاقاً. مكثت في شقة والدي في ويست بالم بيتش - لم يكونا يأتيان إليها إلا نادراً - أستيقظ صباحاً، استمع إلى النشرة الجوية التي لا تتبدل، أضع شيئاً من واقي الشمس، ثم أمضي إلى هومستايد أو الفاكاهاتشي أو وبعد باتجاه ميامي، مع توقف في هوليوود لتبادل الحديث مع مزارعي الأوركيدا وزيارة المشاتل ومراقبة سكان محمية السيمينول، ثم نزهة في الغابة سيراً على الأقدام. أشعرني هذا كأنني أقود سيارتي لمسافة مليون ميل يومياً. تحدرت إصبغي الوسطى اليمنى من تكرار الضغط على زر البحث في المذيع، وأخذت أتصرف كما يتصرف الباعة الجوالون في الطقس الحار، من قبيل نشر خارطة فوق لوحة القيادة كلما ركنت السيارة وثنى واقيات الشمس في السيارة بزوايا حادة بغية الحصول على أقصى كمية من الظل وأحتفظ ببعض بدلات من الملابس في السيارة. كانت روائح الزهور السكرية والروائح المرة من الأسمدة والروائح الحامضة من القطران الدائب على الطريق تعقب في أنفي طيلة الوقت. أعود في المساء، معرفة بالوحـل عادةً، إلى ويست بالم بيتش، وفي صندوق سيارتي أحياناً شتلة أو اثنان قام أحدهم بإجباري على أخذها، سأبحث أولاً عن أعطيه الشتلة وبعدها سأمضي للجري في ملعب الغولف، أرافق التماسيف وأنا أفكر بما سمعته في ذلك النهار بشأن النباتات وفلوريدا والحياة وأشياء أخرى. تتوقف معظم مطاعم ويست بالم بيتش عن تقديم خدماتها في وقت مبكر، ولذا فقد كان عليّ الجري بكل ما في الكلمة من معنى كي أشتري طعامي قبل أن تغلق جميع المحال. آخر مكان يبقى مفتوحاً هو مطعم سوشي في مجمع تجاري

يقع بجانب مطعم لحوم أسترالي، ومقهى إيطالي، ومطعم تايلندي. أغلب وقتني في فلوريدا، كنت أعيش حالةً من الذهول، شكلاً من أشكال دهشة الغريب التي يشعرها المرء حين يسمع ويشاهد ويشم ويلمس كماً كبيراً من الأشياء الجديدة التي تأخذ بالداخل بعضها مع بعض وتتحول إلى شعور واحد من الجدة والغرابة. لدى أصدقاء وأقارب في فلوريدا، غير أنني لم ألتقي بأغلبهم حين كنت هناك؛ شعرت أنني بحق في مكان غريب آخر، حيث لم أكن أتوقع أو أريد التعرف على أي مما تقع عليه عيني.

بدا حفل الجمعية الأميركية للأوركيدا بالنسبة للاروش فرصة عمل رائعة، بما أن أولئك الجامعين هم بعينهم من سيتزاحمون، حسب ظنه، ذات يوم طلبوا لأوركيدا الشبح الموجودة في دفيئته، لكنني أعرف أنه لن يحضر مناسبة كهذه ولو مقابل مليون دولار. ومع ذلك فقد اتصلت به وسألته مرافقتني، لمجرد استفزازه وإغضابه. من جهة أخرى، لم أكن أرغب فعلياً بالذهاب بمفردي. كان في مزاج جيد يوم اتصلت به. «أنا أحضر ذلك الحفل؟» قال. «هذا ضرب من المحال. أولئك البشر يمقتونني. يظلونني مجرماً ويحتقروني. أنا رمز شؤم في عالم النبات». بدا لي مسروراً. «يتمنون روئتي ميتاً. إنني شخص خطر. أتحسي بي أمزح؟ حسناً، أنا لا أمزح. ولا أصدقك القول، أنا أبادلهم ذات المشاعر». «إذن فلن ترافقني؟».

نشم بأنفه ولم يقل شيئاً آخر على الإطلاق، ثم أغلق سماعة الهاتف بعد لحظات.

كان قصر فلاغلير مكاناً مثالياً للحفلات. لقد شيد عام 1902 على يد هنري فلاغلير، الممول ورجل النفط الذي كان من أوائل المطورين في فلوريدا، وهو مكان هائل الضخامة - حتى إن أجنهته لها أجنهة. اعتبر منذ عام 1959 متحفاً تاريخياً، إنما ما يزال بإمكانك أن ترى كم كان جميلاً ولا بد حين كان متزلاً لأحد هم. تبلغ مساحته المربعة مساحة سفينة ويضم رواقه ستة أعمدة شاهقة. أما من الداخل، ففيه قاعة شاسعة سقفها مرتفع ومدعومة

بالر وا فد دعماً متيناً وكل ما في المنزل يتلاؤ - يكسو جدرانها والأرضية خشب مصقول متلائمة وفضة مصقوله متلائمة ورفوف ذهبية متلائمة. من أجل الحفل، نشرت مصابيح صفراً وامضه فوق مساحة العشب الأمامية من القصر التي بدت ساطعة ومشوشة بفعل حرارة المساء الرطبة. لدى دخولي بالسيارة، كان الممر الهلالي الشكل يعج بسيارات نظيفة لامعة طويلة ونصف ذرينة من عمال المرآب يرتدون قمصاناً بيضاء منشأة وربطات عنق فراشة، كانوا يهرونلون جيئةً وذهباءً من مرآب سيارات آخر بعيد. انتظرت دوري ورحت أراقب السيارات أمامي، ظهرت أولًاً امرأة ترتدي عباءة طويلة وعلى كتفيها شال، بعدها رجل يرتدي بدلة سوداء من قماش قاسي، كانت ليلة مقمرة ساحرة. مالت أشجار التخيل على الممر وألقت بظلالها على هيئة أيادٍ عملاقة. كانت حبات الندى تلتمع على المرج. صراصير الليل المتوارية بين الأعشاب تصدر أصواتها المميزة. كان باب القصر ينفتح على اتساعه بين الفينة والأخرى مفسحاً المجال لدفقة من عزف الأوركسترا أن تخرج وتنشر في نسائم الليل.

كان الجو مبهراً في الداخل بعض الشيء أيضاً. عدة مئات من الأشخاص يتجلولون في بهو المدخل، والمزيد كانوا يمرون ببطء أمام رتل ترحيب، حيث كان رؤساء الحفل من جمعية الأوركيدا يصادرون الحضور ويعرفون على الرؤساء الفخريين من إنكلترا-إيرل وكوتنتسية مانسفيلد، اللورد والليدي سكيلميرسدايبل، والموقر ألاسايدير موريسون والسيدة موريسون. ارتدت الإنكليزيات فساتين واسعة جميلة بألوان زاهية وقد رفعن شعرهن الفاتح اللون إلى الأعلى. كان هناك ستون أو سبعون طاولة عشاء مستديرة، مرتبة في صالة الدخول وعلى امتداد الدرابزين وتطل على المرقص. وضعوا على منتصف كل طاولة باقة مختلفة من الأوركيدا. أوركيدا الطاولات تبرع بها مزارعو فلوريدا وكاليفورنيا وتاييلند وجزيرة جيرسي وهاواي وهولندا. في صالة الدخول، ثلاثة منصات يصل ارتفاعها حتى منتصف المسافة إلى السقف تقريباً، وفي أعلى كل منها حوض نحاسي بحجم حوض الاستحمام طافح بالأوركيدا المتعددة الألوان؛ من الوردي والعاجي والأخضر الفاتح واللافاندر والبرتقالي الليموني والأبيض الناصع. وصلت أوركيدا

الأحواض جوًأ من سنغافورة في ذلك الصباح. حينما وقفت كان الهواء يعقب بالروابح العطرة. كان أحد الندل يتمايل متربكاً وسط الحضور وبهذه طبق فضي يحوي كمية مقبلات ضئيلة تتوسطها كدسة من الأوركيدا. أمسكتني إحداهن وكنت قد تعرفت عليها في أحد معارض الأوركيدا من كوعي وحيتي، ثم همست لي أنها سمعت أنه كان يفترض وجود تحلية على شكل أوركيدا من الشوكولا الصرفة، لكنها ذابت في وقت سابق من ذلك اليوم.

تبعد الناس بأشياء بقصد بيعها في المزاد العلني بعد العشاء - آلة قمار عتيقة، تذاكر إلى الأولمبياد، أطباق تحمل رسوماً يدوية للأوركيدا، ست من شتول أوركيدا البافيو بيدليوم النادرة، صورة للبافيو بيدليوم رسمها رسام بافيyo بيدليوم شهير، لوحة لزهرتك المفضلة من الأوركيدا يرسمها خصيصاً لك رسام الجمعية الملكية للبسنة المعتمد، حرك في أن تطلق على شتلة أوركيدا مهجنة جديدة اسمك أو اسم من تخبارك. لقد تبرعت إليزابيث تايلور بستمائة قارورة من عطرها الجديد حيث وزعت كهدايا عينية للحضور في الخارج. إلى جانب سلع المزاد، كان هناك صورة شخصية كبيرة لها وضعت على حامل لوحات. كان رتل شراء بضائع المزاد عريضاً وطويلاً، إذ لم أتمكن من النظر إلا بنظرات خاطفة هنا وهناك؛رأيت أحدهم يزاود بـ 575 دولاراً على أطباق أوركيدا و500 دولار مقابل لوحة لأوركيداه التي يحب.

في طريقي إلى طاولتي، لمحت إيرل مانسفيلد يستند إلى جدار. لفدت زوجته انتباхи في صف الاستقبال فقد كانت حسناً وبدت يداها بنعومة بودرة الأطفال. كان إيرل مانسفيلد ممشوق القوام، بشعره الأبيض اللامع، ونظارته البلاستيكية السوداء، مع صفة مرحة غير ظاهرة للعيان. لا بد أنه قد تملص من صف الاستقبال. كان يحنى رأسه قليلاً تلك الأناء. متجمهم الوجه ويحرك كتفيه، لكنه تمكن على نحو ما ألا يسفع مشروبه. حيتي، ظهرت عليه الحيوية وقال، «لا شيء يستطيع تحسين المزاج كالمارتيني الأمريكية!» دعاني للاستناد إلى الجدار معه. أخبرني بعد قليل أنه أجرى من فترة وجيزة عملاً جراحيًا بسيطاً وهو في مرحلة النقاهة، وقد عاد للتو من رحلة كانت ممتعة فعلاً - كان في رحلة صيد مع أصدقاء رائعين في إسبانيا، وبعدها رحلة أخرى برفقة أصدقاء رائعين إلى السويد، ثم زار أصدقاء

رائعين في إيطاليا، وبعدها قام بزيارة لأصدقاء رائعين في باربادوس. سألني عن الأصناف التي جمعتها، اعترفت له بأنني مراقبة فقط في عالم الأوركيدا. تنهى وقال إن كل هوسه بالأوركيدا بدأ بصورة بريئة مع سايمبيديوم^(١) أرسلها له أحد أصدقائه وقد اشتراها من سلسلة متاجر هارودس. «قبلها لم يكن لي أي علاقة بالأوركيدا. وضعت السايمبيديوم في دفيئتي الصغيرة ويؤسفني القول إنها... هلكت. في عام 1971، انتقلت إلى اسكتلندا و، يا إلهي، أطلقت مجموعتي. لقد ورثت عامل جنائن عجوزاً عن والدي الذي كان يهوى الهليون والبندورة، لكنه لم يحب الأوركيدا على الإطلاق، ولذا فقد توجب علي متابعة عمله».

بدا الإيرل الآن وقد انتعش انتعاشاً كبيراً. أخبرني أنه كان يملك معمل تقطير صغيراً لويسكي سكوتشر روبل لوتشناغر من الشعير فقط. مرَ النادل بنا فأشار له الإيرل وبدل كأس الماريوني بأخر. أثناء تبديل الكأس، وقف النادل بلا حراك وبدا خجلاً لسبب غير مفهوم إلى أن غمزه الإيرل وبعدها عاد إلى. «ما إن نبدأ العمل مع الأوركيدا، حتى لا يعود بإمكاننا البتة النظر إلى الخلف»، قال. «لقد كبرت حتى أصبحت مغرماً بها تماماً، كما تعلمين. أحبها لأنها شريرة نوعاً ما وغامضة نوعاً ما، ما رأيك؟ كان من الصعب في الفترة الأولى أن أجعلها تزهر، وعندما نجحت في هذا، كان حدثاً عظيماً، نصراً هائلاً. إنها نباتات عظيمة، تحذّر! إنها تناك وتعبس، تتجاهلك. تابعت العمل مع الأوركيدا! أقمت بيتكاً خاصاً للأوركيدا في عزبتي، جعلت فيه ثلاثة حالات مناخية، وكل ما فيه مؤتمت، وبذا أمكنني زراعة أصناف مختلفة في تحملها لحالة الطقس. سجلت المعلومات المتعلقة بكل شتلة على حدة على جهاز الكمبيوتر-منشأها، وموعد إزهارها حتى أدق التفاصيل».

سألت لورد مانسفيلد عن مصدر عيشه. أخبرني بأنه كان وزير دولة في حكومة مارغريت تاتشر حتى عام 1981 وعضوًا في مجلس اللوردات. «أنا حالياً - أفترض أنه يمكنك القول إنني تقاعدت»، قال. «لو كان بمقدوري لوددت قضاء كل أيامي في بيت الأوركيدا، لكن الواجبات لا تنتهي، أليس

- تعرف أيضاً بأوركيدا القارب - م

كذلك؟» أوماً باتجاه صف الاستقبال ثم علق ببعض العبارات حول باقات الزهور في صالة الدخول. بدأ صوت صحب الحضور يخفت وتوقف صوت موسيقى الأوركسترا، مما يعني أن موعد العشاء قد حان. اعتدل الإيرل في وقوته ثم حرك رأسه بحركة عنق الدجاج، تلك الحركة التي يفعلها الرجال لإخراج تفاحة آدم من تحت ياقاتهم. «هل قلت إنك لا تملkin أيه أوركيدا على الإطلاق؟» سألني. «شابة مثلك يمكنها أن تبدأ بإنشاء مجموعة في الحال ومع الوقت، عندما تصبحين في سني، سوف تحصلين على نتائج باهرة جداً». كان عمر مجموعة أقل من ثلاثين عاماً وهي الأضخم في أسكتلندا.

«هل يربى أي من أولادك الأوركيدا؟».

ضحك قائلأ، «لدي ولد في التاسعة والثلاثين من العمر وأنا واثق من رغبته في وضع يده على نباتاتي من الأوركيدا. أظنه يتظر موتي بفارغ الصبر».

خلابة

اتصلت بلا روشن في اليوم التالي للأخبار عن الحفل والأزهار التي شاهدتها والبشر الذين التقى بهم فيه. أصبحت في ذلك الحين أعرفه معرفة كافية تؤهلني لأعلم حالته بالضبط وما قد يقول. بغض النظر عن ساعة الاتصال -تصادف أن اتصلت به يومها ظهراً- يجب لاروش على الهاتف دائمًا كأنه استيقظ من نوم عميق على الأريكة أثناء متابعته برنامج مسابقات. في الحقيقة، لا أظنه أيقظته من النوم ولو لمرة واحدة. كان هذا بسبب صوته الرخيم والمرتخي وأسلوبه في الكلام لا أكثر -خمول، ساوء وارتياحي، كموظف في مكتب مراجعة الضرائب. بعد أن يتأكد من أنني أنا على الهاتف، يتضخم صوته ويبدا في الحال الشكوى من أنني حثت له بوعدي أن أتصل به أو أراه أو أقابله في مكان ما. لم تكن تلك الاحتجاجات في محلها قطعاً. كان شغلي الشاغل خلال وجودي في فلوريدا هو البقاء حائمة حوله، وإلى جانب الحقيقة الواضحة أن جون هو الهدف الكامل وراء وجودي في فلوريدا، كثيراً ما كنت أحن إلى موطنِي دائمًا كنت أعيش حالة من الحماس وتحفز الوعي كلما كان لدى خطط عمل. في الواقع، لاروش هو الذي كان يورطني دائمًا في المآزق. حين التقى لأول مرة أزعجتني اتهاماته، لكنني أقنعت نفسي في آخر المطاف بتجاهلها. حين اتصلت به في ذلك اليوم، نجح في الرد على بتحية مكتومة وشرع يوبخني على عدم اتصالي في وقت أبكر، وعندما انتهى، أخبرته عن حفل جمعية الأوركيدا، تنحنج عندما أنهيت كلامي وقال، «سأذهب لحضور معرض أوركيدا صغير في فورت لاوديرديل بعد الظهر، إن كنت ترغبين بمرافقتي. إنه مجرد معرض صغير، ولكنه قد يحتوي بعض الأشياء المميزة»، ثم أعطاني إحدى ثيات قاعة النصب التذكاري للحرب، حيث يقام المعرض.

لطالما اعتبرت نفسي محظوظة كلما تزامن إقامة نشاط خاص بالأوركيدا مع إحدى رحلاتي إلى فلوريدا، إنما في الحقيقة كانت معارض النباتات أو المجتمعات تتعلق بالحدائق أو محاضرات حول النباتات تجري طيلة الوقت. تنشر صحيفة ميامي على الدوام قائمة بالنشاطات المتعلقة بالنباتات التي ستقام خلال الأسبوع في المنطقة. في ذلك الأسبوع، مثلاً، كان هناك اجتماع لجمعية الأشجار المدارية المزهرة؛ ومحاضرة لجمعية جنوب فلوريدا للسرخس («كيفية تربية السرخس تحضيراً للمعارض»)؛ اجتماع لجمعية فورت لاوديرداليل للأوركيدا؛ محاضرة لمجلس الفواكه النادرة («نقل وزراعة غراس الفاكهة الاستوائية الكبيرة»)؛ معرض وسوق جمعية البروميليه في جنوب فلوريدا؛ المجتمعات لجمعية الساحل الذهبي للأوركيدا وجمعية فلوريدا للنباتات المحلية وجمعية جنوب فلوريدا للأوركيدا («صيحات الأوركيدا في كاليفورنيا») ونادي ساوث دايد غاردين ونادي أيفينينغ غاردين في فورت لاوديرداليل. تنتشر النباتات في فلوريدا في كل مكان، شأنها شأن المال. النباتات هي المال. حيثما توجهت بسيارتي، كنت أمر بدفعيات بطول محطات القطار، وأشجار نخيل مباعة ضمن أصص ومحملة في صناديق شاحنات يعلوها الصدا، ومزارع لأشجار عيد الميلاد، ومزارع أوركيدا، ومزارع للنباتات المنزلية، ومزارع العشب، وشركات نقل الأشجار (اتصل بنا على الرقم 930-TREE!)، ولافتات تحمل عبارات مضاءة: أشجار نخيل رخيصة للبيع أمامك أو بهذا الاتجاه: أشجار المانغو والموز، وشاحنات بصناديق مسطحة محمولة بأشجار نخيل مكدة بشكلٍ طولاني، وقد لفت جذوعها بشرائط بيضاء عريضة من المسلمين حتى إنها بدت أشبه بسيقان خيول السباقات. إن لم تكن من هواة النباتات فستجد نفسك وحيداً هنا.

بعد حديثي مع لاروش، جهزت نفسي وقدت السيارة نحو الصالة الواقعة في فورت لاوديرداليل وانتظرته هناك. لم ألمحه في بادئ الأمر، ولذا رحت أتجول في الشارع ودخلت متجرأً للتحف كل ما فيه مصنوع بعد عام 1968 تقريباً. من خلال واجهة المتجر الزجاجية، رأيت حركة الناس السريعة أثناء دخولهم وخروجهم من القاعة. كل من يخرج كان يحمل كيساً أو صندوقاً

يظهر منه طرف نبات. في النهاية، شاهدت سيارة لاروش الفان وهي تدخل إلى المرآب من وراء اللافتة التي كتب عليها للخروج فقط، ومن خلف المخاريط البرتقالية إلى موقع ركن السيارات المسموح به، ثم توقفت في بقعة ظليلة. خرجت من المتجر وقطعت الشارع للقاءه. لدى وصولي، كان يتکئ على باب السيارة وبدا عليه الهزال وشحوب الوجه. حبيته وسألته إن كان على ما يرام. «بالطبع أنا لست كذلك»، أجابني بنفاذ صبر. «أكاد أحضر اللعنة». رفض أن يخبرني عما يقتله، فوقتنا صامتين حتى أنهى سيجارته ثم سرنا باتجاه مدخل القاعة.

كان ثمن البطاقة ستة دولارات. نظر لاروش إلي. «أيمكنك الحصول عليها مجاناً؟» سألني.

«مجاناً؟ كيف يمكنني الحصول عليها بالمجان؟» أجبته. عبس لاروش وسار أمامي ثم قال للرجل الجالس أمام طاولة بيع التذاكر، «مرحباً، ماذا لو أعطيتنا تذكرةتين؟» ضحك قاطع التذاكر ومد يده فارداً أصابعه. «لغرض بحثي»، ألحَّ لاروش قائلاً. لم يحرك الرجل يده. فتح الباب المؤدي إلى القاعة وخرج منه زوجان، مغادران المعرض. كان الرجل يسند إلى خصره صندوقاً مليئاً بالنباتات. سمعته يقول أثناء مرورهما بقربنا، «بحق أنا لست من أنصار الكاثوليك، يا دي دي!» أما هي فكانت تهز رأسها قائلة، «لا بأس، وأنا بحق لست من أنصار الباف^(١)، يا فيل!». هبت نسمة من الهواء الحار وحملت معها أحد منشورات برامج المعرض الموضوعة على الطاولة وأخذت ترفرف قبل أن تحط على الأرض مصدرة صوتاً كالتنبيه. اصطف وراءنا رتلٌ من المتعلمين. وضعوا اثنى عشر دولاراً في يد قاطع التذاكر. ألقى لاروش بقسيمتين التذكرةتين في صندوق سحب الجوائز ودخل مسرعاً. من أجل المعرض، رُكِبت أكشاك بيع الأوركيدا على كامل أطراف القاعة وفي صفوف وسطها. في مركز القاعة، هناك جزيرتان رَتَّبَ فيما التجار معروضاتهم. أخبرني لاروش بأن فكرة المعرض مرتبطة بالسيرك، ثم أشار إلى جناح عرض بالقرب مما يحتوي على أوركيدا ثبتت فوق عجلة

- تقصد فصيلة البافيو بيدليوم من الأوركيدا - م

ملاهي مصغرة، وأحيطت بمجموعة من دمى المهرجين وطلبية حيوانات السيرك. بدأنا ندور باتجاه عقارب الساعة. أول كشك مررنا به حمل لافتة كتب عليها -دمى راقصة- طفلة استعراض زهرية! عطر!⁽¹⁾ وفيه طاولة طويلة متخصمة بالأحواض البلاستيكية. كانت معظم النباتات صغيرة جداً، لا تتعدي نثرات من الخضراء. كانت إحداها، باتجاه المؤخرة، بأوراق طويلة معقوفة وعليها زهرة على شكل مجرفة كنس الغبار صغيرة. أوراقها خضراء داكنة وأما الزهرة نفسها فبلون أصفر لامع، اصفرار سيارة أجرة مطلية حديثاً، ومطرطة بشدة بمئات البقع عنابية اللون. كانت البقع بيضاء الشكل تقريباً، وتتقاطر في صفوف منحنية فتبعد كما لو أنها رسمت على الزهرة في مرحلة تشكيلها. إن إطالة النظر إلى هذا النمط من البقع اللونية يسبب الدوار. يسبب التحديق الطويل بها حالة كالتنويم المغناطيسي. بعد قليل أشعر بالخدر في العضلات الخلفية لعيني. انحنى لاروش عليها ثم زرم عينيه ناظراً إليها، قلب الزهرة من جانب إلى آخر. «هذه الأزهار خارقة الجمال»، قال في النهاية. «أشبه بanford في مصنع للطلاء. أتعرفين كيف يحدث هذا؟ صبغياتها مخبأة بالكامل، بهذه الطريقة يمكنك إنتاج هذه التشكيلات المقززة. اليابانيون يحبون هذا، لعلها تعتبر نجاحاً باهراً في اليابان». أخذ شهيقاً طويلاً. «لو نجحت بتهجين أوركيدا سوداء بأشكاال أرجوانية كالبروق على طول بتلاتها، لما كنت مضطراً قط للعمل مجدداً».

توقفت امرأة ترتدي سروالاً ورديةً قصيرةً ضيقاً أمام الطاولة. فغرت فاها ذهولاً لدى مرآها للزهرة التي كان لاروش يمسك بها. «كيف يفعلون هذا؟». سألته. تقدم منها التاجر المسؤول عن الكشك. قالت له المرأة. «أود أن أسألك أمراً. شتول الأوركيدا التي أرببها تعاني من الضعف. أين تراني أخطئ معها؟ إنها مثيرة للشفقة. لقد سقيتها بمحلول البلوم بوستر⁽²⁾ وظللت علية مع ذلك». أجابها التاجر، «لا تفطري في تغذيتها. حالتها أشبه باضطراب الأكل، أشبه بالنهم».

-1- أنواع من النباتات - م

-2- محفر إزهار - م

«لكنني أعتقد أن البلوم بوستر...»

قاطعها التاجر حانقاً. «حسناً، يعتقد الناس أن البلوم بوستر عبارة عن معجزة وهو، يا حبيبي، ليس كذلك».

زمت شفتيها بشدة. «فهمت عليك، فهمت عليك. أشكرك. الآن. دعني أرى. هناك نوع من الأوركيدا في مكان ما هنا يفوح منه عبير شبيه برأحة الشوكولا وأود البحث عنه».

ربت لاروش على كتفها. التفتت إليه فقال لها، «هذا ليس من شأنى، ولكن هناك أيضاً زهرة أخرى تفوح منها رائحة كول آيد⁽¹⁾ ويتعين عليك عدم تفويت أي منهما».

كانت أسماؤها أسطورية ومذهلة: غولدين غرائيل⁽²⁾ وما ماما كاس⁽³⁾ وماركي بووه⁽⁴⁾ وكعكة بودا الذهبية بطعم توت العليق وشفاه دي دي المكتنزة. حين وصلت الأوركيدا إلى إنكلترا لأول مرة، كان يعتقد أنها فرع من عائلة نباتية متناهية الصغر وغريبة. ومنذ ذلك الحين بلغ عدد الأصناف التي اكتشفت حديثاً عشرات الآلاف، وأعيد النظر في طبيعة الأوركيدا. في الحقيقة، بات من المحال تقريراً مواصلة تعقب جميع أنواع الأوركيدا الجديدة المكتشفة، ولذا فقد أنشئ سجل رسمي في عام 1895، تتولاه حالياً الجمعية الملكية للبستنة، ويستفيد منه باستمرار جميع المتعاطفين مع الأوركيدا في شتى أنحاء العالم. عادةً ما تتم تسمية الأصناف الجديدة على اسم مكتشفها أو اسم كفيل مكتشفها الحقيقي أو، في حالة التهجين، على اسم أول من أتجهها. حالياً، يضم سجل أوركيدا الدولي قائمة بأسماء أكثر من مائة ألف صنف من الأصناف الأصلية والمهجنة، مع الشروحات:

«كارتيريا: خصصت في عام 1910 للسيد جي جي كارتير من بليسانس غروف في كاليفورنيا، وهو أول من وقعت عينه عليها».

-1- عصير بودرة بنكهة العنبر - م

-2- الكأس الذهبية المقدسة - م

-3- مغنية أمريكية - م

-4- صنف كلاب - م

«هوفميستير»: خصص هذا النوع لأكثر رجال ممیز والأشد وداً، ألا وهو دبليو هوفميستر، لاعتقادي أن هذا النبات، بسبب كل من حبوب طلعة الظاهرة وخلاياه الصغيرة الحاملة للفائض جميلة وشبكة أسديته الرائعة التي تبرز كثيراً من المزايا المجهرية، مكرس بشكل صحيح ومناسب تماماً لهوفميستر، عالم المجهريات».

«روبيكوتيا»: تكريماً للكيميائي الفرنسي السيد م. بير روبيكوت، على اكتشافاته الهامة الكثيرة، بما فيها الكافيين والمورفين».

«أورلينيسيما»: تكريماً للأمير غاستون دوق أورلينز، الهاوي والراعي الممیز لزراعة الأزهار في البرازيل».

بعض أصناف الأوركیدا تسمى تبعاً لمظاهرها. أوركیدا الشبح كثيرة الجذور؛ تسمى فصيلتها رسمياً *البوليرهايزا*، وتعني بالإغريقية ذات الجذور الكثيرة. الفصيلة ذات القمة المتدرية وبثلاثها مرتبخة تسمى *كوربياس*، وهو الاسم الإغريقي لمرافقات الإلهة سيبيل، اللواتي كان يرافقنها في الرقص المنفلت والعربدة. بعض أنواع الأوركیدا حظيت باسمها بقصد الانتقام. في أواخر ستينيات القرن العشرين، اكتشف صنفان من *الأونسيديوم* في البرازيل على يد أمريكي سوف أسميه جون سميث. أحدهما كان كبير الحجم وجميلاً، أما الثاني فكان صنفاً تافهاً. أقنع سميث أحد البرازilians بجمع الشتول لمصلحته، وبغية جعله يتحمل مشقة رحلة نقلها إلى المرفأ تعهد له بتسمية أحد أنواع الأوركیدا تكريماً له. لقد فعل، لكن ذلك الصنف الذي سماه تكريماً للعتال البرازيلي كان أوركیدا *الأونسيديوم* العديمة القيمة، وليست تلك الزاهية. بعد بضع سنوات، استعمل المربون البرازيليون *أونسيديوم* سميث الجميلة والكبيرة من أجل الحصول على الأنواع الهجينة؛ سمي أول اثنان منها باسم: *الأبيض الغريب* *النهم* وجون السمى جداً.

يطلق المزارعون التجار في الغالب الأسماء على الأصناف الهجينة الجديدة تيمناً بأصدقائهم أو زبائن دسمين أو مشاهير محبيين لهم. سجل مشتل تشادويك آند صون في فيرجينيا مؤخراً نوعاً هجيناً باسم هيلاري رودهام كليتون «السيدة الأولى». تكريماً لإليزابيث تايلور، رئيسة حفل

الذكرى السنوية الخامسة والسبعين لتأسيس الجمعية الأمريكية للأوركيدا، أطلق على صنف من اللاليليا أنسبيس^(١) اسم «عيون إليزابيث». أوركيدا «جاكي كينيدي» ناصعة البياض مقلمة بالأرجواني؛ زهرة «ريتشارد نيكسون» بلون العجين مزركشة بقع بنية اللون. هناك أوركيدا على اسم «نانسي ريجان» وهجين أروكيدا سمي على اسم ابنة الكاتب خوان ديديون، هناك هجين أوركيدا سمي على اسم ياقوتة راجاه، أوركيدا «طفلة بيبي» أسمها بيبي هيرمان من فريق بروكلين للبيسبول وهو من قام باستنباتها. قام أحد مربى الأوركيدا في إلينوي بتسمية هجين فاللينيوسيس جديداً على اسم شينيشي سوزوكى، عازف الكمان اليابانى الذى ابتكر منهاجًا لتعليم الموسيقى للأطفال الصغار. التقيت في فلوريدا بالعديد من سميات أنواع الأوركيدا على اسمهم وذلك من قبل بوب فوتشز ومارتن موتز، وهما من أصحاب المشاتل في فلوريدا. حضرت ذات مرة معرضاً بصحة أحد حكام الأوركيدا ويدعى هوارد برونستين، إذ أشار إلى إحدى الشتول وصاح متعجبًا، «يا إلهي، يا لها من «هوارد برونستين» رائعة!». أخبرنى هوارد برونستين أنها من أجمل زهارات «هوارد برونستين» التي رآها يوماً. كان قد رأى الكثير منها، إذ كانت تلك النبتة هجينًا شائعاً وقد أنتجت وسميت تيمناً به من قبل صديقه بوب فوتشز.

* * *

خلال تجولنا في المعرض، روی لي لاروش. «لطالما كانت هذه الأزهار أثيرة على قلبي. إنها من نوع أونسيديوم بابيليو... أوركيدا الفراشة. لطالما أحببها بكل جوارحي، سحقاً... تلك الأوركيدا المحاربة، إنها مخلوق صغير بائس... انظري إلى هذه الشتلة المسودة العاجمة، من صنف البابيوا بيديليوم. هل تخيلين لو أنك عشت في إنكلترا الفيكتورية، حيث مفهومك عن الزهرة لا يتعدى الأقحوان، لكنك على النقيض تشاهدرين هذا الشيء الأسود المطاطي ذا القلنسوة في منزلك؟ عندها ستحكمين قائلة... يا للهول، يبدو أن أحدهم أحضر لي بعض السرخس. أوليس برائع؟ يا له

١- عشر عليها في المكسيك وغواتيمالا، لونها زهري أو بنفسجي - م

من تصرف مدهش. لقد جمعت السرخس لفترة من الزمن. زراعته صعبة، إنه يهوى الموت. وهذا أقصى ما يحب السرخس أن يفعله. (ماذا علينا أن نفعل اليوم؟ هيا، دعونا نموت!) يوجد الكثير من أنواع السرخس العجيبة في أرض السيمينول. أود إحضار بعضها وزراعتها في المستشفى. أظنتنا يمكن أن نجني مالاً... هل يعجبك هذا؟ كانت زوجتي السابقة تزرع منها، ولذا فكلما رأيت تلك النباتات أصاب بنوع من الغثيان. لماذا انفصلنا، اللعنة إن كنت أعلم. لماذا ينفصل البشر؟ في الحقيقة، انفصلنا لأنها كانت قادرة على الجلوس طيلة الوقت وهي تستمع إلى جهة كاملة من أحد ألبومات فريق Grateful Dead بينما أنا لم أكن قادرًا على هذا... موسيقى سريعة! ما هذه؟ لقد أريتك إياها قبل قليل. الأوركيدا المحاربة. بسيطة، انظري إلى شكل بتلاتها الشبيه بالصدفة الصغيرة... إليك هذا الشكل الغريب. انظري إلى هذا الأنبوب الطويل، تستعمل الفراشة خرطومها الطويل لتلقيح هذا الفتى. شديدة الشبه بأوركيدا الشبح، تتلقح عبر هذه الفراشة ذات الأجنحة الضخمة وأجنحة الصقر. فراشات ضخمة. ذات مرة، خلال تجولي في الفاكاهاتشي، طارت إحداها من حيث لا أدري واصطدمت بوجهي فبدأت أصرخ كطفلة صغيرة». توقفنا أمام زهرة أوركيدا لها بتلة علوية مستديرة وجراب متflex وببتلتان رقيقتان طويتان على كلا جانبيهما تتدليان بشكل حزووني ثم تتصبان باتجاه الخارج. كان كل جزء من الزهرة بلون مختلف- الكوكا، الصدا والذهب. بدت لي كوجه وخیال رأس كلب بوديل يظهر من شباك سيارة مفتوح، والهواء يجعل أذنيه ترفرفان بعيداً عن رأسه إلى الخلف. مرر لاروش أصبحه على إحدى الأذنين الملتوتين وقال، «تخيلي لو أنك هذه النبتة. ما الذي يدعوك لجعل هاتين البتلتين تأخذان هذه الهيئة؟ لا بد أن لهما غاية ما، كل شيء له غاية معينة. أنا أؤمن بالنبات عبر التخييل، أحاول أن أتبني وجهة نظر النباتات وأسعى لاكتشافها. الوحيدة التي أشكالها لا غاية حقيقة لها هي تلك الناتجة عن التهجين، لأن أحدهم جمعها بعضها مع بعض فكانت الحصيلة مخلوقاً غير طبيعي. هذا هو الجانب الرائع في التهجين، أنت الله. تمارسين الجنس النباتي. هواية أو جدتها الإنسان».

«هل من أنواع هجينة في البيئة الطبيعية؟».

«نادرًا جدًا»، أجابني.

«وما السبب؟».

نثم بأنفه. «حسناً، لا يمكن أن تقرري، حتى وأنت تعيشين إحدى نوبات سأمك، أن تمارسي الجنس مع غوريلا صحيحة؟».

كنا في صالة النباتات المستنسخة، أخبرني لاروش أنها قاعة تعجب بالنسخ الجينية المنتجة بشكل اصطناعي. كانت بعض شتول الأوركيداً أمامنا قد زرعت كبذرة أو أخذت على شكل عقل من النباتات، بيد أن أغلبها كان محضراً في مختبر. أصبح استنساخ النباتات حالياً أمراً شائعاً، لكنه منهج لم يتعت حتى أواخر خمسينيات القرن العشرين، حين طوره عالم نبات فرنسي يدعى جورج موريل خلال محاولته اكتشاف طريقة لزراعة بطاطاً خالية من الفيروس. اكتشف موريل أنه إذا ما أخذنا بضع خلايا من الجزء الأكثر نشاطاً في شتلة البطاطا ووضعنها ضمن وسط مساعد على النمو ثم حرّضناها هرمونياً وكيمائياً، فسوف تتضاعف هذه الخلايا. يصعب تمييز الخلايا النباتية إلا إذا قامت بتوجيه نفسها نحو التربة أو الشمس من خلال تحديد الجاذبية الأرضية والدفع؛ بعد تحديد الاتجاه، تتطور بعض الخلايا ويتحول قسم منها إلى جذور وآخر إلى أوراق وآخر إلى سوق. أدرك موريل أنه إذا ما واصل تهيج وتدوير أطباق الزرع، فستنقسم الخلايا مع محافظتها على التمايز - ستواصل انقسامها إلى المزيد من الخلايا الأساسية عوضاً عن تطورها إلى نبات. جعلها تنقسم إلى آلاف من الخلايا الأساسية، ثم توقف عن تحريك الأطباق، وقام بفصل الخلايا إلى مجموعات أصغر، وضع تلك المجموعات الصغيرة في وسط نمو آخر ضمن أطباق زرع ثابتة. بعد مدة قصيرة، كبرت تلك المجموعات وتحولت إلى آلاف الشتول، كل منها نسخة جينية مماثلة تماماً - مستنسخة - للنبات الأم. كان لدى موريل عدد من طلاب الدراسات العليا أعادوه في إجراء تجارب الاستنساخ على البطاطا. أحدهم كان شاباً يدعى ولتر بيرتش، وكان بالصدفة زارع أوركيداً، وبالصدفة أيضاً كان يواعد فتاة تعمل في شركة أوركيدا فرنسية معروفة.

حاول بيرتشن تطبيق تقنية موريل للاستنساخ على الأوركيدا فاكتشف أن العديد من أصنافها تستجيب لاستجابة ممتازة. هكذا أصبحت الأوركيدا أول نبات زينة يستنسخ على نطاقٍ واسع.

قبل الاستنساخ، كانت عملية إكثار الأوركيدا تستوجب كثيراً من الصبر. يستلزم إنبات الأوركيدا من البذرة زماناً طويلاً جداً، فمن النادر جداً أن تعطي الشتلة كبسولات بذور، ولن تكبر البذور وتحول إلى نبات ناضج قبل مرور سبع سنوات. يمكن أيضاً تقسيم الأوركيدا - أي تقسيم الشتلة إلى شتلتين أو ثلاث، كحد أقصى - غير أن معدل الزيادة كان متواضعاً. لقد أعاد علم الاستنساخ صياغة عملية جمع الأوركيدا. بات بالإمكان إعادة إنتاج أغلب الأصناف بسرعة وبكميات كبيرة مع اتساق جيني مثالي، وهذا بالمقابل ما يخفي من أسعارها وجعلها معقولة. لم تكن الأوركيدا تعيش سوى في البراري أو دفيئات المليونيرات. بفضل الاستنساخ، أصبحت زهرة شائعة شيوع الأقحوان. ما زالت الأوركيدا الأجمل تكلف ثروة. يبلغ ثمن الواحدة من الفراغم بيلاي يوم بيساي العالية الجودة خمسة آلاف دولار أو أكثر، أما أصناف كأوركيدا شبشب الليدي، العصبية على الاستنساخ، فما زالت نادرة وتتكلف مقدار فدية⁽¹⁾. مع ذلك، كثير من الأصناف يمكن إنتاجها في المختبرات - تنتج بكميات هائلة مع تماثل تام. قد يكون مربى الأوركيدا أشبه بتلميذ الساحر⁽²⁾، في إكثاره لشتلة وتحويلها إلى مئات لا بل إلى آلاف الشتول، وربما أكثر. لا يوجد، نظرياً، سقف لعدد النسخ التي يمكنك إنتاجها. شتلية جميلة واحدة يمكن استنساخها وتحويلها إلى مليون.

تم السحب على جائزة تذكرة الباب معلنًا خسارتنا. «بالفعل هناك أوركيدا برائحة بودرة عصير العنبر ماركة كول أيد»، قال لاروش، «وكم أود العثور على بنت العاهرة تلك». بحث في الأكشاك واحداً بعد الآخر: أوركيدا ستريوارت. أوركيدا مان، أوركيدا الإطلالة الجبلية. أوركيدا من

- إشارة إلى مقدار كبير من المال قد يبلغ الملايين - م
- 2 sorcerer's apprentice: قصيدة لغوطه وفيلم سينمائي - م

الإسكندرية. أوركيدا البلاد الذهبية. «أول إصدار لنا من أوركيدا برايسيا البرتقالية الرائعة هذه!» أحد مزارعي هاوي، كتب على لافتة كشكه عبارة خصم 30% على كافة النباتات، لا أريد إعادتها إلى المنزل! مزارع فينزويلي لديه أوركيدا الكاتلية ذات المائة دولار، كان يصبح قائلاً، «إنها أزهار شاعرية، تنمو أفقياً بسبب رغبتها بالعودة إلى فينزويلا». دوامة من البشر تتحلق حول الأكشاك، يداعبون سوق النباتات وأوراقها وبتلاتها، يلقون بأموالهم وبطاقات الاعتماد على الطاولات، مشيرين إلى الشتول قائلين «أريد هذه، وهذه، وتلك!» و«لا تدعني حتى أنظر إلى تلك»، و«كان علي ارتداء زي المجانين المقيد أمام هذه المعروضات»؛ من مختلف الأعمار، مسنون وشباب وفي متصف العمر؛ زوجان يتهمسان وعيونهما معلقة على إحدى الشتول، وأمهات يدفعن عربات أطفال وكن ينحنين فوقها للنظر إلى النباتات فوق الطاولات؛ بعضهن يرتدي ستراً واقية من الرياح بيضاء اللون مع أحذية فخمة، وبعضهن الآخر ستراً صوفية خفيفة تحمل رسوم الأوركيدا، أو ربطة عنق حريرية طبع عليها عدد كبير من زهور أوركيدا الكاتلية، أو أقراطاً ومشابك فضية مزخرفة بالأوركيدا، سراويل قصيرة وقمصان تي شيرت طبع على طول جوانبها الأمامية صور للأوركيدا. يعاينون الشتول عن قرب، بإغلاق إحدى أعينهم، على طريقة الصائغ في معاينة الأحجار الكريمة، ثم يتراجعون قليلاً ويهزون رؤوسهم ويلقون نظرة أخرى، على طريقة منسق المعارض في معاينة اللوحة، يدفعون المال ويخرجون وقد علت وجوههم تلك الابتسامة المجنونة التي تظهر على وجوه الفائزين بالجوائز.

توقف لاروش عند كشك صغير في إحدى الزوايا. «ها هي تلك اللامتناهية في غرابتها»، قال لي. أشار إلى صفات من الأوعية الفخارية الصغيرة التي قد لا يتتجاوز حجمها حجم الإبهام، وفي كل من هذه الأوعية الصغيرة كتلة من الجذور المتقدمة ذات اللون الأخضر الضارب إلى الرمادي. ما من أوراق ولا أزهار، حملق لاروش بي وقال، «أليست جميلة؟» حسبته يمزح. ارتجفت تلك الجذور الصغيرة عندما حمل الوعاء ورفعه باتجاهي. «إنها أوركيدا الشبح الآسيوية. يبدو مظهرها بائساً، لكنها مرغوبة بسبب ندرتها.

يصيبك الهاوس بهذه الأوركيدا اللعينة لدرجة أنها ستبدو لك جميلة على اختلافها»، قال. «هذا جزء من الحالة المرضية».

توقفت شابة شقراء، تحمل رضيعاً على ظهرها، عند الكشك ووقفت بجانب لاروش، وراحت تمسح بنظرها طاولة النباتات.

«انظري»، قال لها، وهو يرفع أحد الأوعية، «أليست بدidue؟». «بلى، إنها خلابة»، أجبته.

بصوت مرتفع، أشار لاروش إلى شتول أوركيدا الشبح وقال، «يا للهول، تبدو بحالة مزرية. لا بد أنها في طريقها إلى اليأس!» كان التاجر يقوم بتوضيب طلب شخص آخر على الجانب الآخر من طاولة المبيعات. برم رأسه بسرعة وحدق بلالوش.

رفع لاروش حاجبيه وقال، «المعدنة يا صديقي».

قلبت الشابة الشتلة بين يديها مرة بعد أخرى ثم مررت أصبعها بين الجذور وفصلتها بعضها عن بعض قليلاً ليتسنى لها التأكد من وجود المزيد منها داخل الوعاء.

كان لاروش يتبعها، ثم سألهما، «هل تعجبك؟»

«أجل، أحباها»، أجبته. ترددت قائلة. «أقصد... إنها... إنها صغيرة... غير عادية. لكنني أحببها».

«أعجبتك رغم أنها قزمة صغيرة وقبيحة»، قال لاروش بصوته حاني. «بلا أزهار، ولا مجموع خضري، قد لا يتبدل شكلها أبداً عما هو الآن عندما ستبرعم أزهارها». أوّمأت برأسها. «أعلم سبب محبتك لها»، قال. «هذا جزء من الحالة المرضية ليس إلا».

يستثير المرء حين يكون مع لاروش في مكان كهذا. انتبه الناس إليه. مظهره يلفت الانتباه، لعله الأقل سمرة بفعل أشعة الشمس من بين جميع سكان ولاية فلوريدا، وجعله نحو جسده يبدو كأنه حبيس الداخل أكثر من الخارج. ارتدى في معرض فورت لاوديردال ثياباً فاتحة اللون بالكامل وأقرب إلى الأبيض، مهلهلة على جسده كملابس على حبل غسيل. عيناه

اللتان بلا لون تقريباً وخلو فمه من الأسنان جعلاه يبدو شبيهاً بالطيف. يبدو أن الناس ينجذبون إليه بمطلق الأحوال. كان يدردش بأسلوبه في أرجاء بهو العرض. تعرف عليه البعض من الصورة التي انتشرت مع القصة التي كتبتها عنه في النيو يوركر، ولذا فقد كانوا يذنون منه ويتبادلون معه حديثاً ودياً عن هذا، مما جعله يستمتع - يجيئهم، «أجل، هذا أنا، أنا من سرق جميع تلك الأوركيدا»، ويتحدث باعتزاز عن الحالة. كان يدللي بتعليقات طوعية على التجار أو المترججين، أو يشرح شيئاً ما بصوته مرتفع ونبرة ثقة وانشاء، الأمر الذي كان يجذب الأنظار إليه على الدوام وعادة ما يكون مستهلاً لحديث. لم يكن يكف عن الكلام، يعلم شيئاً عن كل شيء أو لعله من براعة حنكته يتظاهر بهذا، يبرطه بأسماء لاتينية وحقائق نباتية، وأظهر اهتماماً احترافياً في تعليمي أثناء تجولنا. إنه بالنسبة لي مصدر حيرة لا قرار لها. لكم أدهشتني شدة إعجاب الناس به. يعجبهم بالرغم من حقيقة أنه كاره أكيد للبشر، وعدم امتلاكه لأقل سمة من سمات الشعيبة المعروفة - كالملظهر الحسن التقليدي، وسلامة الأسلوب والمزاج المقبول - وبالرغم من حسه الفكاهي العدائى والعنيد إلى حد ما وإصابته بلوثة التأخر وعدم توقيه عن إطلاق الوعود المفرطة. أظنهما يعجبون به بسبب جديته حيال مصالحهم التي لا تقل عن جديته حيال مصالحه الخاصة، ولأن ثقته بنفسه كانت معدية - قادر على إقناع الناس بقدرتهم على القيام بما هو صحيح بشكل فطري. لا بل كان بمستطاعه إقناعك بأن خيارك الخاطئ هو خياراً صحيح إن لم يكن من خيار سواه أمامك. قبل بضعة أسابيع من معرض فورت لاوديردайл، كنت في شقة أهلي في ويست بالم بيتش وأردت الحديث مع لاروش، فاتفقنا على مكان لقاء في منتصف المسافة بين ويست بالم بيتش ومنزله في شمال ميامي. أخبرته أنني مضطراً للقاء باكراً بسبب وجود والدتي في فلوريدا وانشغلالي باستئجار سيارة لها وعدم رغبتي في حجزها طيلة النهار. أكد لاروش قائلاً إنه يستيقظ مع بزوغ الفجر على الدوام ويإمكانيه ملاقاتي عند السابعة والنصف صباحاً. وعدني أيضاً أنه سيجد موقعاً سهلاً لموعدنا وسيتصل بي صباحاً ليعطيوني الإحداثيات، كما عرض علي الاتصال بي لإيقاظي. استيقظت من تلقاء نفسي عند السادسة والنصف وقمت بهرولة قصيرة في ميدان الغolf.

أخذت دشأً بعد عودتي وارتديت ثيابي. بلغت الساعة العاشرة دون أن يتصل بي، فاتصلت أنا في النهاية على هاتف منزله. ردّ علي أبوه وأخبرني بأن جون يغط في النوم وقد يجن جنونه إن هو أيقظه. حين عاود لاروش الاتصال بي كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة تقريباً. قبل أن يتسعلى لي الصراخ عليه، عاجلني بالقول إنه اتخاذ قراراً بأن وجودنا معاً ليس بالفكرة الصائبة، بما أن أمي كانت في زيارتي. «أقصد، موقف والدتك وما شابه»، قال. «أقصد، هذا مهم. فأنت لا تلتقين بأمك كل يوم، أتعلمين؟ انظري، انظري، إليك ما ستفعله. أظن أنه ينبغي عليك الذهاب ومرافقة أمك في نزهة، وأن تخرجي معها لتناول غداء لطيف أو وجبة فطور متاخرة، أن تستمتعا بيومكمما، اتصلي بي غداً وسوف أعلمك بخطتنا، سنبقى على اتصال، كل شيء سيكون على ما يرام». بدا واثقاً كل الثقة من أنه المسار الصحيح لدرجة أنه أقنعني بأنه المسار الصحيح وربما هو السمار الذي أريده منذ البداية.

أثناء جولتنا في معرض فورت لاوديردайл ردد على مسامعي أكثر الأشياء شناعة -على سبيل المثال، سأله عن عمل صديقه الحالية فأجابني، «إنها عاهرة» - ثم أردف بعد دقيقة متوجحاً بأنها تملك ذكاءً خارقاً وكانت تدرس الطب قبل عملها حالياً في قسم المبيعات في سلسلة مطاعم ميامي سوبس. كعادته كان يتكلم بلهجة تهكمية عن كل شيء، لكن حديثه في تلك اللحظة أخذ بعداً شاعرياً وحزيناً، أثناء سرده لتفاصيل رحلة قام بها في شعاب فاكاهاتشي برفقة والدته الراحلة، عندما بلغا منطقة مكشوفة، انفتح المستنقع أمامهما فجأة عن: بركة مليئة بزنابق الماء الصفراء البراقة، قندس، ونقار خشب ذو عرف، وأبو منجل القرمزى محدقاً في البركة. كنت قد أصبحت معتادة على تناقضاته، ومع هذا لم يكف عن إثارة حيرتي. كان يتحدىني دائماً كي يجعلني أفقد الثقة به، ليدهشنى بعدها بأنه شخص يعتمد عليه، يتحدىني دائماً كي أظن أنه شخص معتوه، ليظهر لي بعدها سلوكاً يكذب أية حالة من حالات العته. عندما قابلته لأول مرة، أخبرني أنه كان قد عثر على اللؤلؤة الأحفورية الوحيدة الموجودة كحجر كريم، مفخرة من شدة تميزها سأعجز عن مقاومة معايتها، وما من أحد سأله عنها يوماً أكد أن شيئاً كهذا يمكن أن يكون حقيقياً. كنت بحق أود مواجهته بهذا، لكنه قال لي

حين أحضرها في مناسبة أخرى، وكنت على وشك تحديه، «أتعرفين مداعاة حبي الشديد لهذه اللؤلؤة؟ طالما هي بحوزتي، سأظل أشعر بذات الشعور يوم لقيتها. كان الموضع الذي وجدتها فيه برياً آنذاك، أما الآن فقد زالت بريته، تم تطويره بالكامل واحتفت الغابات بكل بساطة. كانت زوجتي معي حين وجدتها، أصبحت زوجتي السابقة الآن، وكانت برفقة أمي، وأمي ميتة الآن. لكن وجود هذه اللؤلؤة معي يجعلني أعيش تلك اللحظة مجدداً، يوم كانت أمي على قيد الحياة، وما زلت أعيش زواجاً سعيداً والموضع الذي عثرت عليها فيه ما يزال خلاباً». لم أطرق إلى مسألة اللؤلؤة ثانية قط. لست بلهاه، إن مجرد التساؤل ما إذا كانت حقاً هي أحفوره اللؤلؤة الوحيدة الموجودة يجعلك تشعر بالتفاهة مقارنةً بمعناها بالنسبة له حسب وصفه - كأنك تقول لمن يعيش قصة حب جامحة بأن معشوقه قبيح وقصير.

كان عليّ أن آخذ استراحة من الأزهار، إذ أرهق نظري. صرت أركز بصري في مركز الزهرة، إذ لم أكف طيلة الوقت عن رؤية الوجه في التجاعيد والتماويجات فيها - ألسنة صغيرة، وعيون مغمضة، وشفاه متفرخة، وأنوف ملاكمين مبعوجة، وكركند، ودودة مبتسمة. عندما أرى وجهها، تراني أحدق فيه وأعصر ذاكرتي كي أعرف بمن أو بماذا يذكرني حتى يصيبني الحول. كان ثمة أمر آخر أيضاً، سحيق ولا محدود فيما يتعلق بالألوان والأشكال التي سحرتني مشاهدتها، ولذا فقد كنت أحملق وأطيل النظر إلى أن ينفذ صبر لاروش فيسحبني ويبعدني. بعد ساعة أو نحوها، اقتربت أن آخذ استراحة، وهكذا رحنا نتمشى حتى بار الوجبات السريعة في صالة العرض وجلسنا على طاولة مغطاة بمشمع مهمل. شربت قهوة داكنة مرّة وتناول لاروش هوت دوغ، وكلانا كان يستنشق بخار مطعم الوجبات العابق برائحة الدهون. «هل تريدين أن تعرفي كم يكسب التاجر في معرض كهذا؟» سألني لاروش عندما كان ينهي وجبته. «يمكنك أن تكسبي كمية كبيرة من المال. النباتات تدر أموالاً طائلة. النباتات سلعة، لا فرق بينها وبين شرائح لحم الخنزير. إليك مثلاً، هناك أشجار نخيل تساوي قيمتها ثمانية ملايين دولار في فاكاهاتشي ومنتزه الولاية كوليير سيمينول تساوي قيمتها ثمانية ملايين

دولار. يبعث إحدى غراس التخييل الملكي بمبلغ أربعة آلاف دولار. عشاق المناظر الطبيعية يحبونها. ذات مرة حسبتها، إذا ما سرقـت نخلة واحدة أسبوعياً، فسوف تجنين خمسين ألف دولار سنوياً». سألهـ إن خطر لهـ أن يفعلـها ويـسرقـ نـخيلـاً. «بالطبع لا»، قالـ بنـبرـة مشـاكـسـةـ. «لـكانـ هـذا مـشـروعـ عملـ صـغـيرـ وـعـظـيمـ، لـكتـنـيـ بـالـمـحـصـلـةـ مـنـ جـانـبـ الـنبـاتـاتـ. صـحـيحـ أـنـ هـدـفـيـ منـ أـورـكـيدـاـ الشـبـحـ كـسـبـ الـمالـ، غـيرـ أـنـيـ فـعـلـيـاًـ أـتـمـنـيـ أـنـ تـحـفـظـ الـنبـاتـاتـ مـنـ الـانـقـاضـ. وـحتـىـ آـنـذـاـكـ، أـنـاءـ اـقـتـلاـعـهـاـ مـنـ الـفـاكـاهـاتـشـيـ، تـبـعـاـ لـأـخـلـاقـيـاتـ الـقـلـيلـةـ الـعـلـيـةـ، اـنـتـابـنـيـ شـعـورـ بـالـذـنـبـ». هـبـ وـاقـفـاـ وـراـحـ يـفـتـشـ فـيـ جـيـوبـهـ عـنـ سـجـائـرـ. «يـصـابـ النـاسـ بـالـجـنـونـ حـيـالـ الـنـبـاتـاتـ. اـصـطـحـبـتـ تـلـكـ الـمـرـأـةـ ذـاتـ مـرـةـ إـلـىـ الـفـاكـاهـاتـشـيـ، كـانـتـ تـرـغـبـ بـالـنـظـرـ - يـاـ لـلـرـوعـةـ، إـنـهـاـ أـورـكـيدـاـ شـبـحـ بـحـقـ وـحـقـيقـ. قـضـتـ مـضـجـعـهـاـ أـحـلـامـ عـنـ تـلـكـ الـنـبـتـةـ. كـنـتـ أـعـرـفـ أـينـ نـجـدـ شـتـلـةـ مـنـهـاـ مـزـهـرـةـ، وـلـذـاـ فـقـدـ مـضـيـنـاـ إـلـىـ الـمـسـتـنـقـ، وـخـضـنـاـ فـيـ لـمـسـافـةـ مـيـلـيـنـ عـبـرـ أـشـدـ الـمـوـادـ قـذـارـةـ، كـانـتـ عـمـلـيـاـ تـجـرـيـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ الـمـوـقـعـ، وـرـأـيـتـ شـيـئـاـ لـمـ أـرـتـ لـهـ، فـصـحـتـ بـهـاـ، «يـاـ لـلـهـوـلـ، بـاـلـلـهـوـلـ، أـبـطـئـ خـطـوـاتـكـ»، أـمـامـهـاـ مـبـاـشـرـةـ كـانـتـ أـفـعـىـ مـجـلـجـلـةـ بـطـولـ ستـةـ أـقـدـامـ. تـسـمـرـتـ مـكـانـهـاـ، شـطـرـتـ الـأـفـعـىـ بـيـلـطـتـيـ فـقـدـ كـنـتـ مـتـهـيـأـ لـهـذـاـ، الـلـعـنـةـ، كـنـتـ قـدـ اـكـتـفـيـتـ، أـمـاـ هـيـ فـقـدـ اـبـتـعـدـتـ وـعـاـوـدـتـ مـشـيـهـاـ السـرـيعـ كـأنـ شـيـئـاـ لـمـ يـكـنـ. كـلـ مـاـ فـيـ الـأـمـرـ أـنـهـاـ لـمـ تـكـنـ تـطـيـقـ صـبـرـاـ لـلـذـهـابـ وـرـؤـيـةـ تـلـكـ الـزـهـرـةـ الـلـعـيـنـةـ. ذـكـرـتـنـيـ بـصـدـيقـيـ الـذـيـ كـانـ قـدـ عـثـرـ عـلـىـ تـلـكـ الـأـورـكـيدـاـ الغـرـيـبـةـ الـعـظـيمـةـ فـيـ الإـكـوـادـورـ. كـانـ جـاهـلـاـ بـأـنـهـ مـوـجـودـ فـيـ نـطـاقـ مـوـقـعـ عـسـكـريـ. أـوـقـفـهـ رـجـالـ الشـرـطةـ الـعـسـكـرـيـةـ وـكـانـوـاـ مـسـتـائـينـ مـنـهـ بـحـقـ، طـلـبـوـاـ مـنـهـ تـسـلـيـمـهـمـ كـيسـهـ مـنـ الشـتـولـ. قـالـ لـهـمـ، «هـيـاـ تـفـضـلـوـاـ، أـطـلـقـوـاـ النـارـ عـلـيـ، لـنـ أـرـحـلـ بـدـونـ هـذـهـ الشـتـلـةـ. يـسـتـحـسـنـ بـكـمـ أـنـ تـرـدـوـنـيـ بـرـصـاصـكـمـ»، وـأـخـذـوـاـ يـنـظـرـوـنـ إـلـيـهـ كـمـاـ يـنـظـرـوـنـ إـلـيـ شـخـصـ مـخـبـولـ. وـهـوـ كـانـ كـذـلـكـ».

مـكـتبـةـ
t.me/soramnqraa

حياة طيبة

بيست بعض من شتول الأوركيدا المسروقة. والباقي تم إلصاقه على أشجار في الفاكاهاتشي.

أعاد حراس الفاكاهاتشي شتول الأوركيدا التي صادروها من لاروش إلى الغابة وراحوا يراقبونها إن كانت ستنجو. لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها عن لصق الأوركيدا على الأشجار. في أول زيارة لي إلى فلوريدا بعد توقيف لاروش، التقيت بعالم طبيعيات يدعى روجر هامر، جاب الفاكاهاتشي بعد الإعصار أندريلو وكلما كان يجد شتول أوركيدا اقتلعتها العاصفة، يلصقها على جذوع الأشجار الواقفة بواسطة بضم عصرات من لاصق ليكويدي نيلز^(١). تحملت الأوركيدا اللاصق. مقاومة الأوركيدا عموماً أقوى مما هو متوقع، تبدو بهشاشة الزجاج لكنها ليست كذلك. تشحن صغار شتول الأوركيدا حول العالم مكديسة في صناديق، تتبلد وتتسحق وتحشر وتخنق، ومع ذلك، وفي معظم الأحيان، ما إن تفتح الصناديق وتعزل الشتول بعضها عن بعض وينفض عنها الغبار حتى تعود إلى عافيتها. في أول مرة أرى فيها مزارع أوركيدا يفتح شحنة آتية له من سنغافورة، أليقنت نظرة على خلطة الشتول العشوائية وقلت لنفسي إن المزارع سيقاضيهم ولا بد، لكنه على العكس، انتشل بعضاً منها وأبدى إعجابه بها قائلاً، «ممتأز، مرجباً يا أولادي!». من ناحية أخرى، قد تتعرض الأوركيدا البرية لعقوبة قاسية، بعد الإعصار أندريلو، وجد الناس أشجاراً تقصفت ويبيست حتى آخر خلياها، وظللت الأوركيدا التي تتعلق بها مورقة مع هذا. أخبرني لاروش أنه وزوجته

السابقة كانا يدوران بالسيارة طيلة الوقت في مهمة إنقاذ الأوركيدا ضمن المنطقة. في المناطق السكنية، كانا يبنشان القمامنة بحثاً عن الأوركيدا الباقية على الأشجار التي قطعت وأزيلت. إذا ما نجح لاروش في الوصول إلى النباتات دون عراقب، كان يتزرعها ويحملها إلى غابة قرية ثم يقوم بإلهاقها بإحدى الأشجار الواقفة.

يمكنك تأليف كتاب عن نباتات فلوريدا التي لا تظهر. عرفوني ذات مرة إلى بعضها في لوكساهاتشي ريفيوج في بالم بيتش كاويني. كان هذا الملجاً ذا طبيعة مستنقعية ومسطحة، يتالف معظم غطائه النباتي من الأجمات أو عشبة ذيل القط المستنقعية أو الحشائش الطويلة الساق أو تجمعات من أشجار السرو، جميعها واطئة على الأفق، باستثناء ثلاثة أشجار رفيعة من الصنوبر الأسترالي في منتصف السبخة. لم تكن تلك الأشجار مميزة بطولها، لكنها تتألّف من انتشارات سحاب في ذلك العالم المستوى. كلما ضربت الصواعق المنطقة، تنجذب تلقائياً إلى تلك الأشجار، وبما أن الصواعق دائمـة في جنوب فلوريدا، كانت الأشجار تتعرض لضرباتها مراراً وتكراراً. أصبحت سوقها مقصورة جزئياً، حالياً جذوعها وربما تكون أجزاءها الداخلية قد تحملت، لكنها بطريقة أو بأخرى أفلحت في البقاء متتصبة والمحافظة على نفسها أشجاراً حية. هناك بطل عظيم حتى بين نباتات فلوريدا الخالدة. إنها نبات الميلاليوكا^(١)، وهي شجيرة منزلية موطنها أستراليا جيء بها إلى الولاية عام 1906 بوصفها نبات زينة يعني المشهد الطبيعي. تكبر الميلاليوكا لتصبح بارتفاع خمسين قدماً ولها لحاء إسفنجي أبيض اللون وتبدو شبيهةً نوعاً ما بالأوكاليتوس الطويل الأوراق. تحتاج إلى كمية هائلة من المياه لدرجة أنها قادرة على تجفيف مساحة فدان واحد من الأراضي الرطبة يومياً، ولذا فقد استغلت للمساعدة في تجفيف ونزح ما كان يعتبر آنذاك مستنقع فلوريدا العديم النفع. في الثلاثينيات، نشر مطورو العقارات بذور الميلاليوكا فوق إيفرغلادس بواسطة طائرة. طاب للميلاليوكا العيش في فلوريدا، تضاعف عددها منذ إدخالها آلاف المرات. تنتشر بمعدل خمسين فداناً

- 1 - من عائلة الآس شبيهة بإكليل الجبل - م

يومياً. لقد جفت ثم هيمت على نصف مليون فدان من مساحة إيفرغلادس البالغة 7.6 ملايين فدان. طبيعة أوراق الميلاليوكا عطرية زيتية وهي شديدة الاشتعال. لقد تسبب احتراق أوراق الميلاليوكا في عام 1985 بانقطاع الكهرباء عن مليوني شخص من سكان فلوريدا، إذ علت السنة اللهب التي أججتها الأوراق حتى وصلت الأسلامك الرئيسية لنقل الطاقة. ما من أحد انتابته مشاعر من التعاطف حيالها، ويعتبرها الكثيرون حالياً شرًا مستشرياً. المشكلة أن شجيرات الميلاليوكا تلك تكره أن تفني. إذا ما جمدت إحداها أو جوعت تجويعاً قاتلاً أو قطعت أو سمت أو كسرت أو حرق، تطلق ملايين البذور قبل موتها فتعيد زراعة نفسها في كل الاتجاهات، ولهذا ينتهي بها المطاف بمعنى ما حية أكثر مما هي ميتة. لا بد من التحايل عليها وقتلها تدريجياً، فصدمه احتضارها هو ما يجعلها تذر بذورها. كان الحارس الذيقادني أول مسير لي في شعب الفاكاهاشي خبيراً في مجال قتل الميلاليوكا. قال لي إن ثمة نوعاً من الخنافس الأسترالية السمينة المتناهية في الصغر والمعروفة بالخنساء ذات الخرطوم تعيش على أوراق الميلاليوكا وبراعم الزهرة، وقد تم استيراد ثلاثة منها وأطلقوا في منطقة إيفرغلادس على أمل تقليل أعداد الميلاليوكا. أخبرني أن الطريقة الوحيدة، بخلاف هذا، للتخلص من الأشجار بأسلوب لا يعرضها لصدمه هو عبر طريقة تسمى الاختراق والبخ - نحدث ثلماً صغيراً في ساق الشجرة، وبخ كمية قليلة جداً من مبيد عشبي، نعود بعد فترة قصيرة ونحدث خرقاً ثم نضع المبيد فيه، ونتابع هذه العملية من الثقب والحقن إلا أن تموت الشجرة على مهلها.

بالعموم نجحت النباتات الأجنبية نجاحاً جيداً في فلوريدا. خمسة وعشرون بالمائة من مجمل النباتات الموجودة في الولاية غريبة ليست أصلية. الأوركيدا الأكثر شيوعاً في فلوريدا، الأوركيدا العشبية الصغيرة، موطنها الأصلي هو الهند. اختلطت بذورها في أكياس بذار الأعشاب بمحضر الصدفة ثم شحنت إلى ميامي وبدرت عن غير عمد في آلاف من المروج العشبية. تنتشر شجيرات الفلفل البرازيلي في كل مكان؛ شأنها شأن الميلاليوكا، استوردت كنباتات زينة لكنها هربت بعد ذلك وسيطرت على البراري، وكالميلاليوكا عصية على الموت وتعيد نشر بذورها سواء حرقـت

أو قطعت أو اقتلت. تنمو في إيفرغلادس كأنها في موطنها لدرجة أنها استولت على مساحات هائلة، وخلص علماء النبات إلى أن السبيل الوحيد للتخلص منها عبر كشط الطبقة السطحية بكمالها من التربة التي تنمو فيها. دخلت عشبة الكوغون^(١) الآسيوية الشائعة إلى فلوريدا من خلال تعلق بذورها بعجلات معدات تعبيد الطرق وفي مواد التغليف. أما عشبة القاطور السامة فقد نجحت نجاحاً سريعاً مذ تسللها إلى فلوريدا من موطنها الأصلي في أمريكا الجنوبية. يوم عقدت العزم على التوجه إلى الفاكاهاتشي للتقسي حول الأوركيدا التي تم اصطيادها، قرأت مقالاً في صحيفة ميامي يشير إلى أنه قد أوعز للمزارعين الفيتนามيين بإتلاف محصولهم من السبانخ المائي الصيني. يعد السبانخ نباتاً شائعاً في آسيا. كان المزارعون الفيتนามيون حديثي العهد في فلوريدا وكذلك السبانخ. لم يشر المقال إلى مدى تكيف هؤلاء المزارعين، لكن السبانخ أبلى بلاءً حسناً بلا ريب، ينمو حالياً نمواً شرساً لدرجة أنه يسد الممرات المائية المحلية. بعد بضعة أسابيع، قرأت قصة عن مهاجر آخر نجح نجاحاً باهراً، نوع من علجموم أمريكا الجنوبية السام وكان قد جلب إلى فلوريدا كعدو للافات الحشرية التي تصيب قصب السكر. هنا هو الآن قد زاد طوله حتى أصبح سبع بوصات وزاد وزنه حتى بلغ ثلاثة باوندات. اتهم مؤخراً بأنه المسؤول عن الفتوك بالحيوانات المنزلية الأليفة من خلال سمه وإرهاب السياح بمظهره الكريه المليء بالبثور.

ثمة طريقان للوصول إلى سبخة الفاكاهاتشي من شقتي في ويست بالم بيتشن، والسبخة تقع قطرياً مقابل ويست بالم في الجانب الآخر من الولاية. أحدهما قيادة السيارة غرباً على طريق ممر التماسيح. أحجد سلوك الطريق الآخر، أي السير في طريق متعرج عبر بالم بيتشن كاوانتي وهيندربي كاوانتي، والدوران حول الطرف الأدنى من بحيرة أوكيتشوبوي، ثم المرور وسط إيفرغلادس وبمحاذاة مزارع قصب السكر وعبر محمية السيمينول بالقرب من إيموكالي، مروراً باللافات الحجرية الباهة التي وضعت لتشير

إلى محطات التوقف الطويل للسياح كالغاتوراما⁽¹⁾ والناتيف فيلاج⁽²⁾، على الدروب الصغيرة للولاية التي تنعطف بصورة فجائية بزوايا قائمة كل عدة أميال، لكانها رسمت بواسطة مشترط ورق. رحلة بطيئة لكنها رحبة. يوم توجهت لرؤية الأوركيدا الملصقة، كنت أعلم بوجوب وصولي إلى المستنقع باكراً قبل أن تستند حرارة الشمس وتغدو غير محتملة، ييد أنني أحبيت الدروب الصغيرة أكثر بكثير من الطرق الأسرع. كان صباحاً عاصفاً، وكل سعف أشجار النخيل متوجه نحو الأمام كشعر عارضات الأزياء في جلسات التصوير. لم أر شخصاً يسير على قدميه بين كل العمارتات التي مررت بها. ولم ألتقي أحداً إلا عندما خرجت أخيراً من بالم بيتش حيث شاهدت البشر، عدد كبير من الناس يسرون برتلٍ واحد على كتف الطريق، رافعين لافتات خالية من الكتابة وقضباناً طويلة في أعلىها ريش طيور. أنزلت زجاجة الشباك أثناء مروري بهم كي أفهم إن كانوا يهتفون أو يقولون أي شيء قد يفسر ما يفعلونه، لكنهم كانوا صامتين صمتاً مطلقاً، ولم أسمع سوى صوت ثمانين قدماً تطحن الرمل المترافق على قارعة الطريق. تجاوزت المدخل المؤدي إلى ليون كاوونتي سافاري وأصبحت بعدها بمحاذاة حقول قصب السكر التي يبلغ طولها وعرضها أميالاً، بعضها يغطيه القصب بارتفاع قامتي أو بقصب مقطوع ترك كي يتحول إلى قش جاف. رأيت بعض شاحنات تتحرك جيئه وذهاباً على دروب الحقل. رأيت من حين لآخر منازل كانت بعيدة عن الطريق لدرجة أنها، بسبب بعدها، تبدو من الصغر كأنها دمى، لكنني لم أشاهد بشرياً في شتى الاتجاهات. كانت حقول قصب السكر تمتد إلى ما لا نهاية. أميال من قصب السكر أصبحت خلفي وأميال أخرى علي أن أقطعها، توقفت عند محطة وقود ودخلت بقصد شراء كوكا دايت، إلا أنني لم أجد في كشك المحطة أي مشروب غازي محلى صناعياً.

بالقرب من أعلى سد بحيرة أوكيشوني المحدود بـ، شاهدت لافتة تشير إلى موقع رحلات تنزه من قبيل متنه جون ستريتش. أوقفت السيارة كي أسلق السد الترابي وألقي نظرة على البحيرة. شاهدت ست سيارات

-1- مزرعة لتربيه القاطور والتمساح - م

-2- في هوليود - م

أجرة صفراء في متنزه جون ستریتش. ثلاثة نساء بدينات يرتدين الساري الراخر بالألوان يصعدن بخطى متئقة على المسار الصاعد المؤدي إلى قمة السد، مقابل السيارات، داخل خيمة مفتوحة الجوانب رأيت قرابة عشرين شخصاً بالغين وحفنة من الصغار يتراکضون في المكان. كان هناك بعض من الرجال يرعون موقد الشواء ونساء يجلسن على طاولات التزهه. انتشرت في المكان رائحة شبيهة بالكمون. وصلت إلى أعلى السد ورحت أجيال البصر في البحيرة الزرقاء الكبيرة. كانت النساء الثلاث قد وصلن إلى القمة منذ بعض الوقت ثم تبعتنى اثنان آخران، رافعات الساري لإبعاده عن التراب، وكلما تلاعب الهواء بالتنانير كانت قطع الترتر المعلقة عليها تلمع كبقع من الضوء، كل منها بحجم قطعة النقود البهية البريق. كان الجميع يهزوون رؤوسهم ويحملقون بفقارعة البحيرة الزرقاء، مشينا جميعاً باتجاه الأسفل وتبعتهم إلى السرداق. أخبرني أحدهم وكان يتولى الشواء بأنهم أفراد أسرة باكستانية كبيرة من منطقة فورت لاوديردائل وقد اجتمعوا في المتنزه بقصد التجمع والتسليمة. كان العديد من الرجال من سائقي سيارات الأجرة في فورت لاوديردائل؛ السيارات في المتنزه ملك لهم. كان الرجل على المشوى يضع حلياً براقة. راح أثناء حديثه يقلب الفطائر المتناثرة فوق المشوى. «فطائر من لحم الضأن والفلفل الحار»، شرح لي، وهو يشير إليها بواسطة المعرفة التي في يده. «برغر باكستانية، هل تذوقتها يوماً؟».

«لا أظن ذلك».

«لدينا الكثير منها»، قال. «يجب أن تنضم إلينا في تناولها». أخبرته بعدم قدرتي إذ كنت متأخرة. بدا أنه قد أحبط. «أفهمك»، قال.
«كثير من سكان فلوريدا يتوجسون طعامنا».

بعد متنزه جون ستریتش، كانت الدروب تتعرج عبر بلدات تسمى جنينة الشيطان وسيتي باین وسيتروس سیتر وہارلیم وفلاغ ھول، وحول الأرضي الرطبة تسمى مستنقع تیلیغراف ومستنقع کورکسکریو وھور غارسي وھور غراهام. كانت الأرض ملساء كالرخام وتمتد دون أي انحاء

حتى خط الأفق. جلت بنظري عبر ذلك الشريط الأخضر من الأرض وطاسة السماء الزرقاء ثم وقف عند إطار سيارة تالف، عصفور طائر، سياج متلهك، برميل صدئ. بالكاد مرت سيارة باتجاهي، ولم أر أحداً في مرآة سيارتي العاكسة طيلة الوقت. مررت بالكثير من الفدادين الخالية ونظرت إلى ما وراءها، إلى المزيد والمزيد من الفدادين الخالية، ونظرت أمامي وخلفي إلى الطريق المقفر ونحو الأعلى إلى السماء الفارغة؛ جعلني هذا الاتساع الهائل للعالم أشعر بالوحدة حتى النخاع. عالمٌ من الضخامة ما يجعل البشر يضيعون فيه على الدوام. هناك الكثير جداً من الأفكار والأشياء والبشر، عدد لا حصر له من الاتجاهات لاختيارها. بدأت أعتقد أن السبب الكامن خلف أهمية الولع الكبير بشيء ما هو تكثيف هذا الشيء للعالم وجعله بحجم أكثر قابلية للتقطيع. لا يجعل العالم يبدو ضخماً وفارغاً بل يبع بالاحتمالات. لو كنت صياداً أو ركيداً لما نظرت إلى هذا المكان بوصفه مكاناً خاويأً ومثيراً للحزن - أظنني كنت سأنظر إليه كفدادين من الفرص حيث الأشياء التي أهميتها بها تتطلبني للعثور عليها.

على طول الطرقات، كان ثمة خنادق ضحلة يملؤها الطين الأسود والمياه الآسنة وتشابك من الحشائش الخضراء. بدت لي مكاناً قد يحب التماسح التجول فيه. شاهدت بجانب أحد الخنادق لوحة إعلانات لمنطقة جذب سياحي قديمة موعدة كتب عليها بأحرف سوداء كبيرة كفالة خلو المنطقة من التماسح!!! لم تكن كفالة جريئة جداً، فالتماسح في فلوريدا شائعة بشيوع صراصير الليل. في الواقع، كل إقليم في الولاية كان فيه موظف رسمي مختص بالتماسح الضخمة، يستدعي للتخلص من الزواحف الزائدة أو المزعجة. في آخر رحلة لي إلى الفاكاهاتشي توقفت عند محطة وقود، وفيما كنت أنظر الحشرات عن الزجاج الأمامي، مرت أربعة فراخ تماسح بسرعة من خندق إلى آخر، على بعد ست بوصات عن قدمي. يومها بالذات كنت أنتعل صندلاً. بعد لحظات استبدلته بحذاء معتاد.

قبل وصولي إلى الطريق المؤدية إلى عمق الفاكاهاتشي، توقفت عند مفترق طرق لأقرأ لافتة أخرى. كنت اتجه يميناً واللافتة تشير إلى اليسار:

محمية بieg سايريس لهنود السيمينول. منطقة ترفيه. سافاري مستنقع بايلي.
 ركوب قوارب المراوح الهوائية! صيد الخنازير البرية! جولات وسط الطبيعة! دروب بieg سايريس! لقد أطلق اسم بايلي على سافاري مستنقع بايلي تيمناً بالزعيم جيمس إي بايلي، الذي شكلت براءته في قضية فهد فلوريدا إلهاماً عظيماً للاروش. أنشأ السيمينول هذه السافاري بعد زيارته الشيف بايلي لمحمية خاصة بالطرائد الكبيرة الغربية في تكساس وقضى وقتاً ممتعاً فيها مما جعله يفكر بضرورة أن تنشئ القبيلة محمية أيضاً. لقد رفت محمية البieg سايريس البالغة مساحتها ألفي فدان بالأيل الأوروبي، والظبي من الهند، وغزال السيكا من الصين، الخروف الكورسيكي من منطقة البحر المتوسط، والمها ذات القرون من إفريقيا. مقابل أجر يبلغ ألف دولار، كان يتم إرشاد السياح عبر السافاري ويمكّنهم أن يأخذوا ما يصطادونه إلى ديارهم. كان الاستنكار سريعاً ومدوياً. قال الزعيم بايلي لأحد المراسلين إن أطفال السيمينول كانوا حتى يتعرضون للسخرية في المدرسة بوصفهم قتلة الباambi⁽¹⁾ علاوة على هذا، اضطرت القبيلة لتشييد سياج كبير ومكلف حول السافاري - ليس بهدف الحفاظ على الحيوانات المستوردة ضمه وإنما لضمان عزله ومنع الحيوانات المحلية من دخوله، فقد تذوقت فهو وتماسيخ فلوريدا طعم اللحم الأجنبي وقضت على العشرات من حيوانات السافاري في الأسبوع الأولى. أقر بايلي في النهاية بأن السافاري لم تكن تستحق المتاعب التي تسببها، وأعيد ملؤها لتصبح أرضاً للتصوير الفوتوغرافي. لم يلتقي لاروش وباهلي قط، لكن ثمة صدى في قصة حياة كل منهما يتردد في الآخر: كل منهما كان يزدهر في إثارة الخلافات، وكل منهما يمتلك موهبة استثنائية في سقوطه وافقاً على قدميه.

يخترق طريق ستايت 29 بلدة إيموكالي، مروراً بكونتي كوبارد ومصنع ميلون - باك، ومروراً بمنشأة تغليف سيتروس بيلي ومزارع براهما للماشية، مروراً ببارات البرتقال ومعهد هيندربي كورريكسنال؛ بعد هيندربي، يصبح تقريباً برياً موحساً إلى حدٍ ما باستثناء لافتات المرور التي تحذر من معابر

- غزال في رسوم متحركة وهو اسم فريق أغاني أيضاً - م

الفهود وبضعة أكواخ بنغالو وأبنية صغيرة تشكل سجن رود كوبلاند رقم 27. هناك قرب السجن حانوت صغير بدا مهجوراً، غير أنني رأيت رجالاً يقف أمامه، يكتس ممر السيارات المتتسخ، ولذا فقد نويت أن أنتهز الفرصة. كانت درجة الحرارة إحدى وثمانين عند مغادرتي بالم بيتشن. أما الآن فهي أعلى بخمس درجات على الأقل، وكنت أستميت لشيء أتجراه. كان باب الحانوت قاسياً وصراً مرعوباً حين دفعته لأفتحه. كان الجو في الداخل معتماً بعض الشيء. خشب أرضيته مائل وملتو. رتب الرفوف بزوايا مثيرة للضحك ولم يكن في حجرة البرادات أي شيء تقريباً عدا بعض علب صودا دقيقة وقوارير بيرة مغبرة بنية اللون. خلف حاسبة النقود، جلست امرأتان بديتان ارتسمت على وجهيهما تعابير اسمئاز. اشتريت علبة كوكا وخرجت أشربها في الخارج، كانت غريبة المذاق وللحظة استمتعت بفكرة احتمال أن تكون مسممة، ولذا فقد سفتحتها وعدت لأنخذ شيء آخر. لم أر شيئاً أود أن أشربه، بيد أنني لمحت عبوة جيليه توت العليق بلاستيكية ماركة جيل - أو كانت تنانيني. كانت المرأة تلاحقاني بأنظارهما طيلة الوقت. لم تتحرك أي منهما ساكناً حين وضع العلبة على الطاولة وأخرجت محفظتي. رفعت أضخمهما العلبة وقلبتها بيدها للحظة ثم قالت في النهاية، «لا يا آنسة. هذه العلبة ليست للبيع».

تعني الكلمة «فاكاهاتشي» بلغة السيمينول «النهر المتشعب» أو «النهر المسحور» أو «نهر العرائش» أو «نهر الطمي» أو «الخور الموحل». أما الكلمة «سبخة» فهي تعبير محلية يشار به إلى أي غابة مستنقعات طويلة وضيقة. تشكل سبخة الفاكاهاتشي إسفيناً من الأرض يضم العشرات من السبخات الأصغر وسلسلة من البحيرات البالوعية تتصل بعضها ببعض من خلال قنوات طبيعية تنغلق وتتحول إلى مهاد من حجر الجير في جنوب فلوريدا يرويه مصرف يبلغ طوله ستين ميلاً يبدأ من الشمال في أوكلوكوتشي سلوغ ونهر كالوساهاتشي. للفاكاهاتشي ميزة استثنائية، إذ يبلغ عمق بعض مصارفها البالوعية مائة قدم تقريباً. بخلافها، أرضها مستوية لدرجة أن البيئة تتغير تماماً في أي موقع يرتفع ولو بمقدار بوصة واحدة أو اثنتين. عندما

ترتفع، تحول الأرض من الشكل المستنقعي الطري إلى التربة المتفتتة. في تلك البوصات من التربة المرتفعة، سيطرت الأشجار وشكلت تجمعات مرتفعات مثل جُزر السرو، وقمم شجر البلوط، جُزر الصنوبر، وهامو كالنخيل الملكي. يتحكم هذا الارتفاع بتنوعية الأشجار التي تتجمع فوق هذه المرتفعات، اعتماداً على كمية المياه التي تحتاجها. قد تحدث بعض بوصات فرقاً بين أيةكة المانغروف وأشجار الجميز. بعض هذه الأيكات لا يضم أكثر من عشر أشجار، غير أن بعضها يضم الآلاف. أكثر من نصف أشجار الفاكاهاتشي أشجار استوائية، لكنها بالأساس غابات مناطق معتدلة. تعيش هاتين البيئتين جنباً إلى جنب يفضي بالضرورة إلى وجود كائنات تعيش في الفاكاهاتشي لا ترى عادة في موقع واحد - فمثلاً، هي المكان الوحيد في العالم الذي تنمو فيه أشجار النخيل الملكي الاستوائية جنباً إلى جنب مع أشجار السرو التي بيتهما الأساسية هي المناطق المعتدلة. يبلغ عدد أشجار هاموك النخيل الملكي في مركز الفاكاهاتشي ثلاثة آلاف شجرة، وهي الهاموك الأضخم والأقوى على مستوى العالم. تعداد أشجار النخيل الملكي أحد كنوز الفاكاهاتشي، فهي صنفٌ نادر من التحيل ذو ساق رمادية ضخمة بلون الاسمنت مع خصلة من الأوراق الخضراء الرفيعة في أعلى - على شكل منضدية غبار بطول مائة قدم. إن النخيل الملكي وثيق الصلة بالنخيل الكوبي وقد تكيف مع الطقس الحار؛ تقع الفاكاهاتشي في أبعد نقطة يمكن أن تنمو فيها شماليًا. يعود ذكر المستكشفين لنخيل المستنقعات الملكي إلى مرحلة مبكرة في عام 1860، ولكنه لم ينزل شهرته إلا في عشرينات القرن العشرين، عندما اقتلع أصحاب ميدان سباق الخيل في هاليه، في ميامي، بعضاً منها من الفاكاهاتشي وزرعوها في داخل الميدان. البروميليه أيضاً تزهر في الفاكاهاتشي. في بعض السفوح المستنقعية العميقة، جميع الأشجار تكون مثقلة بالغوزمانيا مونوستاشيا - وهي بروميليه ضخمة تزهو بالأخضر والبني والأحمر. يعيش في الفاكاهاتشي من أصناف أوركيدا أمريكا الشمالية المحلية المختلفة أكثر من أي مكان آخر، منها اثنا عشر صنفاً في الفاكاهاتشي لا وجود لها في كل أمريكا الشمالية.

تبعد الفاكاهاتشي مكاناً برياً بكل ما في الكلمة من معنى، لكنها في

الواقع بريه مفسدة. لقد عرفت التطفل والاجتياح. ظل الناس لفترة من الزمن يزيلون نباتاتها ويعحرثون إقطاعات من مروجها الرطبة في محاولاتهم لزراعة البرتقال، والغريب فروت، واليوسفي، والبندورة، والمانغا، إضافةً إلى الخضار الشتوية. كانت تربة المستنقع غير صالحة للزراعة. انفض عنه المزارعون في آخر الأمر، غير أن حصيلة أفعالهم استمرت. ما زال باستطاعتك حتى الآن أن ترى خطوط المحاصيل تحت الأعشاب المحلية وبضع أشجار حمضيات أنهكها الطقس بين أشجار النخيل والسرور. انتشر فلفل الميلالوكاس والفلفل البرازيلي وأشجار الصنوبر الأسترالي، غير المحلي، في السبخة وتضاعفت. وكذا فعلت أسماك السلور الماشي، التي تسبح في بواليع البحيرات وتمكث فيها. وكذا فعل حيوان المدرع، المنحدر من سلالة المدرع الذي كان يستخدم في تجارب الجذام في مستشفى جاكسونفيل ثم نجح في الفرار منه. وكذا فعلت بعض الوقت الأبقار الوحشية، التي كانت أبقاراً عادية قبل أن تهرب من المزارع القرية وظلت تعيش في المستنقع بدعة حتى وظفت ولاية فلوريدا القناصين للقضاء عليها في عام 1948. كان النجاح غير الطبيعي الأكبر في الفاكاهاتشي من نصيب الخنازير. دأبت نوادي الصيد على تربية وتسمين الخنازير العادية في المزارع المحلية ومن ثم إطلاقها في المستنقع كي يستمتع أعضاء النادي فيما بعد بمطاردتها وإرادتها. نجت بعض تلك الخنازير من رصاصهم، وتمكن بعضها من التكيف مع ظروف حياة المستنقع. تزدهر ذريتها حالياً في الفاكاهاتشي وقد تحولت من حيوانات حظيرة مسالمة إلى خنازير مستنقع عملاقة ومقرفة، برية تماماً وجامحة كلية.

ما كان بالإمكان بلوغ الفاكاهاتشي لولا تاميامي ترايل، ذلك الطريق الواصل بين فورت ميرز وميامي قاطعاً الطرف الجنوبي من المحمية. قبل أن يتم تشييد هذا المسار، كانت الرحلة عبر الفاكاهاتشي تعتبر سللاً من العقبات. في عام 1908، وصف أحد الرحالة هذه الرحلة قائلاً: «انطلقنا برحلتنا في قوارب كانوا، لتنتهي على عربات تجرها الثيران. جذفنا وتمرغنا لمسافة مائتي ميل من بحيرات مغطاة بالأزهار ومسارات مستنقعية موبوءة بالأفاعي المائية، بخطوط متعرجة من موقع إلى آخر في إيفرغلادس

فلوريدا، علقتنا لخمسة أيام وسط مساحات رملية يغطيها الصنوبر، قطعنا المروج المغمورة، ومضينا في منحدرات بيع سايبيريس كاوتشي، غير أننا أخفقنا في الوصول إلى البحيرة الكبيرة قبل خمسة وعشرين ميلاً.

استوجب تشييد تامامي ترايل ثلات محاولات. كانت المحاولة الأولى في عام 1915، لدى محاولة عمال الطريق اختراق المستنقع وفشلوا. في عام 1923، انطلقت مجموعة تطلق على نفسها اسم ترايل بلازيرز من فورت ميرز متعددين بقطعة. كان معظم أفراد المجموعة البالغ عددهم خمسة وعشرين شخصاً من رجال أعمال فلوريدا، يحذوهم الأمل بأن يقلل الطريق المبعد إلى ميامي من درجة نأي الساحل الجنوبي الغربي لجهة الأعمال. كانوا يتوقعون أن تدوم الرحلة ثلاثة أيام. اخترعوا في اليوم الثاني. افترض أنهم وقعوا في قبضة هنود الميكوسوكى الذين يعيشون في المستنقع بعدما اعتبروا الترايل بلازيرز دخلاء. بعد شهر تقريباً، ظهر أفراد المجموعة المحظمين بالقرب من ميامي. مرت خمس سنوات أخرى قبل أن يتمكن طاقم عمال طرق حقيقين من تنفيذ المهمة.

في عام 1947، بدأت شركة لي تايدرووتر سايبيريس بتحطيم أشجار السرو في الفاكاهاتشي. بغية اختراق السبخات، شيدت الشركة العشرات من خطوط الترام، كل منها يبلغ طوله بالضبط 1.650 قدماً على التوالي. نظراً لضرورة رفع الترام، حفرت الأرض وقوم التراب على شكل ساتر ثم ركبت السكك فوقه، الأمر الذي كان معناه وجود خندق بجانب كل خط ترام. تمتلئ الخنادق بالمياه. بعضها تجمع مياه الأمطار، غير أن معظمها يتسرب إلى الخنادق من المستنقع المحيط بها. بعد تشييد خطوط الترام وأمتلاء الخنادق، انخفض مستوى المياه في الفاكاهاتشي لأكثر من قدمين. كان طاقم العمل يركبون قطرات في أعلى جسم على شكل ملفوفة كانت تتحرك جيئة وذهاباً على طول خط الترام. فحينما يلمحون شجرة سرو بالغة، يحزونها وينشرونها وينقلونها ثم يرفعونها بواسطة سلاسل إلى مطحنة ذات منشار مزدوج في منطقة بيري في فلوريدا، حيث يتم تحويلها إلى لواح غليظة وأخرى رقيقة وتوايت وخزانات المخلل. أقام عمال البحث عن الأشجار المناسبة، النشارون، عمال التقطيع، عمال الجر وطواقم الشاحنات

في قرى من الخيام على أطراف المستنقع. معظم عمال التقطيع كانوا من السيمينول، أما بقية العمال فقد كانوا من البيض والسود ممن يحملون ميلاً لل العراق. بعضهم لم تكن طبيعة حياة المستنقع لتسهويه. عبر العديد من عمال المناشير عن استيائهم من مصادفهم المتواصلة للهياكل العظمية في الغابات، لا بل وقلة منهم تركوا العمل بسبب الذعر حسب قولهم، مع أنهم كانوا يتقاضون ثمانمائة دولار شهرياً، كان نشر الأشجار في الفاكاهاتشي عملاً مربحاً. على أية حال، أنجز العمل: حصّلت شركة لي تايدووتر ما يساوي مليون قدم من ألواح خشب سرو الفاكاهاتشي سنوياً.

بحلول عام 1952، كان سرو الفاكاهاتشي قد قطع بالكامل تقريباً، لذا فقد أنهت لي تايدووتر عملياتها وغادرت المنطقة. خلال خمس سنوات من قطع الأشجار، قضت خطوط الترام على الغابات؛ جففت الخنادق السبخة؛ خربت الجذوع المتهاوية أحجام الشجيرات تحتها؛ حفرت قطع الخشب المسحوبة أخداد عميقه وطويلة في أرض المستنقع. بعد رحيل لي تايدووتر، وصف المساحون الفاكاهاتشي بأنها «جحيم أخضر».

في عام 1966، باعت لي تايدووتر خمسة آلاف فدان من الفاكاهاتشي والأرض المحيطة بها. اشتراها الأخوان جوليوس وليونارد روسين، اللذان أطلقا على شركتهما اسم غويفل أمير كان كوربوراشن. ولد الأخوان روسين في بتيمور واستهلَا حياتهما المهنية في بيع الأواني والمقالى. في نهاية الأربعينيات توصلا إلى خلطة شامبو منزلي الصنع وأطلقوا عليه اسم فورميولا رقم 9 وزعموا أنه فعال في تقوية الشعر ومعالجة الصلع. نُشر إعلانٌ تلفزيوني للفورميولا رقم 9 بمقاطع دعائية كانت تبث لمدة خمس إلى ثلاثين دقيقة في كل مكان؛ كان هذا أول إعلان تلفزيوني على مر الزمن. المكون الرئيسي للشامبو هو مادة اللانولين^(١). كانت معظم الدعايات تبدأ بظهور ليونارد روسين وهو يمجد فضائل اللانولين قائلاً، «هل حدث أن رأيت يوماً نعجة صلعاً؟» جنى الأخوان روسين ثروة من الفورميولا رقم 9 والأشد أهمية، أنها اكتشفا مدى سهولة تسويق أي شيء واكتساحه. في النهاية،

تواصلاً مع تاجر عقارات يدعى ميلت ميندلسون، أقنعهما بإمكانية تسويق الأراضي بنفس طريقة تسويق شامبو الصلع. شأنه شأن الأخرين روسيين، كان ميندلسون مبدعاً - نشر في فلوريدا لافتات إعلانية كتب عليها أرض فلوريدا: بسعر دولار أو أقل من دولار شهرياً، وباع المئات من الحصص بسعر باهظ اعتماداً على قوة تلك النبرة. أراد الأخوان روسيين الانضمام إلى ميندلسون في مشروع مشابه، ولذا فقد جال ليونارد روسين برفقة ميندلسون في جنوب فلوريدا بحثاً عن قطع من الأراضي الشاغرة يمكنهم التعامل بها بيعاً وشراء. أول مشروع لهم هو مشروع كاب كورال، وهو عبارة عن شبه جزيرة مساحتها 114 ميلاً مربعاً محاطة بخليج مكسيكو ونهر كالوساهاتشي. خططوا 138000 حصة ومهدوا 1700 ميل من الطرق، غير أنهم لم يعتمدوا مساحات للمدارس أو السوق أو المياه أو الصرف الصحي أو مكتبات للقمامنة، رغم أنهم شيدوا حدائق كاب كورال، فقد كان مصدر الجذب السياحي يتميز ببوربواز بول، وحديقة الباتريوتيس التي ضمت تماثيل جميع رؤساء أميركا، ونافورة والتزيين ووترز⁽¹⁾ المزدوجة بنفات للمياه يرفعها لمسافة ثمانية وخمسين قدماً في الجو.

خلال فترة ملكية الأخرين روسين لها، لم يبع من حصص الأرض في كاب كورال سوى 25 بالمائة، وسرعان ما هجرت حدائق كاب كورال وتضاءلت حتى باتت كومة من التراب، إلا أن الأخرين تمكنا من كسب الثروة وازدادا نهمهما لتسويق المزيد والمزيد من أراضي فلوريدا. توصلاً إلى اتفاق مع شركة لي تايدووتر سايبيريس وشرعاً في بناء المنطقة القاحلة الواقعة في جنوب غرب الساحل، التي كانت تضم أملاك لي تايدووتر والمعروفة حالياً باسم مستنقع بيج سايبيريس. عملياً، لم يكن الأخوان روسين يشتريان قط معظم الأرضي التي يبيعونها - يشتريان مساحة صغيرة ويضعان الباقى ضمن الاحتمالات - لكن البروشور الدعائي للمبيعات رغم ذلك كان يصف غويفل أميركان على أنها «أكبر مسوق للأراضي من نوعها على مستوى العالم».

استترفت غويفل أميركان الأرض من خلال شق قنوات بلغ طولها مائتي

مِيل. كانت مسيرة شاقة؛ على عكس كاب كورال، بطبيعة أرضها الرملية غالباً، كانت أملاك لي تايدووتر عبارة عن مستنقع خفيف يجثم فوق طبقة صخرية ضماء من المحال زحزحتها إلا بالдинاميت. جرى لاحقاً مسح وتقسيم وتخطيط الأرض، وتغطيتها بشبكة طرق بلغ طولها ثلاثة ميل على المستنقع المجفف. هبط منسوب المياه بمقدار أربعة عشر قدماً. بعد خلوه من المياه، تحول المستنقع من سهل عشبي ومجازات سرو إلى شكل من النظم البيئية للمناطق المرتفعة بشجيراته المتشابكة وأشجاره المتتساقطة الأوراق وغزاته القساة، كالفلفل البرازيلي. أطلق الأخوان روسين على أحد القطاعات اسم غولدن غايت إيستايت وعلى آخر ريمودا رانش غارتنس. بالقرب من غولدن غايت، شيدت غولف أمير كان فندقاً يضم مائتي غرفة ومدرجاً لهبوط الطائرات. لم تُبنَ أية منازل سواء في غولدن غايت أو ريمودا رانش غارتنس، على الرغم من أنك إذا أطلعت على بروشور مبيعاتهم، فسوف يصلك انطباع مختلف: حيثما يمم المرء طرفه في هذا الغولف أمير كان كاوونترى الشاسع، سوف يعاشر على بيته وفتنه ومسرات جنة الإنسان المترف، ومع ذلك فهي في متناول الجميع تقريباً.

شيدت المنازل الجميلة في موقع بعيد عن الشوارع العريضة والبولفارات. اللافت هو حقيقة أن منازل الغولدن غايت، التي كانت شأنها شأن مجمع الغولدن غايت نفسه، قد شيدت وبنيت لتناسب مداخيل ذوي الدخل المتوسط. في غولدن غايت، قد يزور المرء نادي غولدن غايت كاوونترى ويسترخي فيه... الذي يشكل، بميدانه للغولف الاحترافي، أحد أفضل المشاهد للبطولات الهامة. يمكن للمرء أن يتعرّض في مطعم كاوونترى سكواير أو في لي بيتيت غورميت الفخم - ويأخذ الكوكتيل في قاعة بيو برومبل بجوها الحميم. يمكن للمرء أن ينزل في نزل غولدن غايت الجميل. ثمة فرصة للسباحة، وركوب القارب، لعب التنس والمشاركة بمجموعة متنوعة من المناسبات الاجتماعية. في غولدن غايت يقدم لك أسلوب حياة جديد كل الجدة ورائع كل الروعة.

تتميز منطقة ريمودا رانش غرانتس بأبنيتها الفخمة المتوسطية الطراز، شاهقة أبعد من الأفق كالقلاع الإسبانية... غير أنه ما من مكان في إسبانيا، ولا حتى في ذلك السهل الشهير، يستطيع المرء أن يعثر فيه على مثل هذه الوفرة في العيش الرغيد.

غولدن غات إيسايت هي الكبرى بينهما. لو طورتها عقارياً شركة غولف أميرikan، وكانت ستغدو أضخم وحدة فرعية على مستوى العالم.

عرضت أرض غولف أميرikan للبيع على شكل حصص، مساحة كل منها خمسة فدادين وتم تسعيرها بـ 1.250 دولاراً يمكن تقسيطها بعشرة دولارات شهرياً. تم الإعلان عن قطع الأرض بوصفها عقارات لها واجهة مائية مع إمكانية الإبحار منها إلى خليج مكسيكو - وهذا ما لم يكن ممكناً، إلا إذا كنت تنوی التجذيف إلى الخليج عبر القنوات المجنفة. عمل الأخوان روسين على جذب أولئك الذين لا يملكون فرصة كبيرة لمعاينة العقار قبل شرائه، وبالتالي من المستبعد أن يشيروا قضايا من قبيل مدى قرب العقار فعلياً من المياه. صورت غولف أميرikan زبائنها المثاليين كأشخاص مواردهم المالية محدودة ويقيمون بعيداً عن فلوريدا، أو أفراد في القوات المسلحة من عادوا إلى الوطن من أعلى البحار وبإمكانهم الحصول على منحة عقارية من برنامج غولف أميرikan بيل، أو أشخاص بأحلام كبيرة فحسب. بغية جذب هذا الصنف من الزبائن، كان في جعة غولف أميرikan خزينة من المناورات في أساليب البيع المختلفة. قدموا المنازل على برنامج ذا برايس إز رايت^(١). أقاموا مكاتب مبيعات في أرجاء البلاد وأرسلوا ملايين الدعوات لـ «وجباتعشاء ودية»، التي غالباً ما حضرها أحد نجوم الرياضة أو المشاهير المحليين. بعض الدعوات كانت تشير إلى أن العشاء احتفال بالذكرى السنوية للمسلم أو عيد ميلاده أو ترقيته. أكدت الدعوات الموجهة للمجندين أن غولف أميرikan تتبع إلى قوات الولايات المتحدة العسكرية. عادةً ما كان يبدأ حفل العشاء التجاري بعرض سينمائي يحكي عن جمال

ويسر الغولدن غايت إستايت بالمدفوعات مشيراً إلى أن الزبون الحصيف يستطيع أن يشتري عقاراً من أجل منزل أحلامه وبعدها يشتري العديد من الحصص من أجل الاستثمار. بحسب غولف أميريكان، كانت قيمة الأرض في طريقها إلى التحلق، بفضل عالم ديزني والمطارات والطرق السريعة المقترحة في المنطقة، ولذا يمكن للزبون بلا شك خلال سنوات قليلة بيع الحصص الرائدة بأرباح هائلة. وفرت غولف أميريكان كتبين تعلمين مخصوصين للزبائن الأكثر طموحاً وكانا بعنوان «كيف تكسب رزقك من أراضي فلوريدا» و«مدخلك الذهبي للوصول إلى مستقبل زاهر».

بعد العشاء، كان موظفو المبيعات يجلسون مع كل زبون ويبدأون بالعمل في جو من العجلة. وفقاً لموظفي المبيعات، كانت أسعار الأراضي تتجه نحو الارتفاع وقربياً جداً سوف تصبح أسعار أراضي فلوريدا باهظة لا يمكن تحملها. تعهدت غولف أميريكان بنقل كل من يشتري أرضاً أثناء العشاء جواً إلى فلوريدا مجاناً ودفع كافة نفقاته في فندق غولف أميريكان. ما إن يتخذ زبون إحدى هذه السهرات قراره بالشراء، كان موظف المبيعات الموكلا بالتعامل معه يقفز صارخاً، «العقار رقم 23 قد بيع!». أو كان المشترون المزيفون الذين توظفهم الشركة يقفزون من حين لآخر وهم يصرخون، «اشترت واحدة!». في حال كان الزبون مهتماً بقطعة أرض لكنه متعدد، كان موظف المبيعات يعرض عليه وضعها في حالة انتظار أثناء فترة تفكير الزبون. بعد دقائق يهب المدير صارخاً، «لا يمكنني إبقاء هذه القطعة من الأرض معلقة لمزيد من الوقت!» ويرغم الزبون على اتخاذ قراره في لحظتها.

لم يكن جميع المشترين يسافرون بالرحلة الجوية المجانية إلى فلوريدا. بعضهم كان يكتفي بمشاهدة الفيلم عن الموقع، ولذا فقد كانوا يوقعون العقد وهم يفكرون ربما بأنهم سيذهبون في الوقت المناسب لرؤية حصتهم من الأرض عندما سيجهزون أنفسهم للعيش فيها بعد تقاعدهم. كل من يسافر مجاناً جواً إلى فلوريدا كان يطوف فوق المستنقع في طائرة صغيرة طنانة، وسوف يمطر موظف المبيعات جسده خارج الطائرة ثم ينشر كيساً من الدقيق وزن عشرة باوندات كي يرسم حدود قطعة أرض الزبون. إذا ما شاهد العميل قطعاً أخرى من الأرض وأعجبته، يقوم الموظف بشر المزيد من أكياس

الدقيق فوقها. كان البعض من موظفي المبيعات يقودون السيارة برفقة الشاري المحتمل على مدى أميال باتجاه أقصى أطراف الملكية المستنقعية وعندها يقترحون عليه إما أن يوقع عقد الأرض أو يعود وحده. كان يتم التنصت على غرف فندق غولف أميرikan وبذا استطاع موظفو المبيعات معرفة الزبائن المترددرين وتعديل عرض البيع حسب الاهتمامات الخاصة لكل زبون. سوقت غولف أميرikan أراضيها منذ منتصف الخمسينيات وحتى عام 1970. لقد تبين بأن رخص الأرض وفرصة العيش في فلوريدا الدافئة ووعود الحياة المرفهة التي يمكن العثور عليها هناك أشياء آسدة. حلقت أكثر من ستة وأربعين ألف شخص فوق المستنقع ونشروا أكياس طحينهم فوق فدائهم المفضل؛ بيع أكثر من 470.000 فدان من الأرض. بلغ استثمار الأخوين روسين الأولى في فلوريدا، في كاب كورال، 125.000 دولار. في غضون سنوات قليلة قفزت قيمة شركتهم حتى بلغت 450 مليون دولار.

لم يشيد أية أبنية فخمة متوسطية الطراز بعد ذلك، ولم يعد هناك من نزل غولدن غايت، ولا ليبيت غورميت؛ لا أكثر من ثلاثين منزلًا ربما. غمرت المياه الأرض وبات من الصعب الوصول إليها، فقدت خدمات الهاتف والكهرباء، وأصبحت مقبرة مغبرة وعدائية. أقرب متجر للبقاء على بعد عشرة أميال، أما أقرب مستشفى فعلى بعد عشرين. بالرغم من تجفيف القنوات، ظلت المياه تغمر معظم الأراضي على مدى ستة أو ثمانية أشهر في السنة، وحين تجف كانت تجف لدرجة أنها تستعر لهيباً لكونها ورقة تحترق. أصبحت غولدن غايت صورة عن نهاية العالم، كئيبة ونائية، لوحة شطرنج الطرق التي لن تفضي إلى أي مكان والمنازل التي لن تبني البتة. في عام 1970، رفعت أول دعوى قضائية ضد غولف أميرikan، ادعى فيها زبون ناقم بأن الشركة أخبرته بأن الأرض التي اشتراها تقع على خط توسيع مدينة نابل، مما يعني أن قيمتها ستترتفع وسيتسنى له بيعها بعد سنوات قليلة و«إصابة ثروة». في رأيه، كتب القاضي رئيس المحكمة: «في الواقع، لم تكن الأرض على خط توسيع مدينة نابل وإنما في مستنقع بيع سايبريس». وفقاً لأمر الموافقة الصادر عن لجنة التجارة الفيدرالية في عام 1974: «لا تعتبر غولدن غايت مجتمعاً نامياً. هي بالأساس أرض خالية، تضم مرافق للتسوق

غير مكتملة وغير كافية، مرافق متجمعات غير مكتملة. لا يتوفّر فيها سوى عدد قليل من وسائل الراحة والخدمات العامة».

تمتاز أرض فلوريدا بخصوصية فائقة. أحد الأشياء التي تنمو فيها نمواً رائعاً على الدوام هو المشاريع العقارية. حتى متتصف الخمسينات، لم تكن الولاية تنظم عمليات بيع الأرض على نطاق واسع. يعتقد عموماً أن عمليات التلاعب في أرض فلوريدا قد دشنت في عام 1824. تلك السنة التي منح فيها الجنرال لافاييت قطعة أرض بالقرب من تالاهاسي عرفاناً له لقاء إسهامه في الثورة. افترض الجميع أنه سيعيد بيعها للمزارعين المحليين، وبالفعل هذا ما فعله، غير أنه طلب سعرًا كان يساوي على الأقل مثلي القيمة الفعلية للأرض. في الثلاثينيات، أشاد أحد سكان نيويورك ويدعى بيتر سكين بأرض قرية من سانت أوغسطين قائلاً «مغطاة بعشب فلوريدا الأصلي من نوع حشيش السلطعون». لقد تمكّن من جعل عشبة السلطعون شديدة الندرة ورائعة لدرجة أنه نجح في بيع مئات من فدادين العشب مع أنه لم يحدث له أن أمثلك الأرض التي يبيعها. ثم جاء جون ويتنى، الذي باع حصص المستنقع إلى الشماليين بعد تأكيده لهم أنه في فلوريدا «لا الحشرات كثيرة العدد ولا هي بمزعجة»؛ وهاملتون ديستون، الذي باع في ثمانينات القرن التاسع عشر حصصاً مغمورة بالمياه في إيفرغلادس ومن ثم، حين انهارت خططه، أقدم على الانتحار بإطلاق النار على نفسه في حوض الاستحمام؛ وريتشارد بوليز، الذي سوق لحصصه من الأراضي المغمورة في مطلع القرن تحت شعار «الاستثمار الجيد يتقدّم على العمل الدؤوب طيلة الحياة»؛ وبارون كوليير، الذي استولى على مليون فدان من سبخات الأدغال بالقرب من فاكاهاتشي وبasher ببناء نسخة مطابقة من باريس؛ وتاشرلز روديس، الذي شعر بأنه لا يوجد ما يكفي من عقارات ذات وجهة مائية بسعر ممتاز للبيع، فردم في العشرينات ضفافاً ضيقاً من على البحيرات وباعها بصفتها عقارات ذات وجهة مائية، ثم عمل على حفر قنوات عريضة وباع الأرضي المتاخمة لها المليئة بالطمي بوصفها عقارات ذات وجهة مائية أيضاً - وهي العملية التي عرفت باسم «الجزر الإصبعية»؛ وبالطبع كارل فيشر، أحد أقطاب

صناعة السيارات في ديترويت الذي قدم إلى فلوريدا بعد الحرب العالمية الأولى وصب ثلاثة ملايين يارد مكعب من الرمال على امتداد المستنقع الذي كان يعج بالأيكة وأوجد ميامي بيتش.

الأمر المثير بشأن فلوريدا ليس فقط مساحة أرضاًها المتوسيعة باستمرار وإنها ميزة هذه الأرض التي أصبحت تمثلها. في ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت الزراعة مهيمنة في الحياة الأمريكية، وكانت فلوريدا حلم المزارع الأمريكي، نتيجة رخص مساحاتها الزراعية وطول مواسمها الزراعية التي تمتد لعشرة أشهر. بحلول التسعينيات، تحولت الطموحات الأمريكية من الزراعة الجيدة إلى «الحياة المرفهة»، وكذا فعلت فلوريدا - ما زالت تمثل حلمًا للمزارعين، غير أنها الآن تمثل أيضًا حلم أبناء الطبقة الوسطى بمكان ي يمكنك أن تجد فيه الصحة والدفء والاسترخاء. لم تعد فلوريدا متسخة أو صناعية أو منغلقة أو ناشئة. لم تعد حارقة أو جافة كالصحراء - إنها ولاية

خلابة ومثمرة. تمنع مشاعر بالجدة وهي تبدو جديدة، في ظل أراضيها التي استصلحت حديثاً ولافتات الطرق التي تشير إلى التنمية العمرانية الجديدة والرمل الجديد اللامع الذي استخرج وأضيف إلى الشاطئ. كانت فلوريدا بالنسبة للأمريكان ما كانت تعنيه أميركا على الدوام لبقية العالم - بداية ناصعة وحرة و بكل أ>.

تعتبر فلوريدا مكاناً رطباً ودافناً واستوائياً، بالأساس لا ملامح ثابتة لها وقدرتها على التغير لا محدودة. سهلة التأثير كمن يقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي. يمكن إعادة تخيل شخصيتها الأساسية مراراً وتكراراً. حالياً يتم كشط تربة إيفرغلاديس التي استباحتهاأشجار الفلفل البرازيلي المستعصية بغية القضاء على الأشجار الغازية، وبعدها سيتم تكويم التربة الخصبة لارتفاع شاهق، وتغطيتها بثلج صناعي، وتحويلها إلى متجمد للتزلج. بالإمكان تجفيف أي مستنقع لأنشجار السرو في فلوريدا وإعادة تشكيله كي يبدو مثل قرية توسكانية أو بلدة نيو إنجلاند، وبالإمكان ملء نسخة هذه القرية التوسكانية وببلدة فيرمونت بأناس من نيويورك أو شيكاغو أو هايتى الذين سيعيدون تعريف هويتهم كفلوريديين. إن طبيعة فلوريدا السهلية المنبسطة لا تفرض نفسها عليك، ولذا يمكنك أن تفرض عليها صنف الحلم الذي تحلم به.

في عام 1967، أقرت غولف أميرikan بمسؤوليتها عن القيام «بممارسات مضللة ومزيفة وخادعة ومجحفة» بقصد بيع أراضيها في فلوريدا. بعد عام، باع ليونارد روسين الغولف أميرikan إلى شركة مالية بنسلفانية تدعى شركة GAC؛ تسلم هو وأخوه كل منهما حصة سهمية في GAC تساوي 63 مليون دولار. في آخر المطاف أطلق ليونارد شركة تجارة أراضٍ أخرى، عنيت بتسويق الأراضي الصحراوية القاحلة في نيفادا للمستثمرين الألمان. في عام 1977، وجهت له تهمة الاحتيال الضريبي، وحققت هيئة محلفين كبيرة في حسابات مصرافية خارجية سرية كان يديرها؛ لم يطعن في النتائج وحكم عليه بـ 5000 دولار غرامة إضافة إلى ثلاثة سنوات تحت المراقبة.

قدمت GAC للأخرين روسيين حصة مساهمة تساوي 115 مليون دولار تقريباً لقاء غولف أميريكان. تابعت الشركة تسويق ممتلكات غولف أميريكان من الأراضي حتى عام 1975. كانت قد بلغت ديون GAC في ذلك الحين 350 مليون دولار. لقد استلزم تعافيها من الإفلاس الذي تلاه ثلاثة عشر عاماً واعتبر أكبر عملية إعادة هيكلة وأشدّها تعقيداً في تاريخ شركات فلوريدا، حيث شملت أكثر من تسعمائة من الدائنين، وبسبعين وعشرين ألفاً من ملوك الأرض، خمسمائة ألف فدان من الأراضي. بعد الإفلاس، بيع فندق غولف أميريكان لمجموعة من أخصائيي تقويم العظام، سرعان ما أفلسو هم أنفسهم. ثم بيع لشركة أمريكية جنوبية تدعى إنترناشيونال برودكتس أوف هوليود، كان حراسها الأمنيون يستعملون الفندق مخزنأً للبلاطات الماريجوانا. أما مطار غولف أميريكان الذي كانت تحظى فيه الطائرات حاملة الزبائن المحتملين فقد بات مهبطاً لطائرات الشحن التي تنقل المخدرات.

كجزء من الاستيطان على الأراضي الرطبة التي خربتها في كاب كورال، تبرعت GAC بما مساحته عشرة آلاف فدان تقريباً في منطقة فاكاهاتشي ولاية فلوريدا؛ حيث باشرت الولاية بعد ذلك في شراء حصص أميريكان غولف المملوكة للقطاع الخاص، فدانأً بعد فدان. أصبحت هذه الأرض في آخر المطاف تشكل محمية سبخة فاكاهاتشي الحكومية. ما يزال هناك الآلاف من الملكيات الداخلية ضمن المحمية التي تواصل الولاية شراءها، ولكن بما أن معظم الحصص لا تساوي مساحة كل منها أكثر من فدانين، هذا يعني وجود آلاف المالك الفردية، مما يعني أن كل عملية شراء تستوجب مفاوضات بطيئة مع كل مالك على حدة وغالباً ما يكون المالك مقيناً في مكان بعيد. يعد مشروع الاستحواذ هذا من أشد المشاريع تعقيداً وإشكالاً وعرضة للمساءلة ضمن برنامج فلوريدا لحماية الأرضي. في النهاية، انتقلت مائة أسرة وأقامت في عقارات غولدن غايت. يعيشون في شقق منعزلة تفتقر للهاتف أو الكهرباء أو إمدادات مياه المدينة، وأخذت حصص الأرض المحيطة بهم من كل الاتجاهات تعود إلى الحالة المستنقعية رويداً رويداً. ربما لم يزر الكثير من شرطة أراضي غولدن غايت يوماً، وأغلبهم وافق

مسروراً على بيعها حالما عرضت الحكومة عليهم شراءها. إن الحياة في غولدن غايت ترقى لمن ينشدون الحياة المستقلة الفردية للغاية. لا بد أن العديد من قاطني غولدن غايت قاوموا بعناد خطط الاستحواذ الحكومية. منذ فترة، أُعلن أحد السكان نفسه زعيمًا ومديراً لقسم بحوث لجنة تحسين أوضاع ملاك الأرض في إيست كوليير كاوونتي. كان شعار اللجنة «يعد الله بقتل أعضاء الحكومة بالسيف التي تسلب الأرض من الأرامل والأطفال أيتام الأب».

ماتزال شبكة شوارع غولدن غايت في مكانها. اليوم يتسابق الناس عليها بسياراتهم ويرمون القمامات فيها وتهبط الطائرات التي تحمل المخدرات عليها وتُثْخِنَّ البضائع المهربة على طولها، وحالياً، بعدما عاد المستنقع واستولى على الأرض، فهم أيضاً يطاردون الغزلان والفهود عبرها ويصيدون أسماك الهاش الحمراء وأسماك أبو منقار من قنوات التصريف. نصف اتصالات الطوارئ التي يتلقاها قسم إطفاء كوليير كاوونتي هي عن حرائق تندلع في أرض غولف أمير كان القديمة. بعضها تسببه صواعق البرق. أما الباقي فهو ما يسمى «نار الصيادين»، وهذه نيران يوقدها صيادو الغزلان بقصد إحراق وإزالة بقعة من الغابة، حيث سينمو، بعد بضعة أسابيع، عشب جديد نضر في المنطقة المحروقة، ويعلم الصيادون أن هذا العشب طريقة مضمونة لجذب الغزلان. المفرق الوحيد لدخول المنطقة من الطريق السريع هو عبارة عن درب بالكاد يمكن ملاحظته يسمى امتداد طريق ميلير. لم تعمل كوليير كاوونتي على ترميم طريق ميلير، ونتيجة لإهماله سرعان ما نمت فوقه الحشائش والأجamas، وأحياناً دفن تحت أكوام من القمامات. لكن، يأتي شخص مجهول منذ سنوات بجرافة أو ممهدة طرقات كل شهر أو نحوه ويقوم بتنظيف الطريق، ساحقاً النباتات التي زحفت عليه ومزيلاً القمامات وواضعاً إياها على طرف الطريق. كان سائق البلدورز المجهول يلقب بغوست غرادير^(١). لم تعد الملكيات التي كان غوست غرادير ينظفها تعرف باسم غولدن غايت أو ريمودا رانش غرانتس. أصبح يشار إليها رسمياً في

الوقت الحالي باسم قسيمة أرض كولير كاوتشي 197، ومن يعيشون بجوارها يسمونها مجتمع الإسكان فحسب.

لاقاني حارس يدعى مايك أوين في مقر سبخة الفاكاهاتشي، وقبل توجهنا لرؤية الأوركيدا المسروقة، تجولنا بالسيارة في أنحاء هذا المجمع السكني. دروبه مغبرة شوتها حرارة الشمس، وقد حاكت الأعشاب الطويلة جداراً على امتدادها فحجب كل شيء تقريباً عدا المشهد الأمامي المباشر. بيوتها مستقيمة ومكعبية، مثل الأبنية في ضاحية حقيقة، وشوارعها عريضة وبضاء، كما هي شوارع الضواحي، ولافتات على بعض المفارق تحمل أسماء شوارع تبدو مألوفة، وإشارات توقف تنتأ من خلال شبكة متداخلة من الصنوبر البري والعشب الملحي^(١) واللبلاب السام. كانت قيادة السيارة بين المباني مختلفة عن قيادتها عبر الغابات -أشبه بالقيادة في ضاحية كل ما فيها من بيوت وبشر قد مسح عن وجه الأرض. من حين لآخر كان نمر بيقعة محصودة وسط النمو الكثيف للنباتات، لعلها منطلق لما كان يفترض أنه ممر سيارة وكان يفترض أنه سيقود إلى ما كان يفترض أنه منزل أحدهم. كان البعض من هذه الفرجات مكدس بأكواخ من الخردة - ثلاثاجات عتيقة صدئة متزوعة الأبواب، كومة سوداء من الإطارات، كرسي حديقة. شاهدت في إحداها شاحنة صغيرة بدت كأنها صالحة، في صندوقها مجموعة من صناديق خلايا النحل، ولم أر أي مربي نحل في الأحياء. هناك على خط الأفق البعيد أمامي، على بعد أميال على الطريق، لمحت وميضاً، ثم تحول هذا الوميض إلى لطخة ثم كبرت اللطخة وبعدها أصبحت سيارة سوداء، فبدت كأنها تكبر أكثر مما هي تتحرك. أصبحت أمامنا في لحظات واجتازتنا بسرعة جنوية ليعود الطريق مقفراً من جديد. يصيبك التوجس من خلو الطريق تماماً من السيارات والبشر، لكن توجسك يكون أكبر حين تصادف أحدهم في آخر المطاف - حالة تشبه تطفل الدخيل على دخيل. فتحت النافذة وأخرجت رأسي، قليلة الأصوات التي سمعتها، وكل منها مضخم - ارتجاج

سيارة الحارس، طنين وأنين حشرات غير مرئية، زقزقة عصفور. سكونٌ غريب غير هادئ، ومع هذا كان يعطي شعوراً بفراغٍ غريب يطفح بخواه. أكثر شبحية من بلدة أشباح. في بلدة الأشباح وحدهم البشر يختفون، أما هنا فحتى الأبنية تخفي أيضاً. لا يجدون مكاناً يسوده الأمن حيث لا شيء سيحدث البة - يعطيك انطباعاً كاملاً بـ مليون شيء على وشك الحدوث ولن يحدث.

فوق بريخ قناة تصريف، رأيت رجلاً يصفُ قصب صيد الأسماك وبجواره يربض صبي صغير ملقحاً ذراعه حتى المعصم في دلو الطعم. أبطأ الحارس سيارته لدى مرورنا بهما ثم فتح النافذة. «الجو حار هنا»، توجه للرجل قائلاً. تصاعدت موجات حرارة مائية من غطاء المحرك.

«حار، أجل يا سيدِي»، أجا به الرجل موتماً برأسه. نهض الصبي ثم حياناً بيله بالدود.

حرف الحارس السيارة باتجاه المنعطف التالي حتى يتسعى لنا العودة إلى المقر. كل ما صادفناه من لافتات التوقف كانت متقوية بعشرات الطلقات النارية. صادفنا بعد عدة عمارات سيارة فورد برونكو، يقودها رجلٌ ضخم الجثة ذو لحية طويلة سوداء. أوقف البرونكو ثم رفع يده تحيةً للحارس. كان الرجل الملتحي يرتدي سروالاً خاكياً بحزام ذي إبزيم لامع، بيد أنه كان عاري الصدر. تصبب العرق من جبهته نازلاً على عظم الترقوة، وبدا صدره كقطعة عجين رطبة ناهضة. أخبر الحارس أنه قد شاهد للتو دباً أسود يقطع الشارع ويطارده كلباً هاوند ورجل يحمل بندقية هجومية. لم يزح الحارس يده عن سلاحه طيلة حديث الرجل الملتحي. سجل بعض الملاحظات ثم قال للرجل، «والآن، أخبرني أين شاهدت الدب؟».

شد الرجل لحيته وعبث بوجهه. أجا به بعد دقيقة، «لأصدقك القول يا سيدِي، من الصعب نوعاً ما أن أحدهم في هذه الأحراج، لكنني أظن في مكان قريب من مفرق ستيلورات ودي سوتو». تبدو حالة شادة أن تسمع أحدهم يستعمل أسماء شوارع لوصف موقع في مستنقع يركض فيه دب، لا بل والأشد شذوذًا أن تدرك أنه كان قبل سنوات عنوان إقامة لأحدهم.

عدنا باتجاه مقر المحمية وهيا نفسي لدخول المستنقع سيراً على الأقدام. حين سرت لأول مرة في الفاكاهاشي لم أكن أعلم ما أرتدي؛ كل ما كنت أعيه أنني أرغب بتغطية أكبر قدر من جسدي مع محافظتي على نفسي ألا أسلق من الغليان. استقر رأيي أخيراً على قميص بكمين طوبيلين، وسروال من القطن والليكرا، وجوربدين طوبيلين وحذاء رياضي رخيص. في الحقيقة خدمتني هذه الملابس خدمة كبيرة لكنها لم تدم طويلاً. لدى عودتي إلى مركز الحراسة في ختام جولتي تلك، خطفت من سيارتي ملابس بديلة، وهرعت باتجاه حجرة المرحاض، غسلت وجهي لقربة عشر دقائق على التوالي، ثم نزعت عني جميع ما كنت ألبسه ورميته. كان قميصي مضمضاً بمحلول طارد الحشرات وواقي الشمس، أما سروالي فقد تصلب من كثرة الطين العالق به، وأسود حذائي وجورباي بفعل المجاز الضيق الذي مررت خلاله في البواليع. بكل الأحوال، غمرني سرور بالغ للتخلص منها وكانت عاجزة عن التفكير إلا برغبتي القصوى في نزع جميع ملابسي عنى وإلقاءها في سلة المهملات. في طريق عودتي إلى الفندق، توقفت في متجر كمارت واشتريت مؤونتي من القمصان ذات الأكمام الطويلة والسرافويل والأحذية الرياضية الرخيصة كي ألبسها في رحلاتي القادمة إلى المستنقع. حين كنت أعود إلى نيويورك، كان يسألني كل من أحدهم عن مشاورتي في المستنقع عما كنت ألبس، وكانوا يستغربون عندما أصف لهم ذمي. أظنهما كانوا يتوقعون أنني ولا بد كنت أرتدي ملابس أكثر متانة وحماية. من الرائع لو تستطيع المسير وسط المستنقع وأنت ترتدي ثياباً تشعرك بالأمان، من قبيل أفرول يصل إلى أعلى الصدر أو بدلة كاملة من رأسك حتى أح敕 قدميك، غير أنك إذا ما فعلت هذا ستلقى حتفك بفعل الإنهاك الحراري، وإذا ما امتلأ أفرولك بالمياه سيفتكك الإنهاك الحراري، وفي المقام الأول ستموت غرقاً.

يرتدي بعض حراس فاكاهاشي بدلات هيئة المتزلهات وبوطهم الجلدي المعتمد في المستنقع. كنت أفضل انتعال الحذاء الرياضي على البوط، لأنه وعلى الرغم من أن البوط يمنع إحساساً أكبر بالأمان والتناسق، فقد كنت أعتقد أن انتعال الحذاء الرياضي سيتيح لي تحسّن قعر البواليع كي أتأكد من خلوها من التماسخ. كان هذا بناءً على نصيحة لاروش، ولكن حين خضت

أول باللوحة أدركت أنه لم يخبرني البة عما أفعله إذا ما تراءى لي أنني لمست تمساحاً. الحقيقة أن المستنقع مكان يستحوذ بقوة على المرء، إذ كنتأشعر بعري صارخ بالرغم من تغططيتي لجسدي من قدمي حتى عنقي. المياه باردة حد التجمد، والبعوض يتسلل داخلاً وخارجأ تحت قميصي من خلال الياقة والأكمام، وكانت جميع النباتات الشائكة تعلق بسرروالي، والطين يتسرّب إلى جوري وحذائي ملوثاً، كاحلاي وأصابع قدمي في البالوعة الرملية القاع. لسعني البعوض في بطني ووجهي، وقبيل نهاية رحلتي الأولى تلك كنت قد بلغت حداً من العصبية والإنهاك إلى درجة أن بشرتي امتلأت بالطفح لأول مرة في حياتي.

كان مايك أوين، الحراس الجوال الذي أقلني بين المساكن، سيتزلفني بالقرب من بحيرة البالوعة الكبيرة حيث أثبتت سرقة لاروش لبعض الأوركيدا. أخبرني أنه لن يرافقني في رحلتي داخل المستنقع -سيتركني في الموقع فهو مشغول بمهامات عليه إنجازها، والحارسة الثانية كاثرين، كانت موجودة قرب البحيرة وهي من ستولى إدخالي. ذكر لي أن كاثرين ربما يكون لديها بضعة متقطعين سينضمون إليها حتى يتسلّى لهم مشاهدة الأوركيدا المسروقة أيضاً. بعد أن بدللت ملابس المستنقع، سرنا بالسيارة مسافة ميلين على طريق فاكاهاتشي الوحيد. بدت لي الطريق متشابهة ميلاً بعد ميل - غزيرة وخضراء وعصية على الاختراق. توقفنا بعد دقائق وركنا السيارة في بقعة غزيرة ومخضرمة تبدو عصية على الاختراق، ظهرت كاثرين بعد لحظة من بين الأشجار. امرأة قوية البنية الجسدية وخداتها متوردان وشعرهابني مجعد منكمش على شكل هالة حول رأسها. كانت بدلتها الرسمية متقطعة حتى رسغها. ظهر خلفها رجلان ضخمان، أضخم رجلين أراهما في حياتي، بضخامة الثور تقريباً وأكتافهما بلون لحم العجل الممحوص. قرأت ذات مرة أن طول شونك مان^(١) الذي يقال إنه يعيش في الفاكاهاتشي يبلغ سبعة أقدام وزنه سبعمائة باوند. كان هذان الضخمان يرتديان لباس سجن الباستيل السيئ الذكر وقد حزما شعرهما بقمasha خفيفة. «هيا بنا نمضي»، قالت

الحارسة مشيرةً لي بيدها. أخبرني مايك أوين أنه سيلقاني لاحقاً ثم عاد إلى سيارته وقادها مبتعداً.

مشيت وخرجت عن طرف الطريق ودخلت إلى المستنقع دون أن أنتبه؛ لو انتبهت، لما فعلت هذا، طالما أن السير فوق تلك الضفة المرتفعة والخوض في المياه العميقه العكراة أمرٌ ما كنت لأفعله إلا بعد تفكير عميق. غمرتني المياه حتى الركب وبعدها إلى ما فوق الركب. التفت أعشاب حامول الماء والبينيورت الطافية على سطح المياه على ساقٍ. أحسست بنعومة الوحل في القاع، غير أن نعومته لم تكن ممتعة -ناعماً بطراوة، كحبوب الكورن فليكس المنقوعة لفترة طويلة في الحليب. انطلقت الحارسة بسرعة، وخصبنا خلفها في رتل - كنت الأولى، وبعدي العملاق #1 وخلفه، على بعد خطوات، العملاق #2. أشارت الحارسة أن الأوركيدا موجودة في بحيرة مستنقعية يمكننا السير فيها، فهي رغم عمقها ليست بعمق بعض بحيرات الفاكاهاتشي. على سبيل المثال، تغور بحيرة ديب لاك على سبعة وتسعين قدماً في الأرض. سرنا عشر دقائق تقريباً وبلغنا بقعة كانت الأجسام فيها كثيفة ولا يمكن أن ترى أرضية المستنقع من خلال المياه. إنها البحيرة، في وسطها كانت بضعأشجار نبات القشطة، وهنا قربتني الحارسة حتى يتسعني لي روية الأوركيدا الملتصقة بتلك الأشجار. شاهدت عدة جذوع منشورة وقد ربطت على الأغصان بواسطة سلك بال. أخذ لاروش الأوركيدا من خلال نشره لقطع من بدن الشجرة التي تتعلق عليها، فهو لم يكن يرغب بالمجازفة بتعريفها للأذى من خلال نزعها عن الجذوع. أعاد الحراس الأوركيدا بعدما قاموا بتصويرها بقصد استخدامها كدليل، تركوها على الفروع النامية عليها ثم ربطوا الفروع بواسطة الأسلاك علىأشجار القشطة. فعلوا هذا في عدة مواقع من المستنقع. كانت هنا شتلتان من الأوركيدا المحارية وشتلة أوركيدا الفراشة وواحدة من نوع أوركيدا الشبح. لم يكن أي منها مزهرأً - لا أكثر من كتلة جذور متشعبة صغيرة ودرنات كاذبة لوزية الشكل، وكانت جميعها، عدا أوركيدا الشبح غير المورقة، تحمل أوراقاً مدببة بلون أخضر فاتح. لُفتَّ الأسلاك مرتبين حول الأشجار بهدف تثبيت الفروع تثبيتاً محكماً. منظر مزيج مختل، ييد أن شتول الأوركيدا لم تكن قد يحيط حتى الآن.

كي نحظى برؤيه أوضح للأورياد، كان علينا الدخول في المياه من عمق يغمرنا حتى بداية الفخذ إلى عمق يصل حتى الخصر، لا بل أعمق. كانت تلك لحظة مناسبة بالنسبة لي كي أسمع لنفسي مقطعاً من خطه عبر الفاكاهاتشي الاستراتيجية وفحواه، «تجذب المحمية الزوار المغرمين بالمناطق غير المأهولة بالكامل، من يستمتعون برحلات سير مضنية ولا يخشون الخوض في مستنقع يبلغ عمقه حتى الخصر». عندما تجمعنا نحن الأربعه أمام الشجرة، عرفتني الحارسة أخيراً على العمالقين قائلة إنهم ضمن برنامج الإفراج عن السجناء التابع لسجن كوبلاند رود، في آخر الطريق من الفاكاهاتشي - لقد مررت به في طريقي. بدا الرجلان خجولين ويتكلمان غمغمة بصوت خافت. بعد تعارفنا، لاحظت أن كلاً منهما يحمل ساطوراً بطول ثلاثة أقدام. لست واثقة من سبب عدم رؤيتني للساطورين قبل ذلك، لعل السبب هو أن الرجلين كانوا خلفي معظم الطريق. أكره التجول برفقة مدانين بحوزتهم ساطوران. توقفنا في البحيرة لبعض الوقت ومن حين لآخر كان أحدهما أو كلاهما يرفع ساطوره وينهال به بقوة داخل المياه مع ملامح خوف وقرف ترتسم على وجهيهما. كانت سرعة تطويحهما بالساطور ضارية، وصوت ارتطام الساطور بالمياه أشبه بالصفع. انحنت الحارسة وهمست لي أنها سلمتهما الساطورين لأنه لديهما رهاب من الأفاعي، وقد رفضا دخول المستنقع دون نوع من الوقاية. وافقا على المجيء بعد تسليمهما الساطورين، ولكن رغم تسليحهما الشديد، كانوا يتقاتزان كأربندين ويقفان رافعين أيديهما عالياً بثبات فوق الماء. كلما طفت فقاعة إلى سطح مياه البحيرة أو سقطت ورقة أشجار أو زقزق عصفور، كنت والعمالقان نصاب بذعر شديد. حين أرتعب أتجمد. عندما يرتعب أحدهما، كان يتفضل بعصبية فيقلده الآخر على الفور، يتزاح الماء بفعل وزنهما مجتمعين ويتدحرج في موجات رقيقة متتابعة على سطح البحيرة. كانت المياه الباردة العكرة تصفع بطني كلما انتقضنا إلى الأعلى وهبطا. كان المستنقع حاراً وساكاً إلا من ضربات ساطوري العمالقين المطرطة والصادقة على المياه. قد يختفي المرء في مكان كهذا، يختفي بمعنى الكلمة، داخل إحدى حفر البواليع الدامسة هذه أو في الطمي الحار تحت الأ杰مات

الكثيفة. لا أحد قادر على العثور عليك في مكانٍ كهذا إذا ما غرقت فيه. عندها فقط اعتراني فضول شديد، لكتني آليت الانتظار حتى الخروج من المستنقع وفي عربة حكومية آمنة قبل أن أسأل العملاقين عن سبب دخولهما السجن.

يمكن لأي شخص تربية الأوركيدا

أخبرت مهتماً شهيراً بالأوركيدا قابله في فلوريدا ويدعى توم فينيل عن خطة لاروش حول إثمار وبيع ملايين شتول أوركيدا الشبح. أجابني توم بأن فكرة لاروش جنونية حسب اعتقاده. «شتول أوركيدا الشبح ميته بلا شك»، قال. «لا يمكنك زراعتها. لقد اختصرت نفسها عبر التطور العكسي حتى تحولت إلى جذور وأزهار ليس إلا، ولا يمكنها العيش إلا ضمن بيئة مناخ محلية مثالية، ليس بمقدورك اختلاقه لها». أخبرته بثقة لاروش من أن أوركيدا الشبح ستجعل منه مليونيراً. «هذه أيضاً فكرة جنونية»، أجابني. ربما يكون هناك مائة من المخربين الحقيقيين في الولايات المتحدة ممن يرغبون بالحصول على شتلة منها. بخلاف هذا لا أظن أنه باستطاعتك بيع إحداها في معرض فود فايير بأكثر من فلس». بالصدفة كان توم فينيل نفسه مليونيراً، ليس اعتماداً على نباتاته من الأوركيدا. في عام 1994، قبل لقائي به، ربح هو وزوجته ترودي 6.76 ملايين دولار في يانصيب ولاية فلوريدا. أغلقا مشتل أوركيدا جونغل بعد أسبوعين، ذلك المشتل الذي ظلت عائلة فينيل تديره بالقرب من هومستايد لما يربو على ثلاثين عاماً. ومشتل فلوريدا الذي كانوا قد كرسوا له كل وقتهم، واستغرقوا فيه كل الاستغراف. سمعت بعدها عن أشخاص من أمثال سناك بو⁽¹⁾، الذي يعيش في كوخ خشبي صغير مع الأفاعي والحشرات، والعجوز الذي يقيم على طريق تامامي ترايل وكان لديه متحف خاص بركب السرو⁽²⁾، ومروج مخدرات ميامي

1- صبي الأفاغي - م

2- تنمو من جذور الشجرة المغمورة بالماء كتل كبيرة تخرج فوق التراب حتى تتبع لها التنفس - م

يدعى ماريو تابراوي، الذي كان يجمع عينات من مختلف الأصناف النباتية والحيوانية المهددة بالانقراض في العالم. كان لتابراوي شركة أطلق عليها اسم شركة استيراد الحيوانات غير المحدودة، وحصل من خلالها على زرافة وفهدين من فهود الشيتا وأفعى بايثون برأسين أسمها ميدوزا، وعشرات الطيور النادرة، وما قيمته 79 مليون دولار من الكوكايين والمarijوانا. كنت أود التحدث مع السيد تابراوي بشأن حماسه حيال المخلوقات النادرة، غير أنه، وقبل وصولي إلى فلوريدا بوقت قصير، قام بفرم مُخْبِر مخدرات حكومي إلى قطع صغيرة ثم شوأه في شواية في الفناء الخلفي وعلى الأثر أودع السجن محكوماً بمائة سنة بتهمة القتل والإثراء غير المشروع. كتبت له في السجن إلا أنني لم أتلقي ردًا. سمعت فيما بعد أن تابراوي حصل على نقاط حسن السلوك مكافأة له على شهادته ضد خبير البيغوات بارز وناشط في مجال الحيوانات المهددة يدعى توني سيلفا، الذي بالشراكة مع والدته قام بتهريب المئات من البيغوات الياقوتية ضمن أنايب بلاستيك مخرمة من البرازيل إلى الولايات المتحدة. بدا كأن ثمة المئات والمئات من يطفى عليهم الشغف الخاص بالحياة البرية. ما زلت أعتبر لاروش وخطبه استثناء لا بل أمر يتخطى الاستثناء فعلياً - لكنه بدأ يبدو لي أكثر شبهاً بنقطة نهاية سلسلة متصلة. إنه أقصى حد من غرابة الأطوار من بين أولئك المفتونين بالكائنات الحية غير الآدمية ويلاحقونها كالعشاق.

يقع منزل فينيل وما بقي من أوركيدا جونغل على طريق هادئ بلا أرصفة في هوستايد. المنزل واطئ وفسيح. بالرغم من أن الإعصار كنس الكثير من الأحراش، ما يزال المنزل محاطاً بالأجمات والحضره التي تتراحم باتجاه الشارع. كل النباتات من الحجم الكبير. شكل سعن التخييل العملاق ستارةً حول المنزل. يبلغ طول ورقة بعض النباتات الورقية في الفنان الأمامي أربعة أقدام وعرضها بعرض فخذي. عند اقترابك من ممر سيارة فينيل سيبدو لك المنظر كأن هذا التجمع النباتي على وشك تغليف المنزل كما تغلف الهدايا. لاقاني توأم على الباب ثم قادني إلى الداخل. إنه أطول مربي أوركيدا أو ثانٍ أطول مربٌّ أنتيه أثناء وجودي في فلوريدا، وهيئه حضوره رائعة ووقفته

من النوع الاستقرائي الذي يجعله يبدو أطول حتى. رجل ستيني ذو وجه بشوش وحصل من الشعر الأبيض الكثيف وأسلوب متأنّ في الحديث. منذ أن أصبحا من أصحاب الملائكة، سافر هو وترودي كثيراً، واشتريا اللوحات الجميلة لمنزلهما، وتخليا بلا رجعة عن العمل في تربية النبات المضنية، وحين بلغ ذروة ازدهاره نظراً إليه وهو يحزم ويحمل بعيداً من قبل أحد زبائنهم. قبل أن يغدو توم مليونيراً، مرت عليه أوقات لم يكن فيها قادراً على الانتقامية، لكنه لم يكن يطيق رؤية نباته المحبب يباع إلى زبون لا يروقه، تراه يقرر في اللحظة الأخيرة أن النبات لم يعد للبيع ويصرف الزبون. لقد أرعب أسلوبه هذا أولاده؛ أخبرني ابنه بأنه حين افتح مشتلها الخاص، اتبع سياسة «كل النباتات للبيع دائمًا ولأي شخص» غير العاطفية، الاستثناء الوحيد كانت الكاتلية التي أمضى جده عقوداً من الزمن في جمعها من أمريكا الجنوبية.

قبل انطلاقنا بالسيارة، أخذني توم في جولة اطلاع حول المنزل وأشار إلى بعض من أكثر النباتات الأثيرة لديه وحكي لي عن تاريخ أسرة فينيل. بدأت الحكاية في كانتاكى بعد الحرب الأهلية، حيث كان والد جد توم يعمل في تصنيع لجام الخيول. علاوة على أن والد جده كان مبتكرًا -عشرون براءة اختراع من أصل إحدى وعشرين لأشكال حدوة الحصان من اختراعه، وكذلك ربطه فينيل لذيل الحصان، وهي جبل كاللجمام يستعمل لرفع ذيل الحصان. ما تزال معظم اختراعاته قيد الاستعمال. كان لدى والدة جد فينيل حديقة ورود كبيرة، محمية، وبعض النباتات النادرة من المكسيك، وشتلة أوركيدا أرسلتها لها إحدى صديقاتها العاملات فيبعثة تبشيرية من مدغشقر. في صباح، استغل ولدهما ليبي (جد توم) في العناية بالحديقة قليلاً. ظهر لديه بعدها مرض السل ونصح بأن يقضي المزيد من الوقت في أماكن رطبة كالدفيئات، وأخذ يعمل كثيراً في رعاية الحديقة. في آخر المطاف افتح مشتلها الخاص في ساينثيانا، وهي بلدة تقع في منطقة بلوغراس في كانتاكى. كان يفضل الأوركيدا وأصبح أول مزارع يتاجر بالأوركيدا في غرب جبال الليغنى. عند إطلاق ليبي فينيل لأعماله في عام 1888، لم يكن بوسع صاحب مشتل الأوركيدا رفع طلب للحصول على الشтол - اضطر للذهاب إلى الغابة وجمعها بنفسه. مضى ليبي في رحلة جمع الأوركيدا إلى

كولومبيا وفينزويلا في عام 1888 وعاد وفي جعبته ألفان من شتول الكاتلية. عاد مجدداً في عام 1891. وظف أيضاً صيادي أوركيدا إنكليزاً وألماناً من أجل جمعها لمصلحته من كل غابات العالم. وقع على عدة أصناف جديدة خلال أسفاره في أمريكا الجنوبية، ييد أنه رفض إدراجها في سجل الأوركيدا الرسمي للجمعية الملكية للبساتنة في إنكلترا فهو إيرلندي ويزدري أي علاقة مع الإنكليز.

كانت دفيئات شركة فينيل للأوركيدا تقع في ساوث فورك على نهر ليكينغ في سايتشيانا، وتعرضت مراتٍ عدة لأضرار بالغة بسبب الفيضانات. بعد أحد تلك الفيضانات، وكان مدمرًا تماماً، وجد ليبي نفسه مضطراً لإعلان إفلاسه. في عام 1922، قرر الانتقال وعائلته وشтолه من الأوركيدا والبورمilia إلى فلوريدا. قام بتحويل ثلاثة شاحنات إلى فانات مناسبة لنقل الأوركيدا وأنجز رحلتين ذهاباً وإياباً من كيتيتاكي إلى فلوريدا كي يتمكن من نقل جميع نباتاته جنوباً. عند شراء ليبي للأرض التي شيد عليها مشتل أوركيد جونغل، كانت منطقة ساوث دايد كاوونتي ما تزال برية. حصد النباتات وأنشأ فرجة خالية وسط غاباتها الكثيفة شيد فيها منزلًا ومشتلًا ومختبراً للنباتات. استعمل في المختبر تقنيات إنشاء بذور الأوركيدا وتوصيل في النهاية إلى ما يسمى طريقي قالب الحلوi والمنديل التركي المعروفي في أيامنا هذه. (تعتبر أسرة فينيل أسرة مبدعة. بعد سنوات من حدوة حصان والد جده ومنهج قالب الحلوi لدى ليبي، قام ابنه توماس سير بإنتاج ديك الجيش المعلم ماركة بوتر بول). في عام 1926، ضرب إعصار هائل منطقة هومستايد، دك منزل ليبي واكتسح الغابة. انتظرت العائلة مرور العاصفة سلام في سيارتهم المستودياكر⁽¹⁾. يومها نشرت ميامي هيرالد مقالها: مرة أخرى يتعرض أوركيد جونغل للانهيار، هذه المرة من قبل آلاف من عشاق النباتات. توفي ليبي فينيل عام 1941. كانت أرملته دوروثي على قناعة بأنه دفن مالاً في مكان ما من أوركيد جونغل، إذ أمضت العقد التالي وهي تنبش أرض المزرعة في سعيها للعثور على الكنز المخبأ. اقتنعت دوروثي وتوماس سير ولد

لي، الذي كان آنذاك موظفاً في هايتى في وزارة الزراعة الأمريكية، بأنه لا وجود للمال في أوركيد جونغل على الإطلاق، لا تحت الأرض ولا فوقها، وعرضها للبيع باسم العائلة. آنذاك، كان توم ابن توماس سير -توم الذي كنت في زيارته ذلك اليوم في هومستايد- طالباً في هارفارد. في إحدى زياراته لبيت العائلة، شعر أن عقله لا يقبل فكرة بيع الأوركيد جونغل، قطع دراسته الجامعية لبعض سنوات بهدف إعانته والدته في إدارتها. بعد عودته إلى هارفارد غير اختصاصه الدراسي من الدراسات الحكومية إلى البيولوجيا. عاد في عام 1949 إلى أوركيد جونغل ليعطيه كامل وقته.

تزامنت عودة توم مع اللحظة التي أصبح فيها الأمريكيون مفتونين بالأوركيدا. رأى الجنود الأصناف الاستوائية الساحرة التي تنموا في منطقة المحيط الهادى، وكثيرٌ منهم تلقى إكليل أوركيدا من هاواي وهم في طريقهم إلى الديار عائدين من الحرب. كان ريكس ستاوتن ينشر سلسلة الغازى الشعبية من بطولة المحقق اللامع نيرو وولف، وهو أحد المهووسين بالأوركيدا وكان يزور العشرة آلاف شتلة التي يربيها على سطح بيته الحجري في نيويورك مرتين يومياً، على مدى ساعتين كل مرة، وبصحبته ثيودور هورستمان، عالم النباتات الخاص به. في عام 1951، نشرت مجلة ذا ساتورنداي إيفينينغ بوست مقالاً لفيليب وايلي تحت عنوان «يمكن لأى شخص أن يربى الأوركيدا». كتب وايلي في متن المقال عن زيارته «للمنظر الطاغي» لأوركيد جونغل ثم وصف منهج قالب الحلوى البسيط وغير المكلف لمبتدعه فينيل في عملية إكثار الأوركيدا، الأمر الذي جعل من الهواية الباهظة التكلفة في متناول الجميع. لا بد أن مقالاً يقول إن زراعة الأوركيدا ليست حكراً على الأثرياء لم يكن آنذاك أقل صدمة من مقال بعنوان «يمكن لأى شخص أن يربى جياد لعبة البولو». كتب وايلي: «لقد اعتبرت أفكار فينيل أفكاراً مهرطقة... حتى الهاوى العادى لزراعة الأوركيدا يستعمل تجهيزات أعلى كلفة من تلك اللازمة لتنشئة طفل أمريكي عادى». تلقت المجلة ردود فعل كبيرة على حكاية وايلي ولم يسبقها سوى مقال يتحدث عن بيرل هاربور. استقبل الزوجان فينيل عدداً كبيراً من الرسائل بعد نشر القصة لدرجة أنه كان عليهما استئجار ثلاثة موظفي سكرتاريا للرد عليها

كلها. «الجميع يريدون معرفة كيفية الحصول على الأوركيدا والوصول إلى الجنونل»، قال توم. «في الحقيقة، كانت ثلث الرسائل تقريباً تحتوي على شيكات موقعة على بياض مذيلة بملاحظة مقتضبة تقول «أرسل لي بعض الأوركيدا رجاءً، أي شيء منها يمكن»».

عبر توم في البداية عن رغبته بتعريفي على جيرانه، وتأجيل جولتي في أوركيد جونغل إلى آخر النهار. مشينا عبر الفناء الأمامي باتجاه سيارته، من المضحك حتى تسميتها بالفناء الأمامي - ليس أكثر من بقعة جرداء تحيط بها الخضراء الوارفة من كل الأطراف، بقعة صلعاء في سجادة. حتى هذه البقعة لم تكن صلعاء بالكامل. تنتشر هنا وهناك تلك النباتات المورقة المذهلة التي تسفل فوق الحشيش المجزوز. تبدو من شدة ضخامتها أشبه بنباتات الخيال العلمي بأوراقها الرهيبة. على غفلة من توم حاولت أن ألف نفسي بإحداها. راح كلب صبي الأفاعي يتقدّم في الممر، أوقف توم السيارة أثناء مغادرتنا أمام الكوخ ليتأكد من وجود الصبي فيه. لم يكن صبي الأفاعي ولد توم، إنما كان ثمة شيء أبوبي في تعامله معه. هناك الكثير من الآباء والأبناء في عالم النبات، والبعض هم بذائل الآباء وأبناء أيضاً. ربما يكون سبب توارث الشغف بالأوركيدا ضمن العائلة على مدى أجيال عائداً إلى أن الآباء يغرسون في أبنائهم حب الأوركيدا، أو لعل هناك شعوراً غريزياً ينتقل في الأسرة حيال النباتات، كأنها حكايات فولكلورية. توم فينيل ابن وحفيده وابن حفيد هوة الأوركيدا، وأصبح ولده توم الثالث حالياً هاوياً للأوركيدا أيضاً. يبدو صبي الأفاعي، بلطفه الجنوبي مع الحشرات والنباتات، يبدو فرداً من أفراد العائلة أيضاً. ظهر بباب الكوخ مغلقاً بإحكام، ولذا وبعد دقيقة تجاهل توم الأمر وانطلق متبعاً.

في فلوريدا، الجميع يقودون سياراتهم إلى كل مكان، وإذا ما كنت من جماعة الأوركيدا فسينالك جولة إضافية من قيادة السيارة. يشارك توم عادة في العشرات من معارض الأوركيدا في طول البلاد وعرضها على مدار السنة. «شاركت في سنة واحدة بسبعين عشر معرضاً» قال. «كنت بحاجة إلى قاطرتين لنقل الأوركيدا ومعدات العرض. لا أقصد قاطرتين صغيرتين - بل

من الحجم الكبير بطول ستة عشر قدمًا تقريبًا. قدت إحداها وتولت ترودي قيادة الثانية، وكنا نسير ليلاً ونهاراً دون توقف، إذ لو توقفنا، سترتفع الحرارة في القاطرين وبالتالي تموت الشتول. تركت أجنهة عرضك عن المائة متر مربع نظرياً، غير المسموح حالياً أن تزيد مساحة جناح عرضك عن المائة متر مربع نظرياً، على الرغم من أن أحداً لا يمكنه الالتزام على أرض الواقع، أما في تلك الأيام، فكان بمستطاعك القيام بما يحلو لك. في إحدى السنوات، أقامت أجنهة العرض على مساحة ست مائة متر مربع مع شلال بثلاث مستويات والعشرات من أفضل نباتاتي. حملت إحداها ألفاً وستمائة زهرة في أحد المعارض». سأله عن أكثر المعارض مثاراً لفخره. راح ينقر على عجلة القيادة للحظات ثم قال، «إحدى السنوات، أقامت جناحاً رائعاً للعرض تحت موضوع جاك وساق الفاصلين. نحت مجسم جاك من الستيروفوم وألبسته ثياب ابني تومي. أثار إعجاب ودهشة الزوار».

ومضت اللافتات أثناء مرورنا بها: مشتل أشجار محلية؛ مشتل هانك للنباتات المورقة بسعر الجملة؛ بروميليه كيري؛ خطيبة -توبية للرب (القدوس) - الخيار الوحيد. كل بوصة من الأرض متخصمة بشيء ما - بالعشب، بأشجار الفاكهة، وبالشجيرات المتشابكة، وارتفاعات خضراء غير معروفة الاسم. سرنا بالسيارة بمحاذة فدادين من أشجار اللبخ الشبيهة بالتين مزروعة في صفوف كالذرّة. النباتات الصغيرة التي عادة ما أراها في محلات الزهور كانت بالمئات تعرش على أعمدة، وكل منها أكبر بمئات المرات من تلك التي أعرفها. خفف توم سرعة السيارة عند لافتة كتب عليها موتيس أوركيدا ودخل. «أريدك أن أعرفك على مارتين موتيس»، قال. «إنه رجل الفاندا البارع جداً. لديه أفكاره المبتكرة الخاصة به. بعضها مثيرة للجدل بكل ما في الكلمة من معنى وهو إلى حدٍ ما... هيبي، لكنه يعجبني كثيراً». كان الموتيس أوركيدا عبارة عن تجمع يضم دفيئات خشبية غريبة نوعاً ما ومباني ملحقة صغيرة ومنزل موتيس الذي تسوده بعض الفوضى. كلبان ضخمان بلون الوحل ينتقلان في الفناء. في الممر سيارة BMW منأحدث طراز تكتب على لوحتها فاندا 1. حين وقفت بجانبها، شاهدت شريطاً عريضاً بألوان الفوشيا واللافاند والأبيض خلف مظلات القماش المرفرفة. خرج مارتين

موتيس بعد لحظات من الدفينة الخشبية. بدا بحدود الخمسين من العمر، قدّه هزيل ورقيق، لحيته محلقة منذ وقت قريب مع نمط من اسمرار البشرة يبدو أصيلاً. ملابسه بالكامل فضفاضة وبلون التراب، وكان معفراً بالتراب من رأسه حتى أخمص قدميه. «سينيور فينيل!» قالها بهجة احتفالية. «لقد أمسكت بي في غمرة تأملٍ». نظر إلى وقال، «عزيزي، إنني أعمل على خطة نباتية تمتد من عشرين إلى ثلاثين عاماً من أجل قهر ويلات الزمن».

راح توم يفتش في جيبيه. «قرن بذار لك يا مارتين»، قال وهو يخرج شيئاً بنياً على هيئة شفرة المنجل. «أحضرها لي مور لك من البيرو. كنت أود أيضاً أن أحضر لك شيئاً مما عثر عليه صبي الأفاغي، لكنه كان خارج مسكنه». في تلك اللحظة، دخلت شاحنة وأخذت تفرقع مز مجرة حتى توقفت خلف سيارة توم. نزل السائق وبدأ ينزل الصناديق من عربتها. رفع مارتين نظره وقال، «عظيم، ها قد وصلت الجواهر». قلت له إنه لم يسبق لي أن سمعت أحدهم يرحب بشاحنة بتلك الدرجة من الاحتفالية. «يتبعن على أن أعلمك بأنني في طور التعافي من النمط الأكاديمي»، قال مارتين. «ما زلت أناضل للتخلص من آثار دكتوراه شعر القرن العشرين». وشرع يردد مقاطع من أشعار ييتس المبكرة ثم توقف في متصرف البيت الشعري لفتح أحد الصناديق. كان فيه نصف ذرية من شتول الأوركيدا ذات أوراق تبدو معتلة. أخبرنا مارتين أن مصدرها البيرو، و شأنها شأن الكثير من النباتات الوالصلة من الخارج، ظلت متحجزة في مركز الحجر الزراعي لوزارة الزراعة الأمريكية في ميامي لمدة واحد وعشرين يوماً. عندما تنهي الشتول فترة الحجر يتم تبخيرها بالمبيدات وإطلاق سراحها. استأنف مارتين مقطع ييتس الشعري ثم عاد وتوقف موجهاً كلامه للسائق، «قل لصاحبك إنني لا أحب أن أرى منظر شتولي بعد التبخير على هذا الشكل. إنني واثق أنه، حسناً، سيتعامل باهتمام كبير بعد سماعه لهذا الكلام». تجاهل السائق ملاحظته وناول مارتين حافظة أوراق وقلماً وقال له، «حسناً. وقع هنا الآن».

كانت دفيئات مارتين الخشبية مليئة بغراس الفاندا، وهي صنف من الأوركيدا بتلات زهرتها مستديرة وعريبة ومفتوحة، ومجموعها الخضري مرتب على شكل يجعلها شبيهة بالأناناس. تتمتع الفاندا بمظهر معتدل وشفقة

عادية، ليست غريبة أو جرافية الشكل كبقية الأصناف الأخرى. أزهارها متنوعة الألوان وقد تكون أوراقها منمشة أو معرقة أو خالية. تصادف في ذلك اليوم أن كثيراً من نباتات مارتين كانت مزهرة. معظمها بدرجات ألوان الأورجوني أو الزهري، وبدت مضيئة في عتمة الدفيئة الخشبية. أخبرنا مارتين بأن أغلب النباتات المستوردة لديه مصدرها تايلاند. كان يعمل في مختبره على إنتاج أصناف هجينية جديدة سوف يقوم بإكثارها وتربيتها بنفسه. تعد عملية التهجين العاجب الأعقد في أعمال الأوركيدا. الهدف منها تلقيح نباتين بجودة عالية والحصول في النهاية على هجين يحمل أفضل صفات أبويه. هناك ما يزيد على ستة آلاف صنف من الأوركيدا وستة آلاف نوع مهجن على الأقل مسجلة، كل نوع من هذه المائة والعشرين ألفاً يمكن أن يلقح من الأصناف البرية أو المهجنات الأخرى - بمعنى آخر، ستحتاج لآلة حاسبة كي تعرف عدد المهجنات المحتملة الناتجة عن التلقيح. يتوج عن بعض حالات التلقيح أصناف ضعيفة أو طفرات لا تملك ميزات تعويض. فيما يتوج عن أخرى أزهار جديدة في متنهى الجمال ورثت، دعونا نقول، غنى اللون من أحد أبويها وجمال المظهر والقوة من الآخر. يستحيل أن نعرف مسبقاً أي حالات من التلقيح سوف تنجح وأيها ستفشل. يتعين على مزارع التهجين الناجح أن يتحلى بحس غريزي مرتفع، وحظ وافر، والمعرفة الكبيرة بكل نبات يخطط استعماله في التهجين، والصبر على الزمن، فالهجين الجديد لن يعطي أولى أزهاره قبل سبع سنوات تقريباً.

عندما ينجح مربي الأوركيدا في إنتاج هجين جيد، يحصل على زهرة سيرغب الناس بمشاهدتها وسيأتون إليه لشرائها. بعدها يمكن لأي شخص أن ينسخ نفس النبات المهجن بنفسه، إذ إن النسب لم يعد سراً، إنما سيكون عليه الانتظار سبع سنوات لرؤيا الزهرة. بمعنى آخر، نحفظ حقوق الطبع لمزارع الهجين الجديد لمدة سبع سنوات. على مدى هذه السنوات السبع، يكون له حق احتكار قيمتها التجارية. على مدى هذه السنوات السبع، يمنع أيضاً حق احتكار حالة خلق هجين جديد - من حقه تسجيلها باسم مشتهله وإدخالها في منافسات جمعية الأوركيدا الأمريكية ولفت الانتباه إلى مهاراته الزراعية. من حقه حتى أن يكون له سلطة على مستقبل الزهرة.

من حقه التهجين حسب خاصية معينة يضعها في اعتباره، وإذا ما نالت شتوله المهجنة شعبية وحصلت على جوائز، ربما يبدأ بقية المزارعين بإجراء التهجين وفقاً لنفس الخطوات. يزيد مارتين، مثلاً، أن ينبع غراس فاندا تكون شبيهةً جداً بالفاندا يوم عشر عليها صياد الأوركيدا الفيكتوري كارل روبيلين «فاندا سانديريانا» بين أنماض زلزال الفلبين. بينما يرغب مزارعون آخرون بتحريك الأصناف عكس الاتجاه، أي الحصول، نتيجة التهجين، على نباتات أكبر وأدق في تفاصيلها وأكثر حيوية وتطرفاً في مظاهرها. من سيحقق المزيد من النجاح في معارض الأوركيدا وضمن أوساط صناع قرار الأوركيدا، سيكون له الغلبة في تحديد طراز الفاندا مستقبلاً.

يعتبر التوصل إلى هجين جديد بصعوبة ابتداع وصفة طعام جديدة. كثيرٌ من مربى الأوركيدا لا يتعبون أنفسهم بهذا إطلاقاً ويتخصصون عوضاً عن هذا بزراعة أجود أصناف الأوركيدا الموجودة أصلاً. أخبرني مارتين أنه يظن أن الكثير من يزعمون إنتاجهم لمهجنات جديدة كانوا في الواقع قد اشتروها من مشتل في تايوان وتايلاند ونسبوها لأنفسهم. «كلي ثقة أن بعض المهجنات التي سمعت عنها قد خطفت من بقاع بعيدة»، قال مارتين. «في مناسبات كثيرة يعلن أحد المربين في فلوريدا عن إثارة هجين يدعى التوصل إليه وبالصدفة سترين نفس النوع تماماً في أحد المشاتل في تايلاند. تأملني بهذا فحسب، هناك ملايين بل بلايين لا حصر لها من احتمالات المزاوجة التي يمكنك إجراؤها. إما أن المربى الأميركي اشتري الهجين التايلاندي الجديد وزعم أنه من إنتاجه وإما أنها الصدفة الأروع في تاريخ الإبداع البشري». قال إن الكثير من عشر الأوركيدا يرغبون بالحصول على شتول جديدة لتسويقها ونيل وجاهة ابتداع شيء ما، لكنهم في الواقع أكثر انشغالاً وكسلاً من أن يقوموا بهذا العمل بأنفسهم. «إنه سقوطٌ مدوٌّ لأبسط معاني الشرف، سرقة موصوفة. قد يكون صاحبنا الذي أنتج الهجين في تايلاند بوذياً وبالتالي هو شخص يتتجنب الصدام. يعتبر البوذى أن الاحتجاج على القرصنة الفكرية سلوك غير لائق من الناحية الروحية، ولذا فكلّ ما يشتريه مزارعنا من هناك يستطيع الادعاء بأنه من إنتاجه دون أن يساوره القلق بشأن الاعتراض عليه».

أثناء سيرنا في الدفيئة الخشبية، راح مارتين وتوم يتبادلان حكايات الأوركيدا ويناقشان حسنت تلقيح النباتات بواسطة العداء الكاذب⁽¹⁾ مقارنةً بالتزواوج الكاذب⁽²⁾. كنت أسير خلفهما على بعد خطوات أستمع لحديثهما، ثم توقفت أمام زهرة وردية مثيرة وشممتها. كانت رائحتها مثل رائحة كعكة الليمون الإسفنجية. «زهرة جميلة، إنها تساوي حوالي ألف دولار»، قال لي مارتين. مررنا بطاولة عليها أحواض صغيرة فيها نباتات صغيرة غير مبرعة. رفع مارتين أحد الأحواض، غمس إصبعه في التراب، وهز برأسه. رفع توم حاجبيه وسأله، «ما هذه؟».

«هذه تجربة فاشلة» قال مارتين. «واتخذ الدكتور مارتين موتييس قراراً تنفيذياً ليلة أمس أن لدينا الكثير من هذه التجربة الفاشلة للأسف».

يتوقف المشترون المتمرسون في مشتل موتييس أوركيد طوال الوقت. تصادف في تلك الظهيرة أن وصل مشتريان أثناء جولة الاطلاع التي كان مارتين يرافقنا بها في مشتبه. كان اسماهما ريتشارد فولفورد ودينيس ماك كونيل، وكلاهما جامايكيان أنيقان ومهذبان من زبائن مارتين المعادين ويملكان مجموعة متنوعة من الأوركيدا من إنتاجهما. كان ريتشارد رجل أعمال في ميامي، أما دينيس فقد كانت في زيارة فحسب. أخبرتنا أنها تقيم في عقار ضخم في جامايكا يسمى بوغ وواك. كان مارتين يتظاهر وصولهما، وحين سمع صوت سيارة ريتشارد رفع عقيرته ببعضه أسطر من روميو وجولييت ثم أومأ لهما بالانضمام إلينا في دفيئة الخشب، نزلًا من السيارة برشاقة، وتسابقا على الممشى، وتملصا من تحت ستارة من القماش الأخضر على مدخل الدفيئة، تباطأت حركتهما ثم توقيعا على بعد خطوة من نافذة البيع. سارا بروية باتجاهنا متتجاوزين مجموعة من النباتات تحمل أزهاراً أرجوانية حجمها بحجم فنجان القهوة. فوق النباتات الأرجوانية، علقت سلال خشبية مضلعة تحوي شتولاً مزهراً بألوان الأبيض والزهري الناصع. عند وصول ريتشارد

-
- تقلد زهرة الأوركيدا حشرة عدوة لجذب الملقط - م
 - تقلد زهرة الأوركيدا أنثى الحشرة لجذب الذكور - م

ودينيس إلينا أخيراً، كانت ترتسם على وجهيهما ملامح الذهول. «يا إلهي، أشعر أنني أكاد أفقد صوابي»، قالت دينيس متنهدة. ثم توجهت لريتشارد «ريتشارد، ساعدني على تمالك نفسي». قالت لمارتين إنها تعهدت لزوجها بأن تضبط نفسها. زوجها أيضاً كان في ميامي، غير أنه لم يشاً المجيء إلى مشتل مارتين. «لا شأن له بالأوركيدا»، فسر لي مارتين قائلاً.

«كلا، إنها ليست من هوایاته»، قالت دينيس. «هوایته الأكل».

«لقد اشتربت دينيس صندوقاً من الشتول اليوم»، قال ريتشارد.

طوحت دينيس بيدها وقالت، «مهلاً، إنها مجرد غراس صغيرة في ذلك الصندوق. لعلها تعد أربعة أو خمسة آلاف، إلا أنها ليست أكثر من غراس صغيرة جداً».

«يا إلهي»، قال مارتين. بدأ دينيس وريتشارد يتبعان عنا ببطء، صوب طاولة عليها أزهار صفراء مرقطة.

«كم هائل من المخلوقات الجميلة يا مارتين»، قالت دينيس.

«أمضيت عقداً من الزمن حتى حصلت على تلك»، قال مارتين مشيراً باتجاه إحدى الأزهار الصفراء وكانت أشد بريقاً وأكبر من البقية. «عقد زمني من حياة إنسان».

«انظروا فقط إلى تلك الشفة»، قال ريتشارد. وقف الجميع صامتين. كان ثمة نحلة طنانة تطوف حولها، تتأرجح على الجانيين كأنها مغمورة. ارتطمت بالزهرة الصفراء ودخلتها ثم ارتدت وخرجت منها لتدخل في أخرى. ارتجفت الزهرة بفعل تأثير حركة النحلة السمينة. قال مارتين «دينيس، عليك الحصول على هذه النبتة. امرأة بمثيل ذوقك المميز! انعيم الساعة يغري بالضحك الآن، هذا ما يعرفه كل أبناء العقلاء^(١). أنت مدينة لنفسك بالحصول عليها».

«أنا منجدبة إليها بلا ريب»، أجابت.

«هل تحتاجين نبتة مناسبة لوضعها في حقيقة سفر وتهربينها إلى

جاماييكا؟» قال لها مارتين. كان يمزح، وغمزها بعينه. «إذا كان هذا ما تبحثين عنه يا عزيزتي، إليك هذه المنمنمة الصغيرة اللذيدة». ومد يده إلى أصيص يحوي أجمل نبتة في العالم. لقد عاهدت نفسى على عدم اقتناه ولو غرسة أوركيدا واحدة في أي من رحلاتي إلى هنا، بيد أن شعوراً خامرني أنسى قد أموت إن لم أحصل على هذه. كانت أرضية بتلاتها بلون أصفر قمحى كلون المفكرة القانونية، ويتشرى فوق تلك الأرضية الصفراء رذاذٌ من نقاطٍ دقيقة بلون وردي فاقع، وأما الزهرة فتتصل بالنبات بواسطة غصين مفتول كعيadan العرق سوس. كانت البتلات ممتلئة ونضرة وملمسها ممتعاً. يبدو مركز الزهرة أشبه بوجه الخنوص. شعرت كأنها تنظر إلى كما أنظر إليها. لم تكن زهرة جميلة - آسراً، وشعرت كأنني أستطيع التحديق في متصرف الزهرة لساعات.

«لا يا مارتين، لست مضطورة للتهريب»، قالت دينيس. أسلوبها في لفظ حرف الراء أعطى لاسمها رنيناً رومانسيّاً. «لست مضطورة لشراء شيء أضعه في حقيبتي. لدى تصريح». ثم اتجها هي وريتشارد نحو مؤخرة الدفيئة الخشبية. لمح أحدهما زهرة بلون وردي وكريمي وأشارا إليها. شهقا معاً. «ما هذه يا مارتين؟» سألته دينيس بصوٍّ مترفع. «سأفقد صوابي يا مارتين». التفت ليلى إلى ما كان ريتشارد ودينيس يشيران. «أوه، أجل. أوليس هذا بتحذير؟» قال وهو يمطر حروف كلماته. «بورك قلبها الصغير». ثم تظاهر بأنه انشغل بأمر ما. نظرت دينيس إلى ريتشارد وقالت بهدوء، «لا بد أنها حصيلة تصالب نباتات خاص. إنه ليس بوارد أن يخبرنا عن حقيقتها».

«tsk，tsk⁽¹⁾، قال مارتين دون أن يرفع بصره. «إياكم والطعم»⁽²⁾.

في تلك اللحظة هرول أحد كلبي مارتين بسيقانه الطويلة ولوشه الطيني ودخل إلى الدفيئة ثم عضني عضة قوية بحق. صرخت بصوٍّ كأن كافياً ليلتفت الجميع نحوه في الحال. أمسك مارتين بالكلب وأخذ ينافق مدى غرابة ما جرى، إذ لم يسبق أن عض الكلب أحداً. خطر لي أنه حديث أكاديمي

1- لفظ يعني عدم الموافقة على ما قيل - م

2- الوصايا العشر - م

إلى حدّ ما، وبعد استماعي لهم لحقيقة توجهت إلى المنزل وأنا أخرج وبدأت أبحث عن أدوية لداء الكلب. لدى عودتي، كانت دينيس قد جمعت حوالي أربعين شتلة تود شراءها. كان مارتين يدون لها الوصل. «لنر يا دينيس»، قال وهو منكبٌ على الوصل. «ألم نتفق لك كل نقودك بعد؟».

تأوهت قائلة. «أوه يا مارتين، للأسف لقد حان موعد انصرافنا».

«أوه، لا بأس»، قال. «حسناً. والآن يا عزيزتي، لدى خبر لك. لقد قرر الدكتور موتيس التخلّي عن فاندا زهرية غامضة، وهي التي وضعتك عينك عليها». ابتسם. «أظنها الوصيّة الحادية عشرة: إياك أن تمنع غراس الفاندا الجديدة الرائعة عن أعز زبائنك وأصدقائك». توجّه إلى الطاولة التي تحمل الزهرة المجهولة. تابعه دينيس وريشارد بعيونهما. بدت دينيس كأنها تحبس أنفاسها. التفت مارتين صوبنا وهو يرفع أحد الأحواض وقال، أحبّتي الأعزاء، ألم أشار لكم وجهات نظرِي عن الدين المؤسسي بعد؟».

دخل النهار متسللاً في تلك المرحلة المصفرة، عندما تكون الشمس المترقبة في الأفق ما تزال تأمل بأن تشويك بحرارتها حتى الموت. أخبرنا توم بضرورة التحرك من المكان، ولذا فقد ودعت مارتين ورتبت لقاءه ثانية خلال يوم أو اثنين. حين عدنا وركبنا السيارة، راح توم يفكّر ملياً لبعض دقائق حول المكان الذي علينا أن نقصده تالياً. ينتشر مزارعو الأوركيدا في جميع الاتجاهات. ضمن دائرة يبلغ قطرها ميلاً حول مدخل سيارة مارتين، هناك ربما مليار شتلة أوركيدا. حقيقة لم أستطع الاعتياد عليها البتة في فلوريدا، حقيقة رؤية عدد هائل من شيء بغرابة الأوركيدا ونفاستها، ورؤيتها بعيداً عن الحالة الاحتفالية، مصطفة على مقاعد طويلة بسيطة ضمن أحواض مهملة. لم يكن هذا يجعل الأوركيدا بضاعة عاديّة - ذكرني هذا كثيراً يوم كنت أتجول في متجر هاري وينستون للمجوهرات ورأيت ما قيمته مائتا ألف دولار من قطع الماس على شكل الكمثرى مكومة في علبة سيجار عتيقة. في الواقع كان ذلك أكثر إدهاشاً من مشاهدتها في الطابق الأعلى ضمن علبة عرض مبطنة بالمخمل الأحمر. قال توم إنه يريد أن يأخذني إلى مكان فيه

أقصى درجة من الوفرة النباتية، مكان يدعى بروميليه كيري. كان مشتل كيري يتالف من مجموعة من الدفيئات التي تقدر مساحتها بـ 329000 قدم مربعة. ضمن 329000 قدم مربعة من الدفيئات، هناك 3.6 مليون شتلة أوركيدا و 1.4 مليون شتلة بروميليه. «إنه مكان كبير»، قال لي توم ونحن في السيارة متوجهين نحوه. «إنه فعلياً أكبر من كبير».

مشتل بروميليه كيري الأساسي مساحته الإعصار أندريلو، ولذا فهو في الواقع عبارة عن مكان أكبر من كبير بعلامة تجارية جديدة، فيه أبنية من الصفائح المعدنية ناصعة البياض وعربات غولف تتحرك جيئة وذهاباً. هناك شخص يدعى كيري بالفعل، وعند وصولنا أنا وتوم كان مشغولاً بتحضير شحنة جديدة قوامها مليون شتلة من أوركيدا الفالاينوبسيس، ولهذا عرض علينا كبير عمال المشتل أن يصطحبنا في جولة فيه نيابةً عن سيده. لم تكن مزرعة بروميليه كيري مكاناً يمكن أن تجويه سيراً على الأقدام. نمط من الأمكنة يتبعن عليك فيه أن تركب عربة الغolf وتتحدث مع الناس بجهاز لاسلكي ليتم تحديد موقعك حسب القطاعات والقطاعات الفرعية. اسم كبير العمال مايك، شاب حسن المظهر، ويرتدى قميص بولو بلون البيج وسر والأقصير. صعد إلى عربة الغolf وطلب مني ومن توم الجلوس في المؤخرة، ترتحت العربة وانطلقت بسرعة باتجاه إحدى الدفيئات الضخمة. أخبرنا أنه سيبدأ بعرض بعض من البروميليه علينا. «أي منها بالضبط؟» استفسره توم.

«نيوريجيليا (كرة النار)»، أجابه مايك. «لدينا هنا ما يقارب الفدان منها». أدار المقود ودخلنا إلى الدفيئة ثم تابع السير ضمن أحد الصفوف. هناك على جانبي كل صف مقعد. مقاعد بارتفاع الورك تقرباً وبعرض بضعة أقدام، أما الصفوف فطول كل منها يساوي طول ثلاثة ملاعب تنس، وفي الدفيئة العشرات والعشرات من الصفوف، وعلى المقاعد آلاف النباتات. أعلى هذه الشبكة من المقاعد المعدنية المنتظمة المقاومة للصدأ والهادئة، ثمة غابة صغيرة ذات مظهر بري. أوقف مايك العربة بجوار أحدها، يخرج من مركز النباتات الذي كانت عليه رسوميات حمراء قاسية وأوراق خضراء صلبة تنسلخ خارجة من الساق وتبتعد كقشرة ثمرة موز. إنها النيوريجيليا «كرة

النار». تحوي الدفيئة مئاتآلاف من شتولها. كانت في طريقها للتوضيب والشحن إلى متاجر هوم ديبوت ومراكيز العدائق ومخازن كمارت للتجزئة في طول البلاد وعرضها.

«دعيني أخبرك قصة»، قال توم. «هل تعرفين مصدر هذه النيوريجيليات؟ حسناً، كان هناك رفيق عجوز، صغير القد ويعيش في ساحة المقطورات بالقرب من هنا في تجمع غولدس. كان يعيش وحيداً - على كل حال، في الواقع، كان يعيش في مقطورته مع كلبٍ ومهرٍ صغير. حياةٌ رائعة بالعقل. عشر ذات يوم على بذرة غامضة عالقة على شتلة أوركيدا كان قد اشتراها. طمرها في قشرة جوز هند مفرغة وأنبتها فيها، وكانت هذه البروميلية الرائعة الجمال. أنشأ مشتلًا صغيراً خاصاً به ولم يبع شيئاً فيه سوى ذرية بذرة البروميلية تلك. لا بد أنه جنى خمسين ألف دولار منها. ظل يكسب عيشه من عائدات تلك الشتلة على مدى سنوات. أصبحت شتلة البروميلية التي عشر عليها بمحض الصدفة تمثل حياته ومصدر رزقه».

«مذهل»، قال مايك. وراح ينتف بلا مبالاة الأوراق اليابسة عن إحدى الشتول القريبة من العربية.

«أتعلم، حين وصل هذا الرفيق إلى سن التقاعد، توجهت إليه واحتريت منه النبتة الأم الأصلية»، قال توم. «كانت النبتة قد أصبحت هائلة آنذاك. بعد شرائها حفرت حولها وقلمتها، حتى لم يعد بالإمكان التعرف عليها، كانت ما تزال ممزروعة في قشرة جوز الهند تلك نفسها».

حرك مايك العربية وببدأنا نسير على مهل عبر الصف، تحفنا الأوراق المتبدلة من طرف المقاعد. أحدها كان طافحاً بأصص بلاستيكية صغيرة تحوي نباتات ذابلة ومتهدلة. رتبت النباتات على بقية مقاعد الدفيئة بانتظام كما تتنظم أحجار الشطرينج، أما هذا فكان مختلطاً وفوضوياً. أو ماً مايك نحوه قائلاً، «مشروع أنثيريوم^(١) فاشل».

«ما هو هذا؟» سأله توم. مد يده إلى أحد الأصص ونكش ترابه بإصبعه.

«صنف من البوэмيلية يسمى إيللين»، قال مايك. «لقد تم إنتاجها عبر

التعریض الشعاعی. أخذنا المادة البرعمیة الأولى وعرضناها للأشعة. کنا نأمل الحصول على طفرة ممیزة، لكن الأمور لم تسر حسبما نشتھی».

سألته عما سيفعلونه بكل نباتات إيللين للتجربة الفاشلة. «سوف نقتلع العشرة آلاف شتلة بکاملها ونرميها في حاويات دومبستر للنفايات»، أجب. تسأله إن كان الأسى قد عرف طريقه إلى قلبه ولو للحظة، أي أن يحمل آلاف النباتات ويتخلص منها. لم يكن هذا ناجماً عن طبعي العاطفي. كل ما في الأمر أنني تسأله عن شعور المرأة عندما يلقى عشرة آلاف شكل من أشكال الحياة الجديدة في القمامات بعد أن يكون قد خلقها هو نفسه. زم مايك شفتيه وغمزني. قال أخيراً، «حسناً، بالطبع أحزنني هذا. جعلني حزيناً بحق. أكره أن أرى كل ذاك المال يهدى في البلاي».

تأخر الوقت كثيراً بالنسبة لي كي أتجول في غابة الأوركیدا برفقة توم، اقترح عليّ العودة بعد عدة أيام. عندما عدت ثانيةً، اتخذت مساراً متعرجاً عبر هومستايد لا شيء إلا لأمر بسياري من أمام تلك المشاتل مجدداً. أثناء مرورني بمشتل كيري، خطر لي أن شتول الإيللين ربما تكون قد رمت في ذلك الحين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جرائم في عالم النبات

تحتفي النباتات طيلة الوقت في جنوب فلوريدا، وكذلك معظم الكائنات الحية الأخرى. بعد زيارتي لمotel برومليه كيري بيوم واحد، بعد خلوه من جميع شتول الإيللين، نشرت صحيفة ميامي هيرالد في تقريرها عن مصاعب العمل التي يكابدها صيادو الضفادع في مستنقع بieg سايريس بالقرب من فاكاهاتشي، وأنهم يصطادون شهرياً أطناناً من ضفدع خنزير إيفرغلادس⁽¹⁾ من المستنقع. حصيلة هذا الصيد تعادل طناً ونصف الطن تقريباً من السيقان الجاهزة للطبع. تم إجراء المقابلات مع بعض الصيادين خلال فترة تخيمهم للصيد ذات ليلة وهم يسلخون جلد طرائفهم. أكدوا أنه، بعيداً عن التعامل الذي لا بد منه في هذا العمل مع الزوجة والوحش، وسيلة جيدة لكسب العيش. بالمقابل، الفلفل الحلو ليس بطريقة جيدة لكسب العيش - كان موسمه لدى أحد أصدقاء توم فينيل يساوي عشرين ألف دولار، وسرق الفلفل من الحقول. سخط سخطاً هائلاً لدرجة أنه اقتلع شتول الفلفل الباقي على بكرة أبيها وأقسم أنه لن يزرعها ثانية أبداً.

لدى لاروش الكثير من زملاء المهنة كصائد نباتات. في الحقيقة، تظهر الجرائم النباتية طيلة الوقت في سجلات شرطة ميامي من ضمن التقارير المعتادة حول انتهاكات وعمليات سطو وسرقة سيارات. في ذلك الشتاء، بدلاً من جمع النباتات، بدأت أجمع أخبار الجرائم النباتية:

6 شباط 1992 - حاولت مجموعة من لصوص المنازل اقتحام منزل في العمارة 6500 في غربي Court 27th، في ساعة من عطلة نهاية الأسبوع،

- 1 - يسمى هكذا لأن نقيق ذكوره يشبه قباع الخنزير - م

لكنهم فشلوا في فتح الباب الرئيسي. عوضاً عن هذا، كسروا البُلّور الخلفي وسرقوا تسع غراس أوركيدا.

30 نيسان 1992 - قفز أحدهم عن سور منزل في العمارة 700 في شارع الغربي يوم السبت وسرقوا عدة شتلات أوركيدا. قدرت قيمة المسروقات بأكثر من 1000 دولار.

18 تموز 1985 - تعرضت نباتات فرانك لابات التي تقدر قيمتها بـ 1800 دولار للسرقة من شرفة منزله. أكد لابات أنه فقد شجرة نخيل بطول ثمانية أقدام، وشتلات عصفور الجنة الأبيض⁽¹⁾ بطول ستة أقدام، وسرخسة واحدة، وست شتلات أوركيدا واثنتين من البونساي⁽²⁾.

2 أيلول 1984 - تعرضت للسرقة مجموعة نباتات وأثاث خارجي تقدر قيمتها بأكثر من 2000 دولار من فناء منزل الدكتور باري بوراك الخلفي. أبلغ بوراك عن فقدان شتول أوركيدا تبلغ قيمتها الإجمالية 1400 دولار، وسرخس قرن الوعل 200 دولار، والقيمة الإجمالية لعشرة من النباتات المتسلقة 150 دولاراً، والقيمة الإجمالية لخمس نباتات مزروعة في أصص تقدر بـ 200 دولار، وثلاث كراس من كراسي الشرفات تقدر قيمتها الإجمالية بـ 150 دولاراً.

6 أيار 1984 - كان قاطور بطول سبعة أقدام يمشي مشيه المتعرجة في مرآب سيارات شقق فينس غاردين. لدى وصول رجال الشرطة، كان التمساح الرمادي يحاول أن يقضم رجلاً حاول لف حبل حول رقبة الزاحف فيما كان آخر يمسكه من ذيله.

6 أيار 1984 - تعرضت ست شتلات أوركيدا مجهزة للعرض، تزيد قيمتها على 700 دولار، للسرقة من فناء منزل باربرا كارتر الخلفي.

10 كانون الثاني 1991 - اقتلعت شجرة من أشجار النخيل الفزمي ونقلت من الفنان الأمامي لرون بريكب. أبلغ شاهد عيان الشرطة بأن رجلين قاما باقتلاع الشجرة، ثم وضعوها في سيارتهما البيك أب وغادرا المكان.

1- نبات استوائي ذو أوراق كبيرة وأزهار بيضاء على شكل العصفور - م
2- على شكل أشجار صغيرة - م

10 كانون الثاني 1991 - فقدان شجرة.

12 شباط 1995 - سرقت شجرة نخيل تقدر قيمتها بـ 250 دولاراً من أحد الأفنية. قام أحدهم باقتلاع الشجرة، أعاد ردم الحفرة قبل هروبه حاملاً النخلة التي يبلغ طولها خمسة عشر قدماً.

27 تموز 1991 - سرقة غراس أوركيدا.

16 أيار 1991 - سرقة غراس أوركيدا.

10 آذار 1991 - سرقة غراس أوركيدا.

31 كانون الثاني 1991 - سرقة غراس أوركيدا.

20 أيلول 1990 - سرقة غراس أوركيدا.

5 كانون الثاني 1995 - تعرضت شجرة نخيل وعدد الكهرباء للسرقة من أمام منزل في العمارة 200 في جادة S.W. 22nd. نظر مالك المتنزلي إلى الخارج صباحاً فلاحظ اختفاء المواد.

20 آب 1994 - قام أحد اللصوص بسرقة نخلة قزمية في أصيص من الفناء الخلفي.

6 أيار 1991 - أصبحت نخلة الساغو هدفاً دائماً للصوص المعاصرين في منطقة دي لاند. حتى الآن من هذه السنة، اقتلعت أربعين نخلة ساغو في منتصف الليل من مساحة ياردات غرب مقاطعة فولوسيا. اثنتان منها سرقت من مكتب بريد دي لاند.

20 تموز 1997 - يجري مكتب الشريف في مقاطعة بولوك تحقيقاً حول عملية سرقة طالت أكثر من ثلاثة شتلات أوركيدا في حادثي سطو منفصلتين في مشتل ستار لاك، قرب بحيرة ويلز. يعتقد محققو الشريف أنهما وقعاً بين الساعة 9 مساءً في 20 تموز والساعة 6 صباحاً 21 تموز. تعرض المشتل مجدداً للسرقة فجر 26 تموز.

21 نيسان 1994 - لمح رجال الشرطة رجلاً يدفع عربة تسوق تحوي على شجرة نخيل كبيرة قرابة الساعة 10 و45 دقيقة من يوم السبت. لدى اقترابهم، ترك الرجل العربة وحاول أن يختبئ خلف سيارة فان. حين أمسكوا

به، أخبرهم بأنه سرق شجرة النخيل من منزلٍ وهو في طريقه لبيعها كي يشتري المخدرات.

من حين آخر، كنت أجمع الجرائم النباتية العالمية أيضاً. لدى الإنكليز تحريض إجرامي خاص تجاه الأوركيدا. اضطرت حدائق كيو غاردنز لعرض نباتاتها من الأوركيدا ضمن زجاج مضاد للكسر وأحاطوها بكاميرات مراقبة على طريقة تيفاني في عرضها للمجوهرات. في عام 1993، طرحت أوركيدا قرد نادرة، بطول ستة أقدام، أزهاراً بلون وردي فاتح قرب لندن، فاضطررت منظمة *Naturalist' trust* لتوظيف حارسيين أمنيين للوقوف ومراقبة وحماية الشتلة من جامعي الأوركيدا. حدثت إحدى أغرب جرائم الأوركيدا التي قرأت عنها في الاتحاد السوفييتي:

موسكو، نيسان 1988 - اعتقلت الشرطة عالم طبيعتيات هاوياً حاول اختطاف «رائدة الفضاء»، الأوركيدا الوحيدة التي نمت في الفضاء الخارجي، وكان ينوي بيعها في السوق السوداء لأحد جامعي الأوركيدا، قالت إحدى الصحف السوفيتية البارحة. أثناء عملية اختطاف فاشلة، ماتت «رائدة الفضاء»، التي زرعت على متن محطة ساليلوت 6 الفضائية وعادت إلى الأرض في عام 1980، قالت صحيفة الصناعة الاشتراكية: كانت «رائدة الفضاء» زهرةً لا تقدر بثمن نظراً لأصولها الفضائية.

اعتقلت الشرطة فلاديمير تيورين، 36، عالم الأحياء الهاوي العاشر الحظ. كان تيورين، الذي تولى ذات يوم مهمة الإشراف على التنظيف في محطة تشيرنوبيل للطاقة النووية، كان جنائياً في حديقة أكاديمية العلوم في مدينة كييف. يبدو أنه كان قد عثر على شارِ موسكوفي يتضرر على الخط طلباً «لرائدة الفضاء» حين اقتحم رجال الشرطة شقته ليجدوا الأوركيدا المفتردة في حالة من الذبول والاحتضار. ماتت الشتلة قبل وصول الخبراء، حسبما ذكرت الصحيفة.

عندما يتعلق الأمر بالجرائم النباتية على الأرض، كانت رغبة لاروش الاستحواذية استثنائية، إنما لا يمكن القول إنها منقطعة النظير. لقد تعرضت

الفاكاهاتشي والإيفير غلادز والبيغ سايريس واللاكساهاتشي كلها للنهب منذ اليوم الذي اكتشفت فيه. حين استُكشفت المستنقعات لأول مرة، كان صيادو الأوركيدا يمتنعون أحياناً عن التصريح عن الموقع الذي عثروا فيه على أصنافها علىأمل حماية نباتاتهم. اكتشف فريد فوتشرز وجى أر، وهما من رواد الفاكاهاتشي المتظمين، على صنف بولبوفيلوم باكرهاتشيز في سبخة بوند آبل عام 1956، لكنهما حاولا التكتم على الموقع. في النهاية نجح الجامعون في العثور على موقع الخبيثة، وبحلول عام 1962 كانوا قد كنسوه وأفرغوه بالكامل. كان نقل أي نبات أو حيوان خارج الولاية أو المحميات الفيدرالية مخالفاً للقانون، ولكن النباتات والحيوانات تعرضت للخطف والإبعاد. يتزعز الزوار المتظمون لمناطق فلوريدا المحمية النباتات الهوائية بشكل يومي عن الأشجار السهلة المنال -بالتاليـة، لم يعد من يومية على الأشجار التي كانت على بعد ذراع من ممرات الفاكاهاتشي الشجرية. انتشر مؤخراً حماس كبير لسرخس الفاكاهاتشي النادر المعروف بسرخس اليد، الذي يبدو شبيهاً تماماً بيد بشريّة غشائية خضراء وأبواغه تخرج من رسمه الخضراء الغشائية. ينمو سرخس اليد في قفل نخيل الكرنب -أي في المنفرج عند التقائه السعف بجذع الشجرة- وهو في الفاكاهاتشي أغزر من أي مكان آخر في الولايات المتحدة. أخبرني لاروش أنه كان يعرف موقع الآلاف من سرخس اليد في محمية السيمينول، وأنه بعد وصوله إليه كان سيضع برنامج تسويق سرخس اليد موضع التنفيذ. ليس من السهل جمع سرخس اليد فهو يموت عندما يتغير مكان نموه، لذا فالسبيل الوحيد لامتلاكه هو بجمع أبواغه ونشرها. يولي حراس فاكاهاتشي انتباهاً خاصاً لسرخس اليد في منطقتهم. بعد أسبوع أو نحوه من توقيف لاروش وبحوزته الأوركيدا، اختفى تجمعاً للسرخس كانا على وشك إطلاق الأبواغ.

في مستنقع بيج سايريس، تتعرض أشجار السرو القزمي دورياً للسرقة وتُباع بوصفها أشجار بونساي. في عام 1970، أقدم أحدهم على قطع شجرة ما هو غني من صنف شامييون في منطقة كي لارغو، والهدف أن يصل إلى شتول الأوركيدا المربحة التي تعيش على الأغصان العليا. ألقى القبض على الصيادين وبحوزتهم جميع أنواع السرخس، وجنبات الأزalia، وكل أصناف

النخيل، الصبار، ونباتات الكونتي^(١). ألقى القبض على رجل في فاكاهاتشي وبحوزته عشرون من نخيل البوروتيسى نقلها في شاحنته باتجاه مول تسوق حيث سترى من السعف، ويعاد تركيب سعف صناعي من الحرير مكانه، لتوضع بعدها بشكل مرتب في وسط قاعة مطعم أو أمام متجر بوتيك. في بيج سايبرس، ألقى القبض على رجلين وبحوزتهما ما وزنه 110 أرطال من سرخس الساق الذهبية التي قاما بتحزيمها بغية نقلها إلى متجر سانتيريا الخاص بهما في ميامي، حيث سينبعانه كعشبة طبية يقال إنها تشفى من آفات البروستات. يبدو أن كل ما هو موجود في الغابة مطارد، كثير جدًا من الأشياء الموجودة فيها يباع بالمال. في عام 1933، تم توقيف ثلاثة صيادين في إيفرغلادس ومعهم شحنة من فراشات قز جبال الألب، وهي أصناف تباع مقابل سبعة وثلاثين ألف دولار لكل زوج منها في اليابان. في الفاكاهاتشي، يشغل الحراس طيلة الوقت بتوفيق الصيادين بسبب استعمالهم لتقنية «بندقية وضوء» - لأن صيد الغزلان ممنوع ليلاً، من خلال تسلیط ضوء كشاف مبهراً. تختفي التماسيح على الدوام. مؤخرًا، اعتقل رجالان في الفاكاهاتشي بسبب قتلهم لتمساح. أطلقوا عليه النار وقتلاه، ثم أخذوا جزءاً من ذيله بطول تسع وعشرين بوصة، حملاه في قارب كانوا. انقلب القارب بعد ذلك لسبعين أو لأخر وتعارض بسبب تحديد المسؤولية عن انقلابه. عندما أوقفهما الحراس، كانوا ما يزالان في عز عراكهما.

بعد ليلتين من لقائي بمارتين موتيس، ذهبت لحضور اجتماع جمعية الأوركيدا في بالم بيتش كي أستمع إلى محاضرته. كان الاجتماع على بعد ميل أو نحوه من مضمار سباق الكلاب السلوقية في ويست بالم ضمن مبنى عشوائي غريب يقع على مسار مدرج مطار ويست بالم بيتش مباشرة. لدى وصولي، كان الحضور يتحركون في أرجاء القاعة يبيعون النباتات ويتناولون الحلوي. وقف رئيس الجمعية على المنبر. «هل من بينكم من ركّن سيارة هوندا بيضاء وبداخلها راكون صغير؟» نادى بصوت مرتفع. «كائناً من كان،

- 1 - تسمى أيضًا نخيل السيكاد - م

لقد نسيت نوافذ سيارتك مفتوحة». خبط المنبر بقبضة يده بعد لحظات وقال، «حالما تأخذون مقاعدكم سوف أقدم لكم البروفيسور / عالم الأوركيدا الإنكليزي الوحيد الذي يحدث نباتاته باقتباسات من ميلتون». قبل أن يستهل مارتين محاضرته، أخذني في جولة وعرفي على مدير دار للجنائز / جامع أوركيدا، على عجوز يبلغ الخامسة والسبعين من العمر تبجح أمامي أولاً بنباتاته من الكاتاليا الصغيرة وثانياً بصديقه ابنة الثلاثين ربيعاً، وعلى امرأة أسمها سافيلا كويك، معروفة عنها لمستها المحظوظة على أوركيدا الشبح. كان لسافيلا عيناً كليوباترا الطويلتان وأربنلة أنف دائرة ولصوتها نبرة الممizza. أخبرتني بأنها ابنة مزارع وقد ترعرعت في غرب ميامي، حين لم يكن غرب ميامي شيئاً سوى مدرجات من السرو وفدادين من القصب ومنطقة شاسعة متراصة تسمى فللينغ كاو رانش^(١). اعتادت في أيام الأحد على ركوب حصانها في أرجاء المستنقعات باحثة عن الأشياء، لا سيما الأوركيدا، وعلى وجه الخصوص تلك الأصناف غير المورقة كالأوركيدا المحارية والشبح. آنذاك، كان جمع الأوركيدا البرية ما يزال مشروعًا. كلما لمحت سافيلا شيئاً ترغب فيه، كانت تقف على السرج وتتمدد يدها. «كانت الأحصنة تعرف ما كنت أفعله». قالت لي. «تقف بلا حراك بشكل مثالى أثناء توازني فوق السرج. الوحيد الذي خالف القاعدة هو الفحل باللومينو، لا يكف عن التحرك بحركات خفيفة متكررة كلما وقفت على السرج». كانت تعود بالنباتات البرية وتلصقها على الأشجار في فناء منزلها. كان هذا قبل عقود مضت. تغيرت الحياة منذ ذلك الحين، اندثرت أحراش غرب ميامي وكبرت سافيلا، تزوجت مرتين، وانتقلت عدة مرات، رزقت بأطفال وتقاعدت من عملها، غير أن الأوركيدا التي جمعتها في صباها ما زالت تنمو في الفناء الخلفي.

قالت لي سافيلا إن بمقدوري زيارة منزلها في بوينتون بيتشر كي أرى شتول أوركيدا الشبح العتيقة. قالت إنه يتبعين علي المعجب غداً، فهي وزوجها بوب يحرمان الحقائب استعداداً للسفر إلى أركنساس لقضاء الصيف هناك،

ولأنني كنت في غاية الحماس لرؤيه أوركيدا الشبح أخيراً، ما كنت لأفوت فرصة كهذه وأتأخر ولو دقيقة. لا بل وصلت في اليوم التالي إلى منزل سافيلا قبل الموعد، لعلها المرة الأولى في كل حياتي التي أصل فيها إلى أي مكان قبل الموعد. لدى وصولي، كانت سافيلا مشغولة على الهاتف وتسعى لتأمين بيوت صيفية لشтол الأوركيدا. قابلني زوجها عند الباب ثم أودعني على طاولة غرفة الطعام، ومضى إلى غرفة أخرى ثم عاد بعد دقائق كي يعرض عليّ بعض الأقلام التي نحتها من أخشاب نادرة غريبة. عندما لم أكن أعبر عن إعجابي بالأقلام، نظرت من خلال نافذة غرفة الطعام إلى داخل دفيئة سافيلا الخشبية، في محاولة مني أن أعرف إن كنت أستطيع أن أحظى ولو بلمحة من شтол أشباحها. كانت الدفيئة بحجم عربة جرار تقريباً تملأها النباتات. ريح خفيفة تهز السلال المعلقة هنا وهناك، تحرك الشادر الأخضر وتجعل قطع شميسة الرياح^(١) تقر بعضها على بعض بصوت رتيب.

حين فرغت سافيلا من مكالمتها، هرعت إلى غرفة الطعام وجثمت على طرف كرسي، تشبك وتبعد أصابعها وهي تنظر إلى شذرأ. «إذن، تريدين أن تعرفي بشأن أوركيدا الشبح؟» سألتني. «أوه، لا أدرى! هل عليّ حقاً أن أبوح لك بأساري؟ أوه، أفترض أنه يتبعن عليّ هذا. هذا لمصلحة الأوركيدا، أليس كذلك؟ لطالما حاول الكل دفعي للبوج لهم بأساري، فأنا من النادرين الذين نجحوا في تربيتها على ما ييدو».

كان بوب يقوم بتوضيب أقلامه من الأخشاب النادرة. «ليس لدى فكرة عن طبيعة عملك يا حلوي، لكن لديك أسلوبك الخاص».

«السر الذي اكتشفته هو أن أوركيدا الشبح تعشق شجرة المانغو»، تابعت سافيلا كلامها. «ما إن تصعي فراخ الشтол على شجرة المانغو في مكان نزول ماء الرذاذ تماماً، حتى تقع في غرامها. وكلما حصلت على الأبواغ من إحداها كنت أضعها في الثلاجة مباشرةً. تقوم بعدها بنت رائعة بإنتاش الأبواغ لمصلحتي في منطقة جو碧特. تحب فراخ شтол الشبح أيضاً شجرة القشطة. حالياً أربى شجرة قشطة في أصيص كي أحملها معى إلى أركنساس.

- تشبه الجرس وتعلق بالسقف - م

ليست جاهزة بعد. عندما تصل إلى عمر مناسب، سوف أنقل أوركيدا الشبح إليها، عندها يمكنناأخذها معنا بالسيارة في رحلتنا إلى أركنساس».

ذاع صيت نجاح سافيلا في التعامل مع أوركيدا الشبح بين الكثيرين من جمهور الأوركيدا، وهي تتلقى اتصالات دائمة من الراغبين بشراء إحدى الشتول. في وقت سابق من ذلك الأسبوع، تلقت اتصالاً من تامبا⁽¹⁾ وآخر من كاليفورنيا. قالت المتصلة من كاليفورنيا لسافيلا إنها تستميت توقاً للحصول على نبتة أوركيدا شبح، وسألتها عن السعر الذي تريده مقابل إحداها. «قلت لها مائة دولار»، قالت سافيلا. «صدقًا، كان بإمكانني أن أطلب ألف دولار ثمناً لها! إنها واسعة الشراء! أخبرتني أنها مستمية! لكنني على ثقة من أنها لا تريدها إلا بقصد التباهي. الأوركيدا بالنسبة لها مجرد شيء يدعم مكانتها حسب ظني». سألتها عما قررته بهذا الشأن. قطبت جيئنها وأجابت، «أخبرتها أني ساعاود مهاتفتها عندما يتوفّر لدي بعض البذور. ربما أفعل هذا، لكنني راهنت نفسي ألا أعطيها ولو شتلة واحدة. أستطيع القول إنها صنفٌ من البشر يهوى الأوركيدا الحظياً ثم يهملها لموت».

بيع بوب وسافيلا من حين لآخر الأوركيدا الفائضة في معارض النباتات. قبل فترة، في أحد تلك المعارض، وقف أحدهم أمام طاولة الكويكس⁽²⁾ وفتح حديثاً مع سافيلا. ربما تحدثا عن أوركيدا الشبح وربما لا. لعله قال إن لديه صديقاً يود شراء إحداها ولعله لم يفعل. الأمر الوحيد المؤكد هو شراء الرجل لشتلة أوركيدا صغيرة عن الطاولة قبل أن ينصرف. بعد يومين، اتصل الرجل بسافيلا معبراً عن رغبته بالحصول على المزيد من شتول الأوركيدا. وافقت على السماح له بالاطلاع على مجموعتها. «كان لطيفاً ودمثاً للغاية»، قالت. «هذا هو سبب سماحي له بزيارتني، رغم أنه لم يشتري سوى غرسة أوركيدا واحدة صغيرة وبائسة في معرض البيع». كان لدى الرجل فضول خاص حيال نباتات سافيلا من أوركيدا الشبح، وعندهما زارها اصطحبته بجولة حول المنزل وجعلته يرى عناقيدها المتعلقة

-1- مدينة على ساحل الخليج في فلوريدا - م

-2- قابلة للطي - م

على شجرة المانغو. معظمها لم يكن مزهراً في حينها، لكن إحداها كانت قد بدأت تتشكل محفظتين للبذار. اتصل الرجل بسافيلا مساءً وعرض عليها مائة دولار مقابل إحدى المحفظتين. لم تكن واثقة من رغبتها ببيع إحداها، ومع ذلك فقد اتصلت به في اليوم التالي وأعلمه بموافقتها، ثم شرحت له عدم نضوج المحفظتين بعد، وبالتالي لا يمكنه الحصول عليها حالياً. أخبرته بأنها ستتهاجمه عندما تنضج المحفظة وتصبح جاهزة. كانت بطاقة عمله معها، كتب عليها رقم جهاز النداء بدلاً من رقم هاتف عادي، وصندوق بريد بدلاً من عنوان عادي.

بعد عدة أيام، قررت سافيلا تفقد حالة تقدم نضج محفظتي البذار لأوركيدا الشبح، اقتربت من شجرة المانجو وانحنت لتلقي نظرة. لم تر المحفظتين، إحداهما اختفت نهائياً وأما الثانية فقد انقسمت نصفين. أحد نصفيها ما يزال معلقاً بالجذور والأخر ملقى على العشب عند جذع الشجرة. عادة ما تصنف سافيلا نفسها بأنها شخص مفرط العاطفة. تقول إنها تتنمّي الآن لو أنها لم تسمح لنفسها بالوصول إلى ذلك الحد من الاستياء حيال محفظتي البذور، إنما لم يكن بيدها. استعر هياجها الجنوني، راحت تتحرك بجنون في أرجاء الفناء والمتنزّل. قامت بعدها بتجميع قطع المحفظة المخربة وحملتها إلى نانسي بريس، المسؤولة عن إكثار البذار التي تعتمدّها في منطقة جوبر. نظرت نانسي إلى المحفظة وأكّدت أنها متهكّمة، غير أن سافيلا لن تتصدّر قبل أن توافق نانسي على إجراء فحص للبذور في مختبرها والتأكّد مما إذا كان بالإمكان إنقاذهما. بعد عودة سافيلا إلى المتنزّل، اتصلت بالرجل الغريب طمعاً بالحصول على شيءٍ من التعاطف. أخبرته بما جرى وذكرته أنه اشتري محفظتي البذور لمصلحة أحد أصدقائه حسب قوله. سألته إن كان يعتقد أن صديقه ربما يكون قد نفذ صبره ولم يعد يطيق الانتظار أكثر للحصول على البذور. أعرب لها الرجل الغريب عن أسفه العميق لما جرى، ولكن ذاكرتها قد خانتها على ما يبدو - إذ لم يدفع ثمن البذور نيابةً عن صديقه، بل كان يريدها لنفسه. قال لها إن هاوياً آخر لأوركيدا الشبح لا بد أن يكون قد سمع بوجود محفظتي البذور لدى سافيلا ومن المرجح أنه أقدم على سرقتها.

بعد سرقة المحفظتين مباشرةً، اقتحم أحدهم دفيئة كويك الخشبية وسرق

منها ثلاثة شتلة تقريباً، ومن ضمنها ثلاثة وعشرون من أنواع جمال أقل من قيمتها - نباتات لن تسترعى انتباه أحد سوى شخص من عشر الأوركيدا. ركبت كويك كاميرات مراقبة في الدفيئة الخشبية وجهاز إنذار في الفناء. بعدها بفترة، رصدت سافيلا الرجل الفضولي في أحد معارض النباتات، كانت المرة الأولى التي تراه فيها منذ اختفاء محفظتي البذور. تعرفت عليه بصعوبة، إذ قام بتغيير مظهره تغييراً كاملاً تقريباً. «كان مشقر الشعر حين قابلته لأول مرة. أما في تلك الأثناء فكان شعره داكناً»، قالت سافيلا. «كان يضع نظارة عندما التقى، أما حينئذ فكان يستعمل العدسات اللاصقة. لا بل حتى ملابسه كانت مختلفة! كان يرتدي ثياباً عادية بسيطة عندما التقى، وحين شاهدته مجدداً كان يرتدي ثياباً رجولية تبرز عضلاته المفتولة». لم يتحادثا؛ في الواقع، مضى الرجل الغريب في طريقه دون حتى أن يسمع لسافيلا برأيه وجهه عن قرب.

قاطعت سافيلا نفسها واقتصرت أن تقوم بجولة في الدفيئة الخشبية. كان الطقس يغلي في الخارج. ذكرت أن ابنته انتقلت من فلوريدا وتقيم حالياً في أنكوراج، في ألاسكا. رحنا نتمشى بين مقاعد النباتات، نحاذر ألا نلمس سلال الأوركيدا المعلقة. نسجت يمامه عشها في إحدى السلال وأخذت تتبعنا بعينيها الدائريتين، وتخرّر كالقطة. ذيلها مزركس بخط برتقالي فاقع لدرجة أنه بدا غير طبيعي. «أنا من فعل هذا»، قالت سافيلا، وهي تومئ نحو الطائر. «لقد لونت ذيلها بواسطة طلاء بخاخ عندما جاءت إلى هنا أول الأمر كي تبني عشها، إذ أردت متابعتها والتتأكد من عودتها إلى السلة. أتاح لي هذا الخط عدم الخلط بينها وبين أي طائر صغير آخر». تابعنا سيرنا المتهادي. أشارت سافيلا إلى نباتات أرادتني أن أنتبه لها - *الفاندا* البطلة، سرخس قزحي الألوان، غرسه أوركيدا صغيرة مجعدة كانت قد جمعتها في مراهقتها. لقد راقت لي جميعها. كانت مزروعةاتها لامعة وتضج بالحياة، كأنها غسلت بالشامبو وجففت. بسبب نور الغسق، بدت الأزهار الأرجوانية والزهرية متوجبة، وخفقت الأزهار الحمراء كأنوار سيارة الإسعاف. اقتصرت سافيلا أن نلقي نظرة سريعة على أوركيدا الشبح، ومن شدة لهفتي خيل لي أني أكاد أنفجر. مشينا من تحت اليمامة التي

تخرّر ودرنا حول المتنزّل صوب شجرة المانغو. هناك، توقّعت أن أكحل عيني أخيراً بمرأى أول زهرة أوركيدا شبح. انتشرت جذور الشتلّة على الجذع بنمط نجمي يتشكل عادةً عندما يتعرّض زجاج النافذة للكسر بواسطة حجر. لاحظت في الحال أن أيّاً منها لم تكن مزهرة، وشعرت بانسحاب الهواء من جسدي بفعل الإحباط. كانت إحدى كتل الجذور تحمل برعماً ناهضاً بالغ الصغر بلون أخضر فاتح، قالت سافيلا إنه سيتحول إلى زهرة بعد شهر أو شهرين. مررت أصابعي هبوطاً وصعدواً على جذور الأوركيدا الملساء المطاطية وعلى لحاء المانغو الخشن، ثم عدنا إلى البيت. فتحت سافيلا صندوق مصنفات صغيراً وسحبته منه بطاقات فهرسة سجلت عليها معلومات عن جميع النباتات البرية التي جمعتها. ناولتني بطاقيتين. كتب على الأولى «هاريسييلا بوريكتا الشبح الصغيرة جداً، جُمِعَت في 89\5 من بيغ سايريس» وعلى الثانية «بوليرهايزا إينديني جُمِعَت في 89\5 من بيغ سايريس». إنهم الشتلتان الناميتان على شجرة المانغو.

أزاحت بطاقات الفهرسة وأخبرتني أن لحكاية محفظة البذور فصل آخرًا. تستغرق بذور الأوركيدا حوالي ثمانية أشهر كي تتناثر، وبعد ثمانية أشهر من سرقة محفظتي البذور، تلقت سافيلا رسالة من الرجل الغريب. «كان ذلك في فترة الميلاد»، قالت. «لكنها لم تكن بطاقة معايدة، بل مجرد ملاحظة. في البداية ظنت أنّه من المعيب عدم احتواها حتى على عبارة ميلاد مجيد. لم يكن فيها سوى، (عزيزتي سافيلا آمل أن تكوني قد تجاوزت خسارتك المأساوية لمحفظة البذور. اتصلي بي عندما يصبح لديك غيرها). أوليس هذا عجياً؟». وفقاً لتأويلها، طالما أنها بدت متربدة قبل الموافقة على بيع المحفظة لذلك الرجل فقد ساوره الشك باحتمال مراجعتها لقارارها، ولذا فقد قرر استباق الأمور وسرقتها. اكتشفت أنه تسلل إلى فناء منزلها ليلاً، سرق إحدى المحفظتين وخرب الأخرى عن غير قصد، حاول بعدها إنناش البذور، انتظر ثمانية أشهر، وأيضاً كي يخدعها بالحصول على سافيلا ملاحظة كي يتودد لها فحسب، وأيضاً كي يخدعها بالحصول على محفظة بذور أخرى. لم تتصل به البتة بعد رسالته، لكنها ما زالت تلصق بطاقة عمله على أحد أبواب خزانات المطبخ. استفسرت عنه، لكن أحداً

من جماعة الأوركيدا ممن تعرفهم لم يسمع به قط. تفترض أنه لن يسعى للتواصل معها ثانية أبداً.

حدثت إحدى أضخم الجرائم النباتية السيئة الصيت في فلوريدا في ربيع عام 1990، حين دخل أحدهم عنوةً إلى دفيئة مشتل آر. إف. أوركيد الخشبية وسرق ما قيمته 150000 دولار من شتول الأوركيدا الحاصلة على الجوائز. لقد تعذر تعويض الكثير من الأوركيدا المسرقة. كثيرٌ منها كانت نباتات معارض، فازت بأعلى مراتب الشرف في الجمعية الأمريكية للأوركيدا، كما أنها كانت تستعمل كأمهات - نماذج قوية وحيوية فاخرة النسب تستخدم في الإكثار والاستنساخ. عدًّا هذا الاقتحام خبراً مهولاً وسط مزارعي الأوركيدا وجماعيها فهو أضخم عملية سرقة للأوركيدا حدثت يوماً في فلوريدا ولعلها الأضخم في الولايات المتحدة، وبلا شك أكبر سرقة حدثت في التاريخ لمثل هذه النباتات المميزة. واقع حدوثها في مشتل آر. إف. أوركيد زاد من أهميتها في وسائل الإعلام، إذ يعد هذا المشتل أحد أفضل المشاتل وأكثرها نجاحاً في جنوب فلوريدا، وصاحبها روبرت فوتشز مزارع ذائع الصيت.

لم يتفرغ بوب فوتشز للعمل التجاري بالنباتات إلا في عام 1985، بيد أن أسرة فوتشز كانت متخرطة في زراعة النباتات على مدى ثلاثة أجيال. أول الوافسين إلى فلوريدا من آل فوتشيز كان تشارلز جد والد بوب، الذي كان فراناً في ميلان، في تينيسي. في عام 1912، أصيب تشارلز بالملاريا عندما كان في الثامنة والأربعين من العمر. نصحه طبيبه بالانتقال جنوباً. بالصدفة كان أحد أصدقاء تشارلز في طريقه بحثاً عن أرضٍ في جنوب فلوريدا فدعاه تشارلز لمرافقته، لكنه امتنع عن الذهاب فقد كان السيرك يقام في ميلان ذلك الأسبوع ولم يكن ينوي تفوتيه. غير رأيه بعد عدة أسابيع والتحق بصديقه إلى هومستايد، فلوريدا. لم تكن هو مستايد في عام 1912 قد نمت نمواً واضحاً. بالكاد كان فيها منازل أو مطاعم أو برادات، لا شيء سوى بضعة خطوط هاتف، وقد علقت جميع أسلاك الهاتف على أشجار الصنوبر بغض النظر عن عددها. قرر تشارلز وصديقه إجراء جولة في المنطقة. استمرت الجولة عشرة أيام، ولم يخرجَا قيداً نملة من غابات

الصنوبر طيلة الوقت. وقع تشارلز في غرام هذه الأرض فبعث لعائلته في تينيسي صندوقاً من حبات البرتقال الذهبي الصغيرة كي يظهر لهم مدى حماسه. لم يكن أحد من عائلة فوتشز قد شاهد البرتقال الذهبي قط، ولهذا ظنوا أن تشارلز أرسل لهم برتقالات صغيرة الحجم مشوهه. بعد عودته إلى تينيسي، باع تشارلز وزوجته معظم مقتنياتهما إضافة إلى عدة الفرن ولم يكن معهما لدى وصولهما إلى ميامي سوى الأولاد، وثيابهم، ودجاجتين حيتين. كان تشارلز قد اشتري منزلًا في هومستايد خلال رحلته إليها، عند وصولهم إليه وجدوه مظلماً وفي حالة مزرية، يعج بالنمل والبراغيث. كانت الدروب المحيطة بالمنزل ضيقة ووعرة. بعد استقرار الأسرة فيه، كان ولدا تشارلز الكباران تشارلي وفريدي يذهبان إلى السوق كل يوم أحد لشراء اللوازم على دراجتيهما الناريتين. ذات مرة، اشتري الصبيان بعض ثمار جوز الهند من السوق، وضعاها تحت قمصانهما التي شيرت كي لا تعيقهما في قيادة الدراجة. في الطريق إلى المنزل، تعرضا بحبات جوز هند بريءة كانت مبعثرة على الطريق. قذفا عن مططيهما، وتسببت لهما جبنا جوز الهند اللتين اشترياها من المخزن ووضعاها تحت قمصانهما بالر sposون. حاول تشارلز كسب لقمة عيشه كمزارع أول وصولهم إلى فلوريدا، لكن أرض هومستايد ليست سوى قشرة رقيقة من التربة الرملية جائمة فوق صخرة مرجانية صلبة. حتى تزرع أي شيء، يتبعن عليك فتح فجوة في الأرض بواسطة الديناميت. تخلى تشارلز في النهاية عن فكرة العمل الزراعي. عاد إلى عمله في الخبز وسرعان ما توصل إلى وصفة خاصة لرغيف سندويش أبيض وأملس، أطلق عليه اسم خبز الكريما الذي أصبح الخبز الأكثر شعبية في فلوريدا، ونما فرن آل فوتشز حتى تحول في الآخر إلى مشروع تجاري وطني مزدهر باسم مخبز هولسيوم.

في عشرينات القرن العشرين، عندما انفصل فريد ولد تشارلز -جد بوب فوتشز - وبدأ يدير عمله الخاص، كانت الحياة في كثير من مناحي الحياة في أميركا قد بدأت تغدو عصرية، غير أن فلوريدا كانت لا تزال بريئة، لا بل أكثر بريئة من الغرب. غير مستكشفة ومخونة بالأدغال. تلحظ محاضر اجتماع أمناء الجمعية الأمريكية للأوركيدا في عام 1921 أن قلة من الأمناء

«استطاعوا تقديم روايات ذات قيمة حول جهودهم في تحديد موقع الأوركيدا المحلية (في فلوريدا) وصعوبات محاولة إخراجها من الغابات الكثيفة - البعيدة كل البعد عن قلوب الناس في بعض الحالات». لا بل كانوا يعتبرون مستنقع فلوريدا مكاناً تملؤه الرهبة، كحيوانٍ يمكنه التهامك حياً. قبل عشرين سنة فقط، كانت محاولة عبور جنوب فلوريدا تعتبر تصرفاً طائشاً. حين عبر أحد المغامرين ويدعى هوغ ويلوغبي منطقة إيفرغلادس بواسطة زورق كانوا في عام 1898، اعتبره الناس شخصاً معتوهاً. كتب ويلوغبي في مذكرته أنه تناول مقلية مالك العزير الأزرق وسلطة من الكركند ونخيل الكرنب، مصحوبة بلحم خنزير مجدد وليمونة وعلكة كان قد أحضرها معه. لقد كان يعتزم النوم على فراش هوائي، لكنه لم يجد نفعاً. «فشل التجربة، وانتهي بي الأمر للنوم على (الفراش) دون نفخة، إذ كانت تجأر كتساح كلما تقلبت فوقها، وتتنفس في متصرفها مما جعلني أسقط عنها باستمرار». بقاوئه على قيد الحياة هو ما أذهل أصدقاء ويلوغبي. «منذ عودتي، طرحت عليّ هذه الأسئلة مراراً، ألم تصب بالحمى؟ ألم تعان من المرض جراء احتكاكك بذلك المستنقع المرعب والموبوء بالملاريا؟ أجيدهم أنني لم أعاذ طيلة الشتاء من آية حكمة أو ألم، عدا حادث ألم بي في فلوريدا ريفس، خسرت فيه نصف عظمة أنفي».

تحتفل براري فلوريدا عن تلك التي في الغرب. قطع الرواد في الغرب السهول الشاسعة وسلامل الجبال المكسوفة تماماً واللامتناهية أمام عيون جاهزة لتلقفها. لقد جعل السفر غرباً، عبر تلك المساحات الخالية والمتشعة، الكائنات البشرية تبدو وحيدة وتابهة، لكانها خربشات رسوم على صفحة صفحاء. سافر رواد مغامري جنوب فلوريدا سفراً داخلياً، ضمن موقع حalk ومتشعب بتشعب وحلكة لفة أسلاك تلميع الفولاذ، موقع هو بالأساس زاخر بالكائنات الحية. كان على رواد فلوريدا مواجهة ما قد يخبئه لهم ذلك المكان المتشعب الحالك والزاخر. كي تسير غور مكانٍ كهذا، لا بد لك من الغياب فيه. أكاد أجزم أن مقاساة الوحدة ربما تكون أسهل من مقاساة فكرة احتمال اختفائك.

برع فريد فوتشز كفران مثل أبيه، وكان من حين لآخر يساعد في الهولسوم، لكنه حقيقةً كان يفضل العمل في الخارج. ولما أصبح يعتمد على نفسه تحول إلى مزارع وشخص مولع بالعمل خارج الجدران. عمل في تربية الخنازير وزراعة البامية وطور صنفاً جديداً من الأفوكادو اللذيذة الطعم والمتماسكة، سمي أفوكادو فوتشز. كان يهوى الصيد في إيفرغلادس برفقة السيمينول الذين يعيشون في مناطق قرية. ضخم الجثة وقوى البنية ومغرم بتناول لحم الغزلان النيء. كان هو وقلة من الرجال الآخرين -من أمثال توم فينيل، والسير بيل أوزميست، وكابتن سي سي فون باولسين، وراليغ بورني- هم مستكشفي المستنقع العظام من أبناء جيلهم وأخر جيل كان أمامه الكثير من جنوب فلوريدا الاختراقه. حالياً، لا سيما حين أوقف سيارتي في طابور أمام كشك دفع ضريبة الطريق على شبكة طريق فلوريدا السريع، ومنازل البلدة بأسطحها القرميدية المترامية الأطراف التي تبدو كأكبر طاجن في العالم من بطاطس السكالوب، أشعر بالذهول من الحياة التي عاشها فريد فوتشز ورفاقه من المغامرين - من حياتهم التي عاشهما وهم يرقدون فيها على فراش عادي، لديهم سيارات ويحضرون الأفلام، ومع هذا يستطيعون الوصول إلى المستنقع الذي لا يبعد سوى أميال قليلة عن منازلهم والعثور على مخلوقات لم تر أو تخطر في الخيال فقط. عشر فريد في المستنقع على الكثير من الأشياء الغربية. عشر في الفاكاهاتشي على قذيفة المدفع التي يعتقد أنها قتلت زعيم التالاهاسي. كما عشر في الإيفرغلادس على عبارة مكتوبة تقول «أجل، ليس لدينا موز» في معسكر قديم للهنود، في بساتين مهجورة من قصب السكر وأشجار الموز. شرع يجمع شتول الأوركيدا قرابة عام 1935 ولعله أخذ عشرات الآلاف من المستنقعات، بما فيها خمسة عشر أو عشرون من الأصناف الجديدة. عشر وأطلق التسميات على عشرات الأصناف من النباتات الهوائية الجديدة. قام أيضاً بجمع حلزون الأشجار والأشجار. عرف بولعه الخاص بأشجار النخيل الملكي، نخيل فاكاهاتشي ذي خصل الأوراق في أعلى، والذي لا يرى في بلادنا سوى في جنوب فلوريدا. لأن النخيل الملكي نادراً جداً ما يسقط، قرر فريد زراعة صف مؤلف من أربعة عشر شجرة في مزرعته. أطاح إعصار عام 1945 بمعظم ما في مزرعة فريد.

لقد نجا وزوجته من خلال ربط أنفسهما إلى إحدى أشجار النخيل الملكي تلك. في عام 1947، الذي بات معروفاً في جنوب فلوريدا بالسنة التي لم يتوقف فيها المطر، هطلت على مزرعته براميل من مياه الأمطار وجرفتها، لكن فريد لم يفقد ولا شجرة.

كان فريدي ابن فريد - والد بوب فوتشز - مصاباً أيضاً بلوثة الاستكشاف. تعرّث ذات مرة وسقط في حفرة عميقه في سايكس هاموك، وهي غابة من الأشجار الخشبية الصلبة التي ظهرت بعد تراجع مياه المحيطات الأولى كاشفةً عن جنوب فلوريدا لأول مرة، قبل اثنين عشرة ألف سنة خلت. أثناء احتجازه في الحفرة، لاحظ وجود سرخس نادر كان يعتقد أنه انقرض منذ مشاهدة الدكتور تشارلز توري سيمبسون له آخر مرة عام 1903. كان فريدي يرافق والده فريد في رحلات صيد الأوركيدا منذ نعومة أظفاره. عادة ما كان فريد يربط فريدي بحبل من خصره كي لا يفقده في الوحل. مع بلوغه سن المراهقة، كان فريدي يعين أهله في المزرعة من خلال صنعه لتقانق لحم الخنزير. تسلم في صباح منصب مدير مكتب البريد في نارانجا، البلدة التي تقع بعد هومستايد، وأدار أعمال الأوركيدا إلى جانب وظيفته. كانت آنذاك الكثير من مناطق هومستايد قد استصلحت وزرعت ولم يعد بإمكانك حتى أن تحلم بالسير عشرة أيام عبر غابات صنوبر متصلة. أصبح صيادو الأوركيدا الذين يأتون إلى جنوب فلوريدا مضطربين للتوغل بعيداً جداً في أعماق الغابات بغية العثور على أي شيء غير عادي. كان فريدي طويلاً القامة ومفتول العضلات يمتلك روحًا مغامرة. لطالما أسعده التسкуك في أقصى مساحات الفاكاهاتشي، كالبيغ سايريس والإيفر غلادس من أجل العثور على الأوركيدا، وتقدم لاحقاً في صيد الأوركيدا حتى وصل إلى كل بلدان أمريكا الجنوبيّة تقريباً وجزر الهند الغربية.

يبلغ بوب فوتشز، ابن فريدي، الخمسين من العمر حالياً. بدأ بالتعامل مع النباتات في سن مبكرة - كان له مقعدٌ خاص للأوركيدا في دفيئة أبيه فريدي ومجموعته الخاصة من البنفسج الإفريقي. في الثالثة عشرة من عمره، سافر بوب في أول رحلة خارجية له لصيد الأوركيدا برفقة فريدي إلى جمهورية الدومينican. كان من المفترض أن تبدأ رحلة الصيد في سانتو دومينغو، لكن

وقود الطائرة نفد وهبطت في سانتياغو بدلاً من دومينغو. ارتابت السلطات في هذا الهبوط الاضطراري، فأرسلت جنوداً مدججين بالسلاح لمقابلة الطائرة. بعد نزول الصبي والده إلى مدرج المطار، قدم فريدي للجنود علبة من دجاج كتاكى المقللى كمبادرة حسن نية. يبدو أن هذا التصرف لاقى استحسانهم، إذ سمحوا لفريدي وبوب بالبقاء والقيام بالجمع لمدة ثلاثة أيام. في التاسعة عشرة، اكتشف بوب صنفاً جديداً في نيكاراغوا، وثقة باسم سكومبورغكا فوتتشزي في سجلات الجمعية الملكية للبساتنة. منحه أبواه دفيئة هدية نجاحه في المرحلة الثانوية. لم يياشر بوب أعمال الأوركيدا على الفور، بل التحق بالجامعة وحاز على شهادة في الفن، ثم أصبح مدرساً للفنون في مدرسة هومستايد الإعدادية. في عام 1970، عندما كان ما يزال في سلك التعليم، أطلق مشروع عمل صغيراً للأوركيدا في نارانجا على أرض ملكية أجداده. أطلق عليه اسم آر. إف. أوركيد، لأن آباء فريدي كان ما يزال يدير مشروعه أوركيدا فوتتشز. في عام 1984، فازت إحدى شتول بوب وتسمى فاندا ديفا «روبرت» بالجائزة الكبرى في ملتقى الأوركيدا العالمي في ميامي ونقلته إلى الشهرة في عالم الأوركيدا. تقاعد بوب بعد هذا النجاح من التعليم وانخرط في أعمال الأوركيدا كل الوقت.

التقيت بوب لأول مرة في الليلة التي سبقت افتتاح معرض جنوب فلوريدا السنوي للأوركيدا في قصر ميامي للمؤتمرات. جهز العارضون أجنحة عرضهم قبل ليلة من الافتتاح، وكانت في قصر المؤتمرات أراقب مارتين وهو يرتب جناح مشتل موتيس أوركيدا. لا يحب مارتين وفوتتشز أحدهما الآخر، السبب الأساسي هو أنهما كليهما من زراع الفاندا ولكل منهما فلسفة مختلفة بشأن مظهر البذلة وحجمها، ولأن المنافسة بين رجال الأعمال أمرٌ طبيعي، ولأن كلاًّ منهما لا يحب الآخر بكل بساطة. مع هذا، أخبرني مارتين أنه من الضروري أن أقابل بوب، إذ إنه يعتبر من الأشخاص المهمين في عالم الأوركيدا. أثناء الاستراحة، أصطحبني مارتين إلى جناح مشتل آر. إف وعرفنا بعضنا على بعض. تبين أن بوب شخص مدهش. كان طوله ستة أقدام على الأقل ويتمتع بقوام لاعب مدرسة ثانوية للكرة، بجسد متناسق وصحة ممتازة. لم يكن أسمر بالمطلق، كان ذا شعرٍ مسرح بلون

الدرّاق، وشارب دقّيق وعيين زرقاء لمحاتين. كان الوحيد في عالم أوركيدا جنوب فلوريدا الذي يُوصف دائمًا أمامي بوسامته الفائقة.

في الواقع، كان هناك في لحظتها عدة نساء يغدرن في المكان في محاولة عبّية لجذب انتباهه. قالت إحداهن، «بوب، يا بوب، هل تعلم أن كلمة «فوشيا» مشتقة من اسم عائلتك؟» فيما صاحت أخرى، «بوب، يا بوب، أود سؤالك عن تلك الفاندا...» تجاهل بوب كلامهن فقد كان يتبع والدته التي كانت قادمة نحوه تجر جذع شجرة طافيا^(١) بطول ثلاثة أقدام كي يضيّفه إلى جناح معروضاته. لم تتوقف النساء عن الترثرة. ظل على تجاهله لهن وبالمقابل التفت وأشار إلى طرف الجناح قائلاً، «من فضلك يا أمي، أريد أن أضع الجذع هنا».

كل من التقى بهم في عالم الأوركيدا يعرفون بوب فوتشرز. أشاد به بعضهم وأكدوا أنهم يعتبرونه ملكاً في عالم الأوركيدا. آخرون من سألتهم عنه كانوا يأخذون نفساً عميقاً ثم يزفرونه على مهل قائلين إن بوب شخص إشكالي. تعلمت بعد ذلك أن اعتبر كلامهم هذا أسلوباً لبقاً للتعبير عن مقتهم له، أو على الأقل شعورهم بغيرة مؤسفة تجاهه. أدركت في الحال سبب كره البعض له -شخص وقع وعنيد، وفي كثير من الأحيان لا يفوت فرصة للمناكفة، فلسالته حيال إكثار الأوركيدا لم تكن سهلة الاستيعاب بالنسبة للجميع على ما يبدو. قائمة الأشياء التي تشير الغيرة منه تطول أيضاً - انحداره من أسرة أرستقراطي الأوركيدا في فلوريدا، نجاح أعماله منقطع النظير، حصده للكثير من الجوائز، إعجاب الناس العامة بأزهاره وأقسام عرضه، براعته في تربية الزبائن التي لا تقل عن براعته في زراعة الأوركيدا تقريراً. اذهب إلى منزله فحسب! إن كنت مغرماً بالزهور، أو بالطبيور الغربية بريشها الملون اللامع، أو حوض سباحة مثالي فيروزي تتوسطه موزاييك من أوركيدا الفاندا، أو بركة صخور مرجانية مع شلال ونوع خاص من أسماك مرققة تسحب بخفة إلى سطح البركة عندما تقدم لها الطعام، أو مدرج خشبي بديع يمكنك أن تجلس عليه وتراقب الشلال والأسماك، أو منزل كبير جيد

- 1 - من الجذوع التي تسقط في النهر وتستعمل كديكور -

التهوية يعج بتحف ليموجي الصينية المعتقة وخزف رووال وورسيستر المعرق برسوم الأوركيدا وأثاث جميل ورقوس تذكارية من رحلات صيد إفريقية وبيبة فاييرج⁽¹⁾ من الذهب والياقوت مرصعة بفتحة لأوركيدا صغيرة مكان الصفار، أو فناء أمامي مفتوح على ممر يفضي إلى مشتل مرتب وأنيق من سبعة دفيئات مليئة بمائة ألف زهرة بلون السكاكر، قد يعجبك منزله. خرجت ذات ظهيرة، بعد معرض ميامي، قاصدةً منزل بوب، وبعد أن اصطحبني بجولة في أرجائه أخذني إلى بقعة معشوشبة بجوار إحدى الدفيئات الخشبية حيث رأيت كوخاً تشيكيأً⁽²⁾ هائلاً - لا بد أنه بحجم أربع غرف فندقية - وجلستنا على ما يشبه طاولة تحفة وأشكال من الكراسي غاية في الجمال، تحيط بنا أحواض فخارية من شتول أوركيدا. «الأنسة جواكين» بأوراقها الرفيعة كأقلام الرصاص، وفوقنا مروحتان سقفيتان تصدران صوت تشوك-تشوك-تشوك أثناء دوران شفراطهما. كان الثلج في كأسى الليموناضة يفرقع ويفور، وخلف بوب فيض من حشيش أخضر وسعف النخيل الأخضر وهالة من أخضر الدفيئات، وفوق كل تلك الخضرة كانت سماء هوستايد بلونها الأزرق الصافي، هبت من صوب الغرب نسمةٌ حرقت خصلاً من شعر بوب الأشقر مثل شعر المشتري في لعبة آيدل شوبينج مول، سمعنا من ورائها صوت سياراتٍ تهدر فوق الحصى في ممر منزله ثم تزفر وتتوقف، سمعنا بعدها صوت فرقعة باب سيارة باهظة الثمن أثناء فتحه وانغلاقه، بعد لحظات، صوت تكتكة آلة عد النقود داخل المتجر، ولفتره طويلاً لم أكن أود أن أنطق بأي شيء - لم أكن أرغب إلا بالغرق في هذه الخضرة والألحان المفاجئة والخمول الهائل والمثير في ذلك النهار. استلم بوب دفة الحديث في النهاية، أخبرني بجهله سبب غيرة الناس الكبيرة منه. هناك في كوخه التشيكي بنسماته العليلة، ووفرة الخضرة التي تحيط بنا، عرفت لحظتها السبب.

-1- نوع من الحلوي تصنع في بطرسبورغ - م

-2- يبنيه السيمينول من أوراق البلاميط وجذوع السرو - م

بلغت شهرة بوب فوتشز ذروتها في الملتقى الدولي للأوركيدا الذي أقيم في ميامي عام 1984. تعقد هذه المؤتمرات الدولية كل ثلاث سنوات في مدينة مختلفة. كانت قد عقدت في غلاسكو وطوكيو وسان لويس وسنغافورة ولونغ بيتش. لم تستضفه ميامي سوى مرة واحدة عام 1984، واجتذب رقماً قياسياً من العارضين من فلوريدا وسائر أنحاء العالم. تمنح العديد من الجوائز في مؤتمر الأوركيدا، لكن الجائزة الحلم بالنسبة لمزارع أوركيدا. بحق هي تلك التي تمنح لأفضل شتلة أوركيدا مميزة خلال المعرض. إن ربحك للجائزة في أضخم معرض دولي، لا سيما في ميامي -عاصمة الأوركيدا الأمريكية بلا منازع سواء في الزراعة أو الجمع- يعادل نيلك ميدالية ذهبية في أولمبياد الأوركيدا. كانت جائزة أفضل أوركيدا في الملتقى الدولي للأوركيدا لعام 1984 في ميامي من نصيب فاندا ديفا «روبرت»، التي يملكها بوب فوتشز. يتميز صنف أوركيدا الفاندا ديفا «روبرت» بلونه الأحمر القاني وشفته المسودة الصغيرة مع لطخة صفراء في مركزها وبتلات كبيرة مركبة بعروق حمراء قانية دموية اللون. زهرتها ممتلئة ومستديرة. لونها الحار فاتن ومثير، وفي الوقت نفسه ثمة في مظهرها وشكلها ما يجعلها تبدو شبيهةً إلى حدٍ ما بالدبوب تيدي. روبرت زهرة تعلق في الذاكرة بسبب روعة جمالها، وأيضاً بسبب فوزها بأرفع جائزة في أضخم معرض عالمي حين أقيم لأخر مرة في هذه البلاد، ولأنها استخدمت بعد ربحها للجائزة في إثاثر آلاف الأوركيدا الأخرى الفائقة الجمال، ولأنها وضعت بوب فوتشز على طريق النجومية. عصبية على النسيان أيضاً لأن نجاح فاندا ديفا «روبرت» ربما يكون قد أذن للحظة انبثاق الضغينة بين بوب فوتشز ومزارع أوركيدا آخر يدعى فرانك سميث.

فرانك سميث من أقران بوب تقريباً، لديه مشتله المعروف والناجح في فلوريدا، مشتل كرول - سميث أوركيدا، يقع في مدينة أبو بيكا، قرب عالم ديزني. سميث حكم معتمد في منافسات الأوركيدا وقد فاز أيضاً بالكثير من الجوائز عن نباتاته في المعارض. كان هو وبوب فوتشز غريمين، يبدأن النية السيئة التي يكنها كل منهما حيال الآخر تتعذر المنافسة الشريفة الممحضة. بعد الملتقى الدولي للأوركيدا، أحرز بوب فوزاً ساحقاً من خلال فاندا ديفا

«روبرت» فأزمع التخلّي عن عمله في سلك التعليم الإعدادي والتفرغ التام للعمل بالأوركيدا. بدا عليه أن أسلوبه يغيب البعض من البداية. ذات مرة غرمته حاكمة أوركيدا مسنة بـمليون دولار، مؤكدة أنه شهر بسمعتها في مذكرة جمعية جنوب فلوريدا للأوركيدا. تصاعدت غبطة الناس من تلقّيه للهجوم في المعارض. اقترب أحدهم، ممن خسروا أمام أوركيداه في أحد المعارض، من بوب فيما بعد وقال له، «أتعلّم كم طال بي الزمن في انتظار أن أركل قفاك يا فوتشز؟». قبل تفرّغه التام لزراعة الأوركيدا، كان بوب يدرس كي يصبح قاضياً معتمداً في معارض منطقة جنوب فلوريدا. تمر عملية نيل شهادة التحكيم المعتمد بمراحل طويلة، تشمل الدراسة وتحكيم الطلاب لمدة ست سنوات. تعتبر منصباً مرموقاً، إذ يحظى القضاة بالاحترام بوصفهم سلطة مطلقة في عالم الأوركيدا ويمكنهم من خلال قراراتهم التأثير على توجهات إثمار الأوركيدا. فمثلاً، القاضي الذي يميل للبتلات الصغيرة المستديرة يمكن أن يمنع الجائزة للشتول التي تتصف بهذه الصفة، وهذا بالتالي سيدفع المزارعين لاستهداف إنتاج نباتات تعطي بتلات صغيرة ومستديرة، وعلى حد سواء سيرفع القيمة الشرائية للشتلة الرابحة. بعدهما أنهى بوب المقتضيات في عام 1983، سجل طلب الانساب إلى لجنة حكام الجمعية الأمريكية للأوركيدا لاعتماده في منطقة جنوب فلوريدا. رفض طلبه. بلغه أن ثمة من بعث برسالة إلى اللجنة يزعم فيها محاولة بوب شراء ذمة القضاة عبر عرضه عقلاً من أجود غراسه عليهم. كانت الرسالة ممهورة بتوقيع فرانك سميث. أكد سميث في رسالته أنه يعرف بالضبط عما يتحدث، فقد كان أحد القضاة الذين حاول بوب رشوتهم.

في عام 1990، وقعت السرقة الكبرى في مشتل آر. إف. أوركيد. أجرت الشرطة التحقيقات، إنما لعدم توافر الشهود وشح الأدلة، قالوا لبوب إن العثور على الأوركيدا أو الفاعل أمر مستبعد جداً. بعد يومين تقريباً من عملية السطو، كان أحد هواة الأوركيدا، ويدعى روبرت بيري، يقوم بجولة في مشاتل فلوريدا للأوركيدا برفقة زوجته. توّفقاً عند مشتل كرول - سميث أوركيد، وأثناء اطلاعهم على المكان، انتبه روبرت بيري إلى غراس مميزة الشكل مكونة كيّفما اتفق على مقعده في مؤخرة دفيئة خشبية منعزلة. من

بينها كان ثمة نبتة أغرم بيري بها - زهرة بلون رمادي فضي ولها شفة حمراء أرجوانية. نتيجة للطريقة التي كومت فيها الغراس مكداة، لم يتمكن بيري من الوصول إلى الأوركيدا الفضية، لكن مجرد النظر إليها كان كافياً لجعله يعلم أنه لم ير مثيلاً لها قط. أثناء خروجه، سأله عامل المشتل إن كان بمقدوره شراء عقلة - أي فرخ أوركيدا صغير - من الشتلة، لكن العامل أخبره أن أيّاً من النباتات المكونة ليست للبيع. بعد شهر، وخلال تصفحه لمجلة قديمة مختصة بالأوركيدا، رأى بيري إعلاناً لمشتل آر. إف. أوركيد يظهر صورة طبق الأصل عن الزهرة الفضية التي كاد يغمس على من فرط إعجابه بها في كرول-سميث. كان على قناعة أن زهرة أوركيدا بمثيل هذا التميز من المستبعد وجودها في أكثر من مشتل. تذكر أنه سمع خبراً أو ما شابه عن سرقة آر. إف. أوركيد. لم يكن بيري على معرفة ببوب قط، لكنه صمم على الاتصال به وإعلامه أنه قد رأى شبيه تلك الزهرة النادرة في كرول-سميث. بعد أيام قليلة، ركب الشريف وبوب فوتشز وروبرت بيري ومايك كورونادو، شريك بوب، السيارة واتجهوا إلى مشتل سميث في منتصف الليل. قادهم بيري إلى الدفيئة الخشبية المنفردة. وجدها خاوية. اختفت كومة النباتات ومن ضمنها الزهرة الفضية. صعق بيري. أثناء مغادرتهم، راح مايك كورونادو يتوجول في دفيئة أخرى. عاد مهرولاً بعد لحظات ليعرض على الشريف بطاقة اسمية تعود لمشتل فوتشز، ادعى أنه وجدها ملقاة على الأرض. سجل الشريف كل المعلومات، إنما في النهاية لم يكن هناك ما يكفي من البراهين لتوجيه الاتهام لأحد بأية تهمة.

كان هناك على الدوام فرضيات متعددة حيال ما جرى لنباتات الأوركيدا المسروقة. اعتقاد الكثيرون أنه من غير الوارد ربما التعويل التام على ذاكرة روبرت بيري، وبالرغم من اختفاء الأوركيدا من مشتل آر. إف. أوركيد، فإنها لم تظهر ثانية قط في كرول-سميث. ظن الناس أن أحد هم سرقها واحتراها فرانك سميث جاهلاً أنها مسروقة. ربما تكون البطاقة التي عثر عليها مايك كورونادو لا صلة لها إطلاقاً بالشتول المسروقة - لعلها بطاقة شتلة قديمة اشتراها سميث بصورة شرعية من مشتل والد بوب، لهذا كانت بطاقة فوتشز أوركيد وليس آر. إف. أوركيد. حتى إن فرانك سميث افترض خلالشهادته

احتمال أن يكون هذا من «تدبير» فوتشز، رغبةً بالانتقام منه بسبب عرقلته لطلب بوب في أن يصبح حكم أوركيدا. خلال فصل الخريف والشتاء، بعد ظهور الشتول المسرورة الافتراضي في كرول-سميث ثم اختفائها، بدأ أحدهم يتصل بمكالمات تهديد للعديد من مزارعي الأوركيدا في جنوب فلوريدا. تلقى فرانك سميث بعض مكالمات في ظرف عدة أسابيع. في صبيحة 20 شباط عام 1991، تلقى مكالمتين في ساعة واحدة. الأولى ردت عليها صديقة فرانك وتدعى جين دوفerti حيث كانت في مكتب كرول-سميث ذلك الصباح، تلقم فراخ العصافير التي تعود لها ولفرانك. وفقاً لشهادتها اللاحقة، طلب المتصل من جين دوفerti، إن كان يهمهما أمر فرانك كثيراً، أن تمنعه من حضور معرض الجمعية الأمريكية للأوركيدا لعام 1991، الذي سيقام في ميامي في الأسبوع المقبل. قالت في شهادتها إن المتصل عرف عن نفسه باسم بوب فوتشز. في المرة الثانية التي رن فيها جرس الهاتف، أجاب فرانك نفسه وشهد لاحقاً أنه تعرف على صوت بوب وأن المتصل قال له، «حسناً، إليك الأمر: إذا ما جئت إلى معرض ميامي ستلقى ما لا يعجبك»، قال سميث إن المكالمة أربعته، إذ كان يعلم بحقن بوب بسبب تلك الرسالة الحاسمة التي أرسلها إلى لجنة التحكيم والتي قد تقضي على آمال بوب في بلوغ منصب حكم معتمد في جنوب فلوريدا، ويعلم أيضاً أن بوب ما زال يشتبه بشأن النباتات المسرورة التي يفترض أنها بقيت لبعض الوقت في دفيئات كرول-سميث. رغم خوفه بعد المكالمات، كان فرانك عازماً على حضور أربعة أيام معرض الأوركيدا، ولذا فقد وظف حارسين شخصيين لمرافقته. كذلك حضرت صاحبة مشتل آخر إلى معرض تلك السنة برفقة حراس شخصيين بعد تلقيها لمكالمات تهديد.

في فلوريدا، تعرّف جنایة المضايقات الهاتفية بأكثر من مكالمة واحدة يومياً، تحديداً بقصد «إزعاج، أو اعتداء، أو تهديد أو إساءة لأي فرد». ادعى فرانك سميث تلقيه مكالمتين في ذلك اليوم من شباط، وبذا فقد كان مخولاً لتوجيه الاتهامات. سجلت الإفادات في تموز. وجه الاتهام لبوب فوتشز بجنایة الإزعاج الهاتفي، وفي 27 آب عام 1991، استمع القاضي ثوتيس برونوسون ومعه اثنا عشر عضواً في هيئة المحلفين إلى القضية المرفوعة من

ولاية فلوريدا ضد روبرت فوتشز. لا أحد يرغب بالحديث عن القضية حالياً، وبغية التعمق أكثر في حيّثياتها، كان لا بد لي من سماع شريط مداولات القضية. كان هذا أفضل ما سمعته من معظم القضايا، كلام قليل جداً حول إزعاج هاتفي وتنافس الأعمال، وكثير من الكلام حول الشغف وأزهار مميزة وعلاقات حب سرية. بدأت الجلسة بسؤال محامي بوب فوتشز لجين دوفوري صديقة فرانك سميث عن معرض الأوركيدا الذي أطلقت فيه الفاندا ديفا «روبرت»:

محامي الدفاع: والآن سيدة دوفرتى، هل قلت إن أول معرفتك بالسيد فوتشز كانت في المعرض الدولى للأوركيدا، فى ميامي عام 1984؟
جين دوفرتى: أجل.

المحامي: أهو أضخم ملتقى عالمي على الإطلاق؟
دوفرتى: أجل يا سيدى.

* * *

المحامي: واقعياً، ألم تكن أوركيدا السيد فوتشز الـ... ماذا تسميهها...
الـ... الـ... بطلة في المعرض؟ أهم أوركيدا في المعرض؟
دوفرتى: لا أذكر.

المحامي: ألا تذكري أن أوركيدا بوب كانت البطلة الكبرى؟

دوفرتی: کان مالک شتلہ اور کیدا فائزہ۔ ظننتک تقصید معرضہ۔

المحامي: شتلة أوركيدا، كانت أكبر وأجمل أوركيدا في المعرض
بكامله؟ أليس كذلك؟ ألم يجعل هذا الفتى الجميع يحتقرن أنفسهم؟ ألم
يشر هذا حسدهم؟

المدعي العام: اعتراض!

القاضي: اعتراض، مرفوض.

المحامي: آنسة دوفرتى، ألم يشعر فرانك سميث بالغيرة من بوب فوتشز
-الذى لم يكن قد أصبح قاضياً بعد في عام 1984 - لأن أوركيدا بوب فوتشز
كانت الأفضل على مستوى العالم؟

دوفرتى: أوركيداه كانت الأفضل في ذلك المعرض تحديداً.
المحامى: والذى كان معرضاً على مستوى العالم. وهذا ما وجه انتباه
الجميع إلى بوب فوتشرز نوعاً ما، أليس كذلك؟
دوفرتى: كان أصلاً ضمن دائرة انتباه الجميع في ذلك الحين.

كانت جين دوفرتى تطعم صغار العصافير في كرول - سميث يوم
وردت المكالمات. بعضها كان يخص فرانك، وأما الباقي فهي عصافيرها.
كان محامى الدفاع يسعى للإيحاء بأن دوفرتى لم تكن بشاهد يعول عليه
نتيجة انحيازها لفرانك سميث، بناء على أنها كانتا في علاقة حميمة لدرجة
أنهما دمجا عصافيرهما:

المحامى: منذ متى وأنت صديقة لفرانك سميث؟
دوفرتى: تسع سنوات.

المحامى: هل نظلمك إذا قلنا إنك مغرمة بفرانك سميث؟
دوفرتى: لا يا سيدى، إبني مجرد صديقة.

المحامى: كلا، لست كذلك؟
دوفرتى: إبني صديقة مقربة.

المحامى: صديقة مقربة. ألا تقيمين معه أي نمط من العلاقات
الرومانسية؟

دوفرتى: كلا يا سيدى.

المحامى: ألم تسافري بصحبته؟

دوفرتى: أساعدته في ترتيب معارض الأوركيدا، لا أصبحه في أسفاره.

المحامى: أممم. حسناً، ومنذ متى تمارسان... هوادة... العصافير
المشتراكه هذه؟

دوفرتى: حوالي ست سنوات.

المحامى: وتودعين عصافيرك عنده؟

دوفري: أترك بعضاً منها عنده.

المحامي: حسناً، كم عدد العصافير التي تحتفظين بها عنده؟

دوفري: خمسة وعشرون من البيغاوات الإنكليزية تقريباً هي لي.

المحامي: تتركين خمسة وعشرين من عصافيرك الخاصة في منزله! هل هذا نوع من الأعمال تديرانه معاً؟

دوفري: لا يا سيدى. إنها مجرد هواية.

المحامي: إذن فلديك هواية، هواية مشتركة معه لدرجة أنك تخصصين...

خمسة وعشرين من عصافيرك تتركينها عنده، وأنت مجرد صديقة؟

منذ هذه النقطة، أصبحت المحاكمة عبارة عن قصة حب تكهنية مجانية للجميع. حاول المدعي أن يظهر مايك كورونادو واقعاً في حب بوب فوتشرز، شريكه، وبالتالي شهادته غير موثوقة؛ رفض كورونادو هذا الإيحاء. حاول محامي فوتشرز بعدها أن يظهر بأن جين دوفري ليست وحدها العاشقة لفرانك سميث لدرجة أن شهادتها غير مقبولة، بل هناك شخص آخر من شهود الولاية كان أيضاً عاشقاً لفرانك سميث وبالتالي هو أيضاً غير موثوق. واجهه المدعي بقوله إن الشاهد الذي ادعى أنه كان في مشتل آر. إف. فوتشرز يوم المكالمات الهاتفية، واعتبره فوتشرز ذريعة كان «مقرباً جداً» من بوب وبالتالي يجب إهماله، كما أن مديرية الكلية التي شهدت أن فرانك أسرّ لها بعدم قناعته أن بوب يجري الاتصالات، كانت أيضاً متتحيزة لبوب وبالتالي شاهد آخر متتحيز. لم يتمكن أحد قط من تفسير سبب توريط فرانك بيري، الرجل الذي رأى الزهرة الفضية في كورل - سميث، لنفسه في القضية إن كان مدفوعاً بعشقه لشيء آخر غير الزهرة الفضية أو شخص آخر غير زوجته. لم يتقدم بوب فوتشرز للشهادة. في المداولات النهائية، أقر كل من المحامي والمدعي بضجر أن مسيرة الشك بين الرجلين موغلة في العداء مما جعل الإحاطة بكل جوانبها أمراً متعدراً. هل هدد بوب فرانك سميث لقناعته بأنه سطا على مشتبه؟ هل كان تدخل فرانك سميث في طلب بوب لبلوغ منصب حكم أوركيدا نابعاً من غيرته أم لأنه يعلم يقيناً أن بوب محتاب؟ هل حقاً

حاول بوب إلصاق تهمة السرقة بسميث انتقاماً لرفض ملفه من قبل لجنة التحكيم؟.

ووجدت هيئة المحلفين بوب فوتشرز بريئاً من جميع تهم المضايقة الجنائية. كان القرار معناه أن بوب فوتشرز لن يقضى موسم الزراعة في السجن. من جهة أخرى، لم يوضح القرار أي شيء آخر. من المحال معرفة إن كان القضاة صوتوا لمصلحة البراءة نتيجة عدم إيمانهم بأن بوب فوتشرز أجرى مكالمات التهديد أم لأنهم اقتنعوا أنه فعل، ولكن تلك المكالمات كانت بمتنه البساطة لا تتطابق مع التعريف الدقيق للمضايقة في فلوريدا. وبالتأكيد لم يكن في النطق النهائي للحكم ما ساهم في فك لغز نباتات الأوركيدا المسروقة. في نفس الأممية التي التقيت فيها ببوب فوتشرز للمرة الأولى التقيت بفرانك سميث أيضاً. بدا لي مهذباً ولطيفاً، لكن حين طلبت منه الحديث عن المحاكمة نظر إلىّي كما لو أن شعري يحترق. قال لي إنه لا يرغب في الحديث معي ولا يود نقاش القضية إطلاقاً، في أي وقت. قال إن الأمر برمته حدث نتيجة «حديثه عن شيء ما» وإنه كان قد تعرض «للتضليل»، وبكل الأحوال، أصبحت من الماضي وعادت الأمور إلى نصابها حالياً. وافق ذات مرة على الحديث معي بشأن الأوركيدا إذا ما تعهدت بـألا أفاتها بموضوع المحاكمة.

استمرت الحرب بين فوتشرز وسميث لأكثر من عقد. ربما لن يعرف أحد يوماً، عدا فرانك وبوب، حقيقة ما جرى، ولعلهما حتى هما لا يعرفان ما جرى بالضبط. أصبح بوب حالياً حكماً معتمداً لمنطقة مختلفة من البلاد، ويواصل كلاهما المشاركة الفعالة في المعارض. لم يعثر قط على جميع شتول الأوركيدا التي اختفت من مشتل آر. إف، بما فيها تلك الفضية العالقة في الأذهان.

حمام مشوي

تحتفي الأشياء من فلوريدا طيلة الوقت، لكنها تعود للظهور على الدوام. فلوريدا شديدة الجاذبية، أكثر شبهاً بالإسفنجية منها بالولاية. جاذبة للناس. بعد وصول المستوطنين البيض، ملأوا أركان الولاية المضيافة ثم ملأوا ما كان يعتقد أنها أماكن غير صالحة للسكن، بما فيها «جرود العشب الرهيبة» في إيفرغلادس، ولم ينقطعوا يوماً عن المجيء إليها. في هذه الأيام، في كولير كاوتشي، حيث تقع الفاكاهاتشي، يومياً يشيد مائة من الوافدين الجدد البيوت، ويؤكد مخططو الحضر أنه لن يبقى من حيز صغير في نابيل - لا مساحات على الإطلاق - في غضون ثمانين سنوات فقط. جيء بالبنات والحيوانات الغريبة إلى فلوريدا أيضاً. كثير منها وصل بفعل عوامل الطبيعة - سابحة حتى الشواطئ أو نقلتها الرياح - أو حملت على سفن الشحن عن غير قصد أو أحضرت بصورة شرعية بهدف الاتجار بها، إلا أن جل البنات والحيوانات التي جلبت إلى فلوريدا كانت قد جمعت ونقلت وبيعت بصورة غير شرعية. يعد مرفأ ميامي أحد أكبر محطات دخول الحيوانات والبنات المهربة في البلاد. أخبرني مسؤول حماية البيئة في ميامي عن وجود نمط شائع جداً من الرجال ممن قد يستيقظون ذات صباح قائلين لأنفسهم «يا ولد، أليس من الرائع أن تحظى بزوج من أف Cunningham الأصلة المشبكية؟». في عام 1996 مثلاً، تم تهريب ما مجموعه سبعمائة ألف من سحالي الإغوانا إلى الولايات المتحدة عبر ميامي. لقد تعددت الأساليب التي انتهجهها المهربون. في السنوات الأخيرة، أوقف مفتشو جمارك ميامي امرأة تحاول تهريب نوع نادر من القرود ذات الصوف من خلال إخفائه تحت كنزتها، ورجلًا ارتدى سترة فيها جيوب خاصة كي يهرب فيها بيوض واقواق النخيل الأسترالي،

وآخر كان يحمل دمية بدبو ممحشة بالسلاحف الحية، وثالثاً يخبيء تحت قميصه ثعبان أصلة حياً، ورجلأً حاول إدخال قرد جيبيون خلسةً عبر جعل الحيوان يحضره من بطنه وعمد إلى تمويه هذا الانتفاخ عبر ارتداء قميص فضفاض جداً. عشر المفترشون على صدور فالكون مخبأة في كراتين حليب، ببعاوات حشرت ضمن لفافات تعجيد الشعر، وقرود مدسوسية تحت القبعات. اعتقلوا رجلاً يدعى لينين أو فيدو من كاركاس عاصمة فينزويلا، كانت حقيبته محمولة بسبعين وأربعين من أفاعي قوس قزح، وإحدى عشرة أفعى من ذوات الذيل الأحمر، وأربع وأربعين سلحفاة من ذوات القدم الحمراء، وبسبعين وعشرين سلحفاة أمازونية، ومثلها في العدد من سلاحف الأنهر، وأثنين عشرة من أفاعي الحفر. أوقفوا مؤخراً مهرباً فينزويلياً آخر. كان بحوزة هذا الرجل عنكبوت ربطة من آكلات الطيور، إضافة إلى مئتين من فراخ العناكب الصغيرة، وثلاثمائة من ضفادع السهم السامة بحجم الإبهام في حقيقة يده. إضافة إلى أربع عشرة من الأفاعي القابضة اليافعة أخفاها في سرواله.

يعتبر تهريب النباتات عموماً، وتحديداً الأوركيداً، عملاً نشطاً على مستوى العالم. لقد تصاعدت وتيرته منذ إبرام اتفاقية التجارة الدولية الخاصة بالأنواع النباتية والحيوانية البرية المهددة بالانقراض -المعروفة اليوم بـCITES- حيث صادقت من خلالها أكثر من مائة دولة على حظر أو تقييد التجارة الدولية في جميع الكائنات البرية. تتفاوت درجة التقييد تبعاً للأصناف. وقعت الأوركيدا ضمن تصنيفين، وضعـت الأصناف النادرة منها والمهددة ضمن البند الأول الأكثر تشديداً من اتفاقية CITES، وحظرت كل أشكال الجمع والاتجار بها. أما بقية أصناف الأوركيدا فقد وضـعت ضمن البند الثاني، الذي أباح التجارة الشخصية والتـبادل التجاري بشكل محدود، في حال أصدر البلد المصدر تفوياً بـجمعها.

لم تحظ الاتفاقية بالإعجاب على مستوى عالمي. أخبرني الكثير من العاملين في مجال الأوركيدا أن هذه الاتفاقية فضفاضة للغاية، إذ إن التهديد الحقيقي للنباتات المعروضة للانقراض ليس جامعيها وإنما ضياع موئلها

البرى. يشتكي الجامعون من تآكل الغابات بشكل متسارع بفعل التطوير العمراني، قاضياً على النباتات النادرة في طريقه، ويعتبر هواة الجمع الذين يعملون على استعادة النباتات خارج هذه المناطق فرصة وحيدة للحفاظ على الأصناف، وإلا فسوف تخفي إلى غير رجعة -بعدها يمكن زراعة النباتات وإكثارها، بالطريقة التي تخضع فيها الحيوانات المهددة بالانقراض لبرامج التربية والتزاوج في حدائق الحيوان. في عام 1992، تأسس بنك بذور الأوركيدا الدولي بهدف صون البذور النادرة. يمكن لبذور الأوركيدا أن تعيش حتى خمس وثلاثين سنة، وبالتالي يمكن الاحتفاظ بها في بنك البذور ليتم إنباتها يوماً ما وربما إعادة توطينها في البراري. يمتلك بنك البذور مراقب للتخزين في تكساس وكاليفورنيا - وفقاً للمدير، يتعين عليهم نشر البذور في موقع عديدة في حال تعرض أحدها للتخريب من قبل، كما خمنت، شخص تكمن مهمته في القضاء على بذور الأوركيدا. ثمة الكثير من المؤيدين لهذه الاتفاقية وسط جماعة الأوركيدا أيضاً، حجتهم أن هواة الجمع قاموا عبر التاريخ بكنس الغابات وتجریدها كلما واتتهم الفرصة، وقد ارتفعت قيمة الأوركيدا كثيراً لدرجة أنه بات من الضروري حراستها من تحركهم نوازع الربح بدلاً من الحماية. عندما سمعت لأول مرة خطبأ حماسية تسخر من الاتفاقية خلال رحلاتي في عالم الأوركيدا، صدمت من احتمال مناهضة عاشق للأوركيدا لمعاهدة تعنى بحماية البيئة. بعدها سمعت قصصاً متواتلة على لسان جامعين قالوا إنهم جلسوا يراقبون حرق الغابات على بكرة أبيها في أماكن مثل جافا وبيليز بقصد تحويلها إلى أرض زراعية، بدلاً من السماح لهواة الجمع بالدخول وإخراج شتول الأوركيدا منها أولاً، أرغمت الاتفاقية السلطات التنفيذية على التنجي جانبًا ومراقبة النباتات وهي تتبعها سحب الدخان.

ارتفع سعر الأوركيدا ذات الألوان الزاهية وبات العثور عليها في كل أنحاء العالم أكثر صعوبة بعد تطبيق الاتفاقية. ادعى هنري أزاديهدل، وهو أميركي متخصص للنباتات وباحث في مجال الأجسام الطائرة المجهولة ويقيم في إنكلترا منذ عام 1979، أنه كسب مؤخراً في سنة واحدة أكثر من أربعمائة ألف دولار من تجارة الأوركيدا في السوق السوداء. لقد باع شتلة

خف سيدة روتشايلد، صيدت في جزيرة بورنيو^(١)، مقابل تسعه عشر ألف دولار. باع أصنافاً عديدة من فصائل أخرى من خف السيدة بستة آلاف دولار لكل شتلة، وأخذ يتربح بشرائها من السكان المحليين مقابل دولارين فقط لكل منها. تكشفت هذه الحقائق والأرقام عندما أقر أزاديهدل بذنبه عام 1989 بثلاث تهم «تهريب الأوركيدا المهددة وحيازتها والاتجار بها». قبل النطق بالحكم عليه، صرخ أزاديهدل قائلاً، «تحطمت سفيتي، وطاردني مهربو المخدرات، وأطعمني زعيم عشيرة من صيادي الرؤوس. ذهبت إلى أماكن لم تطأها أقدام البيض قط. أشعر بالفخر أنني وسعت حدود العلم». دافع محامييه قائلاً إن أزاديهدل «قد توقف عن هواية حياته بجمع الأوركيدا... لم يعد لديه مجموعة ولا رغبة بجمعها»، ومع ذلك غرم أزاديهدل بثلاثين ألف دولار وأودع السجن لمدة سنة. احتفى بعد إطلاق سراحه. أصر محامييه أن موكله أكد عدم رغبته إطلاقاً في رؤية أية أوركيدا طالما هو حي. منذ ذلك الحين تنكر أزاديهدل بعده أسماء مستعاره، من ضمنها السيد أرمين فيكتوريان، والدكتور آلان جونز، وكاسابا نتومبا، مروجاً لنظرية المؤامرة حول الأجسام الطائرة التي شملت هبوط مركبات فضائية في جنوب إفريقيا، وقيل إنه ما زال يواصل بحثه عن أصناف جديدة.

جرت أغرب عملية اعتقال قبل عدة سنوات في مسابقة الجائزة الكبرى للبابان في طوكيو، وهو معرض للأوركيدا يستقطب أكثر من نصف مليون زائر. كانت الزهرة المعنية إحدى شتول الأوركيدا المفقودة، من صنف ينمو شمالي فيتنام وقد اكتشف في أوائل القرن العشرين ثم انقرض من البراري منذ ذلك الحين. بعد سنوات قليلة، عاد صيادو الأوركيدا واكتشفوها ثم قاموا بتهريب آلاف الشتول إلى هونغ كونغ وتايوان والبابان - بالأخص أمام عدة محكمين بارزين في مسابقة طوكيو للجائزة الكبرى. كانت فضيحة أوركيدا عالمية. قبض على المهربي؛ صودرت النباتات، استقال الحكمان مجللين بالفضيحة. في عام 1990 أطلقت السلطات البلجيكية عملية نير وولف، تم بموجها ضبط الآلاف من الأوركيدا المهربة من تايلاند. خمنت

- ثالث أكبر جزيرة في العالم وتقع في أندونيسيا - م

مصلحة الغابات التايلاندية مؤخرًا أن ما يقارب ستمائة ألف من الأوركيدا البرية تصدر سنويًا بشكل غير قانوني، إلى اليابان وأوروبا بشكل رئيسي. بعد فترة وجيزة، دعا عالم البيئة الهندي سومان ساهاي الهند لتسجيل الحيوانات والنباتات المحلية «فالثروة الطبيعية للهند تتعرض للنهب... سواء بذور أصناف الأرز المميزة التي تذهب إلى شركات الإكثار الأمريكية أو الأوركيدا التي تكسب منها المنتجات الأوروبية ملايين الدولارات». غالباً ما يتنهى المطاف بالأوركيدا المنهوبة على المستوى الدولي في الولايات المتحدة. ضبط موظفو جمارك هيوستن مؤخرًا شخصين بحوزة كل منهما ستة عشر شتلة أوركيدا، تساوي كل منها عشرة آلاف دولار، خبأها في موضع مختلف من جسديهما. جرت إحدى أشهر عمليات الاعتقال لمهربي الأوركيدا في عام 1994، حين باع شاب في الثامنة والعشرين من عمره يدعى هارتو كولوباكينغ 216 من أوركيدا خف السيدة النادرة لعميل سري في مصلحة الأسماك والحياة البرية الأمريكية مقابل ثلاثة عشر ألف دولار تقريبًا. كان كولوباكينغ يشحن الأوركيدا إلى كاليفورنيا منذ 1993 في طرود يكتب عليها «عينات مواد». اعترف أمام المحكمة أنه هرب في عام 1992 ألفًا من شتول الأوركيدا إلى تاجر جملة في مدينة ماليبو. كان كولوباكينغ اسمًا معروفاً في عالم الأوركيدا. تملك أسرته مشتلًا مميزًا في إیست جافا، وقد سميت أوركيدا البافيو بيديلوم كولوباكينغي^(١) على اسم أبيه. كان كولوباكينغ أول شخص في الولايات المتحدة يتلقى عقوبة السجن عقاباً على تهريب الأوركيدا. في قاعة محكمة سان فرانسيسكو، ثبتت إدانته بجميع التهم وحكم عليه بالسجن خمسة أشهر في سجن فيدرالي.

قبل لقائي بلا روشن مباشرة، رصد عمالء فيدراليون ألفي شتلة من أوركيدا خف السيدة النادرة مهرية إلى ميامي من الصين. كانت تلك الشتول مرغوباً بها بشكل قل نظيره. تبرعت الحكومة الفيدرالية بالأوركيدا المصادرية إلى حدائق بوتانيكال سيليبي في ساراسوتا، وبعد وصول النباتات، بدّل مدير حدائق السيليبي الأफال وركب نظام إنذار في مكان إيداع الأوركيدا. بعد

بضعة أسابيع، حضرت جلسة الاستماع في محكمة ويست بالم بيتش الفيدرالية وكانت ادعاء الولايات المتحدة ضد مايكل كوهين، وهي قضية ضد تاجر نباتات غريبة في منطقة لايك وورث متهم بتهرير نباتات ذات الجرة اللاحمة من ماليزيا. اعتبر كوهين هذه النباتات مخلوقات شائعة وغير خاضعة للحماية، لكن مفتش الحكومة المختص بالنباتات عرفها بوصفها نباتات متسلقة نادرة واعتراض فاكساً من كوهين وجهه إلى المورد الماليزي يقول فيه: «تذكرة أننا لن نسميها باسمها الصحيح». بدا كوهين مكتئباً بعض الشيء في الجلسة، حيث استهلها القاضي بقوله، «سيد كوهين، هل أنت تحت تأثير أي نوع من المخدرات؟». أظنه سؤالاً متعارفاً عليه يطرحه القاضي قبل قبول سماع رد المدعى عليه، لكنني وجدت نفسي أفكراً أن الولع بالنباتات، بالنسبة للكثير ممن عرفتهم، كان أشد تأثيراً من أي نوع من المخدرات على الإطلاق.

أصبحت خطة لاروش لسرقة أوركيدا الشبح أكثر منطقية بالنسبة لي لحظة استوعبت طبيعة التهريب الدولي. لقد حولت اتفاقية حماية الأنواع النباتية والحيوانية المهددة عملية تصدير أو بيع الأوركيدا البرية إلى فعل مخالف للقانون - وقد شمل هذا، بشكل لا لبس فيه، جميع أصناف نباتات فلوريدا المحلية، بما فيها أوركيدا الشبح. لم تكن تزرع أغلب الأصناف البرية بقصد المتاجرة بها. بعد التوقيع على الاتفاقية، لم يعد أمام من يود الحصول على أوركيدا برية سوى اصطيادها من المستنقع أو شرائها من شخصٍ فعلها. كان لاروش على قناعة بوجود سوق ضخم لأوركيدا الفاكاهاتشي. أخبرني بمعرفته للكثيرين في أستراليا من يتحرقون شوقاً للحصول على شتلة أوركيدا أمريكية محلية، والإإنكليز أيضاً مهوسون بها. لكي يدعم نظريته هذه، أرسل لي مقالاً صحفياً عن صاحب مشتل إنكليزي اعتقل في مطار هيثرو وبحوزته ما يقرب من تسعمائة نبتة من أوركيدا خف السيدة الأمريكية مخبأة في حقيبة يده. كان لاروش مؤمناً أنه إذا ما نجح في إخراج بعض شتول من المستنقع -المحمية وفقاً لقانون الأنواع المهددة وذلك بحصانة السيمينول- سيقوم باستنساخها بفضل تقنياته

السرية للاستنساخ ليحصل في آخر المطاف على ملايين من أوركيدا الشبح والمحارية والأوركيدا الملتوية الشوكية، عندها سيصبح من حقه تسويقها في أية بقعة من العالم، إذ إنها ستكون نتاج مخبر وليس مقتلة من البراري. طالما أن بمقدورهم الحصول على أوركيدا الشبح من لاروش، لن يبقى لهواة الجمع من مبرر لشرائها من الصيادين، وبالتالي سيقضي على الاتجار بهذه الأنواع في السوق السوداء. بدا عارفاً جداً بالقوانين والمحظورات المتعلقة بتجارة النباتات الدولية، فوجدت نفسى مضطراً لسؤاله إن كان قد جمع يوماً أوركيدا بشكل مخالف للقانون خارج فلوريدا - بمعنى آخر، إن كان هرب أشياء إلى فلوريدا وليس منها. أظن أنها كانت في طريقنا إلى المستنقع آنذاك، وسرح بنظره بعيداً في الطريق على مسافة ميل أو نحوه قبل أن يجيئني. في النهاية أكد أنه «شارك في بعض عمليات التهريب من أمريكا الجنوبية»، غير أنه رفض الإفصاح عن المزيد حول هذا. أخبرني أن والده لم يكن يعلم شيئاً عن تلك «النشاطات في أمريكا الجنوبية» ولا يوده أن يعلم. قال إنه ربما يخبرني ذات يوم عن نشاطاته تلك، لكنه سيتركها طي الكتمان طالما أن والده حي.

بما أن لاروش لم يبدأ الكلام، سألت آخرين من معشر الأوركيدا في فلوريدا إن كان بمقدورهم تعريفني على مهرب دولي. جميعهم اقترح علي الاتصال برجل يدعى ليبي مور المغامر، جامع ومهرب أوركيدا، فوضوبي ومتعاطي حشيش سابق، وكان يعد العدة للرحيل نهائياً من جنوب فلوريدا والانتقال إلى بيرو. عرض علي أحدهم صورة لليبي مور قبل ملاقاته. كانت الصورة ملتقطة في إيكوايتوس في بيرو، يبدو فيها واقفاً مع ولدين بيرويين، والثلاثة يرفعون نبتة سرخس قرن الوعول بحجم سيارة فولكس فاغن بيتل. كان ليبي في الثانية والعشرين من عمره حين التقاطت الصورة، وبدا صبياً مبهجاً وسيماً، ذا جذع طويل، نحيل الجسد، مع بشرة لفحتها الشمس، وشعر كستانائي. من سلالة أسرة نبيلة من أسر واشنطن. عمل والده فيليب مور مساعدًا لترومان وزيراً للتجارة، استلم إدارة الطيران الفيدرالية، وانتخب عضواً في الكونгрس للدورة واحدة. انتقل آل مور إلى فلوريدا في طفولة ليبي ولهذا فقد انسجم سريعاً مع الحياة فيها؛ بينما كان

رفاقه في المدرسة الثانوية يركبون سياراتهم السريعة المعدلة، كان يجري في رحاب إيفرغلادس. بغية تحصيل مصروفه، راح يجمع أفاعي المياه وبيعها لمركز مiamي سيربيتاريوم^(١) للزواحف كما يبيع الأفاعي المجلجلة لشركة استخلاص سموم. في ختام المرحلة الثانوية، ركب سيارته وانطلق باتجاه أميركا الوسطى. كان لديه صديق هناك، يطلق مشروع عمل في استيراد الأسماك الاستوائية، وهكذا أخذ لي يسافر بالطائرة جيئهً وذهاباً من مiamي إلى أميركا الوسطى برفقته، ورافق صديقاً آخر هو رونالد فاغنر فيما بعد إلى البيرو، وهو الذي كان يخطط لإطلاق مشروع عمل في مجال استخلاص السموم، أي جمع السم من الأفاعي ليصار بعدها إلى معالجته وتحويله إلى ترياق للدغات. كان اكتشاف النباتات الجديدة هو حلم ليبي الخاص. دأب على القول لمزارعي الأوركيدا العتيدين في فلوريدا، من أمثال فريد فوتشرز وتوم فينيل، إنه سيذهب مغامراً في الغابات بغية العثور على أصناف جديدة منها. «كانوا يستهجنون غبائي»، يحلو له القول. «يقولون لي، (أوه، ها هو ليبي المغامر). هكذا اكتسبت لقبِي».

اتصلت بلبي عصر نهار حار مشبع بالرطوبة، حين توجه لا روشن وفريقه من السيمينول لجمع الحشائش المائية. بدالي مغموماً على الهاتف وأعطاني إحداثيات موقع شقتة. عقب قائلًا بعدهما أنهى كلامه، «بالمناسبة، يحبذ إلا تتأخر في زيارتي، قريباً سأنتقل إلى البيرو. أصبحت أمقت العيش هنا».

يوم زرته، كان ليبي وزوجته تشادي يقيمان في حي كيندال في مiamي، في شقة صغيرة ضمن تجمع عمارات متلاصقة تفتقر للظل، جدرانها مكسوة بالحصى وأبوابها مجوفة كما في أماكن بنيت على عجل. لم تكن الشقة تحوي فناء أمامياً، بل مساحة أسمنت واطئة خلف بوابة حديدية. لم تكن هذه المساحة تتجاوز مساحة طاولة التزهات. ما من حديقة على الإطلاق، إنما في يوم زيارتي كان هناك مجموعة من أحواض شتول البروميليه بجانب الباب الرئيسي. وفقاً لتعريف حكومة الولايات المتحدة واتفاقية حماية

الأنواع النباتية والحيوانية المهددة بالانقراض، تهريب النباتات هو مجال عمل لبي الرئيسي. عندما التقى به، كان يتظاهر الممثل أمام المحكمة في قضية عنوانها: ادعاء الولايات المتحدة الأميركية ضد تهريب 493 من الأوركيداء، (أصناف متنوعة) من مشتل «أغرو-أوريتي» مويوبامبا في بيرو؛ و 680 أوركيداء، (أصناف متنوعة) من مشتل «أغرو-أوريتي» مويوبامبا في بيرو. تشمل بعضاً من شتول الكاتليا التي أحضرها من بيرو. ادعت الحكومة أنها جمعها بشكل غير شرعي من البراري ثم تلاعب باسمها عمدأً على أنها نباتات مشتل. بالمقابل، كان لبي يقاضي وزارة الزراعة الأمريكية ومصلحة حماية النبات والحجر الصحي بتعويض تصل قيمته إلى مليون دولار. وفقاً للشكوى التي قدمها، حجز مفتشو وزارة الزراعة خطأً على شحنة أخرى من نباتاته البيروفية ثم أهملوها، وأنثناء فترة الاحتجاز ببست تلك الشتول محل النزاع. حاول العثور على شركة محاماة تتبنى القضية دون دفع أتعاب، لكن الحظ لم يحالفة، ولذا فقد اضطر لتمثيل نفسه.

أصبح لبي الآن على اعتاب الستين واستحال لون شعره الكستنائي فضياً، عدا ذلك كان ما يزال شبيهاً بذلك الولد الذي كان يرفع سرخس قرون الوعل الذي رأيته في الصورة - طويلاً وهزلياً وأسمر البشرة. يوم مررت به، كان يرتدي سروالاً فضفاضاً وقميصاً فاتح اللون بك敏 قصيرين من ذلك النمط الذي يفضله الكوبيون. كانت زوجته في المنزل لدى وصولي. طولها نصف طول لبي تقربياً، شعرها داكن، دائمة الحركة وترتدي ستة بأزرار أمامية لونها وردي غامق، وسروالاً أبيض ضيقاً جداً ماركة كابري⁽¹⁾، وكندرة بيضاء بكعب عالي. فور دخولي، اتخذت لها موقعاً في منتصف غرفة الجلوس وشرعت تتكلم بسرعة هائلة. لديها فرط في القدرة على الكلام. حتى تلك الأشياء التافهة التي كانت تتحدث عنها بدت في متنه الإثارة. «يجب أن تخبرها يا لبي عن الفن! عن الفنون التي نبحث عنها السابقة لكولومبوس!» أعلنت وهي تشير نحوه. «أخبرها عن كل رحلاتنا و، أوه يا إلهي، المواقف التي عشناها!».

- 1 - نسبة لجزيرة كابري الإيطالية - م

«ها أنا أخبرها الآن يا ماما»، قال ليبي.

«كنا كباراً جداً، كباراً جداً جداً في مجال الفن». قالت لي.
«كنا على الدوام نهرب شيئاً ما! أو ندفع لأحدهم كي يهرب لمصلحتنا!».
التفت لي نحو قائلة، «ألا ترغبين بالجلوس؟» أومأت برأسِي
وجلست.

«كنا على قائمة أكثر عشرة مطلوبين في مكسيكو!» قالت تشاردي. «عشنا مغامرات كثيرة، وموافق أكثر، يا إلهي!».

«جئينا ثروتنا من اللقى الفنية لمرحلة ما قبل كولومبوس»، قال ليبي.
ازدادت الأمور صعوبةً بشأن النباتات. كنت تقلعين شتلة الأوركيدا من
الغابة بشكلٍ عادي، تحزمينها وتحلقين بها، يجري الاستقصاء عنها بعد
وصولك إلى ميامي. ثم جاءوا بهذا النموذج من المترفين لعنهم الله وعيونهم
مسؤولين، وها هم الآن يجبرونك على غسل النباتات وتعقيمها وإخضاعها
للتفتيش وأنت لم تغادري الغابة بعد، لهذا اضطررت لنقلها إلى ليما بالشاحنة،
ولأنها كانت منطقة مخدرات ستختبئين للتفتيش بحثاً عن المخدرات، ثم
تفتيش آخر على يد عالم نباتات، يتعين عليك بعدها الحصول على تصريح
لجنة تنفيذ اتفاقية حماية الأنواع المهددة، وشهادة صحية تثبت خلو نباتاتك
من الأمراض. عندها يكون حوالي ثلث النباتات قد ييس. لطالما صعب علي
موظفو الجمارك الوقت لأن النباتات التي تكون معه تبدو خاماً بالفعل،
نباتات غابة. تبدو برية لكنها ليست كذلك. تعاملت مع مشتل في ميوبامبا
وكان نباتاته تعيش في ظروف قاسية، مشابهة تقريرياً للظروف الطبيعية. كان
جمع اللقى الفنية لمرحلة ما قبل كولومبوس أسهل بكثير. بدأناه في عام
1966 وهو أشبه بـ... الاقتلاع. انطلقنا في العمل وأصبحنا في غمضة عين
نبع في أوروبا وأستراليا إلى الجامعين الكبار كافة».

خطت تشادي إحدى قدميها ذات الكعب العالي وقالت. «عشنا كما هائلًا من المغامرات، لن تصدقني. يا لي، يجب أن تخبرها عندما لوحقنا في المكسيك!».

«ها أنا أخبرها يا ماما»، قال ليجي.

«رجال شرطة، وعملاء ومهربون، كان الجميع يطاردنا، كان أمراً لا يصدق!» قالت تشادي. «أتعلمين ماذا؟ إنديانا - ما كان اسمه؟ - إنديانا جونز، هل تعرفينه؟ حسناً، سيدو إنديانا جونز وبوتشر كاسيدى سخيفين مقارنةً بما عشناه من مغامرات. أليس هذا صحيحاً يا لي؟ ما عشناه من أحداث ومواقف متلاحقة يفوق ما عاشه إنديانا جونز! أوه يا إلهي!»

نهض ليبي قائلاً إنه سيذهب للبحث عن منشورات صحافية تتحدث عن معاركه القانونية الراهنة. أكد أن سبب تصميمه على مقاضاة الحكومة على قتلها لنباتاته هو أن إحداها كانت كاتلية موريانا تحمل محفظة بذور وكان يمكن أن تتوج له ملايين الغراس. «لقد استغرق مني ثلاثين عاماً كي أعثر على شتلة تحمل محفظة بذور»، قال. «كنت الوحيد في العالم الذي حصل على محفظة بذور ناضجة من أوركيدا الموريانا. لولا وجود أولئك المترفين لعنهم الله، لأنتجت خمسين ألف شتلة ولبيع كل منها بمائة أو بمائة وخمسين دولاراً. لأصبحت من الأثرياء الآن».

«حسناً، كنا نجني ثروتنا من اللقى الفنية»، قالت تشادي. «حصدنا الملايين! كان لدى ليبي سيارة لينكولن، لا بل سياراتان من نوع لينكولن كونتينيتال! لكن كما تعلمين، كنا نتعامل بالتراث وإخراجه من بلد المنشأ ممنوع!» صرّت شاحنة أثناء مرورها أمام الشقة وأطلقت صوت بوقها الهوائي. اصطفق باب الستارة، مصدرأً صوت طقطقة متذبذبة. نبع كلبٌ يبدو سئماً لمرة واحدة ثم هدا. يشعر المرء في شقة الزوجين مور أنه عاجز ومحاصر ومكشوف. «أصبحنا خارجين على القانون!» قالت تشادي، وهي تنفر بقدمها الأرض. «أوه يا إلهي، لن تصدقني».

في الحقيقة، خاض ليبي مور المغامر المغامرات واكتشف نباتات جديدة. عشر على آخر أصناف مكتشفة من الكاتلية - الأوركيدا المدهشة بلونها الأخضر الضارب إلى الصفرة مع بقع حمراء وحواف مسننة وأسماءها كاتلية موريانا. اكتشفت أيضاً الكاتاستيوم موريو الإنسايكليا لموريا، وهو ما صنفاً أوركيدا يستعملان حالياً بشكل عادي في التهجين التجاري. عشر على

بروميليه سوداء تقربياً، أیشميها تشانتيني، وتلك ذات اللون القرمزي الباهر التي أسمها نبوريجيلا موري واحدة شكلها يشبه المفرقعات أسمها غوزمانيا بيسماركي. خلال رحلته للجمع في بيرو برفقة قس معهداً من اليابان، اكتشف صنفاً من سرخس قرن الوعل هائل الحجم، بلا تسييريوم أندينيوم، ولم يكن شوهد منذ مائة عام. في عام 1962، نال لقب شخصية العام في جمعية البروميليه. في عام 1965، اكتشف برومليه طولية متفرعة وأزهارها بلون سماوي وزهري فاتح. أطلق عليه اسم تيلاندسيا فاغنريانا وفأه لذكرى صديقه رونالد فاغنر، الرائد في مجال استخلاص سم الأفاعي، الذي لقي حتفه في حادث طائرة في إحدى رحلاتهم للجمع في كولومبيا. حسب رواية لي، لم يكن في الطائرة المنكوبة سوى مقعد شاغر، ولذا فقد نقف هو ورونالد قطعة النقود لاختيار الفائز بالمقعد وكان من نصيب رونالد. لم ينج من الرحلة سوى بوك كلب لي وصندوق معدني يحتوي على قائمة زبائن لي. ألهمه الحادث للبدء بكتابة الرسائل الإخبارية. أطلق عليها عنوان عشاق مغامرات لي مور، تضمنت قصصاً من رحلاته في الجمع، وحياته في الأدغال، وصوراً للنباتات غريبة، وسكان غابات أصليين، عناكب وحيوانات السناد^(١) ومشاهد من الأمازون. ضم العدد الأول صورة لزوجته التحيلة هيلين مرتدية فستان غداء رسمياً وتلهو مع ببغاء، وصورة أخرى لابنة لي الصغيرة وهي تداعب خنزير ماء مدجناً، يعد من أضخم أنواع القوارض في العالم. أفرد العدد الأول بكامله من رسائله لقص حكاية حادث الطائرة الذي أودى بحياة رونالد فاغنر. كان أحياناً يضمن كتاباته اقتراحات للسفر. في العدد الثاني، شرح كيفية عمل أداة الرماية بالنفع مؤكداً أن الترباق الوحيد الناجع لسمها الفتاك هو محلول السكر: «إذا ما حدثت أن أصبحت يوماً بنبلة مسمومة... تذكرة، اشرب عصير السكر... إذا ما أسعفك الوقت». لم تدم سلسلة رسائل لي طويلاً. في العدد الثالث، كتب لي أنه سيوقف النشر «لقد اكتشفت أنني تأخرت كثيراً عن عملي نتيجةً للكوارث». صدف أن إحدى تلك الكوارث ألمت بطائرة أخرى في بيرو ولقي فيها سبعة من أصدقائه مصرعهم. وفي هذه المرة أيضاً، كان ينوي ركوب الرحلة وفاته بسبب

- يشبه الخنزير وله خرطوم قصير - م

تأخره على الطريق. ولأن اسمه كان على سجل الطائرة فقد أدرج في عداد الضحايا. أصيب أصدقاؤه والعائلة بالذهول لدى ظهوره حيًّا. كرس العدد الأخير لرواية تفاصيل الحادثة. كتب في كلمة المحرر:

إنها حكاية مروعة عن حقيقة مريرة حيث كان الثمن الذي دفع خلال السعي لإحضار تلك النباتات الغريبة لكم، أنتم عشاق النباتات، باهظاً ومروعاً، ويختفي أعني خيالاتكم. يتذرع الكشف عن كل الواقع حالياً، إذ إن الأمور التي أعرفها أخطر من أن أنشرها في الوقت الراهن.

هل حدث أن رأيتم أجساداً ممزقة ومشوهه بلا رؤوس منتاثرة فوق الأرض فيما العقبان تأتي على ما بقي من أناس كنتم تعرفونهم ذات يوم؟ سبعة منهم، شأنهم شأنى، يبحثون عن شيء ما... إنني مستعد تقريباً للترجل، ولكن قبل أن أفعل، أريدكم أن تعرفوا لماذا لا يمتلك ليبي مور أي مبرر كي يقال عنه منهزم.

أعمالى أعرضها للبيع. أيهملون الأمر؟

خلال رحلاته لجمع النباتات، أصبح ليبي مور على دراية واسعة باللقم الفنية ما قبل كولومبوس والحرف اليدوية السابقة للأنكا. «بمعنى آخر»، حسب تعبيره، «الكنوز المدفونة». لم يكن الاتجاه باللقم التاريخية محظوظاً آنذاك وما من رسمٍ تفرض على الآثار المستوردة. اعتقاد ليبي أن جمع اللقم الأثرية سيكون مكملاً لعمله في جمع النباتات. كان أول مشاريعه إخراج جدار نفيس برسوم جدارية من معبد قديم للمايا. استغرق الحفر ثلاثة أشهر. خلال تلك الفترة، خيم ليبي وزوجته البيروفية آنذاك واسمها زاديث وكانت حاملاً في شهرها السابع، في موقع الحفر واقتات على طعامٍ مكون من الحمام المشوي. مول عملية التنقيب في المعبد رجل أمريكي منحرف وله ارتباطات بعالم البغاء والمخدرات وتاجر فنون هنغاري، تولى ترتيب شحن جزء من الجدار إلى صالة عرضه في نيويورك والباقي إلى متحف ميتروبوليتان للفنون في نيويورك. كان الجدار في الحقيقة أملاكاً مسروقة. ذات مساء، اكتشف مسؤول حكومي مكسيكي، خلال حفل استقبال في الميتروبوليتان، وجود قطعة أثرية ثمينة من بلاده في قبو المتحف؛ طالب

باستعادتها على الفور. لم يكن أمام التاجر الهنغاري من خيار سوى تحزيم الجدار وإعادة شحنته إلى مكسيكو سيتي، حيث عرض في ركن مرموق ضمن متحف الأنثروبولوجيا. لم يحصل ليبي قط على أتعابه لقاء العمل في انتشال الجدار، لكنه نسي الأمر واعتبره درساً مهمًا. بعد أن أخذ فكرة عن العمل في تهريب الآثار، خطط وزوجته الجديدة تشادي لنهب موقع آخر للمايا يقع باللوحات الجدارية، لكنهما صرفا النظر عن الفكرة حين اكتشف ليبي نية العملاء الفيدراليين اللحاق به إلى الموقع والقبض عليه. قرر ليبي وتشادي بعدها التركيز على تهريب قطع تناسب مع حقائب السفر - مزهريات من حضارة المايا، وأثار بيروية قديمة، وأقنعة موت ذهبية^(١) وقطع فضية عتيقة. خلال هذه المرحلة، سافر ليبي من أمريكا الجنوبية إلى ميامي جيئةً وذهاباً مئات المرات. سار العمل في تهريب اللقى الفنية سيراً ممتازاً لدرجة أنه توقف عن تجارة البقاتات نهائياً. سرعان ما أصبح واحداً من أكبر خمسة تجار في العالم للفن ما قبل كولومبوس. أصبح له طائرته الخاصة، وسياراتان من نوع لينكولن كونتينتال، ومتزل فاخر إضافة إلى رصيد مصرفي بلغ مليون دولار.

رغم ذلك، عاد ليبي إلى العمل في النباتات. عاد إليه بعد تراجع تهريب الفنون، الناجم عن التزاعات مع الجمارك الأمريكية، حيث ربحت الجمارك غالباً. خسر قسماً ضخماً من ثروته في عملية جمع كبيرة للفضة البيروية العتيقة، إذ صادرتها الجمارك وأرغمته على التبرع الخيري بها لمتحف في بيرو. خسر المزيد من الأموال في شحنة لقى فنية ما قبل كولومبوس كان ينوي بيعها في أستراليا، إذ صادرها موظفو الجمارك بعد توصيفها كممتلكات مسروقة. صودر أحد أضخم استثماراته، عبارة عن قناع دفن من الذهب المطروق من مراحل قبل الأنكا يبلغ عمره ألفي عام، ثم أعيد إلى بيرو. وصل إلى قناعة أن مسؤولي الجمارك يريدون النيل منه. بعد إخفاق الصفقة الأسترالية اضطر لبيع طائرته، ثم باع سيارتي لينكولن كونتينتال. ترك منزله الفاره وأعلن إفلاسه. راح يبحث هنا وهناك عن عملٍ ما. كان

- 1 - كانت توضع على وجه الميت لاعتقادهم أنها تحميه من الشر - م

مستعداً للقيام بأي عمل، لا بل اشتغل بعد الإعصار أندريلو مياوماً في مشاتل محلية كانت ترمم دفيئاتها. شيئاً فشيئاً أصبح سمساراً لبيع وشراء النباتات، يشتري النباتات المميزة من مشاتل ميامي ثم ينقلها بالشاحنة إلى خارج الولاية ويبيعها للمشاتل الصغيرة في طريقه - تراه يتوقف بلا هدف في بلدة من كجاكسونفيل على سبيل المثال، يبحث عن كوة هاتف في محطة محروقات، يقف تحت حرارة الشمس وهو يقلب في دليل الهاتف، يتصل بالمشاتل المحلية ليسأل إن كانوا بحاجة لنباتات. كان عملاً مضنياً وجالباً للκκάβα و بالκαδ جمع مالاً منه. غير أنه أعاده مجدداً إلى عالم النباتات، الذي طالما أغرم به.

كان ليبي سيغادر في وقت مبكر من الصباح التالي في إحدى رحلاته للبيع، وجب عليه تحمل النباتات في المساء وقال إن بإمكانني مرافقته. أثناء صعودنا الشاحنة، سأله إن صدف أن تعرف على جون لاروش. انتابني شعورٌ أنها من نفس الطينة، لكنني استبعدت أمر لقائهما يوماً، لا شيء إلا لأنني اعتقدت أن الكون سيتفجر إذا ما وجدا في حجرة واحدة معاً. ضيق لي عينيه وفرك ذقنه. «لا أظنني عرفت هذا الرفيق»، أجاب. «ومع هذا فقد سمعت بقضيته. لا أستوعب تماماً شغفه بأوركيدا الشبح. إنها أزهار جذابة وجميلة، لا بأس، لكنني لا أظنها بهذا التميز». أدار محرك الشاحنة وأخذت تصرُّ خارجة من مرآبها. «معرفتي طيبة بكل من يعملون في عالم الأوركيدا»، قال. «مارتين موتيس؟ أنا من علمه كيف ينشئ مشتلًا تجاريًا. كان سقاء عندي. وفريد فوتشز والد بوب، هو من مول أول أسفاري لجمع الأوركيدا، تلك التي قدت فيها سيارتني الفولكس فاغن على طريق بينما السريع. اشتري العجوز فينيل الشتول التي جمعتها من أوركيدا جونغل». مسح جبينه. «هؤلاء جميعاً يعودون أيقونات كبيرة في عالم الأوركيدا، أشخاص من أمثال فريد فوتشز. لا أصدق أنني الآن أصنف مع هؤلاء الأيقونات».

في الشاحنة الخانقة، سرنا أمياً على طرق الضواحي بجوانبها الترابية والخالية من الأرصفة، تصفط على جانبها أكواخ بنغالو كعلب السيجار وأسوار من أسياخ معدنية مربعة. توقفنا أولاً في مشتل يدعى بوليز برومليه.

ركن لبي السيارة ومضى بحثاً عن المدير. «لي عندك أربعة من الأقمار الزرقاء وثمان من ميرمية الأمطار الأرجوانية⁽¹⁾». قال له لبي. قادنا المدير داخل الدفيئة نحو بقعة كان لبي قد وضع فيها النباتات قبل بضعة أيام. أحصاها ثم فرقع بلسانه قائلاً، «أتعلم، يبدو أن أحدهم سرق إحدى «أقماري الزرقاء»». في المشتل التالي. «هارفي، أريد من عندك مجموعة من صبير الساحرة»، توجه لبي قائلاً لمدير المشتل. «أكبر الشتول. لا أريد الكثير من الأوركيدا اليوم، ستذبل إذا وضعتها في الشاحنة بفعل حرارة الشمس وعندها لن يرغب أحد بها وسأكون مضطراً لأكلها». وصلنا إلى مشتل برومiley ديليون. «إنه المشتل الأحدث»، قال لبي أثناء دخولنا. مد يده مشيراً إلى الجانب الآخر من قطعة الأرض. «انظري إلى تلك الدفيئة الخشبية الجديدة المرتفعة، يا للروعة». في المكتب، سرد القائمة أمام المدير. «دعنا نرى، أنواع مختلفة من أناناس راموسا الحالي من الأشواك. أحضرتُ إحدى وعشرين قطعة من صباريات الفاشيني، وستاً وثلاثين شتلة من نباتات إيليسين⁽²⁾، وأثنى عشرة من الأنanas». كانت هذه أصناف مختلفة من البروميليه -منها ما هو عنكبوتي وشائك، ومنها بأوراق عريضة خضراء مرقطة قاسية، وتلك الصغيرة بصف من الأوراق ذات الحواف المستندة. «دائماً ما أبحث عن أشياء جديدة»، قال لي لبي «كان هذا مأربى على طول المدى. أشياء جديدة، أشياء مميزة بحق. إذا ما عثرت على فاصولياء رابع الجائزة، سوف تساوي خمسة آلاف دولار بالنسبة لك. أقصد لكل شتلة. نباتات اكتشفتها أنا -يكاثرونها بالملايين حالياً من خلال زرع الأنسجة. وماذا جنيت أنا منها؟» هز رأسه. «لا شيء سوى حفنة من النقود. كان يجب أن أكسب الملايين». قال إنه في أغلب الأحيان التي كان يعثر فيها على أصناف جديدة لم يكن يملك المال أو المرافق الضرورية لإكثارها والاستفادة منها، وكان يبيع ما يقرب من المائة، ليقوم أحد المزارعين التجار الكبار بعد ذلك بإكثارها وتحويلها إلى سوق نباتي ضخم، من أمثال شركة كمارت التي تبيع بأسعار زهيدة. من ناحية بدا حانقاً من خسارته المئوية لأموال طائلة، غير أنه من ناحية أخرى، بدا مستهداً

1- أسماء لأصناف من النباتات - م

- 2 - من الفصيلة اللوفية - م

من إنجازٍ خانعٍ بخنوعٍ بيع برومليه كمارت تساوي قيمتها عشرة ملايين. لكان قصة حياته هي مجمل خسائره القريبة مجتمعة مع الكارثة والثروة والطائرات المحطمة والحيوانات البرية. أشك في أنه كان سيسعد كثيراً لو ظل محتفظاً ببعض المال، إلا إذا لقيه من خلال المغامرة، سواء بمعازله للموت أو اقترابه من دخول السجن أو ضياعه وهو على وشك أن يصبح في متناوله. تساءلت أي نوع من الحياة كان لي يخشى كثيراً أنه سيغرق بها لو أنه لم يغادر المنزل ويقود سيارته باتجاه أمريكا الجنوبية بأسرع ما يمكنه. تخميني أنها ما كانت لتكون حياة سيئة، مجرد حياة مضجرة وقاحلة بالنسبة لشخص روماني مثل لي لي مور. لعله كان سيعيش نمطاً من حياة لن يضطر فيها أبداً لسكن أسماك استوائية في مضخة هيدروليكيه بغية مساعدة طائرته على الهبوط في كولومبيا، كما لن يضطر أبداً للعيش في كوخ يعج بالشعيين أثناء الوحيد هو بيت كلبه، ولن يضطر أبداً لمراوغة العمالء الفيدراليين الذين كانوا يبحثون عنه في بيرو، وما كان لتتسنى له رؤية مخلوقات لم تكن عين بشري قد وقعت عليها آذاك ثم عرف العالم عليها فيما بعد وأطلق على تلك المخلوقات أسماءها، مثل آدم. شعرت أكثر فأكثر أنني ألتقي ببشرٍ من أمثال لي لي لا يجد عليهم إطلاقاً لأنهم جزء من هذا العالم المعاصر وهذه اللحظة الراهنة - عالم استفحال التفاهات والالتزامات والحدود التافهة، عصر الشاوم الممل - لأن أسلوب عيشهم وما يعيشون لأجله أشياء تدعوا لتفاؤل كبير. نادراً ما أحبوا شيئاً، واثقون من كمال الكائنات الحية، عاشوا في سبيل خلق أسطورة عن أنفسهم وفكرة المغامرة، مقتنعون بأن ثمة أشياء جديرة بالموت في سبيلها، آمنوا أن باستطاعتهم أن يعيشوا الحياة على مقاس أحلامهم.

حمل لي بقية النباتات في الشاحنة وأخبرني أنه اكتفى ولن يتوقف عند أي مشتل آخر. يتعين عليه الخلود للنوم باكراً فهو ينطلق في جولاته لبيع النباتات قبل الفجر حتى لا تتعرض لحرارة الشمس وتبدأ بالذبول. لا يأخذ معه عدداً كبيراً من النباتات، حتى لا تكتظ الشاحنة بها؛ إذا نفذت وهو في طريقه، يتصل بشادي فتمده بالمزيد ليتابع قيادة سيارته شمالاً ويبعها. بالنسبة لي، كان التجوال في منطقة الأمازون أمراً يفوق الخيال، بيد أن السفر

إلى مكان غريب والاتصال بأناس لا تعرفهم يبدوان لي أمراً مخيفاً ويمكن تخيله. سألت لبّي إن كان يعتبر نفسه شجاعاً. فرقع أصابعه وقال «أوه، لست شجاعاً. أنا واثق من نفسي فحسب. أتذكر في طفولتي، ذهبت مرةً في رحلة عبر زورق كانوا في الإيفير غلادس، وامتنع بعض الأصدقاء عن مرافقتنا لأنها ستكون رحلة مرهقة وشاقة جداً. لكنهم جاءوا لمتابعة البقية وهم ينطلقون في الرحلة، أذكر أنني نظرت لحظة الانطلاق وشاهدت ملامح الحسرة على وجوه من تركناهم خلفنا وهم يتبعوننا. من هنا بدأت حياة المغامرة بالنسبة لي. أدركت أنني لا أرغب بتلك أكون واحداً من أولئك الباقيين على الضفة».

كتب في العدد الأخير من عشاق مغامرات لبّي مور، نشر في صيف عام 1966:

كتب الكثيرون رسائل حسد يعبرون فيها عن رغبتهم لو أنهم مكاني يرتحلون ويستكشفون، و يؤكدون أن الحياة التي أعيشها هي الحياة التي طالما تمنوا عيشها، لكنهم لم يستطيعوا السبِّ أو الآخر. إياكم أن تعتقدوا أن نمط المشاكل التي عايشتها تصاحب هذا العمل أو حتى توجد في حياة عادية. حكيت لكم عن مشاكل حياة غير طبيعية ليس بالإمكان القيام بأي شيء حيالها، بغض النظر عن الأعمال التي انطوت عليها. لن يواجه الإنسان الطبيعي هذه المصاعب. كان مقدراً للمغامرة أن تلاحقني في كل تفاصيل حياتي على ما يبدو. إنها ليست أعمالاً؛ إنها أنا. ستلاحقني المغامرة والتشويق طيلة حياتي. منذ أن كنت صبياً صغيراً نجوت تسعة مرات من الموت. رغبة اكتشاف الأشياء تجري في دمي.

رأس أوسيولا

بعد عدة أسابيع، في أحد نهارات فلوريدا الثقيلة تلك، السماء صافية والشمس فضية وملساء كما النيكل، أعلنت قاضية الدائرة بريندا ويلسون عن توصلها إلى قرار بشأن قضية أوركيدا الشبح. في وقت سابق من الشهر، قدم لاروش وثلاثة من رجال السيمينول -روسيل بويرز، دينيس أوسيولا وفينسون أوسيولا- التماساً بعدم الترافع في التهم الموجهة إليهم المتمثلة بنقل نباتات مخالف للقانون من أملاك الولاية. صرحت القاضية ويلسون أنها ستطوي الحكم على أفراد السيمينول مع تغريم كل منهم مائة دولار فقط، لكنها وبناء على ثبوت التهم الموجهة للالروش، ستفرض عليه غرامة مقدارها خمسة أضعاف ما فرضته على السيمينول، كما قررت تمديد فترة إبعاده عن الفاكاهاتشي ستة أشهر إضافية. نشرت صحيفة ميامي هيرالد في اليوم التالي مقالاً جاء فيه:

نابل - يوم الإثنين، في قاعة محكمة مقاطعة كولبير، وصلت قضية كان من المحتمل أن تحسم أحقيبة الهنود أم لا في التعامل مع نباتات أراضي فلوريدا العامة بوصفها ملكاً لهم إلى خاتمة مبهمة.

أمرت قاضية الدائرة بريندا ويلسون بتغريم ثلاثة من هنود السيمينول ومزارع أروكيدا في ميامي، عقاباً لهم على محاولتهم الاستيلاء على شتول أوركيدا وبروميليه نادرة في كانون الأول من محمية ستراند ستايت.

لكن محامي الهنود أكدوا على عدم المساس بحرية أفراد القبيلة فيأخذ ما يشاؤون من نباتات معرضة للانقراض من منتزهات الولاية أو المحميات، كحق يضمنه دستور الولاية. «ما جرى غير منطقى»، قالت ويسلي جونسون،

محامية أفراد قبيلة السيمينول. «السبب الوحيد الذي جعلنا نقدم فيه الالتماس هو تيسير الأمور. ليسوا مذنبين بأي شيء».

تابع عشاق الأوركيدا ومديرو متنزهات الولاية وممحياتها القضية باهتمام بالغ، نتيجة قلقهم من حدوث سابقة إذا ما سمع للهنود ولا روش بالاستيلاء على النباتات. قال لا روش إنه كان يعمل لحساب القبيلة بسبب معرفته بالأوركيدا وبقية النباتات. «كنت أتابع الأمر لضمان إتمامه بشكل ملائم»، قال عن رحلة حصاد النباتات في السنة الفائتة.

عبر بوستر باكسلي، مدير التخطيط والتطوير في القبيلة، عن اعتقاده استناداً إلى إعفاء استثنائي في الدستور بأحقية القبيلة في نقل النباتات من الغابة. «ولكن مثلها مثل بقية المعاهدات التي تبرمونها أيها القوم، لا تساوي الورق الذي كتبت عليه»، قال باكسلي، منوهاً بمعاهدات الحكومة مع القبائل الهندية.

في اليوم التالي من إصدار القاضية للحكم، التقيت بمدعى الولاية راندي ميريل، الذي تولى هيئة الادعاء في القضية. كان ميريل ضابطاً في الشرطة قبل أن يصبح محامياً، وكان يزمع الترشح لمنصب حاكم الولاية بعد انتهاء قضية الأوركيدا. عندما وجه الاتهام للرجال في بادئ الأمر، أخبرني ميريل عن عزمه على تجريمهم جميعاً. كان يترقب للنبيل من لا روش تحديداً، إذ وجده مجنوناً تماماً. القضية برمتها كانت جنونية. امتدت على رقعة من القوانين المختلطة - كل بندرين فيها يتعارض أحدهما مع الآخر. أحدها يمثل حالة جرمية، فمن غير المسموح في فلوريدا لأي شخص أن يجمع النباتات البرية المهددة بالانقراض، تلحقه عقوبات جنائية. الاستثناء الوحيد يخص أناساً أشار إليهم القانون باسم «هنود فلوريدا»، حيث استثنوا احتراماً لتقاليدهم في الصيد ومارستهم لصيد الأسماك. هذا يقتضي، وفقاً لقانون فلوريدا الجنائي، عدم جواز مقاضاة السيمينول على جمعهم لنباتات الأوركيدا المهددة. من جانب آخر، جميع المتنزهات المملوكة للولاية وممحياتها وبقية أراضي الدولة، بما فيها الفاكاهاتشي، محكومة بقاعدة تحظر نقل أي حيوان أو نبات منها، سواء كان مهدداً بالانقراض أم لا. هذا يعني احتمال تعرض أي شخص يقوم بجمع أي شيء من محمية كالفاكاهاتشي - ولو كان

نصل عشبة عادية، دودة أو أوركيدا شبح - للتوقيف والمساءلة. إذا وضعنا في الاعتبار التضارب الحاصل بين الحالة الجنائية ونظام متنزهات الولاية، هل يمكن للسيمينول جمع أوركيدا الشبح من الفاكاهاتشي أم لا؟ هل يمتد إعفاء «هنود فلوريدا» من قانون الأنواع المهددة بالانقراض ليشمل أراضي الولاية أم أن نظام المتنزهات يبطل هذا الإعفاء؟

هذه الضبابية هي بالضبط ما كان لاروش يبحث عنه في المكتبة القانونية. كان يدرك بـأن الحالة الجنائية المتعلقة بالأنواع المهددة ونظام المتنزهات متضاربيان، وقد راهن في حال القبض عليه مع طاقمه، على تمسك القاضي بالحالة الجنائية وتجاهله لقانون المتنزهات الإداري - بمعنى آخر، سيقرر القاضي أن استثناء السي敏ول من الحالة الجنائية يمتد إلى أرض متنزهات الولاية، حتى بالرغم من عدم وجود بند قانوني محدد يجيز هذا، وبالتالي يصبح جمع أوركيدا الشبح من الفاكاهاتشي من ضمن حقوقهم. راهن أيضاً على عدم ميل معظم قضاة فلوريدا لإصدار حكم يتنهك حقوق السي敏ول، أمرٌ كهذا سيثير بلبلة بالتأكيد. مكتبة سُرَّ من قرأ

قرر ميريل أن السبيل الأمثل لإحباط اللاعب لاروش هو تجنبها. قبل كل شيء، أسقط تهمة الاستيلاء على الأوركيدا المهددة عن السي敏ول وبالتالي لن تثار مسألة استثناء الهنود من القانون. غير أن الرجال قبض عليهم وبحوزتهم ليس فقط الأوركيدا والبروميلية المهددة بالانقراض وإنما أيضاً أغصان الأشجار التي تعيش عليها هذه النباتات - لقد أصرَّ لاروش على نقل الشتول مع الأغصان المتعلقة عليها بدلاً من انتزاعها عنها، هذا يزيد من فرص نجاتها. لا ينطبق تشريع النباتات المهددة بالانقراض على الأشجار العادية، ولهذا فإن استثناء «هنود فلوريدا» من قانون النباتات المهددة لا يشمل الأشجار العادية. تدرج الأشجار العادية تحت نظام المتنزهات الذي ينص على حظر إخراج أي شيء من قبل أي شخص من موقع ك محمية الفاكاهاتشي الحكومية. لو أخذ السي敏ول النباتات النادرة فقط، لوجدت القاضية نفسها ملزمة بتقرير كيفية تفسير هذا التضارب بين قانون حماية النباتات المهددة ونظام المتنزهات. يعتبر نقل فروع الأشجار اليابسة من متنزهه أمراً عادياً لا لبس فيه - لا يسمح لأحد على الإطلاق،

بلا استثناء، إخراج أي شيء حي من متنزهات الولاية. أدرك ميريل أنه سينال من لاروش من خلال تبع هذا التفصيل الذي لا جدال فيه من القضية - سوف يترك مسألة التسوية بين القانون الجنائي وأحكام الولاية لقاضي آخر في قضية أخرى ما. سوف يرضخ السيمينول لعدم إعفائهم بأي حال من الأحوال من أحكام المتنزهات المتعلقة بالأشجار الحية من بلوط وقشطة وحشائش فلوريدا العادمة. لم يعد أمامهم من خيار سوى الدفع ببراءتهم من عملية نقل الأشجار من متنزه الولاية، ونجحوا في النهاية.

كان موقف لاروش الشخصي أكثر تعقيداً من رجال السيمينول. بصفته موظفاً لدى القبيلة، خيل له أنه سيكون مغطى بكل الاستثناءات التشريعية لأفراد السيمينول. في حال عدم نجاح مسألة اللعب على الإعفاء، كان قد تجنب عمداً لمس أي نبات يوم حدثت السرقة: السيمينول هم من قاموا بعملية الجمع فعلياً -مشوا صوب الأشجار، قطعوا الأغصان، ربطوها ثم سحبوها خارج المكان- ليس فقط بسبب كسل لاروش، إنما لأنه أراد أن يظل قادراً على الحفاظ على صفتة كمستشار مراقب وليس جانياً، في حال قبض عليهم. لم تكن القاضية ويلسون مرتاحة لحجج لاروش. برأيها، هو موظف لدى القبيلة وليس فرداً منها وغير مؤهل للحصول على آية مراعاة خاصة تمنح للسيمينول. إضافة إلى ذلك، شعرت أنه مذنبٌ في كل شيء - في نقل الأغصان والأوركيدا والبروميلية، مذنبٌ في طلبه من الرجال الثلاثة الآخرين تقليده بما فعله، ومذنبٌ أخلاقياً بنسجه للخطة من أولها إلى آخرها.

«هنود فلوريدا» هم من ذرية هنود اليوتشي والكريك والشيروكى الذينقطنوا جورجيا وألاباما حتى القرن الثامن عشر، حين أرغموا المستوطنون البيض على التخلّي عن أرضهم الخصبة. بعد إعادة توطين الهنود في فلوريدا، أخذوا يطلقون على أنفسهم اسم السيمينول أو الميكوسوكى، التيتعنى «رَحَل البراري» أو «الغرباء» أو «الهاربين». بعد انتزاع الولايات المتحدة لفلوريدا من إسبانيا عام 1821، شق المستوطنون البيض طريقهم جنوباً نحو فلوريدا وسرعان ما طمعوا بأرض الهنود تلك أيضاً، استجابت الحكومة الفيدرالية من خلال إنفاق ما يربو على 40 مليون دولار على ثلاثة «جهود

لإخضاع وترحيل» السيمينول. انتهت آخر الحروب الثلاث على السيمينول، حرب بيلي بوليغس⁽¹⁾، في عام 1848؛ كان الجيش الأمريكي حينذاك قد «أخضع ورحل» أكثر من 90 بالمائة من السيمينول إلى أوكلاهوما. فـ العشرة بالمائة الباقين - حوالي ثلاثة عشر شخص - إلى إيفرغلادس ومستنقع بيع سايريس، حيث أقاموا مخيمات من أكواخ السعف والسرور على حواف الأرضي الرطبة. لم تتوقف الحكومة عن مساعدتها في ترحيلهم، في مرحلة من المراحل، عرضت على الزعيم بيلي بوليغس مبلغ 215000 دولار من أجل السير بأخر ما تبقى من أفراد القبيلة نحو أوكلاهوما. لكنه رفض، تم إقناعه لاحقاً بالذهاب إلى واشنطن للتفاوض. إلى جانب زعيم هندي آخر وفريق حكومي «من المختصين بالترحيل»، سافر الزعيم بيلي بوليغس إلى العاصمة على صهوة حصانه. توقف الركب خلال رحلتهم في تاماها وبالاتكا وأورانج سيتي وفي السافانا وجورجيا. كان الزعيم بيلي يسجل نفسه في الفنادق باسم «السيد ويليام بي ليغز». أخفق المؤتمر في ثني السيمينول وإقناعهم بالرحيل، مع صدور قانون عام 1853 الذي جعل من إقامتهم في فلوريدا غير شرعية، ومع المزيد من الهجمات التي كان يشنها عليهم جنود الحكومة. في عام 1858، اعترف وزير الدفاع جيفرسون ديفيس بأن السيمينول «عطلوا جهود جيشنا الحثيثة في إخضاعهم وترحيلهم». لأنهم لم يستسلموا قط، أصبح سيمينول فلوريدا يشيرون إلى أنفسهم كأناس لا يقهرون. حتى يومنا هذا، لم يوقع أحفادهم قط معاهدة سلام مع الولايات المتحدة.

كان أحد قادة هؤلاء الذين لا يقهرون محارباً شاباً يدعى أوسيولا، أبوه تاجر بريطاني أبيض وأمه كانت في جزء من نسبها من هنود الكريك، ذلك الجزء الأسمري، ونسبها الآخر اسكتلندي. ولد أوسيولا في شمال ألاباما. في عام 1818، قبض عليه جنود أندريلو جاكسون⁽²⁾ مع والدته. انتقل إلى سيلفر سبرينغس في فلوريدا، بعد إطلاق سراحهما، حيث عاشا عند أقارب والدته من هنود الكريك. أطلق على أوسيولا اسم بيلي بويل. ربما كان «أوسيولا» اسمًا مشتقاً من لقبه في شعائر الكريك، «آسي ياهولا» الذي

1- زعيم هندي للسيمينول - م

2- الرئيس السابع للولايات المتحدة - م

يعني المنادي على الشراب الأسود. مذاق الشراب الأسود لاذع ومر ويسبب الإسهال، يستخلص من تخمير أوراق نبات المتهة. «ياهولا» لقب لما يشبه خادم مذبح الكنيسة، من يمرر الشراب الأسود في الشعائر الدينية ويغنى. كان أوسيولا طويلاً مشوق القامة وسيم المحيا، يهوى الحلي الجميلة، والسرافيل الضيقة الحمراء، والعمامات المزينة بالريش. لم يكن لديه حقوق وراثية بالزعامة ولذا فهو لم يكن زعيماً بالمعنى العملي، لكنه حظي باحترام بالغ في القبيلة نتيجةً ولعه بها، ومهارته في لعبة الستيكبول الهندية الشعبية، وثقته بنفسه. سرعان ما بنى أوسيولا في صباح سمعة مميزة بوصفه محارباً هندياً. مع ذلك، كان له العديد من العلاقات والمعجبين بين البيض أيضاً. أصبح صديقاً مقرباً من ملازم أول أبيض تمركز في فورت كينغ في فلوريدا تعرف عليه خلال حرب السيمينول الثانية، وكان صديقاً حميراً لفرiderick ويدون، الطبيب الأبيض الذي عاينه بعد اعتقاله وإيداعه السجن العسكري. كان لأوسيولا أيضاً الكثير من المناصرين البيض، من دعاة إلغاء العبودية الذين كانوا يؤمنون بأن الحرب ضد السيمينول كانت حرباً ظالمة ولم تتشب إلا لمنفعة ملاك المزارع وعقاباً للهنود على توفيرهم الملاذ للعبيد الهاربين. في نفس الوقت، السيمينول أنفسهم كان لديهم عدد كبير من العبيد، رغم أن العلاقة بين العبيد السود وأسيادهم السيمينول كانت غير مألوفة - كان العبيد يختلطون ويتراءجون مع أفراد القبيلة، وتعيش كلتا المجموعتين في وئام ومساواة. إحدى زوجات أوسيولا كانت سليلة عبد ملاحق وقد قبض عليه فيما بعد، الأمر الذي استنهض التزام أوسيولاً بمحاربة الرجل الأبيض. مع ذلك، عقدت القبيلة معاهدات مع الاتحاديين بعد اندلاع الحرب الأهلية، ربما بسبب إقامتهم في الجنوب، ولكن هذا يعود جزئياً على الأقل إلى سماحهم بالعبودية، شأنهم شأن الاتحاديين.

تبأ أوسيولا مكانة مرموقة وسط قبيلته لأنه مهاجم ذكي ومنتقم لا يعرف الرحمة، وفي الوقت نفسه نال إعجاب الهنود والبيض معاً لعدله ونباله سلوكه واذرائه للإرهاب الرخيص. قيل إنه لم يحدث أن سرق ولو غرضاً واحداً من مستوطن أبيض أو جندي - ولا حتى حصاناً، وهو ما كان يعتبر غنيمة حرب متبرأة.

احتقر الخيانة والفساد وغياب المبادئ عند أي شخص، سواء كان أبيض أو هندياً. أشد عمل اعتزازاً لأوسيلولا وقد أكسبه شهرة واسعة كان اغتياله لشارلي إيمانثلا، زعيم السيمينول الذي انصاع للحكومة ووافق على انتقال القبيلة إلى أوكلاهوما. قُيل إيمانثلا الرشوة مقابل تعاونه. بعد قتله لإيمانثلا، انتزع أوسيلولا نقود الرشوة من محفظة إيمانثلا ونشرها فوق جثته.

في عام 1937، وافق أوسيلولا ومعه قائد آخر من السيمينول، وهو كوا هادجو، على حضور محادثات سلام مع الجنرال توماس جيسوب في حصن بيتون، فلوريدا. لعل قرار أوسيلولا دخول المفاوضات كان على أمل شراء الوقت لمصلحة القبيلة، أو ربما لأنه شعر بتقهقر قدرته على الصمود سنة أخرى من الصراع. سافر برفقة كوا هادجو إلى فورت بيتون مع وفد ضم واحداً وسبعين محارباً وست نساء وأربعة أفراد سود من السيمينول. سار أوسيلولا وفق الترتيبات بحسن نية، لكن جيسوب لم يكن كذلك: لقد أصدر أمراً سرياً لجوزيف هيرنانديز، مندوب فلوريدا في الكونغرس وأحد جنرالات ميليشيا فلوريدا، باعتقال السيمينول فور وصولهم. فور وصول وفد أوسيلولا إلى الحصن، ضربوا جميعاً على رؤوسهم، قيدوا ثم احتجزوا. تم ترحيل أوسيلولا على متن السفينة البخارية إس إس بوينسيت، ووصل يوم رأس السنة إلى سجن عسكري في فورت مولتري، في كارولينا الجنوبية. نفي من فلوريدا بسبب خشية جيسوب من نفوذه وسط السيمينول، حتى وهو خلف القضبان. كان أوسيلولا قوي الشخصية، تأثيره كاريزمي حتى وهو سجين، وسرعان ما أصبح نجماً في سجن القلعة. سمح له السير بحرية في أرجاء المكان وكان يرتدي ثياباً أنيقة على الدوام، لا سيما عند قدوم العديد من الفنانين المعجبين به كي يرسموا صورة شخصية له. عاشت اثنان من زوجاته برفقته في السجن. كثيراً ما كان يزوره الدكتور ويدون، كبير أطباء الحصن. وفقاً للوثائق التاريخية، حتى إنه كان يسمح أحياناً لأوسيلولا وبقية محاربي السيمينول بالخروج والابتعاد عن فورت مولتري؛ ذات مرة ذهبوا معاً إلى تشارلسون لحضور مسرحية بعنوان إما نصف قمر أو شهر عسل. كان أوسيلولا في أوائل الثلاثينيات عندما تم اعتقاله، بيد أنه كان بالأساس مستترفاً ومريضاً، يعاني من عدة أمراض خطيرة، بما فيها الملاريا. ظهر لديه

مرض العاذور، وهو نوع من الخراج ناتج عن التهاب اللوزتين، طلب في عام 1838 أن يخضع لعلاج تحت إشراف طبيب مختص بدلأً من الدكتور ويدون. يوم بلغ سقمه أقصى ذروته، نهض أوسيولا من فراش المرض وارتدى زيه المفضل من الأقراط الفضية الكبيرة، وعمامة الريش، ووضع طلاء الحرب الأحمر، وريش النعام، ومهماز الفضة، وقرناً مزخرفاً للبارود، وكيساً فاخراً للرصاص، وبطانية مخططة، وعصا من عظم الحوت. فارق الحياة فور انتهاءه من ارتداء كامل زيه. حضر الدكتور ويدون جثته من أجل إجراء مراسيم الدفن وفق الصورة المعتادة، ولكنه قطع رأس أوسيولا بعيداً عن أعين الجميع. من أجل إتمام الجنازة، أعاد ويدون وضع الرأس مع الجثة في النعش، حيث أخفى موضع القطع بوشاح ملون. دفنت الجثة مع الرأس المفصول في حصن في كارولينا الجنوبيّة، خلافاً لرغبة أوسيولا بدفنه في فلوريدا.

بعد الجنازة، عاد ويدون متسللاً إلى موقع الدفن وفتح النعش، أخرج الرأس وقام بتهريبه خارج الحصن. لا يوجد تفسير منطقي لدواعي أخذ ويدون للرأس، ولكن في الحقيقة، كتبت إحدى حفيّدات أبناء ويدون في يومياتها أنّ الدكتور كان «رجلًا غريب الأطوار». حنط الرأس باستعمال مواد تحنيط صنعها بنفسه، وعرضه لفترة من الزمن على واجهة صيدليّته التي كان يملكها في سانت أوغسطين، في فلوريدا. احتفظ ويدون بالرأس في منزله لعدة سنوات، وكان يعلقه فوق أسرة أولاده الصغار عقاباً لهم كلما أساءوا التصرف. في آخر المطاف، أعطى ويدون الرأس لصهره دانييل وايتورست، الذي كان طبيباً أيضاً. كان وايتورست زميل دراسة للدكتور فالتيتين ماوت، وكان جراحًا وختصّاصياً بارزاً على مستوى البلاد في علم الأمراض آنذاك. اعتاد ماوت التعاطي مع الشخصيات المشهورة؛ أجرى ذات يوم فحصاً لإدغار آلان بو بسبب آفات دماغية. كان ماوت يملك مكتبة طبية ضخمة ومتحف عينات تشريحية في نيويورك سيتي، الأضخم من نوعه في البلاد وقيل إنه «غني بخزع الأورام تحديداً، والأوعية الدموية الأبهريّة، والعظام المريضة، والمفاصل، والأوردة، والمثانات»، معظمها كان حصيلة عمليات جراحية أجراها الدكتور؛ يقال إنه بتر ما يربو على ألف من أعضاء الجسد خلال مسيرة عمله. راسل وايتورست الدكتور ماوت في عام 1843 ثم بعث

له برأس أوسيولا بقصد عرضه في «مقصورة الرؤوس» التابعة للمتحف. ذكر في دليل المتحف المصور لعام 1858 أن العينة رقم 1132 هي «(بالتأكيد) رأس أوسيولا، زعيم السيمينول العظيم. هدية من الدكتور وايتورست من سان أوغسطين». (تشير الكلمة «بالتأكيد» إلى المصدقات الثلاث التي طلبتها ويدون عن الرأس من ضباط الجيش الذين كانوا على معرفة بأوسيولا وعلى استعداد للشهادة بأن الرأس هو بالفعل رأس أوسيولا). يبدو أن ما ورد ساورة القلق، فالعينة أكثر قيمة من أن توضع في مقصورة للرؤوس وحسبما كتب لوایتهورست، «هذا سيجعل من سرقتها أمراً في غاية الإغراء»، ولذا فقد تعهد بدلاً من هذا بالاحتفاظ به في مكتبه المنزلي. من غير المؤكد ما إذا كان قد احتفظ فعلاً بالرأس في منزله أم في المتحف. كان المتحف في كلية الطب في الشارع الرابع عشر. تعرض في عام 1866 لحريق، ويعتقد الكثيرون أن الرأس قد أتى عليه الحريق. ما زالت بقية رفات أوسيولا في مقبرة حصن مولتير.

قاتل أوسيولا في سبيل مبدأ، قبض عليه بطريقة مخزية، قضى قبل أوانه تاركاً خلفه شعباً لا يقهـر. ظل محفوراً في الذاكرة، رغم قصر المدة التي تزعم فيها السيمينول. احتفى به والت وايتمان شعرياً، صوره التي رسمت في السجن دارت على المعارض الأوروبيـة، مقتنياته الأثرية محفوظة في المتحف حول العالم. سميت عشرون بلدة مقاطعة على الأقل في البلاد باسم أوسيولا تيمناً به، والاسم الثاني لنصف سيمينول فلوريـدا تقريباً هو أوسيولا.

وضع لاروش في ذهنه أن أحد موروثات أوسيولا العديدة هو حق السيمينول وعمالهم -أي هو نفسه- باقتلاع شتول أروركيدا الشبح من سبخة الفاكاهاتشي. بعد إصدار القاضية لحكمها بيوم واحد، هاتفني متذمراً. «صلبوني!» قال صارخاً وشرع يسعل كففة. «أخبرتك أنهم سوف يصلبوني صلباً حقيراً. القاضية معتوهـة. لا تفقه شيئاً البتة عن حقوق الهنود ولا تعرف سوى السخافـات. وإذا ما خيل لها أن بمقدورها إبعادي عن المستنقع فهي واهـمة. دعني أخبرك شيئاً. أقسم لك، سيركب بوستر بلدوزراً ويعود إلى الفاكاهاتشي ويخرـب المنطقة بالكامل ما لم تهـدأ ثورة غضـبـه».

توقف عن السعال وبدأ يقهقه. كان صوته يخرج من حنجرته بطيناً كأنه ينتقل عبر الحصى. لطالما كان الحديث مع لاروش تجربة سمعية وفيرة: أسلوبه في التدخين، وأسلوبه المضحك في النطق من خلال ضم كلمات معينة مثل «حسناً» التي ينطقها «حسناً»، و«الفاكاهاتشي»، التي تخرج من فمه «فووكوهاوتشي»، إضافة إلى ضحكاته المتنوعة «أهـ هوهـ هوهـ هوهـ»، التي يضحكها في نهاية وصفه لنفسه كيف نال من أحدهم، وضحكته «ها!» التي تعني شيئاً من قبيل انتظري لحظة! وقهقاته الجشاء، التي يوظفها لإفشاء فعل يعتقد أنه جنوني، فعلٌ قام به شخص آخر حتماً. إنه لمن المذهل برأيي أن شخصاً يمكن اعتباره هو نفسه مجنوناً بمتنهى البساطة يعتبر الكثير من البشر مجانيين. فهمت أن لاروش يعتقد أن جميع البشر، باستثناء وحيد هو جون لاروش، مبتلون بمحدودية التفكير وقلقلته -على سبيل المثال، لا يفكر حراس المتنزهات بما هو أبعد من حمايتها، والسيمينول عاجزون عن الإحاطة بما هو أبعد من حسهم بكبرياتهم المجروح، والقاضية لا تستوعب شيئاً خارج الأطر القانونية التقليدية. يفاخر لاروش بامتلاكه عقلاً ومنطقاً لا تشوبهما شائبة -حسب زاوية رؤيته لما جرى، لقد سرق الأوركيدا وهذا فعل لا أخلاقي ومخالف للقانون، لكنه لم يسرق سوى عدد محدود في كل مرة ولم يتزع قط كل الشتول عن الشجرة الواحدة، والأدهى من ذلك، لقد اصطاد الأوركيدا كي يساعد هذه الأصناف على المدى البعيد من خلال إكثارها في مختبره وجعلها متاحة بسعر زهيد. لم يثق سوى بنفسه في المساواة بين السلبيات والإيجابيات، وفي ازدراء القواعد واستخدام الحالة الفعلية عوضاً عنها. يظن أنه لا يوجد على وجه الأرض من يستطيع رؤية الأمور على طريقته، إذ إن مواقف الآخرين أضيق من عقدة الجبل ولا يملكون حسناً سليماً على الإطلاق. بالنسبة لشخص ممسوس أحادي التفكير من أمثال لاروش، بدا هذا كأنه موقف جريء للغاية يجب اتخاذه.

التقيت بوستر باكسلி، رب عمل لاروش في مشتل السيدينول، لأول مرة أثناء جلسة الاستماع في نابل، وفي المساء التالي تناولت بصحبته عشاء شريحة لحم في فندقي. أتعجبت به طيلة الوقت فقد بدا لي حصيفاً وظريفاً،

غير أني لم أعرف انطباعه عنني قط. بوستر رجل قوي ذو فك عريض مع القليل من النمش وشعره الطويل بلون كرة السلة. في أغلب الأوقات التي قابلته فيها كان يرتدي ثياب رعاة البقر المعتادة مع التعاوين، ويضع نظارة شمسية عاكسة بيضاء. يضفي حضوره جوًّا من الجدية العميق، بنظره جانبية مستفرزة وميلان رأسه الذي يعطي انطباعاً بتعنته الشديد. كلما طرحت عليه سؤالاً، كان يصمت طويلاً قبل أن يجيبني - أثناء صمته هذا، لم أكن أملك أدنى فكرة إن كان سيسخر مني أم سيرفض الحديث على الإطلاق أم سيكون مهذاراً وودوداً ويلقي على مسامعي أموراً شائقة عن حياته والقبيلة. ذات مرة كان فيها ميلاً للثرثرة والتودد، اصطحبني إلى العشاء في أحد المطاعم قرب المحمية ويدعى بلاك آيد بي. طلباً شطائر التاكو وشاياً مثلجاً، وفيما نحن نأكل أخبرني أنه من عشيرة السيمينول بانتير وزوجته من عشيرة البيرد^(١)، واعتبر هذا اقتراناً إشكالياً فالزواج بين العشائر يعتبر موضع شك؛ يكون الانساب في عشائر السيمينول للأم، وبالتالي سيغدو أبناءه من البيرد وليس من الانتير، بيد أن أكبر مخاوفه تمثلت في عدم انتتمائهم لأية عشيرة أو نمط حياة الهنود ككل؛ بما أنه هو نفسه ثلاثة أرباعه أبيض، لكنه ترعرع في المحمية وشعر بأنه هندي صرف - لعله أكثر هندية حتى ممن كانوا هنوداً بالكامل واعتبر هذا أمراً مفهوماً، طالما أنهم ليسوا مضطرين لسلوك الطريق الذي كان مرغماً عليه؛ أي توليه إدارة أعمال القبيلة، مما يعني أنه يمضي جل يوم عمله في التعاطي مع عالم البيض، مع البيض، يشعر أنه يشبه أي رجل أعمال آخر من جنوب فلوريدا، وليس رجل أعمال سيمينولي، لكنه وهو في طريقه إلى المتنزل بعد انتهاء دوامه يعود ليり نفسه منغمساً تماماً ضمن قوقة الحياة الهندية.

أحد الأعمال التي كان بوستر يشرف عليها هو المشتل، ولذا فقد طلبت منه في ذلك اليوم ونحن على المائدة أن يأخذني في جولة اطلاع. هز رأسه قائلاً، «حسناً، لا يمكنني هذا الآن. لدى زوار من اليابان ويتبعون على الاهتمام بهم».

«هل أنت مشغول طيلة الوقت؟».

«مشغول جداً»، قال. رفع شكلاً هرمياً من الورق المقوى كتب عليه قائمة حلويات اليوم وهم بالقراءة. رفع بصره وقال، «طلبت من أولئك اليابانيين الهبوط في أورلاندو حتى يتسلى لهم قضاء يوم في عالم ديزني. اصطحبتهم بعدها من هناك وقدت بهم إلى مزرعتي في برايتون، وأولمت لهم وليمة كبيرة جداً من المشاوي الهندية وكرنب المستنقعات والخبز المقللي وخبز القرع. صدموا مما رأوه، لم ترأعينهم هذا الكم الهائل من الطعام طوال حياتهم».

هاتفني بعد عدة أيام وأبلغني برحيل اليابانيين بعددما فشلت صفقة الليمون معهم. لديه بعض الوقت، ويمكنه اصطحابي إلى المشتل. قدت سيارتي لملاقاته في مكاتب القبيلة، مجموعة من المقטورات والأبنية الصغيرة على شارع ستيرلينغ رود. قبلة المكاتب، على الجانب الآخر من الشارع، موقع بناء ضخم حيث سيكون فيه المقر الجديد الدائم لقيادة القبيلة. عندما أوقفت السيارة، رأيت ما يقارب نصف ذرينة من السيارات في المرآب، جميعها شاحنات صغيرة عدا واحدة. أخطرت موظفة الاستقبال بوستر بوصولي ثم عادت إلى فرقعة علقتها. رحت أتصفح مجلتين لمسابقات رعاة البقر وأنصت لأحدهم يتكلم على الهاتف في مكتب مجاور قائلاً، «انظر، لقد أخبرتني أنك ستهي العمل الآن وعندما يخبرني أحدهم أنه سينهي شيئاً، فأنا أفترض أنه يقصد أنه سينهي عمل شيء ما، هل تفهم ما أرمي إليه؟» ظهر بوستر بعد قليل خارجاً من مكتبه. بدا متوجهماً نوعاً ما، إلا أنه لم يقل الكثير. عدنا إلى المرآب وركبنا شاحتته الصغيرة ثم أدار المحرك، قشر علقة، وهدرت السيارة في الشارع. بعد سلسلة من الانعطافات تحت جسر الطريق السريع، اجترنا مبني صغيراً عليه لافتة كتب عليها كوخ الكنيسة المعبدانية المستقلة للكتاب المقدس، وعمارات ذات أرصفة جديدة ومنازل صغيرة، أخبرني أنها تعود لأفراد القبيلة. عند الإشارة الضوئية، نظر إلى مطولاً وقال، «إذن ما رأيك بتلك القاضية في جلسة استبعاد نابل؟».

«لا بأس بها على ما أظن».

«ليست «لا بأس بها» بأي حال من الأحوال»، قال وهو ينقر بأصابعه

على عجلة القيادة. «بالمناسبة، أنت تعلمين أليس كذلك، أن السيمينول لم يوقعوا قط معاهدـة سلام مع الحكومة. ما زلنا في حالة حرب مع الولايات المتحدة». تغيرت إشارة المرور. سرنا في طريق مستقيم للحظات، ثم قال بوسـتر، «أعلم أن الكل يساوره الاعتقاد باستغلال لاروش لأولئك الفتية الهندـود حتى يتـنسى له القيام بسرقةـه وإنـشاء مشـتـل خـاصـ بهـ. حـسـنـاـ، كـنـتـ أناـ منـ أـذـنـ بـذـلـكـ. أـخـبـرـتـهـمـ أـنـ بـإـمـكـانـهـمـ الذـهـابـ وـجـمـعـ مـاـ يـحـتـاجـونـهـ. أحـضـرـ ليـ لـارـوـشـ الـلـائـحةـ الـقـانـونـيـةـ الـتـيـ تـنـصـ عـلـىـ إـعـفـاءـ الـهـنـدـودـ مـنـ الـقـوـانـينـ الـمـخـتـصـةـ بـجـمـعـ الـنبـاتـاتـ، وـكـنـاـ نـعـتـقـدـ بـضـرـورـةـ رـفـدـ الـمـشـتـلـ بـالـنبـاتـاتـ الـبـرـيـةـ مـنـ أـجـلـ الإـكـثـارـ وـالـعـرـضـ. اـسـتـفـسـرـتـ مـنـ جـوـنـ عـنـ الـأـمـرـ عـدـةـ مـرـاتـ فـقـدـ كـنـتـ أـرـغـبـ فـيـ تـصـدـيقـ مـاـ يـقـولـهـ. جـعـلـتـهـ يـتـرـيـثـ لـمـدـةـ شـهـرـ حتـىـ يـتـنـسـىـ لـيـ الـاستـقـصـاءـ بـنـفـسـيـ. مـاـ قـمـنـاـ بـهـ كـانـ ضـمـنـ الـقـانـونـ. هـذـاـ حـقـنـاـ. مـنـ مـصـلـحـةـ وـلـاـيـةـ فـلـورـيـداـ أـلـاـ تـعـبـتـ بـمـاـ هـوـ حـقـيـ. تـنـهـدـ عـمـيـقاـ وـأـرـدـفـ قـائـلاـ «إـلـاـ، إـذـاـ مـاـ عـبـثـواـ مـعـيـ، سـأـذـهـبـ إـلـىـ هـنـاكـ وـأـخـذـ كـلـ مـاـ هـوـ حـيـ فـيـ الـفـاكـاهـاتـشـيـ»ـ.

أدخل السيارة في ممر متـجاـوزـاـ سـيـاجـاـ يـحـيطـ بـالـمـشـتـلـ. لمـ تـكـنـ مـعـظـمـ الـنبـاتـاتـ الـتـيـ طـلـبـهـ لـارـوـشـ قـدـ وـصـلـتـ بـعـدـ، لـذـاـ فـقـدـ كـانـ الـمـشـتـلـ بـمـعـظـمـهـ فـيـ حـيـنـهاـ عـبـارـةـ عـنـ فـدـانـيـنـ مـنـ الـأـرـضـ الـحـصـوـيـةـ وـالـتـرـابـ وـبـعـضـةـ أـشـيـاءـ فـيـ أـحـواـضـ. بـمـحـاذـاةـ السـيـاجـ، كـانـ ثـمـةـ كـوـمـةـ مـنـ الـمـسانـدـ الـهـرـمـيـةـ الـخـشـبـيـةـ وـصـنـادـيقـ مـنـ خـشـبـ الـأـرـزـ وـأـكـيـاسـ نـايـلـوـنـ مـنـ النـشـارـةـ وـهـيـكـلـ لـدـفـيـةـ خـشـبـيـةـ - صـفـ مـسـتـقـيمـ مـنـ الـحـلـقـاتـ الـمـعـدـنـيـةـ الـتـيـ تـبـدـوـ شـبـيـهـةـ بـعـوـارـضـ عـمـلـاـقـةـ للـعـبـةـ الـكـرـوـكـيـتـ. الـمـكـانـ خـالـ مـنـ الـظـلـ، ضـوءـ النـهـارـ يـبـهـرـ لـدـرـجـةـ أـنـ الـحـصـىـ وـالـتـرـابـ كـانـتـ تـتـلـأـلـأـ. هـبـتـ نـسـمـةـ وـحـرـكـتـ صـفـ رـايـاتـ النـايـلـوـنـ الـتـيـ عـلـقـهـاـ لـارـوـشـ فـوـقـ الـبـوـاـبـةـ. فـيـ الـطـرـفـ الـبـعـيدـ مـنـ الـأـرـضـ، كـانـ ثـمـةـ ثـلـاثـةـ رـجـالـ يـقـومـونـ بـفـرـزـ كـوـمـةـ مـنـ حـلـقـاتـ مـعـدـنـيـةـ أـخـرىـ وـيـفـرـدـوـنـ كـتـلـةـ مـنـ قـمـاشـ الشـادـرـ الـبـلـاـسـتـيـكـيـ. بـعـدـ قـلـيلـ قـدـمـواـ نـحـونـاـ وـرـاحـواـ يـدـرـدـشـونـ مـعـ بـوـسـترـ. تـعـرـفـتـ عـلـىـ أـحـدـهـمـ رـأـيـهـ فـيـ الـمـحـكـمـةـ، فـيـنـسـونـ أـوـسيـولاـ، وـهـوـ أـحـدـ السـيـمـينـوـلـ الـثـلـاثـةـ الـذـيـنـ أـوـقـفـوـاـ مـعـ لـارـوـشـ. شـابـ نـاعـمـ الـمـلـامـعـ وـضـفـيـرـةـ شـعـرـ طـوـيـلـةـ وـكـتـفـانـ مـمـتـلـئـانـ. كـانـ يـرـتـديـ يـوـمـهـاـ تـيـ شـيـرـتـ أـخـضـرـ اللـوـنـ مـرـسـوـمـةـ عـلـيـهـ

عشرات الجماجم. بعد أن عرّفنا بـ بوستر بعضنا على بعض، حياني ثم أضاف، «لن أتحدث معك كثيراً. المسألة ليست شخصية، بل أسلوبنا نحن الهنود».

كان مكتب لاروش في قاطرة بلون البيج جائمة فوق كتل بيتونية بجوار بوابة المدخل. تحرك فينسون باتجاهها قائلاً إن لاروش في الداخل. شاهدت على مدخل القاطرة منشوراً دعائياً مرفوفاً يقول «مايديل، بخمسة دولارات، أللذ مأكولات المطعم، عشاء مميز يخته لحم بقرى أو هامبرغر ماركة سبام وطماظم فوق الأرز». ومنشور آخر بخط لاروش يقول «الافتتاح الكبير للمشتل يوم الثلاثاء الواقع في 24 كانون الثاني. جميع أفراد القبيلة مدعاون لتناول اللحم المشوي مجاناً». دفع بوستر الباب وفتحه ثم دخلنا عبر تلال من الأوراق والصناديق ومجلات البستنة باتجاه مكتب لاروش. مع دخولنا كان لاروش جالساً خلف طاولة مكتب معدنية يقلب في كاتalog شركة *magician's supplies*. نحني الكتيب جانباً وتناول بطاقة بريدية. «أهلاً بكم، انظروا إلى هذه البطاقة التي وصلتني من صديقي وولتر في بوتسوانا»، قال. «وولتر مجنون بزنبق الماء. لا يتورع عن السفر إلى أي مكان في اللحظة التي يسمع فيها بزنبقة نادرة. أحياناً يقوم بجمعها، لكنه في معظم الأحيان يذهب لمشاهدتها فحسب. يسعدني القول إنها أبهجت قلبي كثيراً. كتب عليها، (يا جون: النباتات مخلوقات رائعة. أراك قريباً). وضع البطاقة. «أتعلمون، وولتر مجنون تماماً».

وقف بوستر على مدخل المكتب وتجاهل لاروش أثناء كلامه عن وولتر. خالجني في تلك اللحظة شعورٌ بأن كلاًّ منهما يرى الآخر مفيداً ومستفزًا في آنٍ معاً - خليط من التقدير المتبادل والازدراء المتبادل. أشار بوستر نحو النافذة قائلاً، «كيف يليلي هؤلاء الفتية يا جون؟».

«ممّتاز يا بوستر»، أجا به لاروش. قال كلمته وقد مطها حتى بدت كأنها -مو-متوي-يا-ز طويلة. «تلقينا طلبات عشب بقيمة اثنين وثلاثين ألف دولار، إضافة إلى طلب أعشاب منشارية⁽¹⁾ بتسعة آلاف من قبل ولاية فلوريدا. يريدون سبعين ألفاً من الأعشاب المنشارية كي يزرعواها في

1- من فصيل النجيليات، تنمو في المستنقعات لها أوراق طويلة حادة - م

منصف الطريق السريع الممتد من تامبو إلى نابل، لكننا لا نستطيع أن نعطيهم حالياً سوى تسعه آلاف». رفع لاروش قدميه ووضعهما على المكتب وأخذ يتمايل على الكرسي جيئةً وذهاباً. لديه شارب صغير ودقيق يظهر ويختفي، وفي ذلك اليوم كان يبدو كأنه اختفى. كان يرتدي سروالاً مموهاً متهدلاً، وقبعة ميامي هوريكانز⁽¹⁾، وهي شيرت شيكاغو بلاك هووكس⁽²⁾ رسم عليه شعار فريق كوجه زعيم هندي. اعترف لي فيما بعد أنه لم يكن يهتم بالبلاك هووكس البتة، لكنه اشتراه بدولار واحد فقط واعتقد أنه من الطرافة أن يرتديه ويشير حقن السيمينول. «لقد صادفت أشياء جميلة في طريقي»، قال. «بازلاء هندية وتين وياسمين هندي وبرقوق. سوف أطلب بعضاً من شتول العجافة قريباً. جلبت اليوم نباتاً يسمى شجيرة الكونفيتي⁽³⁾». سحب طرف قبعته وقال، «أتعلم يا بوستر، الطقس اليوم في العراء أحر من جهنم».

«إنها فلوريدا يا رجل»، أجابه بوستر. التفت باتجاهي قائلاً «بدأنا للتو بملء هذا المكان، لكن هذا المشروع عمره طويل جداً. خططنا له منذ عصور. من البداية واجهتنا المتابعين، من قبل أن يتم توقيف هؤلاء الفتية حتى. كان علينا أن نعثر على الأرض، وحين عثينا عليها اضطررنا للحصول على حقوق الارتفاق من شركة الطاقة، ثم أجرينا مقابلات عمل مع حفنة من الأشخاص لانتقاء من يديره. وصلنا بعد ذلك إلى مسألة الاسم، أي تسمية المشتل. وضع جون في اعتباره أنه لا يريد اسمًا مطروقاً وعادياً للمشتل. أخذ يلاحقني بسؤاله عن تسميات السيمينول لكل شيء - يردد نفس السؤال كل لحظة «بوستر، ما هي كلمة السيمينول المرادفة لهذا؟ بوستر، ما هو المرادف لدى السيمينول لذاك؟» كان يريد معرفة أسماء الحدائق والمشاتل والدفيئات بلغة السيمينول. بعض الأسماء لم تكن موجودة في لغة السيمينول بكل بساطة. أردت منه تجهيز المكان فحسب وبعدها نذهب إلى المستنقع لصيد شتول الأوركيدا. كنت أعلم أنه هو أيضاً يتلهف لدخول ذلك المستنقع، لكنه لم ينقطع عن ملاحقتي بسؤاله عن كلمات السيمينول

- 1- قبعة فريق ميامي للروكيبي - م
- 2- ملابس فريق الهوكي - م
- 3- تشبه البيلسان - م

تلك. في النهاية استجابت له بالفعل وأخبرته، «بحق يسوع المسيح يا جون، أطلق اسمًا على هذا الشيء اللعين وكفى».

لم يكن لاروش يعجب جميع الناس بالطبع. بعد عودتي إلى نيويورك في ذلك الصيف، كتبت مادة في النيو يوركر حول قضيته، تلقيت رسالة من مزارع جاد يقول فيها إنه يعتقد أنني مخدوعة بلالروش. أصرّ هذا البستانى على أن لاروش شخص معطوب وخبيث. «دعيني أتحدث بلهفة دون تسمية الأشخاص، ينتمي (قادًأ لاروش) إلى وسطٍ تحول أفراده إلى العمل الزراعي كعلاج من جهة، وكمهرٍ مناسب من أعباء تحمل المسؤولية من جهة أخرى». كتب لي قائلاً. «إنهم لا يخضعون لأية قواعد مهما تكون عداناً زعاتهم المتفاوتة من كل ضابط. ليسوا بمهنيين حقيقيين... دخلوا مجال العمل هذا بصورة فوضوية، وأساءوا سمعتهم عموماً أكثر مما حققوا «الشهرة». لا يعيشون وفق سيرورة حياة منتظمة، يبدلون اهتماماتهم ومواضعهم على فوائل زمنية منتظمة. عندما يتعلق الأمر بمصالحهم تسقط المبادئ. وحدها نزعاتهم تملك الحقوق. ينجون بأعجوبة ويعثرون على المال دائماً، رغم فقرهم الدائم». بدأ البعض من السيمينول أيضاً يتساءلون حول مشاعرهم حيال لاروش. أخذ سكان منطقة المحمية يطلقون عليه لقب الرجل الأبيض المعجنون أو صانع المتابعة أكثر من جون، واحتاجوا على توريطه للسيمينول في متابعة قانونية بدون سبب وجيه واضح. لا بل قد بدأ البعض من أفراد القبيلة بالسؤال عن الهدف الأساسي من خطط لاروش للمشتل، والفنانين ونصف من قروون الفليفلة التي تشبه القضيب ونبات الجزر المغربي ومخبر يطفح بأوركيدا الشبح المستنسخة. يبرع لاروش في فلترة التناحر، تجاهلهم وتتابع السير في خطة إنشاء المشتل. أتم تشيد ما مساحته أربعة عشر ألف قدم مربعة من الدفيئات وأميال من المقاعد التي ستفرض بالنباتات. طلب المزيد من بذور الفاصلولياء الوردية من الأرجنتين والمزيد من النخيل الإفريقي، والمزيد من جنبات السرو القرمي التي تنمو على نحو حلزوني. أقام حفل شواء من أجل الافتتاح الكبير للمشتل. قال لبوستر إنه نظرأً لتعليق مشروع أوركيدا الشبح مؤقتاً، فلديه الكثير من الأفكار

الأخرى بشأن المشتل. «حان الوقت لطرق مجالات نباتية أخرى»، هذا ما قاله لبوستر. «حان الوقت للانحراف في إكثار نباتات من ميدان آخر. نشتري شتولاً صغيرة، نربيها حتى تكبر، ثم نبيعها ونحقق الربح. نقوم بتسليمها ونعيد الكرة من جديد. إكثار نباتات عادية لعامة الناس».

من الصيف وحل الخريف، تضاعفت أعداد النباتات، ومعه تفاقم الاستياء وسط أفراد القبيلة بشأن مشتل سيمينول غاردنز. في نفس الفترة تقريباً، نشب الخلاف بين لاورش وفريقه - اتهم بعضهم بتدخين الماريجوانا أثناء العمل - واشتكي لبوستر وأخيه كارل بهذا الشأن، الذي كان ضمن مجلس القبيلة التنفيذي. كانت ردة فعل بوستر أن اقترح على لاورش قصاء إجازة ممتعة وطويلة في أي مكان من العالم، المهم أن تكون على بعد عدة أميال فحسب عن محمية السيمينول. ساورت لاورش الشكوك من توصل القبيلة إلى قرار بأنه لم يعد مرحباً بالرجل الأبيض المجنون في المحمية، بيد أنه لم يكن واثقاً من السبب. «لعلها السياسة اللعينة»، قال لنفسه حينها. «يا مسيح، لا أستطيع حتى أن أصدق أنني أتعامل مع هذا الوضع. كأنه يهمني. إذا ما أقالوني سأقضيهم. لقد أجريت بحثاً قانونياً معيناً من قبل بشأن هذه، عندما كنت أبحث في قوانين الأصناف المهددة بالانقراض. لا يمكنهم طردي، وأنا لن أستقيل. ليس بمستطاعهم القيام بأي شيء».

ومع ذلك فقد ذهب في إجازته. يوم عودته، كان يتظره شيك إنتهاء الخدمة على المكتب وشخص آخر يجلس وراء مكتبه. قرر في تلك اللحظة الرحيل عن المحمية إلى غير رجعة. ستغدو نهاية أخرى من نهاياته الانفجارية القطعية، مثلها مثل نهاية مرحلتي تربية السلاحف وجمع إحفوريات العصر الجليدي - إنها النهاية القاطعة لمرحلته الهندية. جمع أوراقه والكتالوجات وحملها إلى سيارته الفان. كانت رايات النايلون المعلقة على بوابة المشتل تخفق وتترفع في الريح فوق رأسه. شمس المغيب تلقي بنورها من الأسفل على نباتات الدفيئة الخشبية، لتشكل ظللاً عملاقة على جدار الدفيئة الأبيض، ظللاً ضخمة لفليفلة أرجنتينية، وأوراق سبانغ، وبازلاء هندية وورود جورية. مقطورة المكتب المهللة، وشبكة أسلاك خطوط شركة

فلوريда للإنارة والطاقة متداخلة فوق رأسه كأنها لعبة مهد القطة^(١)، ممشى الحصى الترابي أمامه، الضوء الأحمر الضبابي، المختبر حيث الملائين من غراس الأوركيدا التي سوف تنقل وتزرع في المشتل - سار لاروش مبتعداً عنه فحسب، استقل سيارته، ودحرجها فوق تفرع المسار الوعر ثم دخل الشارع المصبوج بالأبيض مخلفاً كل هذا وراءه. أعلن لنفسه أنه لن يدوس أرض الهندود في حياته ثانيةً ولذا فهو لن يرى مشتله ثانيةً، المكان الذي كان يأمل أن يتتج فيه أعداداً لا تحصى من الأزهار النادرة ويجني ملائين الدولارات ويغير العالم تغييراً جذرياً. لم يكن لأفعل هذا البتة، لم يكن لأنتخلي بهذه السرعة عن أمرٍ كرست نفسي له، ولكن لاروش تعامل باستخفاف. «وكانني أهتم»، قال لنفسه.

بعد رحيل لاروش، فيما كانت القبيلة تناقش كيفية تسخيره، أقفر المشتل تحت لهيب سماء فلوريدا. خلال فترة المشاورات، يبس أكثر من نصف الشتول. حتى الصبار -لقد خزن لاروش أربعة آلاف نبتة منه- ذبل ومات. وفي النهاية وافق بوستر على توظيف مدير آخر للمشتل، شاب مفتول العضلات من جاكسونفيل يدعى ريك وارين وكان مسؤولاً عن تركيب أنظمة الري بالرذاذ ويعمل في أحد المشاتل كعمل جانبي. كان وارين مختلفاً عن لاروش. ليس برجل أبيض مجnoon-معسول اللسان ورجل أبيض لبق، وعلى قدر ما كانت خطط لاروش خلبية فقد كانت رؤياه بشأن سيمينول غاردنز واقعية. «لا يمكنكم إنشاء مشتل من النباتات الغريبة فحسب»، هذا ما قاله لسمينول. «لا بد من التعامل ببعض النباتات الرائجة كأشجار عيد الميلاد ونخيل الأحواض». حشد الدعم لتحويل مشتل لاروش الأصلي في الجادة الخامسة والستين إلى مركز بيع النباتات بالجملة فقط، ونقل قسم التجزئة إلى موقع جديد في ستايت رود 441، وهو طريق سفر الولاية المكتظ ويمر على طول الحدود الشرقية للمحمية. أوضح وارين أنه سيتمكن في موقع ستايت رود 441 من رى النباتات بمياه المدينة الخالية من

- 1 - تشابك الخيوط بين الأصابع بشكل متصلب - م

الصدأ، عوضاً عن مياه البئر المشبعة في المشتل القديم، وسيكون المركز في منطقة تجارية حيوية بالقرب من متجر القبيلة لبيع التبغ، ومخزن لبيع أقفاص الطيور والقردة، وكازينو السيمينول، بدلاً من ذلك الركن المعزول الذي اختاره لاروش. في الحقيقة، كانت قسيمة الأرض الواقعة على شارع 441 موقعاً لشركة إنتاج فيما مضى. «رأيتها مهجورة هناك»، أخبرني ريك. «خيل لي أنه موقع مناسب».

لم أقلح في تخيل مشتل السيمينول بدون لاروش، ولا روش لم يستطع تخيل مشتل السيمينول بدون لاروش، كما أنه لم يصدق نيتني في زيارة مشتل لاروش المختزل ذات يوم كي التقى بريك وارين وألقي نظرة على المكان. «رجل رذاذ الماء، كرمي للمسيح»، فتح لاروش قائلاً. «يا لها من بصيرة». ذات مساء أثناء مروره بهوليود في طريقه إلى أحد معارض الأوركيدا، قررت التوقف في المكان. مقطورة مكتب بيضاء نظيفة بجوار المدخل المؤدي إلى المشتل الجديد، خلف المقطورة صفت من شتول النباتات المتباudeة في أحواض بلاستيكية. شاهدت ثلاثة رجال يتوجولون بين الأحواض، يقومون بسقاية النباتات وتعشيبها. جميعهم كانوا يرتدون قمصان تي شيرت فيروزية اللون طبع عليها شعار مشتل سيمينول غاردنز للنباتات المتخصص بتصميم المناظر الطبيعية. عودة إلى الأصلية! وعلى رؤوسهم عصابة قماش مبللة. بعد دقائق، خرج ريك وارين وألذني في جولة في الموقع. كان يرتدي قميصاً آخر فيروزياً وسروال عمل البستنة ملطخاً بأثار العشب. سار بي إلى صف مركزي في المشتل. «أصبح المشتل مختلفاً تماماً عما تعرف فيه يوم رأيته لأول مرة»، قال. «حالياً ندير مشروعًا متنبأ بحق. القبيلة هي الزبون رقم واحد. كل فرد من القبيلة يشتري شجرة في عيد الميلاد، ولذا فقد قررت ضرورة أن يكون أول مشروع لنا هو أشجار الميلاد. أقصد، حسب رؤيتي للأمر، القبيلة تشتري الأشجار بطبيعة الحال، فما الضير من شرائها لها من مشتلها». توقف أمام شجرة جذعها مجعد ومحدود، يصل ارتفاعها حتى الركبة مزروعة في حوض أسود صغير. «بونساي»، قال وهو يداعب غصيناً من أغصان الشجرة. «مولع بها منذ صغرى. ربيت أول شجرة بونساي يوم كنت في السادسة عشرة. هذه هنا بلا ميط منشاري مائي»،

زرعتها ضمن طحلب السفاغنوم. لقد أنتجت ما يزيد على مائتي بونساي. أعطيت لكل فرد من طاقم العمل شجرة بونساي خاصة به، وعلمتهم طريقة تقليمها وتقييمها. إنها هواية عظيمة ويمكن أن تغدو عملاً مربحاً صغيراً إضافياً. التقط حصى من حوض البونساي ورماه على الأرض ثم راح يضغط على الطحلب حول قاعدة البونساي. «أترين، أصبح المشتل الآن مختلفاً كل الاختلاف عما كان في عهد لاروش. كل ما في الأمر أننا أصبحنا أكثر عملاً من السابق. القبيلة تريد كسب المال، ولذا فإننا أخطط بدقة متناهية. أخزن نباتات مقاومة للملح ونباتات مقاومة للجفاف كتخيل ذيل الحصان والإشورة القزمية⁽¹⁾ واللوريووب⁽²⁾ متعددة الألوان. يلزم منا نباتات مقاومة يمكنها العيش هنا كالتخيل المروحي والنخيل الجليل. أضع نصب عيني التوصل إلى زراعة نبتة لائقه بسبعين سنتاً وتربيتها لأسبوعين ثم بيعها بخمسة دولارات. حتى إنني جعلت فريقي يبدأ بجز العشب وكانت النتائج باهرة لدرجة أن القبيلة تطلب مني حالياً استحداث قسم مختص بالتعامل مع العشب». اقترب أحد الذين كانوا يسقون تخيل ذيل الحصان كي يتكلم مع ريك وعرفني عن نفسه. اسمه هيربيرت جيم، شعره أسود طويل وعلى وجهه ترتسم ملامح الأسى. أخبرني أنه ترعرع وسط عائلة من التشيكى في بيج سايرس، وإذا ما أتيح له استراحة من العمل فسوف يصحبني إلى هناك ويعرفني على جدته ونشاهد الحيوانات البرية. تحادث هو وريكي حول مواعيد جز العشب في الأيام القليلة القادمة، بعدها أومأ هيربيرت جيم برأسه موعداً وعاد إلى سقاية النخيل. كان جريد النخيل مطرزاً بقطرات الماء وبدا الرذاذ الناعم الخارج من الخرطوم أشبه بمجموعة من شخبطات قضية اللون ترتسم في الجو. بات المكان مختلفاً هذه الأثناء، رغم مرور شهر أو نحوه على رحيل لاروش. لم يعد أي من مرافقيه في الفاكاهاتشي يعمل في المشتل، بل إن أحدهم ترك المحمية معه. لم يعد لأي من نباتات المشتل الآن ذلك المظهر الأجرب العجيب الذي لطالما اكتست به نباتات وخضار لاروش - كانت مزروعات ريك مشدبة بعناية ومرتبة ويمكن لأي

- أزهارها عنقودية حمراء وموطنها آسيا - م

- حشائش طويلة الأوراق، تزرع تحت الأشجار - م

شخص عادي تربيتها. حتى إنني استطعت التعرف على بعضها بالفعل. «ما الذي كان يفعله لاروش في المشتل، حسناً، لأصدقك القول، لم أجده عمله واقعياً جداً»، قال ريك. «لا أعرف الرجل، إنما من الواضح أن خططه كانت تفتقر افتقاراً تاماً للعملية. ملأ المشتل بمزروعات غريبة لا تباع أبداً، لسبب واحد ألا وهو كمية شتول الأوركيدا الهائلة، وجلب نباتات من بقاع كإفريقيا والهند، وعددًا مهولاً من النباتات الغريبة التي تعيش على بعد مليون ميل وارتفاع ثمانين مليون قدم».

في عام 1957، عرضت مجموعة من سيمينول فلوريدا، ضمت فيها بيل أوسيولا وبطي ماي جومبير ولاورا ماي أوسيولا وجيمي أوسيولا وجون هنري غوفر ومايلز أوسيولا وشارلوت أوسيولا، صياغة لمسودة دستور وميثاق صادقت عليهما آنذاك وزارة الداخلية ورضي بهما غالبية أفراد القبيلة. نص الميثاق على اعتراف فيدرالي بقبيلة سيمينول فلوريدا، ووطد ضمن بنوده حقوق القبيلة في فلوريدا، في الإشراف على الأعمال والتطوير الاقتصادي الخاص بها. في عام 1971، قرر السيمينول إقامة مهرجان وروديو قبلي سنوي رسمي على أرض المحمية في هوليود. كان أول مهرجان تجري فيه منافسات إمساك العجول بواسطة الرجال، ومسابقات تقشير جذوع الأشجار، ومصارعة التماسيع، والبورو⁽¹⁾ ومعرض للحرف اليدوية. تطور المهرجان مع مرور السنين وبات حدثاً يدوم أربعة أيام ويضم منافسات غولف وبولينغ ومسابقات كرة سلة؛ ومسابقات للجمال؛ ملكة جمال السيمينول، ملكة جمال يافعات السيمينول، وملك جمال السيمينول الصغار وملكة جمال الصغيرات؛ كان فيه عرض للمواهب، وعروض موسيقية، واستعراضات أفاع. تزامن دخول لاروش إلى القبيلة وخروجه منها مع الذكرى الخامسة والعشرين لانطلاق المهرجان، وأخبرني الناس في أرجاء المحمية أنه سيكون حدثاً فريداً من نوعه. اجتاحتني رغبة محمومة لحضوره، وكانت بي رغبة خاصة بالحضور

برفقة لاروش، غير أنه كان حازماً بقراره عدم زيارة المحكمة أبداً. أصبح شديد الحرص على تجنب أي تواصل مع القبيلة، حتى إنه شرع يشتري سجائره من منافذ عادية للتجزئة عوضاً عن متاجر القبيلة المتخصصة ببيع التبغ والمعفاة من الضرائب، وهذه تضحيه كبيرة نظراً لعادته في التدخين. «لن أعود»، قال لي في اليوم الذي سبق الافتتاح. «إنني خارج كل ما يخص الهنود نهائياً. بحق المسيح، حتى إنني لا أصدق الآن كيف تحملت تلك السخافات هناك لحظة واحدة». سأله عما يفعله. «أتسلّك هنا وهناك»، أجابني. قلت له إنني أقصد من ناحية العمل. أجابني «أبحث عن عملٍ لا يشمل الهنود. أصبح لدى تخمة من النباتات، سوف أزاول عملاً لا يستلزم على كائنات حية قد تموت، هذا مؤكد. لا أستطيع تحمل العمل مع أشياء تموت أمامي طيلة الوقت».

أحسست بهمود رغبتي في مفاتحته بموضوع الانضمام إلى لحضور المهرجان، وهكذا ركبت سيارتي صوب المحكمة وحدي صباح اليوم التالي. كنت قد ألفت تلك الرحلة آنذاك، اجتياز الطريق السريع من ويست بالمبتش، ثم ستيرلينغ رود مروراً بمقاعد مواقف الحافلات التي تحمل إعلانات مركز السيمينول التجاري، ومتجر التبغ، ونادي بولكا للأمريكان البولنديين، ومهرجان الطعام، مروراً بكل تلك البوابات المعدنية البيضاء للوحدات السكنية الخاصة ومدرسة تدريب موظفي الكازينو، والشاحنة المغلقة التي عادة ما تكون مركونة على تقاطع ستيرلينغ رود مع الشارع 441 وتتبع الروبيان الطازج مقابل ثلاثة دولارات للباوند. تقع أرض المهرجان غرب شاحنة الروبيان وشرق مركز قيادة القبيلة. امتداد شاسع فيه ساحة للروديو، وعدة فدادين مكرسة للأكشاك، وحفرة تماسيح عميقه المياه، وملعب جديد سمى تيمناً بلاورا ماي أوسيولا، إحدى المساهمات في صياغة دستور عام 1957. في ذلك الصباح، كانت هناك مجموعة من الشاحنات الصغيرة ومقطورات الخيول مركونة في المرآب، والناس يفرغون البضائع من حقائبهم في أكشاك الطعام والحرف اليدوية. لمحت بوستر ومشيت باتجاهه للقاء التحية. كان واقفاً بجوار شاحنة أجرة غارقاً في الحديث مع رجل قصير ذي ذراعين وفخذين غليظين وصدر عريض

خزانة الخشب. كان صندوق الشاحنة مفتوحاً ويبعد أغلبه فارغاً، إلا من قاطور بطول اثنى عشر قدماً غافٍ على باب الصندوق.
«أهلاً»، قال لي بوستر.

«أهلاً»، قال الرجل القصير. «سررت بلقائك».

«هذا مصارع القاطور»، شرح لي بوستر، مؤر جحاً رأسه باتجاه الرجل.
«أنا توماس ستورم»، قال لي الرجل. «ستورم، كما في (الطقس العاصف)».

«لاحظت هذا»، أجبته.

عاد ستورم إلى بوستر. «أيمكنك تصديق هذا، قسماً بالله». قال ضاحكاً.
حاولت الحصول على تأمين على نفسي من شركة لويد اللندنية ولتحل
علي اللعنة، لكنهم لم يشاءوا هذا».

«لا مشكلة طالما أنك لا تقاضيني»، قال بوستر. «يبدو لي هذا المخلوق
مقرضاً تماماً». رفع نظره باتجاه القاطور الغافي، إذ تحرك فجأةً على باب
الشاحنة وانتفض فاتحاً إحدى عينيه. كانت عينه خضراء بلون الطحلب
وبيؤها يشبه أحد وجهي العشر سنتات. أنفه ضخم أيضاً وفكه السفلي
مرعب وبرائته شبيهة بموضع الجراحة. «لسن من المهتمين بمصارعة
التماسيح لكنني لا أمانع في تناول الكثير منها»، قال بوستر. «مزاقها كل حم
الدجاج السمكي. ليست لذيدة الطعام، لكنه نوع من التغيير على كل حال».
أخذ المهرجان يسير قدماً، مرّ أولاً موكب افتتاح ضخم من كبار
الشخصيات وملكات جمال السيميونول السابقات، افتتحت الأكشاك بعدها
التي يباع فيها إكسسوارات رعاة البقر، وأنشطة ربط الحيوانات، والأصفاد
اللعبة، والسوط والمهماز. الإكسسوارات الهندية كلبزيم الأحزمة الفضي
وتنانير الدرندل⁽¹⁾ المطرزة. أكشاك أخرى يباع فيها أشياء غريبة كأقدام
القاطور، والنقيفات البلاستيكية، والفووس المطاطية، ومشابك الشعر
الفضية والفiroزية، بخور، وتماثيل بوفالو صغيرة من خشب الصنوبر.

يتألف الطعام المتاح من خبز مقلبي ولحم بقر مشوي على الفحم وفطائر الأسكيمو وقفنة من لحم القاطور (سبعة دولار) وقفنة من سيقان الصفادع (عشرة دولار) وهوت دوغ وبطاطا مقلية (بدولارين، مع خصم للطلاب). أكبر أكشاك بيع لحم القاطور اسمه غاتور هوت، علقت فوقه لافتة كتب عليها «الحم تماسيح». لدى مروري من أمامه، رأيت رجلاً بدinya ملتحيا يقرأ اللافتة ويقول للبائعة، «أريد قطعة قاطور صغيرة وعلبة كوكا كبيرة من فضلك». أمام طاولة شواء صغيرة في الظل، جلست أربع سيدات مسنات بوجوه مجعدة يضعن لفحات صوفية ويرتدن تنانير السيمينول وجوارب حتى الركب، يأكلن خبز القرع بصمت. وضع الشاب الذي جلس معهن قبعة فريق كليفلاند إنديانز للبيسبول، بشعارها الذي يحمل صورة رأس الزعيم وهو الآخر⁽¹⁾، وامرأة واقفة خلف الشاب ترتدي مسلحاً هندياً إضافة إلى تي شيرت بوب مارلي⁽²⁾، وتنورة سيمينول تقليدية مطرزة جميلة، وساعة يد بواجهة مضيئة. لم أتبادل الحديث مع أحد؛ أمضيت الساعات القليلة التالية أتجول فحسب بين وابل من الأحاديث - «إنني مشغول بحق هذه الأيام. نستضيف وزير إسبانيا حالياً». «نمى لي أن فلاناً اتحر مطلقاً النار على رأسه!». «أعمل على خياطة جلد الغزال هذا. هل لديك مشكلة مع الرجل الذي يقوم بأعمال المرأة؟» «مرحباً موللي، أين كنت؟ في فرنسا؟ أم في الفضاء الخارجي؟» «سأوافيك خلال دقيقة، ما زلت أتمتنق بلطتي». هدر من جهاز مخاطبة الجمهور صوت رجولي مهيب: «ووكيينغو فالو إلى مقصورة التفتيش من فضلك». «ليتقل RID ريفير وأوتر ترايل إلى البوابة الأمامية حالاً». «ليذهب بودينغ بيع ماؤنتين إلى الأستاد مباشرةً لو سمحت». أثناء وجودي في أحد الأكشاك اشتريت باقين من الشيش واللافاندر مرت من أمامي فتاة تجر سحلية أغوانا مربوطة برسن، وكتيبة من صبياً الكشافة باللباس الرسمي، في نظام برتل منفرد. مع مضي ساعات الصباح، تدفق بعض البيض إلى المهرجان، يرتدون سترات الجلد وسرافويل الجينز، أو قمصاناً تحمل شعار ولاية ميسسيسيبي مع سرافويل قصيرة، أو ملابس بيته

-1- صورة كاريكاتورية لهندي أحمر - م
-2- روبرت مارلي، معنى جامايكى - م

فاتحة اللون ووaciات رأس من البلاستيك، كانوا يشقون طريقهم إلى حلبة الروديو أو يدورون على الأكشاك باستحياء.

بدأت مسابقة ملكة جمال السيمينول للصغرى في الأستاد. انتظرت المتسابقات الصغيرات على المدرجات أما المتسابقون لملك جمال الصغار فقد اصطفوا على المنصة، بعضهم كان يرتدي زي السيمينول الباهر الألوان والبقية أطقمًا صغيرة لرجال الأعمال. تحت أشعة الشمس الصفراء، كان الصبيان الصغار يتوجهون كالمسابح. انتشرت كشاكس الزينة الفضية فوق المنصة ومن مكان ما خارج المشهد، هدر صوت طبل كبير. انطلق عريف الحفل بالكلام على المنصة: «سيداتي سادتي، إليكم راندي أوسيولا المتسابق رقم ستة، يبلغ من العمر خمس سنوات وجاء إلينا من محمية هوليود... يليه جوستن تروي أوسيولا، وعمره ثلاث سنوات. جوستن أحد أفراد عشيرة البانثر وجاء من محمية هوليود... كيث كيلي جومبر من عشيرة بيج تاون وجاء من محمية بيج سايرس...». جلس الحكم ثلاثة على كراسٍ قابلة للطي في متنصف الملعب، يضعون على أقلام الرصاص ويتهماسون فيما بينهم. «حسناً، أسمعونا تصفيقكم لهؤلاء الفتية الصغار»، تابع عريف الحفل. «لا يفهمون ما يحدث، لكنهم يقومون بعمل رائع على كل حال. عملٌ كبير بالنسبة لولد صغير، رغم أنهم لا يفهمون ما يحدث. حضر البعض من ملكات وملوك جمال السيمينول الصغار البووو خارج الولاية، وبعضهم الآخر لم يفعل، حسب توفر المال. لكنهم يمثلون قبيلتهم ونحن فخورون بهم جميعاً». انشق لحظتها ولدان عن رتل ملك الجمال وأخذوا يطاردان بعضهما بعضاً على المنصة بالعصبي. «فيما يسجل الحكام النتائج، يطيب لي أن أقدم لكم جينجر تايغر، أميرة عام 1980»، صاح العريف قائلاً. نهضت إحداهن عن مقعدها وطوطحت بيدها باتحية واسعة. تعالى التصفيق. صاح أحدهم من خلفي، «مهلاً، من هو ذاك الطفل الذي فاز؟ أقرع الرأس».

«هل هناك المزيد من ملكات جمال السيمينول لا أراهنَّ؟» سأله العريف. «ريتا غوفر؟ هل أنت حاضرة؟ قفي وارفعي يدك! دعينا نرى تحية الأميرات!».

جاءت جلستي في المدرج بجانب إحدى راقصات البووو. فتاة رشيقية وفارعة الطول، لعلها في السادسة عشرة أو نحوها، واسعة العينين وصفائر شعرها الطويل مجدولة بإحكام. أخبرتني أنها لا تتمي للسيميونول - من هنود الأوجيبوا^(١) وتعيش في مانيتوبا في كندا، غير أنها قدمت إلى فلوريدا مع مجموعة من الأوجيبوا لأداء رقص البووو. أخبرتني أنها تشارك كل أسبوع تقريباً في أحد مهرجانات البووو في أمكناة مختلفة؛ هذه الاحتفالات هي شغفها. كانت ترتدي فستانًا مذهلاً من الساتان الأرجواني الغامق، ياقتنه مرتفعة وكماه طويلان وتنورته طويلة واسعة. كانت التنورة مغطاة بالكامل بأغطية عبوات سعوط كوبنهاغن وماكفيرسون الرقيقة فضية اللون. كل غطاء صغير فيه ثقب جانبي وقد ثبت على التنورة من هذا الثقب كي يبقى باقي الغطاء متديلاً ويختلاش. أخبرتني الفتاة أنه يفترض بتنانير البووو أن تحمل 365 خشخاشة بالتمام والكمال، بعدد أيام السنة، لكن تنورتها احتجت إلى 150 إضافية حتى تتغطى تماماً نتيجةً لطول قامتها المميز. بدت التنورة مكسوة بخلاف قاسي كدرع معدني. أخبرتني أنها تزن أكثر من عشرة أرطال، لكن هذا الوزن لا يزعجها على الإطلاق. نهضت بعد دقائق كي أحصل على نظرة أشمل على فستانها. التمع الساتان الأرجواني، وحين دارت أمامي، طارت ضفيرتها في الهواء وصلصلت أغطية علب السعوط الخمسمائة بعضها على بعض، مصدرة صوتاً ناعماً متواتراً وخفت متدرجاً ونزلولاً من تنورتها إلى الأرض.

كان تو ما س ستورم قد أنزل القاطور بجانب حفرة المياه ويتحضر لعرضه الأول في ذلك اليوم. تحلق حوله نصف دستة من المتفرجين، يتبعونه وهو يستعد ويجربون آلات تصويرهم. أححيطت حفرة المياه العميقه بالرمل. ستورم حافي القدمين والقاطور موثق وبدا كأنه ما زال غافياً. «مهلاً!» صاح ستورم فجأة. «هذا الرمل يعجب كل أنواع النمل. هل لدى أحدكم مبيد حشرات؟ هل من أحد؟» لم يتحرك أحد من المتفرجين. وقفزت زوجة

ستورم، وهي امرأة صغيرة القد شعرها أشقر مجعد، في مكان قريب وعلى حضنها فتاة صغيرة. «توماس»، قالت، «أنا ذاهبة لأحضر شيئاً نأكله وسأترك تشيلسي هنا. لا أريد لها أن تقع في الماء، أتسمعني؟».

أخذ ستورم يركل الرمل بقدمه بحثاً عن النمل. «توماس!» صاحت زوجته بنبرة حادة. «هل سمعتني! أنت تعرف غضبي! لا أريد لتشيلسي أن تقع في الماء!» مط التمساح إحدى ساقيه المكسوة بالجلد. هب الجميع وقفزوا. أدار ستورم بصره صوب زوجته وأكمل لها أنه سمعها. وضع الرضيع على الرمل وسارت متعددة على مهل، تلتفت إلى الخلف طيلة الوقت. ظهر من الطرف الآخر فريق تصوير تلفزيوني وبرفقة بوستر، كان يتحدث مع الشاب ذي البدلة الفاحمة الذي كان المسئول على ما ييدو. «نريد شيئاً من الإثارة في الخلية». قال الشاب بوستر. «ما الذي يمكنك تقديمها؟»

«يمكنني أن أرتجل لك شيئاً بالتأكيد» أجابه بوستر. «لقد أحضرت جميع أصناف راقصي البووو ومصارعي التماسيخ إلى هنا».

رفع ستورم ذراعه تحيةً لهم. كانت ابنته تدللي قدمها في حفرة القاطور. «حسناً، نظراً لحالة الطقس، دعونا نبدأ بالتماسيخ»، قال موظف التلفزيون. «يستحسن بنا اختصار الوقت. أود أن أراه ممسكاً بالقاطور بإحكام في اللحظة التي أبدأ فيها التصوير. كما أنتي أود بالفعل رؤية البعض من أولئك الراقصين، أظنهم سيكون مشهداً مليئاً بالإثارة».

«يمكنني أن أحضر لك الراقصين، لكن هذا سوف يستغرق قليلاً من الوقت»، قال بوستر. أخرج هاتفه النقال من جيبه وضرب رقمًا. «أجل، هذا أنا»، قال للمتحدث. «أحتاج إلى راقصين من أجل القناة العاشرة... حسناً، اتصل بشارلوت غوفير إذن! قل لها أن تأتي بهم معاً!» أغلق الهاتف. « قضي الأمر»، قال للموظف. «لقد أحضرت أيضاً هندياً يتكلم من بطنه، إن كان يهمك الأمر».

«هذا ممتاز»، قال الشاب. «بوجود المصارع والراقصين، أظن أن هذا كل ما يلزمني».

عاودت زيارة المهرجان في الصباح التالي بغية متابعة عرض قائد القبيلة الزعيم جيمس بيلي مع فرقته للروك الريفي. إنها المرة الأولى التي سأرى فيها الزعيم بيلي بشحمه ولحمه، رغم أنني رأيت صورته التي تغطي كامل جدار كازينو سيمينول، وعلى شاخصات الطرق على سفاري مستنقع الزعيم بيلي الواقع على طريق فاكاهاتشي، وفي فيديو تروي جي عن سفاري المستنقع ظل يعرض بلا انقطاع في أحد الأكشاك أثناء المهرجان. بدا أنه غير موجود، غير أنك عاجز عن الحديث مع فرد من أفراد القبيلة دون أن تسمع اسم الزعيم بيلي؛ الكلي الحضور والأسطوري، إنما هو دائمًا خارج المشهد، شكل من أشكال المكافئ البشري لأوركيدا الشبح الأسطورية والكلية الحضور والمتوارية عن الأنظار. ولد جيمس إيه بيلي في هوليود عام 1943 وتبناه بعد الولادة ماكس أوسيولا، وهو مربى ماشية وأحد وجهاء عشيرة سيمينول بيرد. نشأ بيلي بطريقة تقليدية في المحمية، لكنه يشير إلى نفسه على الدوام باسم الهجين الكسيح لأن ساقيه مقوستان ووالده البيولوجي كان إيرلنديا. بعد الثانوية، خدم بيلي مظلياً في حرب فيتنام. بعد عودته إلى فلوريدا عمل مزياناً للشعر ومرشد صيد. حسب وصفه، هو من قدامى محاربي فيتنام مشوش العقل، مصارع تماسيخ ويدو هبياً يرتدي سروال شارلسون. في وقت فراغه كان يتأمل في استنباط طريقة تكسب القبيلة المال. كان سيمينول فلوريدا آنذاك معدمين وعاطلين عن العمل ولا يتلقون سوى مائة دولار تقريراً من ربع الأرباح المستحقة عن تسويات مطالبة الأرض الاتحادية وأعمال القبيلة. إحدى أوائل أفكار بيلي كانت إطلاق امتياز سياحي لمسابقات الغطس من أجل إخراج النقود^(١) في إيفرغلادس. في عام 1976، علم بقرار المحكمة العليا الذي أكد على اعتبار المحمييات الهندية دولًا ذات سيادة. جنباً إلى جنب مع محامي ميامي، أخذ بيلي يبحث ما إذا كانت هذه السيادة تمتد لتشمل مسائل كالبينغو والبوكر المنخفضة المخاطر. افتتحت القبيلة عام 1979 قاعة للبينغو في هوليود وربحت قرار محكمة ضد ولاية فلوريدا، الأمر الذي جعل من تحديد ساعات الكازينو والجوائز الكبرى أمراً قانونياً بالنسبة للقبيلة، وهذا ما لم يحدث قط في محمية هنود

- يفوز من يستطيع الغوص وإخراج القطعة النقدية - م

أمريكان. في العام التالي، ترشح لمنصب زعيم القبيلة، مطلقاً حملته بالتنقل بين المحميات على متن طائرته السيستن ذات المقاعد الأربع. أمضى ليلة الاقتراع في صيد التماسيح مع كلبه بينغو. فاز بالانتخابات بأغلبية ساحقة. خلال السنوات العشر من زعامة بيلي، ارتفعت ممتلكات القبيلة من الماشية، وبدأت أعمالها بتجارة الحمضيات، وأسست مزارع للسلاحف البحرية والروبيان، وظفت جون لاروش لإقامة مشتل للقبيلة. شيدت كازينوهات القبيلة في منطقة تامبا في هوليوود، وفي إيموكالي، ووافق الممثل بورت رينولدز، وهو نصف شيروكى، على لعب دور بطل مختلط العرق في مسلسل غونسموك في أول عمل تلفزيوني له، على أن يكون الناطق باسم مشاهير الكازينو. بلغت عائدات مؤسسات سيمينول فلوريدا من الأعمال السنوية 35 مليون دولار. وقفز متوسط الأرباح الفصلية من 100 إلى 600 ألف دولار، وارتفعت عائدات القبيلة من أعمالها من 500000 دولار على أساس سنوي إلى أكثر من 10 ملايين. أخذت شركات الأعمال تتقارب من الزعيم بيلي والقبيلة بانتظام بحثاً عن فرص مشاريع مشتركة. تواصل دونالد ترامب معهم عام 1996، وعيّنه على كازينوهات القبيلة؛ أكد الزعيم بيلي أنه لن يتحدث مع ترامب إلا إذا عقد اللقاء في البيغسايريس، وإذا ما وافق ترامب على إمضاء الليلة في متابعة صراع القاطور وتناول خبز السيمينول المقللي وسيقان الضفادع. جرى اللقاء طبقاً لشروط الزعيم بيلي. انتهى اللقاء بلا صفقات، ولكن ترامب دعا الزعيم بيلي في السنة التالية ليكون حكماً في مسابقة ملكة جمال الكون التي ينظمها.

بمجرد تبوء بيلي لزعامة قبيلة سيمينول فلوريدا، كان يتنقل عادةً بين المحميات في سيارته الكورفيت الذهبية اللون. وقام أيضاً بتسجيل عدة ألبومات من خليط موسيقي خاص من الروك البلوغراس والموسيقى الريفية والساكس. أطلقتها شركة تسجيلات صغيرة مستقلة اسمها تسجيلات سيمينول. حصلت أغنتا بيج أليغاتور وأولدوايز تحديداً على تقديرات ممتازة. جال برفقة فرقته شاك داديز، كان يعزف في الملاهي ومهرجانات الموسيقى الفولكلورية والريفية. ما خلا هذا، ظل أسلوب حياته ريفياً.

الصيد والخوض في المستنقع هي مشاريعه الرئيسية. في ليلة الأول من كانون الأول عام 1983، التقى بيلى وأحد أصدقائه يدعى ميغويل كونتو لتناول الهايمبورغر في مطعم روبي للوجبات السريعة في المحمية. ولأنهما شعرا بالملل بعد الطعام، قررا المضي لصيد غزال. ركبا سيارة بيلى البيك أب وتوغلوا في قطاع كاوبون ضمن محمية البيغ سايرس. صوب بيلى سلاحه فيما كان كونتو جالساً في صندوق الشاحنة يوجه الضوء في الأحراش. على درب ترابية وسط أجمة كثيفة، لمح كونتو عينين فوسفوريتين كاليرات المضيئة. أطلق بيلى النار من مسدسه على الحيوان وأصابه في كتفه.

بعد تسليط الضوء عليه، لم يكن الحيوان غزالاً على الإطلاق وإنما فهد، لعله سلالة فرعية من الكووجر، إنه فهد فلوريدا، الرمز الرسمي للولاية. لم يكن يوجد في حينها من نوعه سوى ستة وعشرين حيواناً معروفاً بوجودها. كانت فهود فلوريدا ذات يوم منتشرة في أرجاء الجنوب الشرقي، وتنقل شمالاً حتى تينيسي. في حوالي بداية القرن، أطلق المزارعون ومتعبدو المقاولات خطأ لإبادتها -القضاء عليها ومحوها- وأصابت نجاحاً كبيراً، مما جعل علماء الحياة البرية في مطلع السبعينيات مقتنيعين بأن هذه السلالة الفرعية باتت مهددة بالانقراض. يبدو أن عدداً صغيراً منها نجح في الاختباء في مستنقعات فلوريدا، واكتشف في عام 1973 حوالي 30 ناجياً منها. تقلصت المساحات التي تعيش فيها من ثلث الولايات المتحدة بكمالها إلى خمسة آلاف ميل مربع فقط في الإيفيرغلادس، ومستنقع بieg سايرس وبسبخة الفاكاهاتشي، وأصبحت شديدة التكيف مع وسطها، إذ ظهر فيها العديد من السمات المميزة وغير الطبيعية: عقبة في طرف ذيلها، دوامة من الوبر الأملس في أعلى رقبتها، وجهاز مناعي ضعيف، وعدد متذر جداً من الحيوانات المنوية لدى الذكور مع عيوب في الخصية تعرف بالخصوصية المهاجرة.

قبل عامين فقط من إطلاق الزعيم بيلى النار على الفهد، بدأت ولاية فلوريدا بالسعى لحماية هذه السلالة. أمسكوا بالفهود وثبتوا عليها أطواطاً لاسلكية وعالجوها من خلل وحدات بيطرية متنقلة تحمل الصادات الحيوية، والفيتامينات، وزجاجات الأوكسجين، وأنابيب تنظير الرغامي وجهاائر بالونية. تمت متابعة تحركاتها بواسطة أجهزة

قياس راديوسي عن بعد ونشرت على الإنترنط على موقع فهود فلوريدا <http://supernet.net/chrisd/genel5/html>. واصلت الولاية لبعض الوقت خطتها للإمساك ببقية الفهود ونقلها إلى حدائق الحيوان لاحقاً، حيث سيسىء إلى العلماء الإشراف عليها والمساعدة في تكاثرها ثم إعادةتها إلى البراري في آخر المطاف. رفضت الخطة حين احتاج نشطاء حقوق الحيوان أن في هذا مبالغة بالرهان، وإذا كان محتوماً على هذا الصنف الاندثار فليترك لينذر بكرامة في المستنقع. بعد ذلك اعتمدت الولاية برنامجاً للتهجين. أطلق كوجر تكساس، القريب ورائياً من فهد فلوريدا، في موطن الفهود وهيئة لها الظروف للاختلاط فيما بينها. لا بد أن الذرية الناشئة عن تزاوج الكوغر مع الفهد ستمتلك مادة وراثية جديدة، بدلاً من تلك المورثات المعاقة التدوير والشاذة لدى الفهود وحدها؛ يفترض بهذا التنوع أن يساهم في تقوية الحيوانات وإنعاش مجموعها. عارض البعض برنامج التهجين هذا، إذ اعتبروا أن فهد فلوريدا قد ينجو ولكنه سيفقد نقاطه الجيني. بالفعل، لم يعد فهد فلوريدا صنفاً نقياً بأي حال من الأحوال. انكب العلماء على دراسة الحمض النووي الميتوكوندري لسبعة من فهود الفاكاهاتشي وتتبعوا مورثاتها حتى الكوغر البرازيلي والتسليلي، التي جيء بها إلى فلوريدا لمصلحة المعارض المحلية ثم أطلقت في البراري في الخمسينيات والستينيات.

بعد جرحه للحيوان، عاد الزعيم بيلي وأطلق النار مجدداً، دون إصابة. أشهر بعدها بندقية صيد بعيدة المدى وأرداه قتيلاً بطلقة في الرأس. بعد عودته إلى كوخره في بيج سايريس، التقط صورة لنفسه مع كلبه بينغو والفهد، مرفوعاً من أذنيه.

في 7 كانون الأول، توجه موظفو هيئة أسماك المياه العذبة ومراقبة الصيد في فلوريدا، بناء على معلومات نقلت لهم، صوب مسكن بيلي الخشبي ورصدوا جلد الفهد وجمجمته معلقين في الخارج حتى يجفوا. في 13 من كانون الأول، أصدر قاضي مقاطعة هيمندري كاونتي مذكرة توقيف بحق الزعيم جيمس بيلي، بتهمة قتل أحد فهود فلوريدا، وهي جنائية من الدرجة الثالثة تصل عقوبتها إلى خمس سنوات سجن أو غرامة خمسة آلاف دولار.

أو كليهما. أعلن بيلي أنه سيدفع ببراءته من التهم الموجهة إليه استناداً إلى حق السيمينول في قتل الحيوانات المهددة على أرض المحكمة، وأن صيد الفهود أحد طقوس القبيلة الروحية والعلاجية وبالتالي لا يمكن المساس بها باعتباره تعدياً على الحرية الدينية. خلال المرافعات الشفهية في أيار، أكد الزعيم بيلي أمام القاضي أنه يدرس أصول العلاج منذ عامين، وقتل الفهد كان مطلوباً للحصول على تلك المرتبة. يقول سوني بيلي وهو مداو في القبيلة لأحد الصحفيين: «يحتوي الفهد على دواء مفيد جداً. إنني في غاية الفخر بما فعله جيمس بيلي».

انتشرت قصة الزعيم بيلي مع القانون والフェد وتشعبت مع مرور الوقت. بعد توجيه الاتهام له مباشرةً، رفع بيلي دعوى قضائية فيدرالية، متحدياً قوانين فلوريدا لحماية الفهود، لأنها تنتهك الحرية الدينية للسيمينول. حرر قاضي دائرة هيندري كاونتي هوغ هايس أمرأً من 23 صفحة يسقط فيها التهم عن بيلي، إلا أن محكمة فلوريدا الاستئنافية نقضت قرار القاضي هايس وأعادت التهم. كان بيلي قد اتهم آنذاك بجرائم ارتكاب انتهاكات فيدرالية منصوص عليها في قانون الأصناف المهددة، إضافةً إلى محاكمة بالتهم التي أعادت توجيهها له الولاية. كان المدعون العامون الفيدراليون بانتظار نتائج مراجعة المحكمة العليا بشأن قضية داكوتا الجنوبية حول مقتل نسر أصلع^(١) على يد يانكتون سيوكس. حين قررت المحكمة العليا أن قانون حماية النسر الأصلع ينقض معاهدة حقوق الهنود، وجه الاتهام لبيلي، وبدأت المحاكمة الفيدرالية قبل محكمة الولاية، في آب عام 1987. لم يكلف أحدٌ نفسه عناء المحافظة على بقايا جثة الفهد طوال تلك الفترة. عندما جاء بها كدليل، فقد البعض من جمهور المحكمة وعيهم بسبب فطاعة رائحتها. جلس بيلي خلال المداولات وعلى فمه وأنفه منديل أسود بسبب الرائحة الكريهة وقال لأحد الصحفيين محتاجاً، «لقد أفسدوها! لم يضعوا عليها الملح!» في الحقيقة، قام أحد مسؤولي مراقبة الصيد بغلق الجمجمة واحتفظ آخر بجلد الفهد في ثلاثة منزله لمدة عام ونصف. أما باقي الجيفة فقد كانت غائبة، لقد

- رأسه ورقبته بيضاء، يعد رمزاً لأميركا - م

أكلها بيلي. حتى خلال المحاكمة، أصرَّ على القول إنه لم ير قط فهداً قبل الليلة التي أرداه فيها، وأنه كان مقتنعاً أنه يصيغ غزالاً، اعترف لسان بيتسبورغ تايمرز أنه كان يعلم بأن طريده فهد، وأنه كان يرغب بقتله حتى يحصل على جلد نادر يعرضه على أولاده، وأن التهم الجنائية و موقف الحكومة أحمقان حسب اعتقاده. قال أيضاً إن مذاق لحم الفهد لذيد مع صلصة البروغريسو وقليل من التوابل.

تنوعت المحاججات في الدفاع عن بيلي. ادعى محامييه بعدم سريان قانون حماية الأصناف المهددة على الصيد في المحمية لغرض غير تجاري، إضافةً إلى انتهاك هذه التهم لحرية بيلي الدينية، إذ تستعمل أنبياب الفهود من قبل المعالجين، وتعد جلودها وجماجمها رمزاً للقوة لدى السيمينول، كما أصر على مخالفته قانونية عند التحفظ على جلد الفهد، حيث فتش موظفو مراقبة الصيد مسكنه في بيج سايرس بلا تفويض، وقبل كل شيء، لم يكن بيلي يعلم أنه يطلق النار على فهد- استهدف الحيوان ظاناً إياه غزالاً، وحتى لو أنه علم أنه فهد فما من سبيل للتأكد أنه من سلالة فرعية لفهود فلوريدا المهددة وليس مجرد فهد عادي. علاوة على هذا، ترافع وكيل بيلي مؤكداً عجز الحكومة عن الإتيان ببرهان قطعي أن الحيوان هو بحق من فهود فلوريدا المحمية، نظراً لاستحالة التفريق تقريباً بين سلالة الكوجر الفرعية وبقية الأنواع الفرعية. لم يكن هذا تلاعباً جديداً على فلوريدا بالشؤون القانونية. على مر السنين، دافع المدانون بسرقة الخنازير عن أنفسهم في المحكمة بالزعم أنهم اعتقدوا أن الخنزير المستأنس الذي سرقوه كان برياً حقيقةً أي أنه بلا صاحب، وبالتالي فهم لم يسرقوا شيئاً من أحد، وإن كانوا فعلوا، فلم يكن متعمداً بالتأكيد- مجرد خطأ بريء في التعرف على الحيوان. في آخر المطاف، قطع مجلس فلوريدا التشريعي في عام 1937 الطريق على هذا الأسلوب من الدفاع القائل لم أكن- أعلم- أنه خنزير- مزرعة وظنته- برياً، من خلال إصدار مرسوم تجريم، استناداً إلى خلو الولاية من الخنازير البرية، لا سيما التشريعات المطبقة على سرقة الخنازير. استمرت مداولات هيئة المحففين في بالي يومين، أعلموا القاضي بعدها بأنهم انقسموا اقساماً حاداً بشأن وجود دليل قاطع يؤكّد أن الحيوان من فهود فلوريدا. أعلن قاضي

المقاطعة الفيدرالي على الأثر إسقاط الدعوى. توجهت النيابة العامة -في قضية ولاية فلوريدا ضد جيمس بيلي- إلى المحاكمة في الشهر التالي. بعد أقل من ساعتين من المداولات، برأت هيئة محلفي الولاية، وأكدا المحلفون فيما بعد عدم توصلهم لقناعة تامة بأن الحيوان المقتول هو أحد فهود فلوريدا. بعد يومٍ من تبرئته، أسقطت الاتهامات الفيدرالية الموجهة ضده، ربما لأن المدعين الفيدراليين عدوا تبرئة الولاية له فألاً سيئاً. في تلك المرحلة، طالب الزعيم بيلي باستعادة الجلد من الهيئة الأمريكية للأسماك والحياة البرية، يد أن طلبه قوبل بالرفض فوفقاً لموظفي الدائرة كان الجلد من الممنوعات. في أواخر تشرين الأول انتهت موجة الملاحقة القضائية أخيراً. أعيد انتخاب بيلي في شهر أيار لولاية جديدة من أربع سنوات رئاسية على قبيلة السيمينول. بعد فترة وجيزة، أعلنت الحكومة الفيدرالية عن تطبيق قانون حماية الأنواع المهددة، اعتماداً على شابه المظهر، على جميع القطط الكبيرة في فلوريدا؛ أي حيوان في الولاية يمكن أن يخلط بينه وبين الفهد المعرض للانقراض أصبح الآن محمياً بموجب القانون الفيدرالي.

أثناء فترة إحماء الفرقه، راح الزعيم بيلي يروي الطرائف للحضور. لعله تحدث بلغة الهيتشيتي أو الموسكوجي⁽¹⁾ - لست أدرى فأننا لا أتكلم أياً منها. كان صباحاً صاحياً ومقاعد المدرجات حارة كالشوایات. بعد الطرائف قال بيلي بالإنكليزية، «والآن، يستحسن بكم أيها الهندود توخي الحذر عند شراء مخالف الدب⁽²⁾ من هذا المعرض! سمعت أن مراقب المباراة يتطلع إلى جعلكم تعيشون وقتاً عصبياً!». أرخى الغيتار ليتدلى على خصره وغمز للحضور. كان شعره طويلاً وعلى طبقات، عظام وجنتيه ناثنة، حاجبه أسودان، ووجهه ماكر ذو ملامح حادة تبدو رائعة على خشبة المسرح. ارتدى في ذلك الصباح قميص رعاة بقر فخماً وسروال جينز أسود وربطة عنق شريطية. عاد وغمز ثانيةً. «يا ولد، لا أمانع البتة في تناول القليل

-1- لغة قبائل الكرييك الهندية - م

-2- تأتي أيضاً كنوع من الحلوي - م

من السردين مع المقرمشات فوراً». نطقها بنبرة حميمة. «عجبت أمّنا نحن السيمينول أليس كذلك؟ لدينا كازينو حالياً وحققنا أرباحاً هائلة من عائدات الأسهم، وعوضاً عن اعتماد أسلوب جديد لحياتنا، ترانا نرفع من شأن أسلوب حياتنا القديم. نشأنا على السردين والمقرمشات. ثروتنا الجديدة بكاملها الآن ملك أيدينا، وماذا فعلنا بها؟ حسناً، نشتري كميات كبيرة من السردين والمقرمشات فحسب، صحيح؟». وضحك، «حسبيما أتذكر، كنت أخرج إلى المستنقع برفقة جدّي على الدوام. ما نقتله نهاراً نتناوله مساءً. من الصعب خروجك عن هذا الروتين. إنه أسلوب حيائي لا أكثر، أسلوب حياتنا». شرعت الفرقة بعزف أغنية «في وهاد المناطق النائية». لم ينقطع الحضور عن التصفيق طوال الأغنية. مع اقتراب ختام المقطع النهائي، ركض صبي صغير -أصغر أولاد الرعيم بيلي- إلى وسط الساحة يتبعه تمساح صغير وسمين وفمه مغلق بشرط لاصق. كان الصبي هزيلًا، عاري الصدر وحافي القدمين. حاصر التمساح في ثوانٍ وامتطاه. هلل الجمهور وابتسم بيلي، وهو يفرك شفتيه على الميكروفون. حدب الصبي ظهره وحدب الزاحف ظهره. أمسك خطم التمساح بإحدى يديه ورفعه في الجو، وفتح أصابع يده الثانية المرفوعة سريعاً منشئاً شارة النصر.

في فترة الظهيرة، قابلت فينسون أوسيولا بجوار البوابة الرئيسية. فينسون هو المتهم الآخر الوحيد إلى جانب لاروش في قضية الأوركيدا الذي عرفته قليلاً وأعجبني كثيراً، رغم هدوئه وتهكمه وفظاظته التامة. قابلت صديقه ساندي صدفةً في مسابقة ملك وملكة جمال صغار السيمينول في أول أيام المهرجان، وفي الفاصل بين أغنية «Jailhouse Rock»⁽¹⁾ التي أدتها أحد المرشحين الصغار وأغنية «it's my Desire to Live for Jesus»⁽²⁾ التي أدتها مرشح آخر بنسخة حادة وحزينة، حكت لي عن طبيعة حياة المرء عندما ينشأ في محمية بيج سايرس في كوخ مع أجداده وأعمامه، عن مشاعره التي يشيرها

-1- أغنية لإلفيس بريستلي - م
-2- أغنية لجوزيف لارسون - م

صوت هطول أمطار فلوريدا، وهي تقع على سقف الصفيح كالرصاص بشكل متواصل طوال الليل، جميعهم ينسجون الحكايات عما يحاول المطر أن يقوله. تقيم حالياً في هوليود، التي قالت إنها جميلة ولكنها سريعة - مكان مفترض في مدنته، كمية هائلة من السيارات والمخدرات والبارات وزوايا الشوارع، الأمر الذي جعل تربية الأطفال على الطريقة الهندية عسيراً للغاية.

حين رأيته، كان فينسون بانتظار ساندي كي يذهبا معاً لعشاء جماعي. هي ستقدم يد العون في إعداد العشاء ووافق هو على الإشراف على شيء ألي في شريحة لحم. كعادته، كان فينسون يضع نظارات شمسية عاكسة، ولم يستطع معرفة ما إذا كان ينظر إلى أم ورائي أم حولي، رغم أنه كان يدو منتصتاً لي. سأله إن عاد إلى الفاكاهاتشي بعد حكم القاضي، نفى قائلاً «كلا، أبداً. منذ ذلك الحين». استفسرت منه إن التقى أو تحدث مع لاروش بعد رحيل الأخير عن المحمية. «لا، لم أر أو أتحدث مع الرجل»، قال وهو يحرك إصبعه على ذقنه جيئةً وذهاباً. «هو السبب في هذه المتابعة». وإن جمع الأوركيدا بعد رحيل لاروش؟ «لا، لم أفعل قط»، أجابني. «قبل أن يتسبب لنا ذلك المجنون الأبيض بالمشاكل، كانت الأوركيدا هي المسبب الأول لمشاكلنا». وددت حضور العشاء الجماعي، لكنه كان مقتصرًا على الهنود، ولن يتزحزح أحد استجابةً لمناشدتي طلب الإذن بالحضور. أوضح لي فينسون أن وجود شخص أبيض على العشاء سوف يزعج كبار السن - بصرف النظر عن طول تجاربهم في الاختلاط مع غير الهنود، ما زالوا يشعرون بالانفصال والريبة. «أنتم البيض، لا هم لكم سوى جني المال»، قال. «أما نحن الهنود فلدينا عملنا الذي نختص به. يتمثل هذا العمل في رعاية الكرة الأرضية. نختلف عنكم وسنظل هكذا على طول المدى».

بدلاً من ذلك، توجهت لمتابعة ختام مسابقات الروديو. اقتصرت الليلة الأولى من الروديو على الهنود، ولكن ليلة الثلاثاء كانت مفتوحة لأي نوع من أنواع رعاة البقر أو راعيات البقر، وتألفت الكثير من فرق الروديو من عضو سيمينولي وآخر من غير السيمينول. أخذت أتابع فريق وايلد كاتجو مبر وحركة شاين جون السريعة الهوجاء خلف ثور رفع العنق يسمى جيمي لي، بينما كانت الشمس توارى خلف أشجار النخيل. أما مسيرة طويلة

بالسيارة وقد تأخر الوقت، ولذا فلم أتابع سوى فريق آخر يحاول الإمساك بثور يسمى ريسكي بيذنس بالحبل ثم قفلت عائدة إلى السيارة. مررت من أمام كازينو السيمينول في طريقي، ومرآب سيارات شاسع تتتصب فيه هنا وهناك أبراج الحراسة كالرishi على رقبة ديك، وواجهة مبنى الكازينو الرمادية السادة. لم يكن في الموقع ولو حيز واحد خال لركن سيارة. انتصف الليل تقريباً، ومع ذلك لم يتوقف نهر البشر عن التوافد -ثنائيات في ملابس السهرة، عجوز ظهرها عريض تستعين في سيرها بووكر من الألمنيوم، شقراوان بيضاوان بصدر ناهد ترتدان قمصان وأحدية رعاة البقر، رجلٌ يضع نظارات بلاستيك سميكه بملامح متحفزة كوجه حارس ليلي. لم يكن بالإمكان رؤية الكثير من داخل الكازينو، عدا صورة مرسومة للزعيم بيلي على الجدار وبجوارها كتبت تحية سيمينول «شو-نا-بيش» بأحرف كبيرة. عدا هذا كان المكان أشبه بكهف كبير هادئ يعج بطاولاتٍ عليها رجالٌ يلعبون تكساس هولد إم و 7 كارد ستود^(١)، بالقرب من لافتة كتب عليها البوكر لعبة ممتعة ومريحة للأعصاب. الصوت الوحيد المسموع كان صوت تكتكة أحجار البوكر. كانت قاعة مشغولة ب مليون حركة من الحركات الدقيقة والكثيفة غير الصالحة، كأنها غرفة عمليات أثناء جراحة دماغ. في قاعة أخرى، جلس المئات على طاولات طويلة يلعبون البيينغو. وضع كثيرٌ منهم تعاويد الحظ إلى جانب بطاقات البيينغو -أقدام أرانب، فيلة من البلاستيك، مجسمات لمريم العذراء، صور، دمى حيوانات صغيرة وسبحات- كانوا صامتين أيضاً، إلى أن صاحب مشرف القاعة قائلًا «B - ثلات وعشرين» أم «O - سبعة»، سمع بعدها صوت هممته وانتقال، أشبه بصوت تفريغ المياه من حوض، وعندما رفع أحد هم صوته قائلًا «بيينغو!» صدر صوت أياً تخطى على بطاقات اللعب الكرتونية، فيما أزاح الخاسرون الساخطون أحجارهم كي يتتسنى لهم البدء مجدداً. كان الندل والنادلات وموزعو البوكر ومنادو البيينغو وعمال المرآب وأمناء صندوق الكازينو كلهم من البيض، بشرتهم مسممة بسبب أنوار الفلوريستان وقد سرحوا شعرهم بشكل ثابت. جميع الزبائن من البيض سمرة بعضهم وحمرة عيونهم تشبهان السياح، وعلى

الرغم من أن احتفال البوو السنوي لقبيلة السيمينول في ذكراء الخامسة والعشرين كان يجري على بعد بضع ياردات، وزعيم قبيلة السيمينول يحملق إلى الأسفل في كل طاولة من طاولات تكساس هولد - إيم و7 - كارد ستود، فإنك لا تشعر بوجود أي من ذلك هنا على الإطلاق - لا شيء سوى شعورك بالحماس والتركيز على المباريات وحماس البشر التواقين للربح.

شروات

بقدر ما استغربت إخلاص لاروش لأمورِ كرس نفسه لها، استغربت أكثر براعته في اعتزالتها. فمثلاً، بالكاد كان يعلم عن متابعتي لمهرجان القبيلة والمشتل الجديد، طالما أنه ابتعد نهائياً عن السيمينول. ظل على مدى ستين مستغرقاً بهم. غاص عميقاً، يمكنني تفهم حدة سخطه على القبيلة بعد طردهم له وفوجئت لدى معرفتي أنه لم ولن يكون يوماً جزءاً منها، إنما كان أمراً أعمق من هذا - بالنسبة له، لأن القبيلة قد اختفت عن وجه الأرض.

لقد هجر نهائياً أيضاً مملكة النبات. عندما تحدثنا لأول مرة عن البووو، ألمح أنه اكتفى من عالم الأوركيدا، ولم أصدقه يومها. لكن هذا ما فعله بالضبط. لم يعدي كرس نفسه لأوركيدا الشبح التي اصطادها من الفاكاهاشي، أو لنبات الشمعة المتسلقة التي حاول إخفاءها عن أنظار صديقه في المشتل، أو لطفرات الكاتليا التي أنتجها في المايكروف، أو لمجموعته من البروميليه والأوركيدا الفريدة التي ظل يجمعها مذ خرب الإعصار أندريلو أولى مجموعاته، أو للنباتات التي أنقذها من الجرافات في موقع البناء، أو لتلك الشتول النادرة التي كان يقايض بها، أو لتلك التي كاد يفلس من شدة رغبته بوضع يده عليها. تخلى عن كل شيء. يوم التقينا لأول مرة، أخبرني أن حياته تسير على هذا المنوال من النهايات، غير أنني لم أتصور البة أن عبوره من شغف إلى آخر سيكون على هذه الدرجة من الكمال. «تمت»، قال لي بعد يوم من البووو، بعدما أمضيت وقتاً في التفرج على فرقة الزعيم بيلي والقططور المقلبي. «قلت لك، عندما أكتفي من شيء فهو متنه بالنسبة لي». منذ أن سمعت بلا روش أول مرة، بهرتني قدرته على إيجاد الامتناء والرضا في الحياة من خلال تحقيق رغبات صغيرة - أحفوريات العصر الجليدي،

سلاحف، مرايا عتيقة ثم الأوروكيدا. أعتقد أن هذا بالضبط ما كنت أفعله في فلوريدا، معرفة الآلة التي عثر فيها البشر على الاستقرار والطمأنينة والإحساس بمعنى الهدف في هذا الكون عبر تركيز أذهانهم على شيء واحد أو إيمان واحد أو رغبة واحدة. ها أنا الآن أسعى أيضاً لاستيعاب كيف يمكن لإنسان التخلص من رغبة بهذه الحدة دونما ترك أي أثر. إذا ما أحببت شيئاً حباً صادقاً، ألن يبقى في داخلك ولو نتفة صغيرة منه؟ بضعة نباتات صالون؟ شتلة أوركيدا فلانوبسيس من محلات هوم ديبوت زرعتها في علبة قهوة أنيقة. شخصياً، لطالما وجدت التخلص عن أمر ما أصعب بآلف مرة من البدء بأخر، لكن من الواضح أن نهايات لاروش نهاية وقاطعة، وماذا بعد، إنه يقفل أي مجال للترميم قفلاً محكماً. يحمل في أعماقه نفس درجة الانفعال التي يتصرف بها ذاك الرجل الذي يخطئ دائمًا في ضرب رقم هاتف زوجته السابقة، هذا ما كان يفعله لاروش بالفعل: لا يملك أدنى فكرة عن سكنى زوجته السابقة ولا رقم هاتفها زاعماً أنه لا يكتثر. يبدو أن كلامه صحيح، على الرغم من ازدرائه الدائم لزهورها المفضلة كلما وقعت أعيننا عليها في معارض الأوروكيدا.

بالمصادفة حددت جمعية جنوب فلوريدا للأوركيدا موعد المعرض بعد وقت قصير من مهرجان السيمينول، وكنت أتوقع أن لاروش سيرافقني إلى أن أعلمك أنه لم يعد هذه الأيام يبالي كثيراً لا بالأوركيدا ولا بمعارضها، ولذا فهو لا ينوي الحضور. أصبحت لديه مشاغل جديدة. في الفترة الممتدة بين عزله من قبل السيمينول والبوهو، علم نفسه كل ما ينبغي تعلمه عن الكمبيوتر ويات يكسب قوته من إنشاء الواقع الإلكتروني لشركات الأعمال ونشر محتوى إباحياً على الإنترنت، كعمل جانبي خاص. أغرم بعالم الكمبيوتر، لا بل أغرم بالجانب الإباحي لعمله على الإنترنت. لم يكن هذا ناجماً عن ميله للإباحية؛ بما أنه ناشر محتوى إباحي على الإنترنت، حسب رأيه، فهي تمثل فرصة أخرى لاستغلال الضعف البشري، وهذا ما يعشقه. قال إنه لا يصدق تقاضيه للمال من الناس مقابل نشر صور أشخاص عراة بدینين على الإنترنت، تماماً كما لم يكن يصدق أنه يتراضى المال ممن يشترون دليل زراعة الماريجوانا السخيف الذي كان يبيعه حين التقىته لأول مرة. «ينفق

الناس ثروة على هذه النفيات، وأنا لا أفعل شيئاً سوى شحنهما بال المزيد والمزيد منها»، فسر لي ذات صباح على الهاتف. «قد يزغ الفجر ذات يوم على هؤلاء المغفلين ويكتشفون أنهم هدوا أموالهم على نشر تلك الصور الرديئة وعندها سيتوقفون. إنني أستدلي لهم خدمة من خلال مساعدتهم على وعي مدى سخافتها. هذا هو سبب أنني كلما شحتهم بالمزيد، كان حجم مساعدتي لهم أكبر. في الوقت ذاته، أنا أكسب أموالاً طائلة من هذا العمل، على أية حال». بدت حالي فظيعة يومها، كأنه يحضر، لكنه أكد لي أنها مجرد مشكلة كلوية ناجمة عن تعرضه للمبيدات الحشرية وقد عانى من المرض لقرابة أربعة أشهر، بيد أنه ربما تعافي. على كل حال، قال لي إنه في حالة ذهنية ممتازة. «اسمعي، خلاصة القول إن الإنترن特 رائع»، قال. «لن يموت بين يدي، مثل بعض النباتات، ولن يرفسني كما فعل السيمينول». كان يعمل على تصميم موقع أعمال مشروعة لحساب شركة تدعى نيت رونير. يعمل تحت اسم حركي هو سايركات. فتحت موقعه أحد الأيام، يقول: «بعضكم ربما يعرفني باسم سايركات: رب وسيد الفضاء السوبراني الميت الآن... إذا اتصلتم بمكتب نت رونير وأجبتم شخصاً مختلفاً» ومتغطس إلى حدّ ما، فهذا أنا. على النقيض من أغلب الشخصيات «الغريبة» التي قد تصادفونها على الإنترن特، اختلافي أنا ليس نابعاً من هويتي المجهولة على الإنترن特، أنا عجيب فحسب، نقطة آخر السطر».

تابعنا سيرنا ببعض دقائق أخرى، وأثرت مجدداً فكرة ذهابنا معاً إلى معرض الأوركيدا. ما كان ليبدل رأيه، غير أنه وافق أخيراً أن أبيه على اطلاع بشأن خططي، وعلى لقائي لمدة دقائق ربما إذا ما شعرت بحاجة ماسة لرفقة. هذا هو الحال مع لاروش، كل شيء معه يصل إلى حدود متطرفة. بالنسبة له الحياة العادية شديدة الانتظام. مجرد رغبتي بذهابه معي كانت كافية بالنسبة لي، كما يتمنى شخص عادي من شخص عادي آخر أن يقدم له شيئاً ما. من ناحية أخرى، لو كنت بأمس الحاجة حقاً، عندها ربما يضع هذا في اعتباره.

عدا لاروش، كان جميع من عرفتهم في فلوريدا تقريباً في طريقهم إلى المعرض، ومن ضمنهم مارتن موتيس، وتوم فينيل، وبوب فيتشز وفرانك

سميث، وجميع أعضاء الجمعية الأمريكية للأوركيدا، عرفوني عليهم في المهرجان. يعتبر معرض جمعية جنوب فلوريدا للأوركيدا الأضخم في الولاية، وباستثناء معرض الأوركيدا الذي يقام في سانتا باربرا في كاليفورنيا، فهو الأهم على مستوى البلاد. تضاءلت آمالي بأن تتح لي الفرصة أخيراً لرؤيه أزهار أروكيدا الشبح، لكنني ما زلت متمسكة بها بالنسبة للحياة. بعد بضعة أيام من حديثنا أنا ولاروش، اتصلت بصديقتي مرببي الفاندا مارتن موتيس وأخبرته عن شدة ممانعة لاروش لدعوتي، فأكمل لي مارتن ضرورة نسياني لأمر لاروش وموافاته للذهاب إلى المعرض برفقته بدلاً منه. كنت أعلم كم ستكون مسلية رفقي لمارتن، على الرغم من تجربتي السيئة مؤخراً مع كلبه، إذ كان على الدوام يعرض أمامي أشياء مثيرة. إلى جانب أنه أقسم لي أن مزاج الكلب تحسن مؤخراً.

توجهت إلى منزله في اليوم التالي. «ليرحم الله قلبي، أمامي ملايين الأعمال لأقوم بها»، قال مارتن وهو يرحب بي. عمل وزوجته ماري أستاذين للإنكليزية قبل أن يكرسا نفسيهما للأوركيدا؛ في الحقيقة، عاد مارتن من عمله كمحاضر كبير ضمن برنامج فولبرابت في يوغسلافيا عام 1976 كي ينشئ مشتله موتيس أوركيد. حتى داخل الدفيئة، مرتدياً بدلة الخاكي البالية، ويداه غائتان حتى الرسغ في الطحالب وسماد الفيرمي كولت، بدا رجلاً يرتاح أمام لوح طباشير يشرح النظريات حول الشاعر بيتس. كان منزله وحديقته وخزانة ملابسه كلها أنيقة أكاديمياً. المقتني الوحيد غير المحترف كان سيارته بي إم دبليو، من طراز بي إم دبليو بينالت. خسر مارتن، شأنه شأن الكثير من مرببي الأوركيدا في فلوريدا، الكثير من الغراس بعد استخدامهم لمبيد بينالت الفطري من شركة دو بونت، وبالرغم من إصرار الشركة المتواصل على عدم مسؤولية بينالت، فقد توصلت إلى دفع تعويض لمئات المزارعين بما قيمته ملايين الدولارات؛ بلغت مدفوّعات الشركة 400 مليون في فلوريدا وحدها. اتّخذ مارتن موقفاً طريفاً حيال الكارثة. بعد شرائه سيارة بي إم من نقود التسوية، ألصق عليها ملصقاً يحمل عباره: «معيشة أفضل من خلال الكيمياء». ما زالت دو بونت تجري التسويات بشأن دعاوى قضية بينالت. العمل بالأوركيدا محفوف بالمخاطر. في بعض الحالات، فاقت

توعيصلات التسوية مع الشركة الأضرار. قبض بعض المزارعين المال ثم تقاعدو وعاشوا على مال التعويض، وسرت إشاعات بأن الناس كانوا يبيعون أكياساً من المبيد الفطري استعمل نصفها لمزارعين ربما استعملوها بالفعل وربما لا، لكنهم أرادوا تقديمها دليلاً ذا مصداقية لدو بونت. منذ آخر زيارة لي، تفتحت عشرات أزهار الأوركيدا في مشتل مارتن. كرات طافية زرقاء اللون وبلون الخزامي تترافق وسط بحر أحضر داكن من الأوراق والسوق. إلى جانبها، صف بلون زهري مشوب بالصفرة، لكانه طقم من أكواب الشاي ماركة ويدجود. «لدي مهمة أؤديها هذا الصباح، ويسرعاً»، أضاف مارتن. «سنзор ملك صناعة الفواكه الاستوائية، هل يهمك الأمر». بلا شك، وهكذا ركبنا سيارة فان تحمل لوحة كتب عليها فاندai واتجهنا نزولاً فوق ممر منزله إلى الشارع. «سنзор رجلًا يدعى غاري زيل»، أوضح لي. «أفعل هذا لأنني أعتقد أن المرء يجب أن يجد طريقة ناجعة للحصول على الأفوكادو سبعة أشهر في السنة، ويفضل أن تكون من أشجاره هو». يمتلك غاري زيل الكثير من أشجار الأفوكادو. قال مارتن إنه يرغب في مقايسة عقلة من إحدى أشجاره للبرقوق بإحدى أشجار أفو كادو غاري. كانت العيدان ضمن كيس مبلل على مقعد الفنان الأمامي. كثيرة هي المرات التي شعرت فيها أنني في عالم آخر خلال وجودي في فلوريدا، وهذه كانت إحداها: في عالم آخر تعتبر فيه الفواكه والخضروات والعلق عملة تعامل متعارفاً عليها - عقلة البرقوق هي المعادل السوفي لشجرة أفو كادو والموز يتهاوى بحدة أمام البرتقال. انعطف مارتن خلف لافته كتب عليها نباتات زيل عالية الجودة، ثم رکن السيارة. ما إن نزل حتى اشتعل حماساً وأخبرني أنه لمح شجرة على جهته من الفنان ويريدني أن أراها. «فاكهه كوبية، مامي كولورادو»، قالها وهو يبرم ويقطف ثمرة مستديرة وتعطي إيحاء جلدياً. «تابع بالمرفق بحولي الثنائي عشر دولاراً للحبة الواحدة. قيمتها مرتفعة لدرجة أن أحداً لم يعد يزرعها فهي تتعرض للسرقة على الدوام». قضم الحبة. كان قوامها بلون القرميد. «يملك جاري العزيز عشرين فدانًا من هذه الشمار الناضجة ويبيعها كلها»، قال مارتن بعد أن بلع. «ورغم حراستها على مدار الساعة، لم ينجح في حمايتها».

أتي غاري زيل واقترب من مؤخرة الفنان عندما كان مارتن يأكل فاكهة المامي وفتح الباب الخلفي ليرى المائة شتلة أوركيداً أو نحوها التي حملها مارتن في السيارة. «أوههههههه، يا له من هجين رائع!» صاح غاري. «مارتن، ما هذه بحق الجحيم؟» في ثانية تجسد بقربنا، مشقر الشعر كراكب الأمواج، وفي إحدى يديه مصنف ورقي وبالآخرى ثمرة لم أر لها مثيلاً من قبل. ثمرة متفتحة بلون زيتوني فاتح وحجمها بحجم كرة البيسبول تقريباً. عندما قضمتها، تطاعت قطعة منها دموعة اللون. لمحني أراقبه. «إنها قلب بولوك»، قال وهو يمد لها صوبي. «موطنها في يوكاتان في المكسيك. تناولت إحدى ثمارها هناك قبل حوالي خمسة عشر عاماً واحتفظت بذورها. لم أكن أعلم بحق ما الذي كنت أتأمله حين غرست البذور هنا».

«رأينا تلك الشمار هناك ذات مرة أيضاً» قال مارتن. «ثمار ضخمة. يبلغ حجمها حجم رأس الرضيع».

نظر غاري إلى السماء وضيق عينيه للحظات قبل أن يقول، « علينا محاولة نشر زراعتها يا مارتن. أحضرت صنفاً من غواتيمala الأسبوع المنصرم وكان لبّه بلون برتقالي نضر، في متنه الجمال. حتى إننا سنسميها على اسمك. سوف ندعوها موتيسس ريتايكولاتا. سنجني ثروة منها». أمال مارتن رأسه كالسنونو. «أها»، قال. «بورك لها البرتقالي الزاهي». اقترب لحظتها أحد عمال مشتل غاري ليتحدث معه. كان رجلاً خجولاً بسيطاً اسمه عيري وأخبرنا أنه من مواليد ميشيغان ونشأ في البرازيل. لم تكن هذه سيرة حياة عادية جداً، إنما ما من شيء في هذا المكان يبدو عادياً. الفواكه من عالم آخر، كل منها وكل شيء من أصول أجنبية. وأنت في فلوريدا، يتتابك شعوراً أحياناً كأنك على حافة العالم، وأن بقية العالم يتدفق بانتظام كالحمد ويثير أشياء غريبة منقطعة النظير - فمثلاً، ابن ميشيغان البرازيلي العبري يربى فاكهة غواتيمالية بلون السلمون المتدرج بين البرتقالي والوردي. تبادلت الحديث قليلاً مع العامل، وشرع غاري ومارتن في نقاش عملية مقايضة الأفوكادو بالبرقوق، ثم سارا على الممر من مشتل الفاكهة الاستوائية إلى منزل غاري. أكد أنه يمتلك في منزله حوالي عشرين ألف نبتة، أغلبها أوركيداً، وكان يود من مارتن أن يلقى نظرة سريعة عليها قبل مغادرتنا. «حالتها مزرية»، نهانا

مبقياً. «تعرض كومبيوتر التحكم بنظام الري لضررية صاعقة ليلة سافرت إلى كوكستاريكا بقصد جمع بذور المانغو».

«يمكنني أن أتخيل»، قلت له.

«اسمع يا مارتـن، إن كان يهمك الحصول على غبار الطلع، اخدم نفسك بنفسك بلا تردد. هناك كمية كبيرة منه. على حسابك».

ابتسم مارتـن. «أجل، حسناً، الحياة قصيرة والفن دائم. قد نتمكن من ابتداع شيء ممـيز». دخلنا إلى دفيئة غاري الخشبية، مشينا تحت مظلة من الأوركيـدا مزروعة في صناديق شبـكية، بعضها يتـمايل كـبحارة مصابين بـدورـار البحر، وبعضها متـنصـب كـجنـود يـعـتمـرون زـهـورـاً وـرـدـيـة زـاهـيـة أو صـفـراء قـانـية أو أـرجـوانـية سـاحـرـة. «أـولـيس هـذا بـتحـذـير»، قال مارتـن منـقـلاً بـصرـه من شـتـلة لأـخـرى. تـوقـفـ قـبـالـةـ فـانـدـاـ بـلـونـ الكـوبـالـتـ الأـزرـقـ⁽¹⁾ وـنـظرـ إـلـيـهاـ مـطـوـلـاـ. كان غـارـيـ يـتـابـعـهـ. «أـظـنـنـيـ»، قال مارتـن. «أـجلـ تـذـكـرـتـ، أـظـنـنـيـ أـنـجـتـ هـذـهـ النـبـتـةـ قبلـ خـمـسـةـ وـعـشـرـينـ عـامـاـ. كـيفـ وـصـلـتـ إـلـىـ منـزـلـكـ ياـ سـيدـsenorـ⁽²⁾ زـيلـ؟ـ».

«أـخـذـتـهـ مـنـ خـالـتـيـ» أـجـابـهـ غـارـيـ. «وـأـخـالـ أـنـ خـالـتـيـ حـصـلـتـ عـلـيـهـاـ مـنـ كـنـيـسـةـ مـوـنـاـ اللـوـثـرـيـةـ».

«أـهـاـ»، ردـ مـارتـنـ. «وـأـنـاـ مـنـ قـدـمـهـاـ لـمـوـنـاـ». رـاحـ يـفـرـكـ إـحـدىـ الأـورـاقـ بـيـنـ أـصـابـعـهـ. «وـسـتـعيـشـ بـعـدـكـ لـفـتـرـةـ طـوـيـلـةـ يـاـ سـيدـ زـيلـ. فـيـ عـالـمـ النـبـاتـ العـجـيبـ، لـسـنـاـ سـوـىـ زـوارـ».

قاد مارتـنـ السيـارـةـ فيـ ذـلـكـ الـمـسـاءـ مـتـجـهـاـ إـلـىـ قـاعـةـ الـمـؤـتـمـراتـ للـبدـءـ فيـ تـرـتـيبـ جـنـاحـ مـعـروـضـاتـهـ لـلـمـعـرـضـ. كـانـتـ مـيـاميـ تـحـفـيـ بـذـكـراـهـاـ الـمـئـوـيـةـ فـيـ تـلـكـ السـنـةـ، وـكـانـتـ هـذـهـ الذـكـرـىـ شـعـارـاـ لـلـمـعـرـضـ، أـيـ يـجـبـ عـلـىـ الـأـجـنـحةـ أـنـ تـوضـعـ شـيـئـاـ مـنـ تـارـيـخـ فـلـورـيـداـ. قـالـ مـارتـنـ إـنـهـ سـيـقـومـ بـتـصـمـيمـ مـشـهـدـ مـسـتـنقـعـيـ يـضمـ عـدـدـاـ كـبـيرـاـ مـنـ شـتـولـ الـفـانـدـاـ وـزـورـقـ كـانـوـ لـاـ يـتـجاـوزـ حـجمـ حـجـمـ طـفـلـ صـغـيرـ. «لـاـ يـمـاثـلـ الـوـاقـعـ كـثـيرـاـ»، قـالـ. «وـلـكـنـ هـاـ نـحنـ أـوـلـاءـ مـجـدـداـ، مـاـذـاـ

1- أقرب إلى اللون النيلي - م

2- بالإسبانية في الأصل - م

ييدنا أن نفعل؟». كان جناح مارتن عبارة عن مساحة مربعة صغيرة في صفيني، بجوار قسم توم فينيل وجبي آر، وعلى مقربة من بوب فوتشرز. كانت فيفيان مساعدة مارتن قد فرشت أرض الفسحة برملي شاطئي قبل وصوله. «في متنهى الروعة»، قال لها. «ولكنا يا فيف تحتاج إلى حيز صغير فارغ هنا». وأخذ يجرف الرمل من طريقه. لقد شحن مائة شتلة تقريرياً من الفاندا والكاتاليا لتوظيفها في تحضير المشهد، إضافةً إلى عدد قليل من المهجنات أحضرها خصيصاً بهدف التباхи بها. بدأ هو وفيف بوضع النباتات ثم ملسا الرمل حولها لإخفاء قواعد الأحواض.

كانا يتمتمان بعضهما البعض أثناء العمل: «أظنني سأستعمل سياج الخيزران الصغير هذا، مع أنها فكرة جديدة بالنسبة لنا».

«أوه يا مارتن، كم هي جميلة هذه الأونسيديوم، لكن أحمرارها مفرط». «احمرارها مفرط. استعملني هذه البيضاء، سوف يعتدل منظرها إذا ما لعبت عليها ووضعتها مقابل الزورق».

كانت قاعة مؤتمرات ميامي الفسيحة والخاوية قد اكتظت في تلك الأثناء بالزوارين الذين يعدون مساحات عروضهم، رافعين أصواتهم بالتعليمات لمساعديهم؛ ضج المكان بصوت ضربات المطارق على الإطارات المعدنية، وصوت سحب الصناديق على الأرض، وبرائحة عطن خفيفة للتراب، وعيير سكري طازج ينبعث من الأزهار وصوت صرير عجلات الشاحنات في ساحة التفريغ. ذكر لي مارتن أن جناحه يضم أزهاراً تساوي قيمتهاأربعين ألف دولار تقريرياً. تم تجهيز حوالي ستين جناحاً للعرض ذلك المساء، ضم بعضها ضعف ما يحتويه قسم مارتن من النباتات، مما يعني أن القيمة الإجمالية الموجودة في قاعة المؤتمرات قد تصل إلى 4 ملايين دولار، فكرت بيوني وبين نفسي: ها أنا واقفة وسط ملايين الدولارات من الأزهار. أخذت نفساً عميقاً وزفت وأنا أحرك رأسى يميناً ويساراً حتى تدخلت ألوان 4 ملايين دولار من الأزهار وأصبحت أشبه بقلم أحمر الشفاه. إنها طبيعة فلوريدا، هذا الشكل من الفيض من الكائنات الحية وثرائها الطاغي - عدد هائل من كل شيء لدرجة أنها برمتها تنطمس بعضها مع بعض فيتعين

عليك أن تحدد إن كنت جزءاً من هذه الحالة الضبابية أم متمايزاً عنها وكينونة منفصلة.

عمل مارتن وفييف قرابة الساعة، وكان المكان مليئاً بشعب الأوركيدا ومساعدوهم يعملون على مدى ساعات. بعدهما وضعا آخر نبته في مكانها، تراجع مارتن بضع خطوات واضعاً سباته على أنه وراح يعاين جناح معرضه. استرخت ملامحه وانتقلت إلى حالة من التأمل الشاعري. «فييف»، قال في النهاية وهو يشير إلى زهرة كاتليا مميزة في حجمها ونضاعة لونها البرتقالي، « علينا نقل صاحبة البوق الكبير تلك من هناك. أخشى أنها تبدو كسلام نووي فتاك».

في كل أرجاء قاعة المؤتمرات، كان المشاركون يمرون على بقية الأجنحة بقصد مشاهدة عملية سير التحضيرات. استعاروا طحلب سفاغنوم وخيزران السور، واقترضوا السرخس بطول أربع بوصات ونباتات الحشو. توقف صاحب مشتل من هاواي كان يعد جناح عرض ضخماً لإلقاء التحية على مارتن. «لن أشارك في معرض نيويورك هذه السنة»، قال. «لقد عرضت كل شيء. حين تفرغ لدقائقه، تعال لترى مولدة الضباب الكهربائية الجديدة التي أحضرتها». أخذ مارتن استراحة وراح يتتجول بين بعض الأجنحة حتى وصل إلى جناح جمعية جنوب فلوريدا للسرخس. الرجل الذي يقوم بتجهيزه يدعى جاك. في منتصف الجناح، هناك تمساح بطول ستة أقدام. «تمساح جميل، أليس كذلك يا مارتن؟» سأله جاك. «واقعي ملموس. سوف أسمى عنوان الجناح (الإغراء الخطير). أليس عنواناً مميزاً؟».

الجناح التالي لصاحب مشتل يدعى غرو-مور، لقد صممته شبيهاً بغرفة جلوس فيكتورية. يضم مدفأة ذهبية، وكرسيين بمساند، ورف موقد عتيق، وطاولة جانبية فرنسية، ولوحتين زيتين من سوية رفيعة. «الأثاث كله من منزلنا»، قال السيد غرو-مور لمارتن. «نزعنا الرف من غرفة المعيشة، إذ اعتقדنا أنه سيبدو رائعًا هنا. سحقاً، هل تصدق يا مارتن أن أحب توليدو زرقاء على قلبي لم تزهر؟ أمامها حوالي أسبوعين. أوه، بالمناسبة، هل أجد عندك طحالب فائضة يا مارتن؟».

«لدينا ثلاثة صناديق من الطحلب الإسباني، خذ ما شئت بنفسك»، أجابه مارتن. «مصدرة شركة أعمال ممتازة متخصصة بتجارة الطحلب في كتاكى. يروقني أن أفكر أنهم في مكان ما يغتصبون ضفاف جداول الغابات الطحلبية البكر في سبيل هذه الأشياء». مررنا أمام جذع مانيكان وقد ألبس ثياب مرحلة رواد فلوريدا الأوائل، ثم تمساح محظوظ يبلغ وزنه مائتى باوند مثبت على مجسم طبق الأصل، من الفلين الرغوي، لموقع شهير يدعى صخرة البورتريه. «شكلته باستعمال منشار كهربائي»، قال لنا الرجل في جناح العرض. «مدහش ما يمكنك أن تفعله بالفلين الرغوي والأسيتون». مررنا بأقسام بأسماء: الأوركيدا تغطي ميامي، قوس قزح من الألماس الحي، مدينة الأوركيدا السحرية، معبر التماسيح والفردوس المفقود. أكد مارتن أنه يعتقد جازماً أن البعض من هواة الأوركيدا مجانيين بحق. قال هذا بعدهما عرفني مباشرةً على مزارع أوركيدا ذي شعر متrok وعينين جسورتين يدعى وايمون بوسي، كان قد وصل جواً لتوه من المكسيك.

«ماذا أفعل هذه الأيام يا مارتن؟» صاح وايمون لدى رؤيتنا. «أعمالي ناجحة. الحياة رائعة. أربى شتول أوركيدا السايم بيديوم⁽¹⁾ الصغيرة على ارتفاع ستة آلاف قدم في المكسيك» رفع مارتن حاجبيه. «إضافة إلى أنني قد تعافت منذ بعض الوقت من هجوم النحل القاتل»، تابع وايمون كلامه. «نال مني أثناء محاولتي إنقاذ النباتات، الأوركيدا. تلك الأوركيدا البرية. كانت تلك الشتول تصرخ في طلبي، أقسم لك يا مارتن، والموقع حولها يعج بالنحل. وكان ينبغي عليّ مساعدة تلك الأوركيدا. لم أكن أسرق! بل في مهمة إنقاذ!».

راح مارتن يمسد لحيته. استأنف وايمون كلامه، «مارتن، أود إعلامك، لقد أفلعت عن النيكوتين والكحول والفسق. الإدمان الوحيد الذي أبقيته هو الأوركيدا».

«يقال إن ادنتي كان لديه على الدوام متسع من الوقت للفجور». أجابه مارتن، وهو يهز رأسه بوقار. «لا تحبطني يا وايمون».

1 - تسمى أيضاً أوركيدا القارب - م

التفت وايمون صوبىي وغمزني. كانت ملامح وجهه كالصباغ بالحمى، وارتسمت عليه ابتسامة غريبة. «مهلاً، أترغبين في معرفة أمر ما؟»، سألني. «أتعلمين أن عمري لم يتجاوز الواحد والأربعين وشاهدت طبقين طائرين حتى الآن؟».

عند ركن آخر، اقتربنا من بوب فوتشز. كان معروفاً بمعرضه الضخم لمشتل آر. إف. أوركيد. هذه المرة كان يضع مجسمًا بالحجم الكامل تقريباً لمقصورة خشبية تعود لعام 1886. كانت المقصورة مشغولة بعناية وفيها شرفة صغيرة وسقفها مرتفع قليلاً، والأوركيدا تتدلى من الدرابزين وتغطي فسحة العشب الأمامية، تبطن ممر المقصورة الحجري المترعرج وتحيط بقاعدتها. كان هناك أزهار من مختلف ألوان الطبيعة بلا استثناء عملياً، حتى المقصورة نفسها كانت بنية اللون ومظهرها يوحى بأصالة عام 1886. رحب بنا بوب، وأخبرني مارتن أنه سيتركتني برفقته. «من الضروري أن أعود إلى قسم موتييس لأضع نشارة الخشب» قال. «حان الوقت، قال فيل البحر، للكلام عن أشياء كثيرة / عن الأحذية والسفن وشمع الأختام والنشارة^(١). سيأتي المحاسب ليساعدني في نثر نشارة الخشب». لطالما التمس مارتن وبوب الأعذار لعدم الاقتراب بعضهما من بعض. انحنى مارتن لبوب ثم عاد أدراجه.

لا يكن الكثير من مربي الأوركيدا المحبة بعضهم البعض، تماماً كما لا يحب كثير من البشر بعضهم بعضاً، أو بدقة أكبر، بالطريقة التي لا يكون فيها أبناء الأسرة الواحدة على وفاق. يميلون لأنواع مختلفة من الأوركيدا أو لديهم فلسفات مختلفة حيال إكثارها؛ فعلى سبيل المثال، يرغب بوب في إكثار الفاندا الأكبر حجماً والأكثر جمالاً، فيما يميل مارتن لإكثار الفاندا التي تبدو أقرب إليها حين اكتشفها كارل روبيلين لأول مرة في الفلبين. قد يعتقد مزارع أو مزارعه ما أن نباتاته أفضل من نباتات أي مزارع آخر لكنها تخس حقها، أو قد يتشارحن بعض المزارعين بعضهم مع بعض بطريقة

1 - مقطع من قصيدة للouis كارول بعنوان فيل البحر والنجار - م

خاطئة ليس إلا. هذه السنة، لم يوظف أي منهم حارساً شخصياً خلال المعرض، كما حدث في السنة التي اتهم فيها بوب فوتشرز، إلا أن شعوراً من الضغينة المتحفزة بين عدة أشخاص ما زال بإمكانك تلمسه، لأنهم على وشك الانفجار بعضهم في وجوه بعض. إن كان الشك قد ساورني يوماً بأن عالم الأوركيدا مختلف بحق عن العالم والثقافة والعائلة وفقاً لتصوري له، فقد شكل هذا العداء دليلاً قاطعاً على عدم صوابية تخيلاتي. ضمن عالم الأوركيدا حميمية الأسرة وصراعاتها. كما في العائلة، تعلمك أسلوب التكيف مع العالم، وإيجاد نفسك ضمن دائرة صغيرة وأحياناً مكتظة ومتضادة في أحيان أخرى، وهذه الدائرة محاطة بدائرة أكبر، ثم بأخرى أكبر منها، وفي النهاية محاطة بهذا العالم الشاسع ككل؛ طريقة لا بتكرار حالة من الموازنة بين أن تكون فرداً وأن تكون جزءاً من حالة أكبر منك أنت نفسك، مع أن كل طرف في هذه المعادلة يعرض الآخر للخطر. لطالما أثار حيرتي هذا الأمر، كيف لك أن تعيش في مجتمع وتحافظ على فردية المستقلة – كيف لك أن تنجح في أن تكون منفصلاً وملتحقاً في آنٍ معاً، على نحو يشير الذهول نوعاً ما، دون أن تغفل عن كل من انتصالك أو تلامحك. تتحرك الحالتان صعوداً وهبوطاً كالأرجوحة، الأولى تنزل الميزان لتعود الثانية وترفعه معيدة له توازنه. إذا ما انطلقت وحيداً ومستقلاً، منفصلاً عن العائلة والدين والوطنية والتقاليد والطبقة، سرعان ما ستجد نفسك في قمة الوحدة، صنعت نفسك وفرید من نوعك، وتعيش حالة من فرط الوعي بأنه لا شيء لك في العالم. إذا ما استغرقت استغرقاً تماماً في أمر ما -قريتك أو مهنتك أو هوايتك- سرعان ما ستجد نفسك مضطراً للكفاح في سبيل الصعود إلى السطح، إذ إنك بحاجة لأن تكون واثقاً أنك وبالرغم من كونك جزءاً من حالة أكبر، مجتمع ما، ما زلت موجوداً كوحدة مستقلة وعقل متفرد. إنه التناقض الجوهرى للولايات المتحدة الأمريكية - المفهوم اللامنطقى إنما المتفائل بقدرتك على خلق اتحاد من الأفراد كل منهم يعتبر ملكاً. حسستُ عشر الأوركيدا الذين كنت بينهم في قاعة المؤتمرات، وهواة الأوركيدا الذين سيتقاطرون إلى المكان غداً، حسست أفراد قبيلة السيمينول للسبب عينه، لأنهم أوجدوا وكيفوا أنفسهم ضمن دائرة صغيرة مزدحمة، وإذا ما

مررت على أحدهم لحظات اضطر فيها للخروج وتأكد استقلاله عنها، تراه قادرًا على فعل هذا ثم يعود ليدخل فيها مسروراً. لا بل حسنت أشخاصاً من أمثال لاروش ولنبي مور اللذين يتميّزان إلى طائفة اللامتنين، حيث دائرتها الصغيرة المكتظة هي التي صاغت طبيعة حياتهما، مع أنها طبيعة نافرة الملامح.

في الغالب يصل الحضور باكراً إلى معارض الأوركيدا؛ هواة الأوركيدا الجادين، أولئك الذين يريدون الإسراع والعثور على أفضل النباتات قبل أن يسبقهم الآخرون. تقاطروا باكراً، متسلحين بأكياس التسوق وسلال الخيوط، ومقيدين بأهدافهم.

«أريد شتلة فالابينوسيس شفتها حمراء مائة بالمائة. لدى واحدة، لكن طرف شفتها الخارجي مرقط قليلاً بالأبيض وهذا ما لا يعجبني».

«أريد شتلة بافيوبيلوم كونكور، هي نبتة خاصة، ناتجة عن تزاوج (والتي) مع (كرول فات بوي) ولو أنها بلون الزبدة منقط يقع كستنائية».

«علي أن أكلّ نفسي في هذه المعارض فأنا أرغب بشراء كل شيء». «إذا لم أحضر معرضًا منذ عدة أشهر، أجده نفسي أذهب إليه بلا هدف».

«سمعت أن تلك السايمبديوم تفقد شعيبتها».

«سأدفع عشرة آلاف دولار ثمناً لشتلة واحدة إذا ما نالت أعجابي بما فيه الكفاية. فقد صوabك عندما ترى شيئاً يعجبك ولا تحصل عليه».

«أحب هذه! أريد تلك! لقد جلبت من جامايكا كمية كبيرة من هذه في حمالة صدر، ولكن معظمها يبست».

«أريد ماغنيفيشوم^(١) حجمها كبير. هذه حجمها مقبول، لكنني لن أغادر هذا المكان حتى أجده شتلة حجمها مناسب بالفعل».

أما أنا فرغبي متوجهة صوب أوركيدا شبح فاكاهاتشي، في كامل تفتحها،

ملتصقة ربما على فرع ملتوٍ من فروع شجرة القشطة، وأريد لجذورها أن تكون منتشرة بواسع كفي وكل جذر منها بطول عود المساواك. أرغب أن يكون لون الزهرة بياض الثلج، والسكر، والرغوة، والأسنان. حفظت شكلها عن ظهر قلب، وجه الزهرة المشرب مع شاربي بتلاتها المتهدلين، كعلجوم أليينو بساقيه كالنوابض^(١). ليست الأكبر أو الأكثر لفتاً للأنظار أو الأندر أو الزهرة الأجمل هنا. إلا بالنسبة لي، فأنا أرغب بها. قليلة هي القيم المطلقة في هذا الكون؛ يغدو الشيء ذا قيمة عندما يمكن تناوله في التغذية أو استعماله كسلاح أو تحويله إلى ملابس، أو يصبح قيماً عندما تريده وكلك إيمان بأنه سيجلب لك السعادة. عندها يستحق كل شيء ولا شيء في آن معاً، ما ترغبه يستحق كل ما تقدمه للحصول عليه. لقد أنقذتني معرفتي أنني لن أثر على أوركيدا الشبح هنا من شتى أنواع المتابعين، ومن لحظتها لم أكن مضطراً حتى للقاء نظرة. أثلج صدري فقدان الأمل، إذ زال الخوف؛ البحث عن شيء تريده أمرٌ مريح في فوضى هذا الكون، ييد أن إدراكك لضرورة التوقف عن البحث معناه أنك لن تكون مخيب الآمال. هذا ما جرى لي قبل عدة أيام فقط، قابلت رجلاً أخبرني أنه مر بمعرض شارع محلي في منطقة لايك وورث وكان أحد الباعة فيه يبيع سلال المكرمية، داخل السلال شبكة متشعبه من الجذور تنمو على قطع حطب من غابات برية. كان واثقاً أنها جذور أوركيدا الشبح، إنما لم يكن أيّ منها مزهراً في ذلك الحين، وزعم البائع أن ليس لديه أدنى فكرة عن نوع تلك النباتات، اشتراها من أحدهم كان بدوره اشتراها من شخص آخر. لم أتوقع رؤية أية سلة مكرمية تحوي على أي شيء في المعرض. رأيت كتاباً من قبيل: قائمة بيشوب المؤقتة لـ **لهمجائن الأوركيدا المسجلة خلال 1991 - 1994**، والمصطلحات الوصفية لمحكم الأوركيدا، يمكنك زراعة أوركيدا الكاتلilia، ويمكنك زراعة أوركيدا الفالانيوسيس. كنزات وقمصان تي شيرت وأقراط وربطات عنق أروكيدا. هناك شتول أروكيدا ثمنها ألف وألفان وثلاثة آلاف وخمسة آلاف دولار، مشفى مجانين الأوركيدا من كل الألوان والأشكال، منها ما هو بأوراق عريضة وأوراق رفيعة ومنها ما هو بلا أوراق على الإطلاق، بشفاه مكتنزة

-1- لونه أبيض نتيجة خلل في الخلايا الصبغية - م

بارزة وشفاه مجوفة كالكشتبنات، تحمل نمساً وقلنسوة بلون أحمر مسود، منها المكشكس، ومنها ذو طيات، وتجعدات متمايلة، منها الكبير بحجم الكف، ومنها الصغير بحجم ظفر اليد، ينبعث منها شذا برائحة العسل أو العشب أو الحمضيات أو القرفة، ومنها عديم الرائحة تترك في الجو تلك الدفقة من الدفء التي يتسبّع بها الهواء بعد أن يكون قد استقر داخل زهرة.

كان هناك رجل يصيغ شاكياً عند المقصورة. «يا هذا، لقد اشتريت منك نبتة سيئة العام الماضي!، كانت طفرة. إنها معى في السيارة، سوف أحضرها». «أصدقك»، أجابه مارتن. «لا داعي لأن أراها. ما رأيك أن تنتقي لنفسك غرسة أخرى جميلة؟».

«يا صاح!» قال رجل آخر أمام المقصورة. رفع إحدى غراس فاندا الخزامي. «ما كمية الملح التي تحتاجها هذه؟ أعني، كمية الملح التي يمكنها تحملها؟ وهل اسمها موود إينديغو أم إينديغو موود؟ وهل تحتاج لكمية كبيرة من المياه؟». كان مارتن يتباّحث معه وهو يلف الشتلة التي اختارها صاحب النبتة الطفرة. كان هناك رجل آخر، طويل ومرتبك، يتوجّل في المكان. «جميلة»، قال لمارتن. «خارقة الجمال». بالمناسبة يا مارتن، عليك تنظيف أسنانك».

تنهد مارتن وقال، «لا يمكنك الخروج من طب الأسنان يا لورد».

لم يفز مشهد الكانو لمارتن بأي جائزة في منافسات المعرض. أسررت لي كاتبة لجنة المعرض بأنه لم يعجب المحكمين إطلاقاً، همست لي «لا بل كرهوه، في الواقع». أخبرتني أن الحكم رأوا ملصقات أسماء نباتات مارتن بسيطة وغير موقعة، وفوق هذا كان جناحه مكتظاً بلا ترتيب، وعند إعلان النتائج، لم يمنعوا مشتل موتيس أوركيد المرتبة الثانية حتى. سألتها عن بقية الأجنحة. أعجبهم مشتل الهاوايين، قالت، إنما لم يعجبهم الطحلب فوق شتول الأوركيدا، وراق لهم مشتل آخر وراق لهم مشتل آخر يدعى ييستيرادي إذ «يعجبهم مشهد المياه الوهمية». أخفقت غرفة الجلوس الفيكتورية نتيجة استعمال السيد غرو-مور خلفية بيضاء قبيحة، علاوة على عدم الانسجام في ألوان نباتاته. كانت قائمة طويلة وحاسمة. من جانب آخر، نال بوب فيتشز

إعجاب لجنة الحكم. حصدت مقصورة مشتل آر. إف. فلوريدا أوركيد جميع الجوائز الأساسية - جائزة الجانب الفني، وجائزة مساحة الجناح البالغة خمسمائة قدم مربعة، والجائزة الكبرى وكأس المعرض. بُرِزَتْ أهمية الفوز بالمعرض باعتباره مصدر فخر، واحترام المهنة، ورضا عن الذات، إضافة إلى أهميته التسويقية، إذ ترتفع أسعار النباتات التي تحمل شرائط الفوز بالمعرض، كما أنها مسألة متعلقة بشيء عميق يصعب تخيله - تلعب دوراً في توجيه عملية التطوير، تصبح النباتات الفائزة معروفة، وسوف يستعملها بقية المربين كأمهات لهجائن أوركيداً جديدة ونموذج لأصناف سيسيعون لإنتاجها بأنفسهم. يهيمن الفائز على كل شيء، ومن ضمنها المستقبل. طيلة نهار أول يوم من المعرض، كلما تلفت كنت أرى شعر بوب البرتقالي بوجهه الشاحب المنير وقد ارتسمت على قسماته رباطة جأشٍ مذهلة لشخص يعرف أنه الفائز.

تمشيت قليلاً مع رجل كان يبحث عن أوركيداً فالانيوبسيس بيضاء ذات شفة حمراء وذهبية خالية من البقع، أخبرني أنه كان لاعب ورق بريديج شغوفاً، لكنه أفلع أخيراً فقد شعر بأن لاعبي البريديج أشخاص غريبون الأطوار ولديهم الكثير من المشاكل العاطفية، وأنه وجد سعادته في عالم الأوركيدا. زُرِّكب ثلاثة أجهزة إنذار في دفيئته، في حال حدوث أي خلل في درجة الحرارة أو الإنارة أو الرطوبة، ولذا فهو مرتاح البال عادةً. كان الوقت قد تأخر حينها وحل الظلام في الخارج. تذكرت أن لاروش قال إنني أستطيع الاتصال به في حال شعرت بالهمود. لم أشعر بالهمود في الحقيقة، غير أنني كنت راغبة بالفعل في لقاءه هنا، في هذا العالم الذي كان قد خطط لغزوه، مع أن أفكاره أصلاً كانت بعيدة كل البعد عن هذا العالم. كان في المنزل حين هاتفته وأخبرني أنه سيأتي للقاءي بعد أن يصل صديقه وابنها إلى مباراة كرة قدم أو حفلة عيد ميلاد أو ما شابه - لم أسمعه تماماً. طلب مني انتظاره في قاعة المؤتمرات وسوف يجدني، هذا مستحيل طبعاً فالمركز بواسع الكوكب، ومن السهل أن يضيع فيه المرء لساعات. للحظة لم أتوقع مجيء لاروش ولم أنظر حتى أتيقن. أخذت أتنقل بين شتول الأوركيدا وأجنحة العرض، وأتعرف على هذا وذاك من هواة الأوركيدا، حتى أصابني دوارٌ كأنني نحلة.

شكل من أشكال الميول

روى لي أحد حراس الفاكاهاشي ذات مرة حكايةً عن امرأة جورجية، اتصلت به ذات صباح لتسأله عن وجود شتلة أوركيدا شبح مزهرة في المستنقع. أخبرها الحراس أنه لاحظ منذ مدة بعضها مزهراً في منطقة البحيرة العميقة. كانت تلك المرأة مولعة بأوركيدا الشبح ولعاً جنوبياً ومستعدة للسفر إلى نهاية العالم لمشاهدتها. بعد سماعها لكلام الحراس، استقلت سيارتها على الفور وقادتها إلى أتلانتا، ركبت رحلة الصباح التالي إلى ميامي، استأجرت سيارة من المطار واتجهت إلى الفاكاهاشي، استدلت على الإحداثيات من الحراس، وأمضت الساعات التالية سيراً على قدميها صوب البحيرة العميقة، باتجاه أوركيدا الشبح. رغم مرور أقل من يوم على اتصال المرأة، نظراً لأن الأوركيدا كائنات متغيرة، فقد ذابت الأزهار وانتهى موسمها لتلك السنة لدى وصول المرأة إلى الموقع. نظرت مطولاً إلى جمة الجذور الخضراء المتبقية. أدارت ظهرها وسارت خارجةً من المستنقع ثم عادت إلى جورجيا في ذلك المساء. خمنتُ مدى خيبة أملها بعد رحلتها العبوية الطويلة. لكن الحراس نفي ظنوني، لم تكن محبطه إطلاقاً، في الواقع كانت قد أخبرته عن سرورها بالقدوم، وأخذت منه عهداً أن يتصل بها متى شاهد أوركيدا شبح مزهرة؛ سوف يسعدها أن تأتي ثانيةً.

وعدنني لاروش باصطحابي إلى الفاكاهاشي قبل رحيلي عن فلوريدا، كما وعدني برأية أوركيدا الشبح عندما سئمتني إلى هناك. فكرت بهذا بشيء من التروي. بدأت أشك في أنني قد أرى زهرة أوركيدا الشبح أبداً. لهذا السبب، بدأت أشك أنني ولا روشن قد لا نمشي معاً في الفاكاهاشي أبداً. بدا لي أن جميع مساعي الحقيقة قد أجهضت بمتنهى البساطة. لم

يمكن لاروش من مراقبتي حين طلبت منه أول مرة، إذ كان ممنوعاً من دخول المنطقة بقرار محكمة، كما لم يستطع لاحقاً نتيجة اشغاله الشديد بممثل السيمينول، ولم يفعل بعدها لرفضه دخول المستنقع احتجاجاً على السيمينول ومجابهةً لعالم الأوركيدا والعالم ككل، انشغل فيما بعد بعمله الجديد في مجال البرمجيات ولم يستطع إيجاد الوقت. كان الشتاء في ذلك الحين قد انقضى، وأخذت هبات حرارة الربيع الجديدة الحادة تهب على المكان - ارتفع مسار الشمس وازدادت شراسة أشعتها يوماً بعد آخر، كنت على يقين من أننا إذا لم نقم برحلتنا قريباً فسوف تمنعاً قسوة الطقس وسيتعين علينا الانتظار حتى الفصل التالي.

بعد أيام من معرض جمعية جنوب فلوريدا للأوركيدا، اتصلت بلا روشن وأطلعته على تفاصيل تلك التجربة، وعن فوز بوب فوتشز وخيبة أمل مارتن موتيس، ثم أثرت مسألة رحلتنا إلى الفاكاهاتشي. أكد أنه بات مهيئاً الآن للرحلة، وأنه ينوي القيام بها يوم السبت القادم. فوجئت بكلامه، وضفت أغراضي في ويست بالم بيتشر وحجزت في فندق ميامي بيتشر، حتى أقرب أكثر من لاروش. بالكاد غفوت ليلة الجمعة. لم أكن أريد إشغال عقلني بالرحلة، لكن هذا كان خارج سيطرتي؛ ظللت طيلة الليل أستعيد في الحلم تفاصيل أول رحلة لي إلى الفاكاهاتشي، يوم رافق الحراس توني وشاهدت لأول مرة تاج البروميليه الفخم والأشجار المكسوة بجذور الأوركيدا، مع فارق أنني في الحلم كنت وحدي، وحين توغلت أكثر في شعاب المستنقع غارت قدمي في البواليع العكرة، وبلماع البصر التف على ساقٍ شيء له ملمس كالحجل أشبه بأنشوطة المشنقة وسقطت، أخطب بذراعي على مينا سطح البحيرة الساطع. انتفضت مستيقظة، وعيناي مفتوحتان على اتساعهما، البطانيات معقودة على ساقٍ. لا أذكر كيف مضت علي الساعات التالية، لكن الصباح انبلج في النهاية. اتفقت مع لاروش على الانطلاق صوب المستنقع في الفترة الصباحية. أثناء ارتدائى لملابسى، أدرت المذياع وسمعت في نشرة الأخبار عن تحطم الرحلة 592 لشركة فالوجيت في إيفرغلادس وهي في طريقها من ميامي إلى أتلانتا، ثم اختفائها تحت ثمانية عشر بوصة من الوحل والرمل والغضار. كان موقع تحطمها على بعد اثنى عشر ميلاً فقط

عن مدينة ميامي، اثنى عشر ميلاً فقط عن مرآب سيارات المركز التجاري، مع أنه قريب ويمكن الوصول إليه على الدرجة من فندق بيلتمور، لكنه موقعٌ خارج العالم، موحش وخطر ويُكاد يكون من المحال بلوغه. سقطت الطائرة على أطراف محمية ميكوسوكى، في قنال إيفرغلادس بين النقطتين L-67A وL-67C. في منطقة من السبخة يسمى بها السكان المحليون بوكيت. أغلقت جميع الطرق، بما فيها تلك المؤدية إلى الفاكاهاتشي. توقفت عن ارتداء ثيابي حين سمعت النشرة واتصلت بلا روشن على الفور، الذي كان ما يزال نائماً على ما يبدو، مع أنني كنت متأخرة أصلاً عن الموعد الذي حده. اتفقنا أنه من المستبعد تمكنا من الوصول إلى الفاكاهاتشي وقتها وسوف نعيد المحاولة يوم الأحد عوضاً عن اليوم. أخبرت لا روشن أنه لا مناص أمامنا من فعل هذا يوم الأحد كموعد قطعي فقد حجزت على رحلة الاثنين للعودة إلى الديار.

أمضيت السبت في متابعة أخبار حادث الطائرة على السي إن إن ومقابلة مع أحد أفراد الميكوسوكى يدعى بوفالو تايغر، الذي أكد وقوف أرواح الطبيعة الغاضبة خلفه عقاباً على التحرير الذي أحدثه البشر للإيفرغلادس. قال إن الإيفرغلادس لطالما ابتلعت الناس نكاية بهم - وحتى أفراد القبيلة الذين يدخلون أحياناً المستنقع لا يعثر لهم على أثر. اتصل بي لا روشن أثناء المقابلة مع بوفالو تايغر مفترحاً أن نلتقي لبعض ساعات في معرض أوركيدا يقام في حديقة فايرتشايلد في ميامي. لم يكن قد زار أي معرض منذ فصله السيمينول من عمله ولم أكن واثقة من سبب رغبته بحضور أحد ها الآن، غير أنني سرت بهذا. قدت سيارتي إلى الحديقة وانتظرت في المرآب. وصل متأخراً قليلاً بمزاج مشرق ومرح، وأصر على المرور أولاً على حانوت لبيع الهدايا، وحين وصولنا إليه، أصر أن يشتري لي سمة مطاطية حمراء أعجبتني. تجولنا في المكان بعد ذلك. كان معرض فايرتشايلد مقاماً في قاعة تكتظ بالمعروضات وتعقب بالرائحة النباتية المنعشة المنبعثة من الشتول ورائحة الفينيل لأكياس التسوق المنفوخة على اتساعها والمحشوة بشتول المائة دولار. استطلعنا صفوف الأوركيدا واحداً تلو الآخر، نتوقف

لنبي إعجابنا بطاولة عليها ديندر وبيوم مبرقشة بنقاط منتظمة بلون الخوخ، ثم اللايليو كاتليا التي بدت من بعيد شبيهة شبهًا لافتًا بوليد أشقر أسنانه العليا بارزة عرفته في المدرسة الابتدائية. سحبني لاروش في لحظة كي ألقي نظرة على الأوركيدا المحاربة، وهي من نباتات فلوريدا الأصلية. «سوف نرى الملائين منها غدًا»، قال وهو يبعث بجذور الشتلة. «الفاكاهاتشي موبوءة بهؤلاء الملائين».

كان ظهر صاحبة مقصورة الأوركيدا المحاربة لنا، وحين سمعت صوتها، استدارت ونظرت صوب لاروش. ثم عادت ونظرت ثانية وانفردت أساريرها. «جون لاروش!»، قالت. «جون، كيف حالك بحق السماء؟ ما جديك هذه الأيام يا جون؟».

«باربرا!»، قال والتفت نحوي. «إنها المرأة التي حكيت لك عنها، أتذكرين؟ تلك التي صحبتها إلى الفاكاهاتشي وحالت بينها وبين أوركيدا الشبح حيتان كبيرتان».

ابتسمت باربرا. «كيف هي أمورك يا جون؟».

«ممتنازة»، أجابها لاروش. «أتدررين، أصبحت ناشط إنترنت حالياً. لم أعد أرغب في التعامل ولو مع أوركيدا واحدة. لا بل ولم يعد لدى ولو نبتة واحدة». قالها متباھيًّا.

«تسريني أخبارك يا جون»، قالت بصوت حنون. «لقد قلقت عليك. كان ذلك العمل قد بدأ يستهلكك ويبليك، مثل زواج سيء».

هز لاروش رأسه موافقاً. «لا عليك، أنا من هوا الكومبيوتر حالياً». داعب إحدى شتول الأوركيدا وأردد، «يا لها من راحة كبيرة بالفعل أن يتخلص المرء نهائياً من الاتكال على أشياء حية». أصبح مشغولاً بشتلة بروميليه على الطاولة التالية. تابعته باربرا للحظة وهمست لي، «تبعدو حاليه أفضل بكثير الآن. بعض الناس يستنزف العمل بالأوركيدا كل حياتهم، يصيب كينونتهم بكاملها بالعدوى. كان جون مستهلكاً تماماً به».

بعد دقائق، حين أصبحنا في الطرف الآخر من القاعة، تعرف عليه سمسار آخر. أخبره لاروش قائلاً، «لقد أصبحت ناشط إنترنت حالياً، لم أعد أرغب

قط ولا بشتلة أروكيدا واحدة!». قالها بنبرة أقرب إلى المباهاة. «لقد رفست تلك الهواية!»، قال لشخص آخر من معارفه. «تخليت عنها!». بعد ساعة أو نحوها غادرنا المعرض ورحا نتمشى بين الأراضي. لقد دمر الإعصار أندريلو فدادين من منطقة فاييرتشايلد، وعلى الرغم من إعادة زرع بعضها، ما يزال منظرها صادماً كالرؤوس المخلوقة حديثاً. يبدو أن مشهد الحديقة المخربة قد أحزن لاروش. «لو أذكر أيتها قبل الإعصار»، قال وهو يتلفت حوله. «يا مسيح، تبدو بحالة شنيعة الآن». ربت على جذع شجرة نخيل القارورة^(١)، «تعجبني هذه الشجرة»، قال. «لطالما راقتني النباتات الفضية والمحفلة. كان لدى نبتة هييسكوسبلون فضي رمادي، لم تكن سوى قزمة تافهة وجدتها في أحد المشاتل، أخذتها إلى البيت وعالجتها. تحولت تلك القدرة لتصبح إحدى نباتاتي المفضلة! كان لونها هو الأجمل». وانحنى على شجرة أخرى. «اسم هذه الشجرة»، قال. «انسي الأمر. لن تعرفيها البتة. إنها نخلة الزومبي. لماذا برأيك قد يbedo نبات ما على هذه الهيئة؟ هكذا كنت على الدوام أنغمس بمثل هذه الأسئلة. عالم نباتي يصنعه الخيال. أضع نفسي مكان النبات وأحاول معرفته. أنا نبات، ما الذي يجعلني أرغب بلحاء خشن بدلاً من اللحاء الأملس؟ ما الذي يجعلني أرغب أن أحمل أوراقاً رفيعة بدلاً من أخرى عريضة؟ لطالما كنت بارعاً جداً في الشعور بالأشياء على هذا النحو».

«هل تشتفق إليها؟»، سأله.

نشق لاروش الهواء بأنفه وأولع لفافة. «بالتأكيد»، غمم قائلاً. «أعني، يا يسوع المسيح، لا تحتاجين لأكثر من العثور على شيء آخر وملء حياتك به».

في طريق عودتنا، أرادني لاروش أن أرافقه لزيارة صديقه ديوي فيسك. كان يظن أنني سأجد ديوي شخصاً متمنراً. «مس肯 ديوي قريب»، قال. «من الضوري أن تتعزّف عليه. إنه شخص لديه الكثير من الأشياء السخيفة الرائعة حقاً، وهو مجذون تماماً بالنباتات. سوف تفهمين ما أرمي إليه حين أخبرك أن ثمة عالماً بأكمله ممن يعيشون لأجل مزروعاتهم فحسب».

قلت له إن نومي كان سيثأً في الأيام الماضية ويتبعن علي العودة إلى الفندق وأخذ قسط من الراحة استعداداً لرحلة المسير.

«اسمعي، أظنه سيكون لقاء مفيداً لك»، تابع لاروش. «وبكل الأحوال، لن يستغرق الطريق أكثر من دقيقة. أقل من دقيقة. يقع مسكن ديوبي على الناصية تماماً. أعرفه بالضبط». بعد ساعة، وبعد عبور سيارتنا عدة شوارع غامضة وغير متمايزة في دادي كاونتي، دخلنا أخيراً إلى ممر مسكن ديوبي. كان بيته يقع على درب فرعى متھالك، أحد دروب فلوريدا العتيقة ذات الأخداد المطيرية والجوانب المعشوشبة، مع صف من أكواخ البنغالو بطبق واحد، بشرفات ذات ستائر. سيارات ودرجات ومعدات معطلة مرمية لتهترئ في العراء، على طريقة السيمينول في التخلص من جثث موتها. إنه أحد جوانب فلوريدا لا صلة له بباقي مناطقها، فلوريدا المزدهرة الراقية بمتاجرها الكبيرة وفنادقها الشاهقة. جزء واطئ ومتاجج من الولاية، مكانٌ بهدوء المزار لا يشوبه سوى صوت الجدد يضيّط إيقاع الوقت، حفييف الأشجار التي تتحني وتلطم بعنف على ستارة الباب، وهدير سيارة مارة بين الفينة والأخرى. كان ديوبي في الدفيئه الخشبية لدى وصولنا. خرج حين سمع صوت السيارة. يرتدي سروالاً خاكياً فضفاضاً وقميصاً مدعوكاً عليه نقش مربعات، يلوّح بمقص للورد. ذكرني مظهره بلا روش - لاروش عجوز وأشيب ويكسو عظامه لحم أكثر منه، إنما بنفس مظهره الخشن ونفس المسحة الغربية من الاختلال اللطيف.

لم يكن قد التقى هو ولا روش منذ أشهر. «مرحباً ديوبي»، قال لاروش محياً إياه. «هل أفلعت عن التدخين؟».

نظر إليه مستنكراً وقال، «بالتأكيد لا». راح يفترش في جيوبه حتى عثر على علبة تبغ منبعثة. عرفنا لاروش بعضاً على بعض ووصفني أمامه بالمهمة بالنباتات. لم ييد ديوبي أدنى اكتراث. مط رأسه نحوي بعد برهة، «أترين ذاك الكلب الأصفر هناك؟». قال مومناً برأسه صوب كلبٍ طويل ونحيل الساقين بشعر أشقر ضارب إلى الحمرة. «هذا الكلب سوف يعض»، صمت قليلاً. «لا أقول أنه يستطيع العض. بل قلت سوف يعض».

«أشكرك»، قلت له، وهنا خطر لي أنه ربما على الانتظار في السيارة.
«أوه، كرمى للمسيح، هيا بنا»، قال ديوى، وسار باتجاه الدفيئة. وقف بعد
ثانية وناولنى بطاقة أعمال كتب عليها:
غراس فيلو ديندرتون فريوك^(١) النادرة والغريبة.
ديوى فيسك، مزارع.

تحرك في مكانه قليلاً ثم تابع سيره نحو الدفيئة فتبعناه أنا ولاروش،
مشينا وسط عدد كبير من الأحواض البلاستيكية الخضراء وكومات من فروع
النباتات المقصوصة، وتحت سلال السرخس المجدل المعلقة. في النهاية
مررنا بصعوبة من خلف مقعد حدائق قديم متهدل على عشرات الشتول،
بما فيها شجيرات صغيرة جداً لحاؤها بروزني وأزهارها بلون زهري خفيف.
«أترون هذه؟»، قال ديوى، ماداً أصابعه صوب غرسة في أصيص من
فتة الغالون. «جمعها صديق لي في فيتنام. إنها الأمور فالوسهينرى^(٢).
وتلك؟ هناك؟ جمعها خوليوا من تايلاند. هل تذكر خوليوا يا جون؟ وهناك،
تلك الشجرة المزهرة التي يستخلص منها عطر شانيل رقم ٥». راح يفلن
محتويات المقعد ثم تناول بيده شيئاً. «يا يسوع! لست أدرى إن كان هذا
برعم زهرة أم ماذ. ما قولك يا جون؟».

كان لاروش يعاين نباتاً آخر وبالكاد رفع نظره. «حسناً، فلتذهب إلى
الجحيم»، أجابه وهو يهز برأسه أمام الشتلة التي كان ينظر إليها. «لطالما
كانت هذه الأيرويد الصغيرة مفضلة لدى».

«أرسلها لي أحدهم»، قال ديوى. «وأخبرني أنها مساملة نوعاً ما».
كانت النبتة التي رفعها عن المقعد ما تزال في يده وبيدو أنه تذكرها فجأة.
«لاروش!»، رفعها عالياً وقال هادراً. «سمّ لنا هذه».

نظر لاروش ملياً إلى النبتة ونطق شيئاً باللاتينية.

ابتسم ديوى ابتسامة مصطنعة. «أهي من فصيلة صغيرة أم كبيرة؟».

1- نباتات منزلية بأوراق عريضة - م

2- تسمى أيضاً زهرة الجثة، لونها بنفسجي ورائحتها كالجثة المتوفة - م

«دعني أرى»، قال لاروش وهو يضيق عينيه. «بحث المسيح يا ديوبي، أنا حالياً ناشر إنترنت! لم أعد سريعاً كما كنت، أزعم أنها من فصيلة كبيرة». «كلام فارغ»، قال ديوبي بنبرة متنصرة. «لقد أخفقت يا صديقي. نلت منك».

كانت ظهيرة من ذلك النمط الخامل الذي يصيبك بالدوار، كنهار يرى من خلال ستارة مخرمة، يمر الوقت فيها متکاسلاً. لا بد أنه أمرٌ مرتبط بالنباتات. كل من التقى بهم من عالم الأوركيدا لأول مرة، كانوا يؤكدون لي جميعهم أن مضي الزمن داخل الدفيئة يشكل حالة فريدة وغير واضحة - قد يمر النهار دون أن يشعروا بانقضائه حتى وهم بين شتول الأوركيدا. في تلك الظهيرة في مسكن ديوبي، ضعف ضوء النهار وخفت، ثم جاء الغسق وغاب. مر الوقت ونحن مازال نتنقل في أرجاء الدفيئة الخشبية نختار النباتات للنظر إليها، نشم الروائح، نفرك الأوراق الملساء بأصابعنا، نغمس أصابعنا في التراب، وكان ديوبي ولاروش يتوقفان كل بضع دقائق عن الكلام ليشعلا لفافة ويقفان قبالة غصن حساس أخضر لنبات ما، يسبحان الدخان بعمق ويعبران عن إعجابهما به دون كلام. لم أكن في عجلة من أمري، مع أنه كان يتوجب علي هذا. إن وجودك في الدفيئة الخشبية مبعث لراحة من المحال أن يوفرها لك وجودك بين البشر، وشعور بالحياة من المحال أن يمنحك إياه وجودك بين الأشياء عديمة الحياة، وكان الشعور في ظل غمامه نسيم المساء ساحراً كما الحلم.

قبل افتراقنا، وضعْتُ ولاروش ترتيبات لليوم التالي. تستغرق الرحلة قرابة الساعتين ونصف الساعة بالسيارة من ميامي إلى الفاكاهاتشي، وكان لاروش يود أن ننطلق قبل الفجر. «وإلا سنصل إلى هناك في وقتٍ متأخر، حيث سيكون وضعنا مع الحشرات مزرياً وسيحرقك لهيب الشمس»، قال. «صدقيني، ها أنا أحذرك. يتعين عليك أن تقليّني بحدود الساعة الرابعة النصف من فجر الغد. أو الخامسة على أبعد تقدير. سأستيقظ وأنظرك في الرابعة والنصف. وماذا عن الأكل؟ سأتولى إحضار جميع المؤن. ماذا تفضلين من الأطعمة؟».

أخبرته أني أحب الكعك، فقال. «جيد، ولكن هذا غير كافٍ. ما رأيك بالكعك مع بسكويت بزبدة الفستق إضافةً للجبين والسكاكر. وكمية كبيرة من الماء. لا بد أن نأخذ وaci شمس وملابس جافة. اسمعي، سأحضر كل المستلزمات. سأتولى أمر حاجياتنا نحن الاثنين». أخذ يعُد على أصابعه: «كعك، بسكويت بزبدة فستق، ألواح شوكولا ماركة هيرشي وجبن». «وماذا عن البوصلة؟» سأله. يستعمل الحراس البوصلات. «أم خريطة؟».

حملق لاروش في. «لست بحاجة لخريطة. أنا أتحكم بزمام الأمور. أحفظ الفاكاهاتشي عن ظهر قلب. أقصد أنه حتى تذهب إلى المكان يتعين عليك معرفته جيداً. إنه مكانٌ خطير، بكل ما فيه من حفرٍ طمي وتلك المسطحات المائية الشاسعة. قد تضيعين وتموتين في المستنقع».

نمت أثناء رنين المنبه عند الثالثة ثم استيقظت هلعة في الرابعة والنصف، تخيلت لاروش واقفاً في ممر منزله يعلق طرف سيجارته وينفث دخانها غاضباً. لم يستغرق مني تحضير نفسي أكثر من دقيقة. كنت قد وضبت ليتها الملابس الخاصة بالمستنقع - سروال ضيق وحذاء تنفس رخيص وقميص أبيض بكم طويل - ومجموعة من الثياب النظيفة كي ارتديها بعد خروجنا، وألة تصوير صغيرة كي أصور أوركيدا الشبح المزهرة التي كنت واثقة كل الثقة أني لن أراها. لبست ثياب المستنقع على عجل وهرعت مهرولة عبر ردهة الفندق، التي تكون مقفرة ومعتمة في هذا الوقت إلا من ساعة حائط مضيئة بالنيون الذهري. كذلك كان الشارع مقفرًا ومعتمًا، وسكون يسود جميع الفنادق المنتشرة على طوله. الأمواج خفيفة وتبعد أميالاً، بالكاد تلامس حافة الرمل البنية والصلبة. كان الشاطئ نفسه خاويًا إلا من صف من مظلات البحر مطوية، وكرسي شاطئي كالهيكل العظمي بلا مفرش. لا شيء أكثر غمًا من أماكن لهو خاوية، وشعرت بالفرح لدى وصولي إلى سيارتي وانطلقت على الطريق السريع كي أصطحب لاروش.

لم يكن واقفاً في الممر حين وصلت. توقعته في الردهة الأمامية، وعندما سمع صوت دخول السيارة، فتح الباب وأشار لي التزام الهدوء ثم مشى

نحوبي. كلما رأيت لاروش يتتابني ذهولًّا جديداً، يبدو لي على الدوام أكثر طولاً ونحولاً وشحوباً مما هو. يشبه بمظهره وضخامته علاقة المعاطف. بالرغم من أنه أمضى جلَّ حياته ماشياً في الغابات، فقد كان هشاً وبلا عضلات. لم تكن حالة السلام والسكينة تحيط به، بل على العكس كان لديه رباطة جأش الجبان المتحفز للهرب.

لم يكن يرتدي ملابس خاصة بالغابات، بل قبعة ماركة ميامي هوركانز، وسررواً قصيراً قطانياً مع قميص بكم قصير وحذاء رياضي. يداه خاليتان - لا كعك ولا بسكويت أو مياه أو ألواح شوكولا أو جبن أو خرائط أو مشاعل الطوارئ. سأله عن حاجياتنا، تلك الضروريات التي سنحتاجها في الفاكاهاتشي. ضرب على جيب قميصه ثم أخرج علبة مارلبورو. «ماركة جديدة، اشتريتها ليلة البارحة»، قال. «أحضرت كل ما أحتاجه».

أوقفت المحرك وجلست أحدق أمامي. نظر لاروش إلي وقال مستهجنًا. «اسمعي، لا أبالي بهذا، ستتوقف ونشتري حاجياتنا من المركز التجاري الهندي عند معبر التماسيخ. هيا، هل تريدينني أن أقود؟».

لم تكن الساعة قد بلغت السابعة صباحاً حين انطلقنا في رحلتنا، ولكن الجو أصبح حاراً في العراء. يلمع الدرج تحت النور الساطع والإسفلت الذائب حول الحفر يصدر صوت بقبقة تحت العجلات. كان لاروش يتحكم بالسيارة بنصف إصبعه على عجلة القيادة. لم يكن هذا صعباً فطريق معبر التماسيخ كان مستقيماً، يتدرج فوق الأرض مثل سجادة الممشى، إنما السبب الأكبر هو عدم اكتراه إذا ما انحرفنا عن الطريق بين الحين والآخر. كنت أعلم أنه من صنف البشر ذوي المزاج المعكر صباحاً، لكنه كان ذلك الصباح كثير الكلام. شرح لي عمله الجديد بالكومبيوتر والبرمجيات الجديدة التي يكتبها وهو مقتنع أنها ستنتقله إلى عالم الثراء. أثناء حديثه، شاهد سيارة قادمة عكس اتجاهنا ذكرته بسيارة والدته، واسترسل مستذكرةً كم كان يكدر معها في المستنقع، واستعاد يوم سارا عبر سهل متفحِّم في الفاكاهاتشي وصادفابولرهايزا إيندينيني ناصعة البيضاء في عنفوان تفتحها. أسلوبه في سرد

الحكاية جعلها تبدو كأنها حكاية جدات أو قصبة من الإنجيل - تلك المسيرة الكثيبة ب نهايتها المشرقة، رحلة أمل من الظلام إلى النور. لا يمكن لحكاية تقليدية جداً و مريحة للغاية أن تحمل هذا الانسجام بين الصراع والنصر، بل على العكس كان يمكن أن تحمل و تبرأ ثابتة من الألفة والعاده، شكلاً من أشكال الديمومة الفتاكه. لم يخطر لي قط أن أشباء لاروش كثيرون في هذا العالم، لكنني أدركت شيئاً فشيئاً أنه يمثل حالة تطرف ليس إلا، وليس حالة شاذة- معظم البشر يسعون بشكل أو باخر بحثاً عن شيء استثنائي يلتحقونه، حتى لو كان فيه هلاكهم، بدلاً من الانصياع للعيش حياة عاديه.

هنا وصلنا إلى ارتفاع بسيط في الطريق. كان المركز التجاري الهندي على يميننا. انعطف لاروش بالسيارة إلى مفرق الطريق ثم دخل المرآب.

«هاتي كل ما ترغبينه»، قال. «سأوافيك في الداخل». رکز بصره من خلال البلور الأمامي. «سيكون هذا ممتعاً، إنني مكروه هنا».

أحضرت من المخزن بعض البسكويت وزجاجة مياه، سرعان ما لحق بي لاروش، اشتري سجائر ورائقن بطاطا دوريتوس، وقفنا بعدها في موقف السيارات القائظ لبعض دقائق قبل عودتنا إلى السيارة ومتابعة طريقنا. «لم يزعجي أحد»، قال. «أمرٌ مستغرب. كل الهندو يعرفونني ويسبب قضية الأوركيدا كلهم يكنون لي الكره حالياً. لطالما توقفنا هنا ونحن في طريقنا إلى المستنقع». ظلل عينيه بيده ونظر إلى الأعلى باتجاه الطريق السريع. «أتعلمين، كان لدى مشاريع كبيرة بحق للسيمينوليين. ما كنت أريده فعلياً هو تشغيل مختبر الأوركيدا. صحيح أن عمل المشتل ممتاز، لكن المال الحقيقي كان سيأتينا من المختبر. كان بإمكاننا إكثار الأوركيدا ليل نهار، وتحويله إلى مشروع ضخم. كنت أتمنى في آخر المطاف إهمال المشتل كليةً والعمل على تطوير المختبر حتى يصبح بضمخامة صالة سيمينول بینغو. تلك كانت الخطة الرئيسية. عندها سننهي اعتمادنا على المشتل كليةً. كنا سنقوم بإكثار أوركيدا فلوريدا المحلية فقط ونبيعها بسعر الجملة في شتى أرجاء العالم. بعدها سنوسع العمل ولن نكتفي بإكثار الأوركيدا، بل سنفعل هذا مع كل النباتات. في الوقت نفسه، كنت سأدرّب فريقي على شيء من أساسيات علم النبات. كانوا سيتحققون مكافئ كبير بالفعل منه. كنا سنتتج الطفرات

والمهجنات العجيبة. سنذهل الناس. كم كان سيكون عملاً رائعاً بحق، رائعًا بما لا يقاس».

زاد السرعة عند معبر التماسيح ثم أخذ طريق ستايت رود 29، ذاك الطريق الذي يؤدي إلى ثلاثة معاابر مرتفعة للفهود، ومن أمام سجن كوبلاند رود وصولاً إلى مدخل محمية سبخة الفاكاهاتشي الحكومية. عند السرعة التي اختارها لاروش، بدت الأشجار أشبه بشرائط احتفال خضراء. عندما خفف السرعة حتى حدود الثمانين، تبدد وهج برتقالي مشوش في السماء وتحول إلى عمود دخان يتضاعد على مهل، لعله ناتج عن حريق في حقل لقصب السكر أو حادث طائرة. مررنا ببيوت خشبية مهجورة تداعت حتى استحالت أكوااماً من الحطب، ولافتات كتب عليها ممنوع المرور، تنتشر في كل مكان كالجبنية السويسرية، وقارب صدئ ملقى على جنبه في مدخل منزل أحد هم، وأسوار منحنية كالعجائز. بعدها استرعت انتباه لاروش لافتة مكتوبة بخط اليد كما على وشك أن نقطعها، شد المكابح ومد عنقه ليقرأها. «انظري إلى هذه!» هتف قائلاً. حملت اللافتة عباره: جديان، مربى جوافة وصبار للبيع. «يا له من عرض غريب تماماً، ما قولك؟» سألني. «هيا، كيف يمكن أن ينتهي بك الأمر وتبيعين هذه الأشياء الثلاثة؟ هل هذا اعتباطي، أم أنك قد تستيقظين ذات يوم وتقولين، يا حبيبتي، دعينا نتاجر بجدي ومربى الجوافة. لماذا هذه بالذات دون سواها؟ ماذَا عن الحملان والسرخس وتوت العليق؟ أو، يا يسوع، لست أدرى - الأبقار والتوليب وعصير البرتقال؟». تنهد. «يا للهراء»، تتمت بعد لحظات. «غريب جداً أمر البشر».

في الآخر وصلنا إلى مدخل الفاكاهاتشي. أخذت السيارة تخب على درب وعر ومررنا أمام منازل ومقصورات يمر بها المرء قبل أن يقطع حدود المحمية. التف الطريق حول غدير ماء ثم قطع المستنقع بشكل مائل، وسط أحجام وأحراس وأشجار تتشابك بعضها مع بعض كلفافة الصوف. كل بضع ياردات، كان هناك فرجة على طرف الطريق تفضي إلى سد ترابي بقمة منبسطة - سكة الترامواي القديمة التي شيدتها شركة ليبي تايدو وترساي برييس بعد استقرارها هنا عام 1947 لاستثمار أشجار سرو الفاكاهاتشي. كل السدود متشابهة، وكل امتداد للمستنقع يشبه ما يليه. نظرت إلى لاروش،

كانت ملامح وجهه متغضنة من شدة التركيز. أمسك بي أنظر إليه فتخللت وجهه شبه ابتسامة. أخبرني قبل بضعة أسابيع أنه يفكك باستبدال كل أسنانه التي فقدتها في حادث السيارة الذي أودى بحياة والدته، غير أنه لم يفعل هذا بعد، ولهذا ما تزال ابتسامته جوفاء، مثل سياج مفقود الأوتاد. «لا تقلقي، أعلم بالضبط أين نحن»، قال. «احفظ هذا المكان عن ظهر قلب». تابعنا طريقنا لبضعة أميال أخرى. كان الطريق مقفرًا من كل الاتجاهات. في النهاية انعطف في إحدى الفرجات وأطلق المحرك بقوة قبل أن يطفئه. أشار لي نحو أجمة خضراء كثيفة أمامنا قائلاً إنه المسار المقصود، ويستحسن بنا التحرك قبل أن تشتد حرارة النهار.

كان السد مرتفعاً وجافاً وسرنا لمسافة ميل أو اثنين قبل أن ننزل عنه. خضنا في مياه سوداء كالقهوة. كان من الصعب أن نحدد مدى العمق الذي قد نغوص فيه، وعندما لامست أقدامنا القاع، أصابني شعور في منتهى الغبطة. التف طحلب البط^(١) الطافي على سطح المياه حول سيقاننا. سكون عميق لفَّ الفاكاهاتشي، إلا أنه ليس هناك من لحظة سلام ملموسة. هنالك دائمًا ما يلطمك أو يلتف عليك أو يعيق حركتك أو يعلق بسيقانك، وأشعة الشمس تواصل انهمارها على جلدك، ورطوبة الجو يجعل شعرك مبرومةً كسلك الهاتف. في المستنقع لا تشم أبداً هواءً عاديًّا - تعبق في أنفك رائحة الوحل النفاذة، وحموضة أوراق الشجر المتغترة، والمسك النقي لأوراق الشجر المبرومة حديثاً، وعبر ملايين الأزهار المتنوعة العائمة، كل منها لها خصوصيته، لكنها شفافة كففاعة الصابون. أكبر رقم في العالم لن يفي بكبره كي يحصي ما تقع عليه عيناك هنا. كل بوصة من الأرض تحمل قشة من عشب طويل أو غصن أو شجرة، كل غصن أو شجرة محاط بجذور نباتات أخرى، وكل جذر تعلوه زهرة أو سرخس أو بصلات متتفحة، وكل زهرة وسرخسة هي محور يطوف حوله عالمٌ من نحلٍ ويعاسيب وعنакب وبعوض ماء. تسمع أصوات تقصُّف العيدان تحت قدميك، صفير حركة الأغصان

1- حشائش تنمو في المياه الآسنة - م

وحفيق الأوراق، رقرقة المياه المناسبة على جذوع الأشجار العتيقة، جلبة تثيرها كل ما يمكن للخيال ولا يمكن أن يرسمه من حشرات وزقزقة وتغريد وصفير أجناس الطيور كافة. ثم كل تلك الأصوات المبهمة لمخلوق يتحرك بسرعة زاحفاً على الأرض، لعله بحجم حصان على هيئة عطاءة، أو لعله بحجم وشكل ثعبان بصفاته الأساسية. في المستنقع، يساورك شعورٌ كأن أحدهم أقحم جميع أحاسيسك في مقبس مصباح. المستنقع بليد وإيقاع حركته بطيء، إنما في الوقت نفسه يصعب التحفيز حتى حدود الإفراط. حتى في عمق المواقع المعتمة والقائمة فيه، من السهل أن تبقى متيقظاً.

أول أوركيدا شاهدناها كانت أوركيدا فراشة، إينسايكليا تامبينسيس، تنمو في فروج جذع شجرة المران الباسق. شتلة صغيرة تحمل بصيلات كاذبة بلون أخضر لمعان، زهرتها صفراء اللون لها شفة بيضاء معروفة بالأرجواني. بعدما أدلّني لاروش على الزهرة، أشعل لفافة وأطبق عليها أسنانه. «يا لها من مغفلة صغيرة جميلة، ما رأيك؟» سألني، وهو يتفحص الزهرة. «جذابة»، عبرت عن إعجابي بها من بعيد، إذ شعرت أن الأرض تميد تحتي أثناء تحركي باتجاه الشجرة، ولو لا أن مياه المستنقع كانت حتى خصري لكنت أكثر سعادة. تحولنا شمالاً ومضينا نحو خوض في طريقنا. كان المسير بطيناً. المياه عميقه وطمي القاع كثيف، وكل خطوة كانت تكلفنا جهد ثلات خطوات فعلياً - خطوة معاينة بهدف تحسين وجود التماสح وأخرى لتفادي التعرّض بتنوءات السرو، تلك الكتل الخشبية المتشققة الشبيهة بالساق التي تخرج من جذور أشجار السرو كي تساعدها على التنفس. والأخيرة هي الخطوة الحقيقة. بعد ساعة المشي البطيء عبر المياه، انتقلنا إلى أرض مرتفعة قليلاً، حيث سلكتنا مساراً من جريد النخيل والفروع الساقطة المنقوعة تماماً ب المياه المستنقع لدرجة أنها كانت تقصف تحت أقدامنا. توقف لاروش تحت شجرة بلوط الغار المستنقعي، تكسوها العرائش. «قبيل نهاية رحلة عملني في النباتات، أصبحت العرائش المزهرة هي شغفي الجديد»، قال. «يؤسفني القول إنه كان حباً من طرف واحد». عبس لبرهه ثم انتبه لوجود أوركيدا محارية صغيرة تنبت على شجرة قريبة أرادني أن أراها. «لقد أريتك

اثنتين حتى الآن»، قال متحمّساً. «السوف أريك اليوم كل ما ترغبين به من الأوركيدا. سوف أريك أوركيدا الشبح الحقيرة حتى لو كلفني هذا مقتلي». بعد عدة دقائق، توقف ومد يده بحركة انتصارية صوب شجرة قشطة تنمو عليها جذور أوركيدا الشبح وتشعب على غصن واطئ. أعجبني منظر الجذور، اخضرارها البراق وشكلها كالأنابيب المطبقة، وطريقة التفافها حول الجذع وكأنها ضماد. «يبدو أنها كانت مزهرة»، قال لاروش. «لابأس، هناك المزيد لنراه. سوف نرى إحداها مزهرة بالتأكيد». درنا حول حفرة بالوعة، ثم مررنا عبر نفقٍ من نخيل الملفوف، ودخلنا أجمة من الصفصاف. توقفنا قبالة شجيرة. «ها هي الأوركيدا القبيحة»^(١)، قال لاروش وهو يمد يده إلى الأعلى. «إيديندروم الجامدة، القبيحة. لكنني لست متعالياً، لطالما كنت عاشقاً لكل أصناف الأوركيدا، وليس فقط الجميل منها. عندما كنا نصطادها، كنا نأخذ المميزة والعاديّة، لم يقتصر صيידنا على أوركيدا المعارض. برأيي كلها رائعة».

في تلك الأثناء، كانت قد مضت عدة ساعات مذ انطلقنا بالمسير وارتفت الشمس فوق الأشجار. اشتد الحر، وتجمعت حولي غمامات من البعض. تصبّيت عرقاً حتى أصابعي. وجدت نفسي وسط شبكة من العيدان وسعف النخيل والبردي، تحيط بي من الأمام والخلف وكل الجهات، فوقي ما يشبه مكنسة من نباتات البروميليه وجذوع الأشجار الرمادية. كانت الأرض بارتفاع طاولة البيلياردو. لم أعد أحتمل، سأله إن كنا قد اقتربنا من أوركيدا الشبح. «بتنا على مقربة منها»، قال لاروش. «اتبعيني فحسب». تحرك في أحد الاتجاهات ثم توقف وغير مساره، ليعود ويتوقف ويغير الطريق مجدداً. وترني تحركه هذا. «لاروش»، قلت له. «هل لي أن أسألك سؤالاً شخصياً؟».

التفت نحوّي وقال حانقاً. «لم نته، إن كان هذا ما تزمعين سؤاله، الطريق من هنا. مررنا عن يمين هذه الشجرة من قبل، أليس كذلك؟». كان جذع الشجرة التي قصدها ثخيناً ومتكتلاً وأوراقه خضراء - نفس ثخانة الجذع

وتكتله والأوراق الخضراء التي تملکها عشرة آلاف شجرة أخرى على الأقل من أشجار الفاكاهاتشي. مشى عن يسار الشجرة التي قصدها، سرت خلفه. أصبحت متيبة وخرقاء. بدأنا نسير برعونة وسرعة أكبر، نحدث جلبة أثناء اندفاعنا من تحت الشجيرات ونطرطش ماء فجوات البوالع. خالجني إحساس قوي أننا نسير في متاهة. تبلغ مساحة الفاكاهاتشي ثمانية آلاف فدان، وكنت واثقة أن المرء يمكن أن يضيع في كثير من المتاهات ضمن مساحة ثمانية آلاف فدان، دون أن ينجح في الخروج منها.

وصلنا إلى فرجة صغيرة ترابها جافٌ بمعظمها، ولذا فقد توقيتنا لنأكل شيئاً ونتباحث حول موقعنا. الواقع أننا كنا تائهين، كان لاروش يعلم هذا وكذلك أنا. «لم نته»، قال لاروش. راح ينبش بحثاً عن لفافة تبغ. «لقد درنا في نفس المكان قليلاً. بكل الأحوال، إليك ما ستفعله». حرك الأشياء الموجودة على الأرض حتى عثر على غصن قصير ومستقيم. «سوف أرسم مزولة»، شرح لي ما سيفعله. «سأغرس هذا الغصن عمودياً وننتظر بعض دقائق، عندها سنعرف اتجاه مسار الشمس. هدفنا التوجه باتجاه الجنوب الشرقي». نظر إلى. «هذه ليست بمشكلة كبيرة».

غرس العود في التراب وقرفص على عقبيه. «أتعلمين، خطري لي أنه لأمر رائع حقاً أن يكون هناك متزه ترفيه صغير من الأوركيدا»، قال. «حال من الأفاسي والمخلوقات المتحركة، لا شيء فيه سوى الأوركيدا، شكل من أشكال سافاري أوركيدا». وضحك. «شعوري كل شيء ممتع، لا سيما إذا احتوى ولو على فرصة ضئيلة لكسب المال». مط ساقه وأوقع المزولة عن غير قصد. بدون عناء، عثر على قصة أخرى من الغصن وغرسها في الأرض.

«هل لديك هواية بجمع شيء ما؟» سألني.

«ليس بالمعنى الحرفي»، قلت له.

«لا يتعلّق الأمر بهواية الجمع نفسها»، مضى لاروش قائلاً. « وإنما الاستغراف في شيء ما، والتعرّف عليه وجعله جزءاً من حياتك. شكل من أشكال الميل». وصمت عند كلمة «ميول» ثم عاد واسترسل. «إن حصل أحدهم على نبتة لا أملكها، أبدل ما بوسعي للحصول عليها. الأمر

يشبه الإدمان على الهيرويين، سائق مالي على النباتات. عندما كان لنا أنا وزوجتي مشتلنا، كان لدينا أربعون ألفاً من النباتات الفائقة الجمال». «من نباتاتك المفضلة؟».

حفر التراب بکعبه. «أظنها كانت من البوسينيير جيا أورناتا^(١) الصغيرة، شتلة زنجيل صغيرة بعثها لي أحد أصدقائي من نيوزيلاند. لقد جمعت لأول مرة قبل مائة عام، وأظنها كانت الشتلة الوحيدة المزروعة في مشتل. أوراقها دائيرية صغيرة، بلون ضارب إلى البني، وعليها أشكال سهمية فضية اللون. أقسم أنها كانت تبدو كأنها مصاغة من الكريستال. وطرحت زهرة برتقالية كبيرة مذهلة أيضاً».

سألته إن كانت ما تزال عنده. «لم يعد لدي أية نباتات»، قال بنبرة حادة. «لقد بعثتها بتسعمائة دولار وأرسلت عقلة منها إلى حدائق كيو». «يبدو أن المزولة لا تنفع».

نظر إليها وزمَّ عينيه ناظراً باتجاه الشمس، ثم ضيق عينيه ونظر إلى قائلاً «لا بل نافعة جداً».

هبت موجة ريح قوية، كأنها خارجة من عادم متجر لخبز البيتزا، حارة ومشبعة برائحة زيتية. بدأ وجهي ينبعض، شعرت باضطراب شديد، شأنى شأن الكثيرين من مستكشفي الفاكاهاتشي: بدا المكان ضارباً ومنعزلأً. في حوالي الساعة الثالثة، لم يعد هنري قادرًا على تمالك أعصابه ورأينا ييكي، كان أعجز من أن يخبرنا عن السبب، في قمة ذعره. كنت أستميت توقاً لرؤيه أوريكدا الشبح مزهرة، كي تكتمل الدائرة، كي أجد منطقاً لكل ما كنت أقوم به في فلوريدا، ييد أن رغبي لحظتها في عدم إمساء ليلتي في المستنقع كانت أعمق بكثير. انتابتني أيضاً رغبة عارمة في قتل لاروش، أن أذبحه فعلينا وأترك جثته هنا، ليس لأن الإجرام من طبعي أو تربيري، ولا لاعتقادي أن هذا سيساعدني على إيجاد طريق خروجي من هذه السبخة، بل لمجرد سخطي عليه وشعوره باليأس وتشكل كم هائل من طاقة عصبية اعتملت في داخلي. لم تكن المزولة ناجعة بالتأكيد. سمعنا صوت خشخše بين الشجيرات،

هوى غرابٌ من الأعلى ونعق. قبل مائة عام، جاء الباحثون عن الريش إلى المكان وجمعوا من الريش ما يكفي لزينة عشرة آلاف من القبعات النسائية الدارجة. إذا ما تدخل أحد الحراس في عملهم كانوا يجهزون عليه. «فيما يخص العمل في مجال الكمبيوتر». قال لاروش، «أحب انغماسي فيه مع أنه مخلوق غير حي قد يحيا أو يموت أو ما إلى ذلك. أحب التعامل مع أقل عدد من الأشياء الحية التي على القلق بشأنها في حياتي قدر الإمكان».

«جون، هل هنالك حقاً أشياء حية أنت تهتم لأمرها؟» سأله.

«أجل، حسناً، صديقتي وأبي»، قال. «لدي أربع قطط أيضاً - بوفى وزبى وبيل وبوب، هذا كل شيء حالياً. لست أدرى إن كنت سأحتمل العناية بالبنات من جديد».

فجأةً شعرت بالرثاء لحاله، بسبب انكسار قلبه المتكرر، ثم شعرت بالأسف على كل شيء، على أولئك الذين خرجوا خالي الوفاض من معرض الأوركيدا، مع أنهم جهزوا نباتاتهم واعتنوا بها جيداً، بالأسف على الأسلوب الذي حُرِّثَ فيه الفاكاهاتشي وأحرقت وجردت من مخلوقاتها، وبالأسف على كل من اشتري قطعة من الجنة المتخيصة في المدى الموحل لمنطقة بلوكس، وعلى السيمينول الذين تمنوا لو أنهم ما زالوا يعيشون في تجمعات قبلية في الأرضي الرطبة، على جميع لاعبي البينغو المحتشدين في الكازينو، وعلى المئات والمئات من شتول البروميليه إيلين التي استحالت قبحاً وتخلصوا منها، وعلى ليبي مور، الذي كان آنذاك في طريقه إلى جاكسونفيل مع أوركيداه في سيارة الفان، لكنه وبدلاً من رؤية رتابة الطريق القاطع للولايات أمامه كان يحلم بمدينته الذهبية في بيرو، وعلى كل إنسان انجذب يوماً لشيء ما ثم خاب مسعاه. شعرت بالأسف على نفسي لضياعي في سبخة الفاكاهاتشي عاجزة عن معرفة ما يمكن أن أفعله. مثل كل الأحزان التي تبدأ مؤلمة وتخبو لتحول إلى شعور أقل حنقاً، قررت بعدها على حين غرة أنني أفضل السير، بصرف النظر عن الطريق الذي سنسلكه، على الجلوس هنا حانقة بلا حول ولا قوة، وعقلني يدور كعجلة غارقة في الرمل. كنت أعلم أن لاروش يريدني أن أرى أوركيدا الشبح قدر ما كنت أريد ذلك أنا نفسي وربما أكثر، لكن أقصى رغباتي حقيقةً كانت

الآن أن أعود إلى المنزل. أدركت لحظتها أنه كان خيراً لي عدم رؤيتي لزهرة الأوركيدا أبداً، حتى لا أصاب بالإحباط البة، وحتى تبقى شيئاً أظل أتوق إلى رؤيته ما حبيت.

«حسناً، اللعنة على المزولة»، قال لاروش. «سوف نمشي بخط مستقيم فحسب وسنصل في النهاية إلى هناك. ما أقصده أننا سنصل ولا بد إلى مكان ما، خارج هذا الموقع. أقصد، من الناحية المنطقية، لا بد أن نخرج إذا مشينا بشكل مستقيم. لقد فعلت هذا ملايين المرات. كلما عاكستني كل شيء أقول لنفسي، تباً، وأمضي قدماً باستقامة».

خرجنا من فرجة الغابة وعدنا إلى منطقة الشجيرات الكثيفة. كانت فدادين وفدادين من المساحات المتشابهة، فيها من المخلوقات الحية ما لا يجعلك قادراً على الانتباه ولو لأحدها، ولم تتبه لأي منها. مضينا بطريق مستقيم قدر استطاعتنا ولأطول مسافة ممكنة، نراوغ النباتات المعرشة، ومن تحت قبة من الأغصان المتشابكة، والأشجار العتيقة الراسخة. تجربة من الروعة الحية الصرف، مكافأة، موقعٌ من الغنى لا يمكن لأحد أن يقاوم عبوره والقول لنفسه، ساعثر على شيء ما هنا. بعد ساعاتٍ أو دقائق أو زمن لا نهائي، خضنا وعبرنا آخر بركة مياه عكرة ومشينا على سد ترابي جاف. انعطفنا يميناً في بادئ الأمر، لكننا لم نر سوى المزيد منأشجار السرو والنخيل وقش الأنهر، ولذا فقد حولنا طريقنا يساراً، حيث لمحنا في أسفل السد المائل بعيد، لمحنا وميضاً انبعث من رفاف عجلة سيارة، تبعناه كأنه منارة طوال المسافة حتى الطريق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ببليوغرافيا

- كانت الكتب التالية مفيدة بالنسبة لي كمصادر:
 - حديقة الطبيعة بقلم نيلتي بلانكان. الصادر عن دوبل داي، دوران وشركائها. عام 1926.
 - سيمينول فلوريدا، بقلم جيمس دبليو كونفينغتون. الصادر عن كلية فلوريدا للإعلام، عام 1993.
 - بيع الحلم، بقلم ديفيد إي دوريل. الصادر عن كلية ألاباما للإعلام، عام 1993.
 - الإيفرغلادس: نهر من الحشائش، بقلم مارجوري ستونمان دوغلاس. الصادر عن موكيينغ بيرد بوكس، عام 1947.
 - تراث فلوريدا الشعبي الغائب عن كتب التاريخ!، بقلم فيرنون لامي. منشورات ستار، 1973.
 - نباتات أوركيدا فلوريدا الأصلية، بقلم كارليل ليور. صادر عن حدائق نيويورك النباتية، 1972.
 - حكاية هنود فلوريدا من السيمينول، بقلم ويلفريد نيل. صادر عن منشورات غريت أوتدور وشركاه، 1956.
 - تاريخ الأوركيدا، بقلم ميرلينينيكا. موسوعة تايمبر بريس للنباتات، 1995.
 - أسرة بابافوتشرز 1881 - 1981، بقلم دوريس سيلفر. منشورات جين فوتشز ويلسون، 1982.

- فريدريك ساندر: ملك الأوركيدا، بقلم آرثر سوينسون. منشورات هوذر، 1970.
- آخر جبهات فلوريدا، بقلم تشارلتون دبليو تيتو. صادر عن كلية ميامي للإعلام، 1957.
- رجل في الإيفرغلادس، صادر عن كلية ميامي للإعلام، 1997.
- صيادو النباتات، بقلم مايكيل تايلر وايتل. صادر عن ليونز & بورفورد، 1997.
- أسطورة أوسيولا ، بقلم باتريشيا آر وايكمان. صادر عن كلية الإعلام في ألاباما، 1991.
- في رحاب الإيفرغلادس: رحلة استكشاف بزورق الكانو 1898 ، بقلم هوغوي لوغبي. صادر عن مكتبة فلوريدا للكلاسيكيات، 1992.
- الكريك والسيميون، بقلم جي ليتش رايت الابن. صادر عن كلية نبراسكا للإعلام، 1986.

دليل القاري

حوار مع سوزان أورلين مؤلفة كتاب سارق الأوركيدا
س: ما هو السؤال الذي تتمني لو طرح عليك ولم يطرح؟

ج: ما من سؤال أتمنى لو سُئلته. ثمة سؤال أتمنى لو استطعت الإجابة عنه: ما هي مجريات العملية الإبداعية؟ يسألني الناس في أغلب الأحيان، من أين نهلت في الحياة هذه الفكرة الخلاقة؟ وأتمنى لو أستطيع الإجابة، إذ إنه أمرٌ بديهي للغاية، سيبعث على الارتياب حسب ظني تخيل أنها لم تكن بمحض الصدفة، وأن ثمة سيرورة خاصة جداً تتم الكتابة من خلالها، لكن هذا غير صحيح.

س: كان جنين هذا الكتاب هو تقرير نشرته في صحف فلوريда. بعدها قمت بكتابة مقال عن الموضوع لمصلحة النيوبيوركر. ما الذي جعلك تقررين أنه يستحق 282 صفحة؟

ج: مذ بدأت الكتابة عن الموضوع في النيوبيوركر، شعرت كأنني أقشر بصلة. كل جانب من جوانب القصة بدا لي أثري مما تصورت. على سبيل المثال، على ضفاف الفاكاهاتشي، حيث جرت عملية السرقة بالأساس، سألت أحد الحراس عرضاً كم مضى على اعتبار المنطقة محمية طبيعية، وكيف كان وضعها قبل تصنيفها ك محمية، وسمعت حكاية كاملة عن عمليات الاختيال في أرض فلوريدا وشعرت أنها حكاية عجيبة. راقت لي فكرة التركيز على حدث واحد، أمرٌ محدد للغاية وفحصه بدقة وعمق بدلاً من حدث كبير ومشتت. كانت تلك مهمة، أي التركيز الشديد على حدث وتأليف كتاب عنه.

س: يستند عملك المنشور بкамله إلى أحداث واقعية؟ تحقيق صحفى.
هل خطر لك يوماً كتابة تجاريتك على شكل روائي؟

ج: لم يحدث هذا. يسألني الناس عن هذا، غير أننى أظن أن الحياة الواقعية مثيرة للاهتمام. لا أظنبى أستطيع تخيل شخصية بغرابة وسحر جون لاروش. كما أعتقد أن ثمة تخصصاً يعنى بالقصص الحقيقية وإشراك القارئ بها. ينبغي عليك التعاطي مع ما هو موجود بالفعل. هذا تحدّى أعظم من التفكير، «يا للهول، سينجح العمل أكثر إذا دخل السجن لمدة عام؛ أظنبى سأدخل السجن لمدة عام». ولكنه الواقع هنا بدلاً من هذا.

إضافة إلى أن هناك جزءاً مني يميل للجانب البيداغوجي في الكتابة. يعجبني التصدى لنقل المعرفة إلى القراء، مادة لا يعلمون أنهم يرغبون في معرفتها فعلياً.

س: أحد المواضيع التي يتطرق إليها الكتاب هو: ما هي طبيعة الشغف، كيف يمكن للبشر محورة حياتهم حول هوس بعينه. هل أنت شغوفة بهواية الجمع؟

ج: كلا. أنا مفتونة بها، من ناحية لأنه لم يسبق لي أن امتلكت هذا النوع من التفاني في اهتمام واحد. لقد أدركت في نهاية الكتاب بلا شك أن لدى شغفاً فكريًا واحداً. إلا وهو رغبتي أن أكون كاتبة ومراسلة صحفية. لكنني أظن أن هذا التجدد كان لمصلحتي. أنا أصلاً لا أحب الكتابة عن أمور تستهلكني كثيراً. بالنسبة لي، جزء من عملية الكتابة هو رحلة إلى المعرفة. كانت الأوركيدا بالنسبة لي شيفرة كاملة - مجرد أزهار؛ كيف يمكن لأي شخص أن يكرث لها؟ كانت الرحلة محاولة لفهم آلية تحول البشر للاهتمام بها، ولماذا.

حين أجيتك بأنني لست من هواة الجمع لم أكن صادقة تماماً. أنا لست جامحة أو ركيداً. إلا أننى أهوى جمع أشياء عده، أنواع متنوعة من أشياء غريبة. كل ما في الأمر أننى لم أستسلم لإحساسى فقط كي أقول عن نفسي إننى من هواة جمع الأشياء. لدى مجموعة كبيرة من المقتنيات الغريبة: لقد جمعت على مدى سنوات معاجين أسنان من كل أنحاء العالم، وفخاريات أمريكية

بلون خاص، وكرات أرضية من القصدير. بدأت مؤخراً بجمع أحجار النرد. ومع ذلك لن أقول عن نفسي قطعاً إني جامعة نرد أو فخار. هناك فرق كبير بيني وبين جماعة الأوركيدا الذين يصنفون أنفسهم كشعب أروكيدا. هذا ما يميز حياتهم.

س: لعل جون لاروش هو الشخصية الرئيسية في الكتاب، لكنه ليس سوى موضوعه؛ سوزان أورلين هي موضوعه. يتحدث عنك أنت؟ شكل من أشكال السيرة الذاتية. إذا ما قررت كتابة سيرة ذاتية مقصودة، أي جانب من حياتك ستركزين عليه؟

ج: لا يمكنني حتى تخيل هذا.

يقولون لي، «أنت تصعدين نفسك دوماً ضمن ما تكتبه من حكايات»، حسناً، أنا ضمن حكاياتي التي أكتبها. الأمر متعلق بالاعتراف بهذا. الحقيقة أنني لا أكتب الأخبار التي يجب أن تنقل، اختار الكتابة عن كل ما يشير فضولي. إن خيارنا في انتقاء الموضوع الذي سنكتب عنه ذاتي محض.

س: في مجال نباتات الأوركيدا -الاعتماد المتبادل بين الأجناس، علاقاتها الطفifieة أو التي تعتمد على الأشجار للتشبث بها فحسب- هل تعتبرين ربما أن تركيزك يجب أن يكون على التغفل على رغبات الآخرين وملهاماتهم و مجريات حياتهم. على هذا النحو تكتسبين رزقك. بوصفك طفيليًّا منتشرًا في الحقيقة؟

ج: أشكرك. هدفي هو، بشكل أو بآخر، «الأسرة» (بالمعنى الواسع). لقد أنزلنا على هذه الأرض، ولا نعرف السبب وبحاجة أن نعرف كيف نجعل هذا ذا مغزى، كيف نجد محارباً مناسباً للراحة فيه. يبذل البشر أقصى طاقتهم للبلوغ هذا. قد يركزون على عملٍ أو هواية معينة كالأوركيدا، أو ربما تدفعهم رغبة معينة لجني أموال طائلة أو تربية أطفالهم بأسلوب معين. يتمثل شغفي في التمييـص في هذا وتفسيـره ومن ثم نقلـه إلى الآخرين. وبالطبع، هذه إلى حد بعيد مسألة اتصال وانقطاع هذا الاتصال، وانتماء وعدم انتماء.

س: خلف موضوع كتابك الطاغي ألا وهو طبيعة الشفـف، الفكرة التي تطفـو على السطـح بانتظام هي طبيعة الطفـيلي. وصفـت فلوريـدا بأنـها «أشـبه

بإسفنجية أكثر منها ولادة». جون لاروش نفسه يعيش على ضعف الآخرين.
ما تخمينك النهائي لمساعيه الطففالية الأبعاد؟

ج: أعتقد أن مرحلته الجديدة بكمالها في عالم الأفلام الإباحية ذات دلالة بالغة. إن كان الناس لديهم من الحماقة ما يكفي للتعاطي معه وإعطائه الكثير من المال مقابل نشر صورهم العارية على الشبكة، فسيظل يشعر أن مهمته حياته هي مواصلة شحنهم قدر الإمكان. هذا تربع طفيلي: كسب المال من نزوات البشر.

س: من خلال عنوان سارق الأوركيدا، فأنت تثيرين على الفور مسألة أخلاق جون لاروش؟

ج: هذا هو السؤال الذي ما فتئ يطاردني طيلة فترة التغطية. مرت على لحظات معينة خطر لي: إنه فعلياً مجرد شاب جشع عادي، أذكى بقليل من أي شاب جشع عادي. مع ذلك، كان لهذا الجشع منطق غريب ما. تعرّف على قانون سُنَّ بصورة سيئة جداً للدرجة أنه نجح في استغلاله والاستفادة (منه). أظنه أيضاً كان بالنسبة له أسلوباً لتبرير نهاياته الخاصة التي كانت بسيطة نوعاً ما: يرغب في الحصول على مليون دولار، غير أنه لا يريدها إذا لم تحمل تجربة الحصول عليها شيئاً من التعقيد المشوق. لا أعتقده دجالاً. أظنه شخصاً يبدو وغير قادر على العيش ضمن الحدود التقليدية التي يشعر معظمنا بالارتياح للعيش ضمنها. لعله أمرٌ مرتبط بالحاجة إلى لفت الانتباه. لا يرضيه النجاح فحسب، بل لا بد لهذا النجاح أن يكون مثيراً وغير عادي ومعقداً.

س: يتقاسم جون لاروش وكثير من الأميركيين عقلية «اللوتو» للثراء السريع. ولكن ليس كل مخططاته للثراء السريع تشعل نفس الدرجة من الشغف في أعماقه. على الرغم من أنه يعرف الاحتمالات، فها هو على سبيل المثال يتغوف مستخفًا بخشيش المرج المخطط بخطوط بيضاء الذي عرض عليه من أميركا الجنوبية بالقول «أوه، أنا لست من المعجبين بعشب المروج». لكانه يبحث عن بقرة فريسيان حلوة في حقل مليء بأبقار الهاولستاين. مثل دون كيشوت، إنه الخاسر الأكبر. هل تصنفين هوس لاروش الخاص هذا سمةً نبيلة ودون كيشوتية؟

ج: أظن أن صفة النبالة ستعطي للحالة مهابة مبالغًا فيها هنا. يخيل إلى أنه يمتلك صورة مضخمة عن ذاته. الشخص العادي سيكتفي بالشراء من شيء لا يسترعى اهتمامًا كأعشاب المرج. أما لاروش فصورته عن نفسه أوسع من حياته. لم يف بالغرض بالنسبة له سرقة شتول الأوركيدا، بل كان لا بد للمجلس التشريعي لولاية فلوريدا من إيقاف جمود مساراته وإعادة صياغة القانون، مقرأً بما اقترفه لاروش.

يعتبر خاسراً إن أنت قارنته بمعايير النجاح الطبيعية. حسب قناعته الخاصة فهو ليس بخاسر، إذ إنه فعلياً يحيا الحياة على سجيته.

س: تصورين فلوريدا كأنها أميركا المثلالية، أرض الفرص، ومع ذلك يشعر المرأة بإحساس قوي أنك لا تجدين رفاهيتها أكثر من ابتدال بقليل. هل حافظت على إحساسك بالبقاء كينونة منفصلة و مختلفة، أم حدث أن حاصل بك خطر أن تتورطي وتتصبحي جزءاً من الغشاوة الغربية؟

ج: سابقى على الدوام غريبة عن فلوريدا، فأنا لست ابنة الطقس الحار. حسب اعتقادى، إن كنت تريد أن تتعلم كيف تصبح «فلوريدياً»، عليك أن تتعلم التماهي في مشهد فلوريدا الطبيعي. من جهة أخرى، أعتقد أنني شخص نموذجي في فلوريدا. لقد توجهت إلى هناك بحثاً عن كنزي الخاص. شأنى شأن الكثيرين، ذهبت إلى فلوريدا وفي ذهني مخطط: رغبتي في تأليف هذا الكتاب، عن حدثٍ فريدٍ من نوعه جرى فيها. لكن تواصلي كان مؤقتاً. لقد ذهلت حين كتبت وأنا هناك أكثر من نصف دستة من المقالات بلا أي عناء. بعضها عن واقعية الأمور الغربية والمثيرة التي تحدث في فلوريدا. مكانٌ أشبه بحساء يغلى. نمط الحكايات التي حدثت في فلوريدا وأثارتني، أناسٌ يبدأون حياتهم الجديدة، ويخلقون مجتمعات جديدة.

س: دعينا نتكلّم عن حالة التخفّف التي شعرت بها حين تأكّدت أنك لن تشاهدِي أوركيدا الشبيح بعد كل ذلك العناء. تدخل القدر وأعمال مخيبة، وكنت ممتنة. هل تديررين حياتك على هذا النحو؟

ج: هذه مسألة لا تغيب عن ذهني البتة. أحارُّ أن أفهم هل من مصير وقدر مكتوب أم أن الحياة خبط عشواء محضة. ما نشده نوعٌ من التنظيم

والمنطق في التجربة العشوائية واللامنطقية لوجودنا في هذه الحياة. تظن نفسك قادرًا على إيجاد موطئ قدم صغير يجعلك تظن أن ثمة منطقاً و شيئاً من النظام في حياتك. كم هو مثير للسخرية مدى توقينا إلى هذا. أكادأشعر بالسعادة لأن لدى عراقة تقول لي، «لا شيء سيحدث حتى كانون الثاني»، وذلك لشعورني بالارتياح من هذا الترقب. لا أصدق أننا نحيا بدون خطة موضوعة لنا تجري باستمرار أمام أنظارنا. يعزينا أن نفكر أن ثمة شيئاً ما. أستغرب أحياناً كيف انتهى بي المطاف ككاتبة. يبدو لي، من خلال النظر إلى الوراء، أنه محظوظ تقريباً. بالمقابل فأنا لست واثقة. هل أؤمن بهذا؟ أم، أنسنا جميعاً حصيلة ابتكارنا لخياراتنا وقراراتنا؟

س: هل ما زال لديك الرغبة، غير المتبدلة كما ظهر في نهاية الكتاب، برؤية أروكيدا الشبح؟

ج: حالياً أصبحت أخشى قليلاً رؤية إحداها. لقد غالبت لفترة طويلة باعتقادي أنني سأرى الزهرة، ولكوني أحببت مراراً وتكراراً، لدرجة أنني على مشارف ختام التغطية الصحفية، بدأت أفكر أنه خير لي أن لا أراها. ما كانت لتطابق قط مع كل توقعاتي بشأنها. اتصل بي أحد حراس الفاكاهاتشي بعد صدور الكتاب قائلاً، «إن كنت ترغبين برؤية أروكيدا الشبح، سوف أصبح بك لرؤية إحداها. سأتصل بك عندما أعلم أن إحداها قد أزهرت، يمكنك المجيء وقتها». وعرفت أنني لم أعد راغبة بهذا. أحب تخيلي لها فحسب، شيء بعيد المنال ولا يقاوم. يساورني الشك هذه الأيام أنني سأرى زهرة أروكيدا الشبح. سيكون أمراً مبهجاً إذا ما حدث صدفة.

س: هل قابلت أو تحدثت مع جون لاروش بعد صدور الكتاب؟

ج: لم أره. لقد تحدثت معه، في الواقع هو من اتصل بي بعد صدور الكتاب مباشرةً وقال، «ممتناز، لقد قرأت الكتاب».

أجبته، «ممتناز»، وبشكل طبيعي كنت متخففة بعض الشيء. لم أكن واثقة من رد فعله فالصورة ليست مرضية بالكامل.

وقال لي بأسلوبه المعهود، «أتعلمين، إذا قمت بتأليف عدة كتب أخرى، فقد تنجحين أن تصبحي كاتبة مميزة جداً».

س: لا يصور الكتاب أبداً لاروش كشخص جذاب تصويراً واضحاً، ومع ذلك يبدو أنه يمارس عليك سلطة ما يشبه الخصم الزائف القوي من خلال الصور الجنسية السائدة في التوصيفات والأنشطة المتعلقة بالأوركيدا -تنمو في فروج شجرة المران الباسق- لاروش يشتهي الأوركيدا -الولع بالأوركيدا يصبح حافزاً للطلاق، وغيرها من الألفاظ. هل قمت بتحليل افتتانك بلا روش بعيداً عن اهتمامك الموضوعي بشغفه؟

ج: ثمة الكثير من الصور الجنسية في الكتاب، لم أدرك هذا سوى الآن. في الواقع، كان تحدياً نوعاً ما العثور على صورة أوركيدا لا تحمل بعداً جنسياً كبيراً لوضعها على الغلاف. عندما هممت بتأليف كتاب عن الأزهار، لم يخطر لي قطعاً أنه سيكون مثيراً جنسياً.

لكن علاقتنا كانت مقتصرة على مراسلة وموضوع بحث. ينشأ لديك بلا شك نوع من الألفة حيال من تكتب عنه. تمضي وقتاً طويلاً جداً بصحبة شخصياتك. تود الاستماع لكل ما يتquin عليهم قوله. هذا شكل من العلاقة المثلالية. بطبيعته، كل ما كان يتفوه به يثير اهتمامي، لأن هذا سبب وجودي هناك: التعرف عليه عن قرب. أظنكما ستتصبحان شخصين مقربين وتتصلان بقوة كل منكما بالآخر. بالعودة إلى موضوع التطفل: كل منكما يخدم غرضاً معيناً. لاروش كان موضوع كتابي. لو لا تعاونه لما استطعت تأليف الكتاب. أما أنا فكنت شاهدته التي استطاع من خلالها وصف طموحاته الحياتية ولفت الانتباه إلى تلك الطموحات. أعتقد أن أحد أكبر الأسئلة في الكتابة غير الروائية هو: ما الذي تعنيه تلك العلاقة؟ إذ تنتهي مع انتهاء الكتاب، هل هذه خيانة؟ لم يكن هناك أي بصيص من الاهتمام الرومانسي من جانبي، وأشك أنه كان من جانبه. لكنك تقيم تواصلاً غريباً. من الصعب تصوّر علاقة مشابهة لها، باستثناء علاقة الاعتراف الكنسي، على ما أفترض.

ظهر منذ سنوات مقال رائع كتبته جانيت مالكولم، تدافع فيه عن علاقة الاستغلال المتبادلة بين المراسل الصحفي وموضوعه. ينبغي علي تأييدها. هذا لا يعني أنها شر وفساد. هذا معناه فقط أن إنكار توظيف كل منكما للآخر لغاية ما وأن هذا هو سياق العلاقة، محض سذاجة. إنها ليست بعلاقة طبيعية، لا بل علاقة أبعد ما يكون عن الطبيعية. لا تقييم صداقة مع جون لاروش، بل

تقييم علاقة ضمن سياق التحقيق الصحفي. هذا لا يعني أنها مزيفة، وإنما أنت مضططر أن تكون واعياً على الدوام أنه ظرف غير طبيعي.

س: هل حدث أن وقع أحد موضوعاتك في حبك؟

ج: أجل. كنت أكن له ودأ كبيراً، لكنني فهمت ما كان يجري. دعني أوضح لك مسألة التحويل. كنت أعلم أنه يخلط بين الظرف والمشاعر الخاصة. لقد أغرم بإحساسه بالاهتمام والانتباه، بالانتباه والفضول الصادقين. شعور هائل أن تلقى من يود بكل بساطة أن يعرف كل شيء عنك، دون أن يطلب شيئاً بال مقابل. أمر يشبه المداواة. شعرت بالإطراء بيد أنني كنت أعلم كذلك أنها حالة مرتبطة بالسياق العام. تمتلك قوة سحرية من نوع ما عندما تكتب عن الناس. يغيب عن ذهني أحياناً ما معنى أن تكتب حكاية وتنشر في النيويوركر ثم يقرأها 800000 شخص.

غالباً ما أكتب عن بشير لم يكتب عنهم. ليسوا مهرة في ظهورهم الإعلامي، لم يعتادوا على هذا. بالنسبة لهم، هي تجربة لا تتكرر سوى مرة واحدة في حياتهم. لم أحضر قط سلسلة من الأسئلة. أجلس وأنصت وأراقب، أسجل الملاحظات. المودة التي تنشأ بيدي وبين الناس تجعل من ختام التجربة صادماً للغاية في بعض الأحيان. لقد تصالحت مع حقيقة أن البشر يشعرون عندها، إن لم يتعرضوا للخيانة، بنوع من الصدمة بعد أسبوعين أو ثلاثة برفقتي، بما لديهم خلالها إحساس بالتقرب.

أذكر أن أصعب حالة مررت بها كانت حين كتبت مادة عن صبي بعمر عشر سنوات. لدى انتهاءي من إعداد التقرير كنت أرژح تحت ضغط الموعد النهائي لتسليميه، وهكذا أخبرته أنني مضططرة للانصراف وكتابة المادة. سألني، «وهل ستأتيين غداً؟».

أجبته، «بالطبع لن آتي غداً. وصلت إلى الموعد النهائي». تذكرت عندها: لقد أمضيت مع هذا الطفل أسبوعين وأنا أردد، «كل ما تود أن تفعله أود أنا أن أفعله؛ سأصغي باهتمام لكل ما تريده قوله». لم أكن أكذب، كل ما في الأمر أنني انتقلت إلى المرحلة الثانية من إعداد التقرير، كتابة الحكاية. كان هذا مربكاً له ومفاجئاً للغاية. إفهام البالغين يكون أسهل، أما بالنسبة لطفل، فالاهتمام والصدقة يعادلان الاهتمام والصدقة.

س: هل سبق أن هام بك أحد مواضع كتاباتك؟

ج: أجل. كان كلب استعراض. أحببته، ولكنها كانت مقابلة مضنية.

أسئلة مجموعة القراءة والمواضيع المطروحة للنقاش

1. هل من بطلٍ في سارق الأوركيدا؟ أم هو بطلٌ غير تقليدي؟
2. هل يعتبر الكتاب ذاتياً موضوعياً؟ أم شكلاً مختلفاً كلياً؟ وصفه البعض على أنه «كتاب أدبي غير روائي». هل تصنفونه على هذا النحو؟
3. قاومت سوزان أورلين إغواء شعورها باستحواذ الأوركيدا عليها، غير أنها مستعدة للخضوع لظروف لظروف قاسية بهدف إرضاء شغفها بالعمل الصحفي. هل تظهر كتابتها شغفها بهذا بصورة واضحة؟
4. بين دفتري الكتاب، وصف الولع بالجمع كوسيلة لغرس معنى في الحياة، وإخضاع التقليبات لنوع ما من النظام، واكتساب المقدرة على صياغة وتغيير طبيعة الأمور، خلق الحياة نفسها على سبيل المثال. ما هي الوسائل الأخرى التي يطبقها البشر لتحقيق نفس النهايات، وما مدى فعاليتها؟
5. لم يقل جون لاروش عن نفسه إنه من شعب الأوركيدا. فهي بالنسبة له ولع مؤقت وإن كان شديداً، مطية تصله إلى النهاية، وليس هدفاً بحد ذاتها. كيف يمكن تحليل الفرق بين دوافع لاروش في جمع الأوركيدا وجماعيها المعتادين ممن عرفناهم في سياق الكتاب؟
6. يتنازع لاروش لفظياً مع اعتقاده بأن سلوكه في إطار ما اعتبره حدود القانون لتحقيق مكسبه الذاتي المباشر كان فعل إثارة في آخر المطاف. سوف يرغم انتهاكه للفاكماتشي القانون على التغير وسد الثغرات التي أباحت له الاستيلاء على شتول الأوركيدا النادرة البرية من محمية الهندود في المقام الأول، وبالتالي حماية الأصناف في البراري، وفي ذات الوقت تأمينها في السوق. هل هذه الآلية من التفكير تتصف بها شخصية غير أخلاقية؟ أم أنه مجرد ظاهرة احتيال يومية؟ ناقش.

7. يلقي لاروش بيانات نارية: «عندما كان لدى مشتلي الخاص، كنتأشعر أحياناً كأن جميع من يحومون حولي سيلتهموني حياً. شعرت بأنهم نبات طفيلي عملاق وأنا شجرة عائل تحضر». هل يلعب لاروش دور الضحية، الشهيد (مفضلاً الخسارة، إنما العظيمة) لغاية، أم أنه يتحكم ب حياته من خلال كسب رزقه من ضعف الآخرين، سواء مثل هذا الضعف الشغف بالأوركيدا أو المحتوى الإباحي؟ نقاش.

8. تبدو أورلين مأخوذه بقصة داروين ودراسته عن الأوركيدا ذات الغددالرحيقية التي يبلغ طولها ثمانى عشرة بوصة والفراشة التي يبلغ طول خرطومها ثمانى عشرة بوصة التي تتغذى عليها: فكرة أن شكلين مختلفين كلية من الكائنات تطور كل منهما خصيصاً لخدمة الآخر؛ ما كان لأحدهما أن يوجد بدون الآخر. ما الدليل على أن تكيف الأوركيدا قد بدل تصوراتكم عن نظرية التطور؟

9. تقطع أورلين سياق السرد عن جون لاروش بحكايات قديمة عن صيادي الأوركيدا، وولاية فلوريدا المعاصرة وأحداث تاريخية أخرى. كيف أثر هذا على إيقاع العمل؟ هل كان إطار العمل الذي ابتكرته ناجحاً؟

10. لقد أعفي سكان أميركا الأصليين من الهنود من تشريع منع نقل الأصناف المهددة بالانقراض من الأرض. هل لهذا القانون ما يبرره؟

11. تبدو أورلين مندهشة من غزارة الإحالات الجنسية للأوركيدا في كتابها. مع أن الزهرة تعتبر عضو التكاثر الأساسي لدى النبات. ابحثوا عن محل زهور يحتوي على تمثيل جيد لنباتات الأوركيدا. ما هي الأوصاف البديلة التي يمكن ابتداعها لهذه الزهور الغريبة؟

12. أين يكمن جوهر الكتاب الحقيقي، ومن هي الشخصية المركزية: أهي لاروش؟ أم فلوريدا؟ أم الأوركيدا؟ أم الأميركيان الأصليون؟ هل هي داروين أم أورلين؟

13. كقارئ، ما الذي كنت تنتظره من كتاب حول الأوركيدا؟ كيف تقارن بين تجربتك في قراءة سارق الأوركيدا بتجرباتك المسابقة؟

14. كان عنوان سارق الأوركيدا هو «الشغف». لماذا يوحى هذا العنوان حول محاور الكتاب؟

15. ما الذي يمكنه، إلى جانب الأوركيدا، إنشاء كتاب كهذا؟ هل هناك ثقافات فرعية أو مواضيع أخرى من الرغبة لها نفس القدر من التحرير؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

حول المؤلفة

كانت سوزان أورلين ضمن كتاب النيو يوركر منذ عام 1992 وعملت أيضاً لمصلحة *Vogue*, *Rolling Stone*, *Esquire*, *outside*. تخرجت من جامعة ميشيغان وعملت مراسلة في بورتلاند، أوريغون، وبوسطن في ماساشوستس. تعيش حالياً في مدينة نيويورك.

من مؤلفة سارق الأوركيدا الأكثر مبيعاً
صورة غلاف (ما أفضله من الأماكن)
«عمل جذل... مليء بالدهشة وحس الدعابة العجيب».

Entertainment Weekly –

«سواء كانت تتسلق جبل فوجي، أو تمد ساقيها مسترخية في متجر هنغاري، أو تستكشف برايري جاكسون في نيو جرسى، فإن أورلين، صحفية النيو يوركر، تعرف كيف تستمتع بوقتها. ها هي في قمة لعبتها هنا، تعتصر التسلية والتحقيق من أغرب المنعطفات.

Condi Nast Traveler –

«هذا كتاب جديد ممتع وشيق في جلّ صفحاته... لقد تفوقت أورلين في الوصف المادي والشخصيات. ما إن تقلب عدة صفحات من سارق الأوركيدا، حتى تشعر بنفسك وقد غمرتك رطوبة فلوريدا».

- ميمفس كوميرشال أبيل

«سارق الأوركيدا من أجمل ما قرأت منذ سنوات في أدب الواقع: شخصياتها مثيرة للغاية وغريبة على نحو رائع لكانها تخرج من الرواية، إلا أن هؤلاء بشرٌ حقيقيون. تحمل سارق الأوركيدا في طياتها كل ما نتوقعه من عمل أدبي مثالي. تفتح أعيننا على عوالم جديدة غير عادية وتحرك مشاعرنا حيال بشر العالم مليء بهم. تعتبر سوزان أورلين كاتبة صاحبة موهبة عظيمة. سوف أتبعها حيالما كانت».

- جيمس دبليو هوول

«عملٌ غامض بشكل يدعو للعجب، وشهوانية على نحو غريب... تحوك أورلين قصة عن الجش، والحماية الفيدرالية وشهوة مدققة الزهرة. وهي قصة مقنعة بلا تكلف كما هي أعمال رaimond Tshandilir البوليسية».

- فيلاديلفيا سيني بابر



- سان بطرسبورغ تايمز

telegram @soramnqraa

